يسألونك

في الدين والحياة

تأليف

الدكتور أحمد الشرباصي
الأستاذ بجامعة الأزهر

المجلد السادس

دار الجيل
بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على جميع أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذى هو خير :

(ربنا عليك توكلنا ، وإليه أنبنا ، وإليك المصير)



يسألونك

في الدين والحياة

قَبَسٌ مِن كِتَابِ اللهِ

"لَا يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا
إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا
مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ، أَنْتَ
مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ".

[سورة البقرة]



تصدير

تباركت وتعاليت ، ياصاحب الكرم الواسع والفضل العميم . . .

أعترف أنى عاجز عن شكرك ، مقر بتقصيرى فى حقك ، نادم على تفريطى فى واجبك ، لاجئ من نفسى إليك ، عائذ بحماك وجنابك ، سائل إياك بعجزى أمام قدرتك ، وبجهلى أمام علمك ، وبضعفى أمام قوتك ، أن تغفر لى زلاتى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ياغفور يارحيم .

* * *

ياإلهى . . . هذا هو المجلد السادس من موسوعة : « يسألونك فى الدين والحياة » ، وقد سبقت إخوة له ، أطمع فى كرمك أن تجعلهم وسائل إلى عفوك وغفرانك ، فالفضل منك وإليك ، والاعتماد كله عليك .

إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء ، وهو صاحب الفضل العظيم .

لولا هداية الله وعنايته لضل الإنسان الطريق ، وضاعت منه أسباب التوفيق : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) .

والله هو المنعم المتفضل بالعلم والرشاد ، وله الحمد كل الحمد أن جعلنى بمنه وكرمه ضمن مَنْ علمهم وقوّمهم ، وشرّفهم بأن يكونوا من أتباع

النبي الخاتم الجامع محمد عليه الصلاة والسلام : (وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما) .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب) .

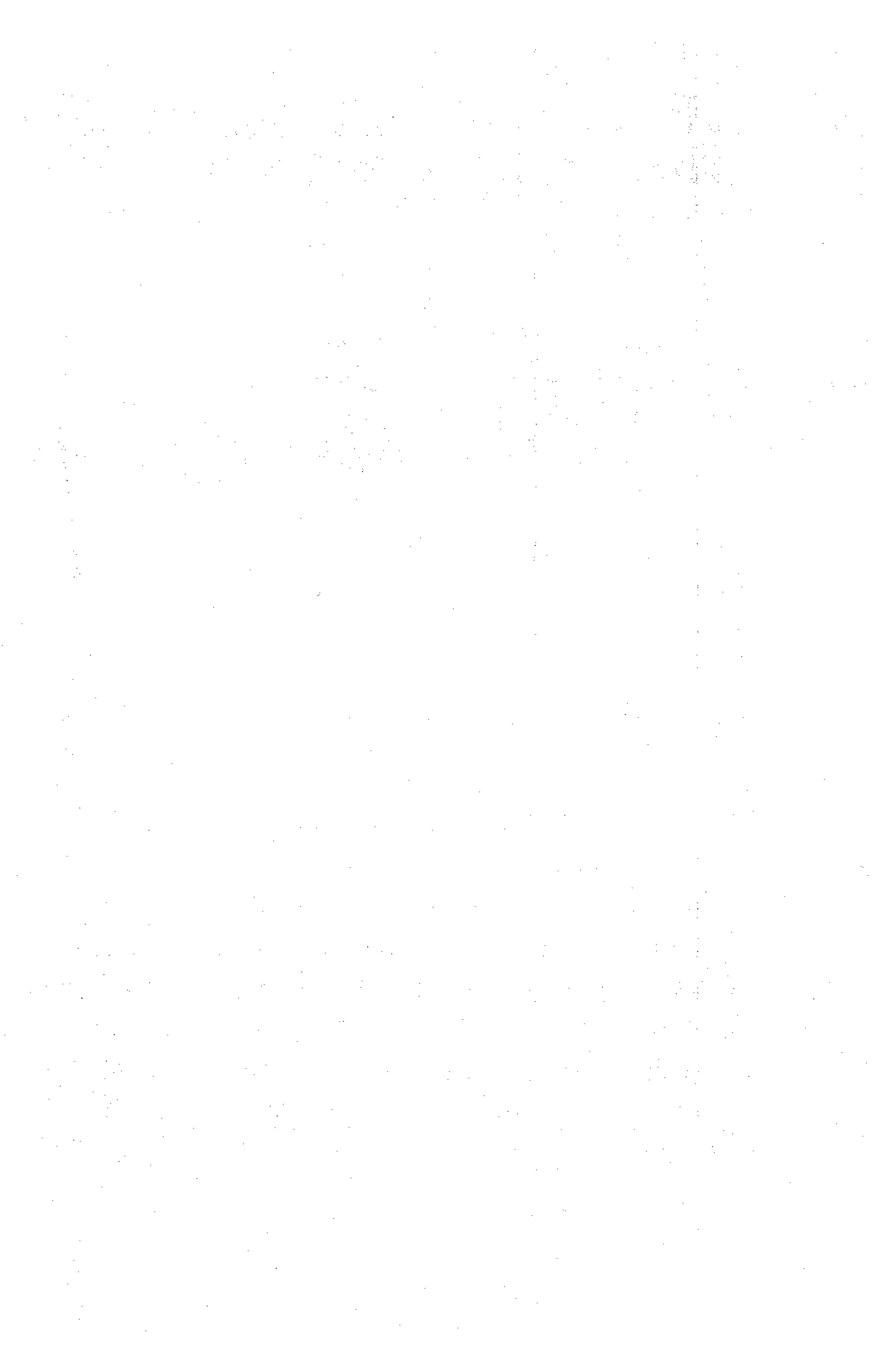
(وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) .

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم) .

وعلى الله قصد السبيل .

أبو حازم
أحمد الشرباصى

الطَّهَارَة



الماءُ الصالح للوضوء

السؤال :

ما هو مقدار الماء الذى لا يصلح للوضوء إن تغيرت رائحته أو لم تتغير رائحته ؟

الجواب :

أباح الإسلام التطهر ، سواء أكان وضوءاً أم اغتسالا من المـــاء المطلق، كماء المطر لقول الله تعالى : (وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به) [سورة الأنفال]

ويقول فى سورة الفرقان : (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) . وكذلك يجوز التطهر بالمـــاء المتغير بطول المكث أو مخالطة ما لا ينفك عنه غالباً كالطحلب وورق الشجر ، فهذا أيضاً يدخل فى المـــاء المطلق .

وبعض الفقهاء يرون أن المـــاء المستعمل المنفصل من أعضاء المتوضئ والمغتسل طهور كالمـــاء المطلق سواء بسواء .

وكذلك إذا اختلط المـــاء بطاهر كالصابون والزعفران والدقيق ، فحكمه أنه طهور كالمـــاء المطلق .

وأما الماء الذى لاقته النجاسة فله حالتان : الحالة الأولى أن تغير النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه ، فنى هذه الحالة لا يجوز به الوضوء أو التطهر . والحالة الثانية أن يبقى المـــاء على إطلاقه بألا يتغير أحد أوصافه الثلاثة ، وحكمه أنه طاهر مطهر سواء أكان قليلا أم كثيراً ، وذهب إلى ذلك كثير من الفقهاء ، مستدلين على ذلك بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « المـــاء الطهور لا ينجسه شىء » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الوضوءُ بالثلج

السؤال :

هل يصح الوضوء بماء الثلج عندما أكون فى أوربا مثلا فى وقت الشتاء ، ويتحول الماء إلى ثلج ؟

الجواب :

قرر الفقهاء أن المـــاء الذى يجوز منه الوضوء أنواع فهناك ماء البحر ، وماء النهر ، وماء البئر ، وماء المطر وغيره ، ويجوز كذلك الوضوء من ماء الثلج والبرد ، وذلك لقول الله تبارك وتعالى فى سورة الأنفال : (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) وقوله سبحانه : (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) وكان رسول الله يفتتح صلاته قبل القراءة بقوله : « اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من خطاياى ، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم أغسلنى من خطاياى بالثلج والمـــاء والبرد » وهذا نص فى أنه يجوز التطهر بماء الثلج فلا إثم على السائل إذا لم يجد أمامه إلا الثلج الصالح للوضوء وتوضأ منه : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الكلام عند الوضوء

السؤال :

هل يجوز لمن يتوضأ أن يتحدث فى أثناء الوضوء؟ وهل يجوز أن يفصل بين الوضوء والصلاة بالكلام ، أى هل يجوز التحدث مع الناس بعد الوضوء وقبل الصلاة ؟

الجواب :

قرر الفقهاء أن الكلام المباح فى أثناء الوضوء مباح ، ولم يصح فى السنة المطهرة ما يدل على منعه ، وخاصة إذا كان هناك مصلحة أو داع يدعو إلى هذا الكلام المباح ، ويذكر الفقهاء استحباب التسمية فى أول الوضوء ، وقد ورد فى هذه التسمية أحاديث ضعيفة ، ولكن مجموعها يدل على أن لها أصلا ، وهى بعد ذلك أمر حسن فى ذاته ومشروع فى الجملة. ولم يثبت من الأدعية التى يرددها الناس فى أثناء الوضوء ، غير حديث أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فتوضأ فسمعته يقول : « اللهم اغفرلى ذنبى ، ووسع لى فى دارى ، وبارك لى فى رزقى ». فقلت : يانبى الله سمعتك تدعو بكذا وكذا . قال : «وهل تركنا من شىء » .

وعن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامنكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من توضأ فقال سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لا إله إلا أنت ،

أستغفرك وأتوب إليك ، كُتب فى رق ، ثم جُعل فى طابع لم يكسر إلى يوم القيامة » .

والكلام بعد الوضوء جائز مادام مباحاً . سواء كان الكلام بالانفراد أو بالحديث مع الناس قبل الصلاة أو بعدها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

نسيان أعضاء عند الوضوء

السؤال :

توضأ إنسان ثم نسى بعض أجزاء الوضوء دون أن يشعر ، فما الحكم فى ذلك ؟

الجوب :

إن الوضوء أمر لازم لصحة الصلاة فإذا توضأ إنسان جاز له بهذا الوضوء أن يدخل فى الصلاة ، وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام : « لا صلاة لمن لا وضوء له ، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » . ومن الواجب على الإنسان أن يحسن وضوءه وأن يسبغ وضوءه ، ولهذا جاء فى السنة أن أعرابياً جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يسأله عن الوضوء فأراه النبى بالقول والفعل أن الغسل يكون للعضو ثلاثاً ثلاثاً ثم قال النبى : « هكذا الوضوء — أى الوضوء الكامل الذى أمر الله به — فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم » . أى أساء الأدب وتعدى الحد الشرعى وهو ثلاث مرات ، وظلم نفسه بالإسراف فى المـــاء . وفى حديث آخر أمر النبى صلى

الله عليه وسلم بإسباغ الوضوء ، أى إتمامه بفعل فرائضه وسنته وقال : « ويل للأعقاب من النار » والأعقاب جمع عقب وهو مؤخر القدم الذى هو مظنة التساهل، وفى هذا توجيه إلى وجوب تعميم الغسل لكل جزء من أعضاء الوضوء . وعن عمر رضى الله عنه أن رجلا توضأ فترك موضع ظفر عند قدمه لم يعمه الماء ، فأبصره النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « ارجع فأحسن وضوءك » فرجع الرجل فعمم رجليه بالغسل ثم صلى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الوضوء واللمس للمرأة

السؤال :

ما حكم اللمس بين الزوج وزوجته وهى فى حالة الوضوء؟

الجواب :

روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلها وهو صائم وقال : « إن القبلة لا تنقض الوضوء ولا تفطر الصائم » . وقالت أيضاً : « فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة من الفراش فالتمسته فوضعت يدى على بطن قدميه وهو ساجد وهو يقول : اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » وروى عنها أنها قالت إن النبى صلى الله عليه وسلم قبل بعض نسائه ، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ . وعنها

أيضاً أنها قالت : كنت أنام بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم ورجلاى فى قبلته فإذا سجد غمزنى فقبضت رجلى .

وجاء فى مذهب الإمام الشافعى أن الوضوء يفسد بلمس المرأة الأجنبية مطلقاً ، سواء أكان ذلك اللمس بشهوة أو بغير شهوة ، بلذه أو بغير لذة ، ولكن بشرط أن لا يكون هناك حائل —ولو كان خفيفاً— بين بشرة اللامس وبشرة الملموس . وكذلك لا ينتقض الوضوء فى هذه الحالة — أى حالة اللمس — عند أرباب الطباع السليمة ، إلا إذا بلغ اللمس والملموس حد الشهوة ، ويراجع تفاصيل المسألة فى المجلد الأول من كتاب « يسألونك فى الدين والحياة » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

استعمال آنية الخمر فى الوضوء

السؤال :

هل يجوز التوضؤ بماء فى علبة الخمر وذلك بعد أن فرغ منها الخمر وغسلت جيداً ؟

الجواب :

الشأن فى أمر المسلم أن يتجنب النجاسات ما أمكنه السبيل إلى ذلك ، فليس من عادة المسلم أن تكون لديه آنية تستعمل للخمر لأن الخمر محرمة ، فيلزم المسلم أن يبتعد عنها ، والخمر نجسة عند جمهور العلماء ، لأن القرآن الكريم يقول : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان)

والرجس معناه النجس ، وإن كان بعضهم قد قال : إن الرجس هنا معنوى وليس بحسى ، فلا يوصف بالنجاسة الحسية قطعاً .

وإذا تيسر للمسلم أن يستعمل لوضوئه ومائه إناءً ليست العادة فيه أن يستخدم للخمر فإن عليه أن يتجنب هذه الآنية التى تلوثت من قبل بأم الخبائث وهى الخمر .

ولكن إذا اضطر إلى استعمال هذه العلبة بعد أن غسلها جيداً من آثار الخمر فلا مانع من أن يتوضأ من الماء الطاهر الذى وضعه فيها بعد ذلك التنظيف .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

بين الغسل والوضوء

السؤال :

هل يجوز للإنسان أن يصلى بعد غسل الجنابة دون وضوء ؟

الجواب :

المراد من الغسل هو تعميم الجسم بالماء الطاهر حتى يتجرد من النجاسة ويصبح الإنسان طاهراً صالحاً لأداء العبادات التى تتطلب طهارة الجسم .

والغسل قد جاء بشرعيته الكتاب الحكيم فى قوله تبارك وتعالى : (وإن كنتم جنباً فاطهروا) . ويقول الله تعالى فى سورة البقرة : (ويسألونك عن

المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)

وإذا اغتسل الإنسان من الجنابة فإنه يصح أن يصلى دون احتياج إلى وضوء بعد ذلك ، لأن الغسل من الجنابة يغنى عن الوضوء . وقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتوضأ بعد الغسل . ويروى أن رجلا قال لعبد الله بن عمر رضوان الله عليهما : إنى أتوضأ بعد الغسل فقال له ابن عمر : لقد تعمقت . وكأنه يريد أن يقول له : إنك قد شددت على نفسك دون موجب لذلك .

وقد روى بعض السلف أن العلماء لم يختلفوا فى أن الوضوء داخل تحت الغسل . وأن نية طهارة الجنابة تحقق طهارة الحدث الأصغر ، ولا حاجة بعد ذلك إلى الوضوء . لأن موانع الجنابة أكثر من موانع الحدث . فدخل الأقل فى نية الأكثر . وأجزأت نية الأكبر عن نية الأصغر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الوضوء مع الغسل

السؤال :

هل يجب الوضوء قبل غسل الجمعة أو بعده ؟

الجواب :

غسل الجمعة حكمه أنه سنة مؤكدة ، لأن الجمعة عيد أسبوعى للمسلمين ، وموطن التقاء بين الناس ، وأما الوضوء بالنسبة إلى الصلاة فهو شرط لازم

وإذا أراد المسلم أن يستكمل أدب الطهارة والنظافة فى يوم الجمعة ، فإنه يستعد للاغتسال غسل الجمعة ، ويبدأ بأن يتوضأ وضوءه للصلاة ، ويؤخر غسل قدميه حتى يغتسل ويستحم ، فيعم الماء جميع جسمه ، وفى نهاية الاغتسال يغسل قدميه ، وبذلك يخرج من حمامه متوضئاً مغتسلا غسل الجمعة ، ومن هذا نفهم أن يكون الوضوء قبل الشروع فى الاغتسال ، كما هى العادة المألوفة عند جمهور المسلمين ، ولو أن الشخص اغتسل غسل الجمعة أولا ثم توضأ لما كان هناك مانع شرعى من ذلك ، وإن كان قد اتبع غير المستحب .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حكم الاحتلام

السؤال :

رجل أصبح جنباً بسبب الاحتلام ، فهل يجوز له أن يتوضأ ويصلى ؟

الجواب :

إذا أصبح الإنسان جنباً بسبب الاحتلام فإنه يجب عليه الغسل وهو تعميم البدن بالماء ، فالله تبارك وتعالى يقول : (وإن كنتم جنباً فاطهروا) وقد ذكر العلماء أن أحد الأمور التى يجب فيها الغسل هو خروج المنى بشهوة فى النوم أو فى اليقظة من ذكر أو أنثى ، وهذا رأى عامة الفقهاء وذلك لأن الإمام مسلماً روى فى صحيحه قول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « الماء من الماء » . يعنى أن الاغتسال من الإنزال ، فالماء الأول هو الماء المطهر ، والماء الثانى هو المنى .

وقد جاء فى الحديث المتفق عليه عن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها أن أم سليم قالت : يا رسول الله إن الله لا يستحى من الحق ، فهل على المرأة غسل إذا احتلمت ؟ قال : نعم إذا رأت الماء .

ومن هذا نفهم أنه لا يجوز لمن أصبح جنباً بسبب الاحتلام أن يتوضأ ويصلى ، كما جاء فى السؤال ، بل عليه أن يغتسل ناوياً الغسل والوضوء معاً لاستباحة الصلاة ، وبعد ذلك يصح له أن يصلى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الاحتلام والغسل

السؤال :

إذا احتلم الإنسان فى أثناء نومه ، ورأى أنه يجامع امرأة فما الحكم ؟ هل يكفيه أن يزيل المنى بالماء بدون غسل الجنابة أو لا بد من الغسل ؟

الجواب :

قرر الفقهاء أنه يجب الغسل لخروج المنى بشهوة فى النوم أو فى اليقظة ، من ذكر أو أنثى ، وهذا قول جمهور الفقهاء ، وقد روى مسلم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الماء من الماء » أى الاغتسال من الإنزال ، فالماء الأول الماء المطهر ، والثانى هو ماء المنى .

وعن أم سلمة رضى الله عنها أن أم سليم قالت : « يا رسول الله ، إن الله

لا يستحى من الحق ، فهل على المرأة غسل إذا احتلمت ؟ قال : نعم إذا رأت الماء ؟

وإذا احتلم الإنسان ولم يجد منياً فى ثيابه فلا غسل عليه . وإذا انتبه من النوم فوجد بللا ولم يتذكر احتلاماً فإن تيقن أنه منى فعليه الغسل ، لأن الظاهر أن خروجه كان باحتلام نسيه ، فإن شك ولم يعلم : أهو منى أو غيره فعليه الغسل احتياطاً .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

كيفية التيمُّم

السؤال :

أرجو أن تتفضلوا فتذكروا لى كيفية التيمم مع الشكر ؟

الجواب :

المراد بالتيمم فى الشريعة هو مسح الوجه واليدين بتراب طاهر ، بنية استباحة الصلاة ونحوها ، وقد قال الله تبارك وتعالى عنه ، فى سورة النساء : (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً) . وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « جعلت الأرض كلها لى ولأمتى مسجداً وطهوراً فأينما أدركت رجلا من أمتى الصلاة فعنده طهوره » .

ويباح التيمم إذا لم يوجد الماء الكافى للوضوء ، أو وجد ومنع من استعمال مانع كجرح أو مرض ، أو الاحتياج إليه . وكذلك إذا كان الماء شديد البرودة . وغلب على ظنه حصول ضرر باستعماله .

ويجوز التيمم بالتراب الطاهر وكل ما كان من جنس الأرض كالرمل والحجر والحصى . وكيفية التيمم أن يبدأ المتيمم بالنية ومحلها القلب ، ولا يشترط فيها التلفظ باللسان ، ثم يسمى الله عز وجل ، ويضرب بيديه التراب الطاهر ، ويمسح بهما وجهه ويديه إلى الرسغين .

وقد روى عن بعض الصحابة قال : أجنبت فلم أصب الماء . فتمعكت فى الصعيد [تمرغت فى التراب] وصليت . فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : « إنما كان يكفيك هكذا » . وضرب النبى عليه الصلاة والسلام بكفيه الأرض ، ونفخ فيهما . ثم مسح بهما وجهه وكفيه ، وقد ورد فى السنة الاكتفاء بضربة واحدة . . الاقتصار فى مسح اليدين على الكفين . وإن من السنة لمن يتيمم بالتراب الطاهر أن ينفض يديه وينفخهما منه . ولا يعفر به وجهه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

النفاس

السؤال :

ما هو النفاس ؟ وما مدته وما الأحكام المتعلقة به ؟

الجواب :

النفاس هو دم يخرج من المرأة عند الولادة وبعدها ، حتى ولو ولدت المرأة قبل تمام أشهر الحمل ، كما يحدث فى حالة سقوط الجنين .

وليس هناك مقدار زمنى محدد للنفاس ، فلو ولدت المرأة ، وانقطع الدم نهائياً عقب الولادة ، ولو بساعة أو بعضها ، انقضى نفاسها ، ووجب عليها ما يجب على الطاهرات من صلاة وصوم ونحو ذلك .

وأما أكثر مدة النفاس فهى أربعون يوماً . وقد قالت أم سلمة رضى الله عنها : كانت النفساء تجلس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين يوماً . وقال الإمام الترمذى تعليقاً على هذا الحديث : قد أجمع أهل العلم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والتابعين ومن بعدهم على أن النفساء تدع الصلاة أربعين يوماً ، إلا أن ترى الطهر قبل ذلك ، فإنها تغتسل وتصلى ، فإن رأت الدم بعد الأربعين ، فإن أكثر أهل العلم قالوا : لا تدع الصلاة بعد الأربعين .

ويحرم على المرأة فى حالة النفاس الصلاة ودخول المسجد إلا لضرورة ، وقراءة القرآن إلا للتعلم أو التعليم فقط ، ولا يصح منها الاعتكاف .

ويحرم على المرأة النفساء أن تصوم وإن صامت لا ينعقد صيامها ، ويجب عليها قضاء ما فاتها من أيام الصوم فى مدة النفاس إذا وقع خلال شهر رمضان .

وإن كان يحرم على المرأة فى حالة النفاس أن تصلى ، فإنها لا تعيد ما فاتها من الصلوات فى أثناء النفاس ، وذلك دفعاً للمشقة ، لأن الصلاة يكثر تكرارها ، بخلاف الصوم ، ولقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة بنت أبى حبيش رضى الله عنها : « دعى الصلاة قدر الأيام التى كنت تحيضين فيها ، ثم اغتسلى وصلى » . وهذا وإن كان وارداً فى الحيض ، إلا أن النفاس كالحيض بإجماع الصحابة .

وتحرم على المرأة أيضاً المعاشرة الزوجية فى حالة النفاس حتى تغتسل وتتطهر .

وإذا استمر الدم عند المرأة أزيد من مدة النفاس القصوى ، وهى أربعون يوماً كما ذكرنا ، فإن هذا الدم يسمى دم علة وفساد ، لا دم نفاس .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

طهارة نجاسة الكلب

السؤال :

لحس الكلب الإناء وعرفت أنه يحرم استعماله إلا إذا غسل بالماء والتراب سبع مرات . فهل يجوز غسل هذا الإناء بالصابون فقط ، أو غسله بمادة أخرى أقوى من الصابون ؟

الجواب :

اختلف الفقهاء فيما يتعلق بنجاسة الكلب ، فمنهم من حكموا بنجاسة جسم الكلب ولعابه ، ومنهم من تساهلوا فحكموا بطهارة جسم الكلب ولعابه ، وقسم توسطوا فحكموا بطهارة جسم الكلب ونجاسة لعابه . وقد فصلت القول عن هذا فى المجلد الثانى من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » .

وقد جاء فى بعض الأحاديث : « طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب » . وقيل إن معنى الغسل بالتراب هو أن يخلط التراب بالماء ، وقد ذكر بعض العلماء المعاصرين أن الطب أثبت أن الجراثيم التى تنتقل عن طريق لعاب الكلب يقضى عليها بالتراب .

وفى مذهب الإمام مالك أن الإناء لا ينجس إذا لمسه الكلب أو ولغ فيه ، واستدل على ذلك بقول القرآن الكريم فى سورة المائدة : (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب) .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة لتدل على إباحة أكل الطيور التى تصطادها الكلاب المدربة على الصيد ، فلو كان الكلب نجساً لتنجس الصيد بملامسته حين يحمله الكلب بأسنانه إلى الصائد .

وعلى هذا القول لا يشترط الغسل سبع مرات ، ولكن ينبغى من باب الاحتياط أن يغسل الإنسان الإناء تطهيراً له وابتعاداً به عن الجراثيم وعما يستقذر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

التلفظ بالنية

السؤال :

إذا كان الإنسان لا يعرف نية الصلاة ولا نية الوضوء ، ولكنه يعرف كيفيتها فهل تجوز صلاته ويجوز وضوءه ؟

الجواب :

يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » ومن هنا طالب الفقهاء بالنية عند أداء العبادات الواجبة ،

والذى نفهمه من هذا السؤال أن صاحبه يريد أن يسأل عن التلفظ والجهر بعبارة النية فى الوضوء وفى الصلاة وقد قرر الفقهاء أن النية محلها القلب ، وأن الألفاظ دليل فقط على ما فى صدر الإنسان وما فى قلبه ، فليس بلازم ولا واجب أن يتلفظ الإنسان بعبارة النية ، فليس هناك ما يدعو مثلا إلى أن يقول بلسانه : « نويت الوضوء » أو « نويت أصلى الظهر لله تعالى »، واستحسن بعض الفقهاء ألا يتلفظ الإنسان بعبارة النية ، فحسبه أن يجمع خاطره وقلبه ، وينوى فى نفسه ما يريد عمله والقيام به . ومن هذا نفهم أن الإنسان يصح وضوءه وصلاته إذا نواهما بقلبه ولم يتلفظ بهما بلسانه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

الصّلاة

كيفية الصلاة

السؤال :

هل هناك اختلاف فى كيفية الصلاة بيننا وبينكم ؟

الجواب :

الصلاة هى فريضة الإسلام الكبرى ، وهى عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، والصلاة واحدة الكيفية والأداء فى جميع بلاد المسلمين . وهى خمس صلوات مفروضة فى اليوم والليلة ، وهى الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء . والرسول يقول فيما رواه أبو داود والنسائى ومالك : « خمس صلوات افترضهن الله عز وجل ، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن ، وأتم ركوعهن وخشوعهن ، كان له على الله عهد أن يغفر له ، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه » .

وقد جاء فى الحديث الصحيح المتفق عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قمت إلى الصلاة فكبر [تكبيرة الإحرام] ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن [فاتحة أو غيرها] ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مكان الصلاة

السؤال :

هل يمكن أداء الصلاة فى الأماكن العامة ؟

الجواب :

جاء فى حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جعلت لى الأرض مسجداً ، وترابها طهوراً » . ومعنى ذلك أنه يمكن أداء الصلاة فى الأماكن العامة إذا كان المكان الذى يصلى فيه الإنسان طاهراً من النجاسة الحسية ، متى قدر على ذلك . وقد جاء فى حديث أبى هريرة أنه قال : قام أعرابى فبال فى المسجد ، فقام إليه الناس ليقعوا به ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « دعوه وأريقوا على بوله سجلا من الماء » [أى دلواً من الماء] فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » . وهذا الدين مبنى على التيسير لقول الله تبارك وتعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الأذان للصلاة

السؤال :

عندنا فى بعض مناطق إندونيسيا لا يكتفون بالمؤذن للصلاة ، بل يستخدمون طبلا كبيراً لإشعار الناس بدخول أوقات هذه الصلوات ، فهل يعتبر ذلك بدعة ؟

الجواب :

الأذان فى اللغة هو الإعلام ، وفى الشريعة هو الكلمات المعينة المعروفة

لدى المسلمين ، وقد روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه لما قدم المسلمون المدينة كانوا يجتمعون ويتبينون موعد الصلاة ، ثم يؤدونها دون أن ينادى لها أحد ، فتكلم المسلمون فى ذلك يوماً ، فأشار بعضهم بأن يتخذوا ناقوساً كناقوس النصارى ، وأشار بعضهم أن يستخدموا بوقاً كبوق اليهود ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ألا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا بلال ، فناد بالصلاة .

وبهذا جرى العمل بين المسلمين ، فأصبح الأذان للصلاة سنة لا يجوز تعطيلها ، وكان للنبى عليه الصلاة والسلام أكثر من مؤذن واحد .

وعن أبى محذورة رضى الله عنه أن النبى عليه الصلاة والسلام علمه كلمات الأذان وهى : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

ومن هذا البيان نفهم أن اتخاذ طبل كبير للإشعار بمواقيت الصلاة يعد بدعة لم يعرفها عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا عصر الصحابة والتابعين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

أدعية الصلاة

السؤال :

هل هناك أدعية معينة للصلاة يقبلها الله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟

الجواب :

هناك أدعية كثيرة كان يدعو بها الرسول عليه الصلاة والسلام فى الصلاة ، وفيها دعاء التوجه أو دعاء الاستفتاح الذى كان يستفتح به الصلاة ، بعد تكبيرة الإحرام وقبل القراءة ، فمنها ما رواه أبو هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبر فى الصلاة سكت هنيهة ، أى وقتاً قصيراً – قبل القراءة فقلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول ؟ قال أقول : « اللهم باعد بين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبرد » .[رواه البخارى]

وعن على رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة كبر ثم قال : «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت . واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك . وأنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك » . [رواه مسلم] .

وعن أبي سعيد الخدرى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : سمع الله لمن حمده قال : « اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد ، أنت أهل الثناء والمجد ، حق ما قال العبد ، وكلنا لك العبد ، لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » [رواه مسلم] .

وعن على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد يقول : « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه فصوره فأحسن صوره فشق سمعه وبصره ، فتبارك الله أحسن الخالقين » [رواه مسلم].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول فى صلاته أو فى سجوده : « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، ويمينى نوراً ، ويسارى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، وفوقى نوراً ، وتحتى نوراً ، واجعلنى نوراً » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فلمسته فى المسجد . فإذا هو ساجد وقدماه منصوبتان وهو يقول : « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » [رواه مسلم] .

وكان النبى يعلم الناس دعاء مستحباً بعد التشهد ، فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع ، يقول : اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » [رواه مسلم] .

وعن معاذ بن جبل : أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيده يوماً ثم قال : « يا معاذ إنى لأحبك . فقال له معاذ : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، وأنا أحبك . قال : أوصيك يا معاذ ، لا تدعن فى دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » [رواه أحمد] .

وروى أبو حاتم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول عند انصرافه من صلاته : «اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى جعلت فيها معاشى ، اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من نقمتك ، وأعوذ بك منك ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

غطاء الرأس فى الصلاة

السؤال :

هل من الضرورى لبس طاقية فى أثناء الصلاة ؟ وهل يمكن أداء الصلاة بثوب لا يغطى الركبة عند الصلاة ؟

الجواب :

الرأس ليس عورة حتى يلزم ستره فى الصلاة أو فى غيرها ، ولذلك ليس من الضرورى لبس طاقية على الرأس فى أثناء الصلاة ، وقد يدل على ذلك أن الإنسان وهو محرم فى أثناء الحج يكون مكشوف الرأس ، ويؤدى

الصلوات وهو مكشوف الرأس ، بل ذكر بعض العلماء أن الإنسان إذا نوى بكشف رأسه فى الصلاة الخضوع لله ، والخشوع أمام جلاله ، فإن ذلك يكون أمراً مستحباً يرجى معه ثواب الله سبحانه .

وأما فيما يتعلق بستر الجسم فى الصلاة فإن الفقهاء قد قالوا إن العورة فى الصلاة هى مابين السرة والركبة ، فالواجب عند هؤلاء أن يكون ثوب المصلى ساتراً لجسمه من السرة إلى الركبة ، وبعض الفقهاء يبيح كشف الركبة فى الصلاة ، وعلى هذا لولبس الإنسان سروالا لا يغطى ركبته فإن صلاته لا تبطل فى هذه الحالة ، حتى ولو ظهر جزء من الفخذين ، هذا ما قرره الفقهاء فى عورة الإنسان فى أثناء الصلاة، ولكن اللائق بالإنسان أن يستكمل ثيابه المعتادة المألوفة ، لأن هذا فى رأى كثير من المفسرين هو الزينة التى أمر الله باتخاذها عند الصلاة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الصلاة السرية والصلاة الجهرية

السؤال :

الصلوات منها سرية ومنها جهرية بالنسبة إلى الرجل ، فما الحكم بالنسبة إلى النساء ؟

الجواب :

يجب على الإمام الجهر بقدر ما يسمع المأمومين فيما جهر فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو صلاة الصبح ، والركعتان الأوليان من المغرب ،

والركعتان الأوليان من العشاء وصلاة العيدين والتراويح والوتر فى رمضان ، لمواظبة النبي على ذلك .

هذا إن كانت الصلاة جماعة . وأما المنفرد فيخير بين الإسرار والجهر ، والجهر أفضل ، ما لم يهوّش على نائم أو مصل آخر ، وإلا حرم الجهر إجماعاً ، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أما إن أحدكم إذا قام فى الصلاة ، فإنه يناجي ربه ، فليعلم أحدكم ما يناجي ربه ولا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة فى الصلاة » .

وعن أبي سعيد الخدرى : اعتكف رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فى المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر وقال : «ألا إن كلكم مناج ربه ، فلا يؤذين بعضكم بعضاً ، ولا يرفعن بعضكم على بعض بالقراءة » .

ويجب الإسرار على كل مصل فى محل الإسرار ، وهو صلاة الظهر والعصر والثالثة من المغرب ، والركعتان الأخيرتان من العشاء ، وصلاة الكسوف والاستسقاء ونفل النهار ، وهو واجب على الإمام اتفاقاً ، وعلى المنفرد فى الأصح ، لمواظبة النبي على ذلك . وأقل الجهر إسماع من ليس بقربه ، وأقل السر إسماع نفسه أو من بقربه .

ولا يستحب للمرأة الجهر بالقراءة فى الصلاة الجهرية ، دفعاً للفتنة ، وإن كان الأصح أن صوتها ليس بعورة ، وإذا كان فى صوتها نغمة أو تمطيط يثير من يسمعها كان جهرها ممنوعاً .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

سجود الشكر

السؤال :

ماهي سجدة الشكر ؟ومتى تكون؟

الجواب :

سجدة الشكر هي سجدة يفعلها الإنسان عندما تتحقق له نعمة تسره ، أو تزول عنه نقمة كانت تضره ، وهذه السجدة مستحبة ، لورود عدة أخبار تشير إلى ذلك ، منها :

عن أبي بكرة أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان إذا أتاه أمر يسره ، أو بشر به خر ساجداً شكراً لله تبارك وتعالى .

ولما كتب الإمام علي إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام بإسلام قبيلة همذان ، خر النبي ساجداً شكراً لله . ثم رفع رأسه وقال : « السلام على همذان ، السلام على همذان » .

وعن عبد الرحمن بن عوف أنه اتبع النبي يوماً ، حتى دخل نخلا فسجد وأطال السجود ، حتى خاف عبد الرحمن أن يكون الله قد توفى النبي ، فدنا منه ينظر إليه ، فرفع النبي رأسه وقال : مالك ياعبد الرحمن ؟

فذكر له عبد الرحمن ما رأى ، فقال النبي : « إن جبريل عليه السلام قال لي : ألا أبشرك ؟ إن الله عز وجل يقول لك : من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه ، فسجدت لله عز وجل شكراً » .

وسجد كعب بن مالك لمــا جاءته البشرى بتوبة الله عليه .

وسجد الإمام على لله شكراً حين رأى أحد أعدائه بين قتلى الخوارج .

وسجد أبو بكر الصديق حين جاءته البشرى بقتل مسيلمة الكذاب .

ولا تحتاج هذه السجدة إلى وضوء أو طهارة ثياب أو طهارة مكان .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

صلاة تحية المسجد

السؤال :

ما حكم صلاة تحية المسجد عند الأذان ؟

الجواب :

جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يفيد أن من السنة صلاة ركعتين عند دخول المسجد ، فقد روى عن أبى قتادة أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « إذا جاء أحدكم المسجد فليصل سجدتين [أى ركعتين] قبل أن يجلس » وورد فى الفقه أنه يستحب لمن يسمع المؤذن أن يقول مثل ما يقول المؤذن إلا عند قوله « حى على الصلاة » و « حى على الفلاح » فإنه يقول عقب كل جملة منهما « لا حول ولا قوة إلا بالله » لقول الحديث : « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن » ويستثنى من ذلك المصلى . وإذا سمع الإنسان الأذان ، وهو فى قراءة أو ذكر أو درس أو نحو ذلك قطعه ، وإن كان فى صلاة فرض أو نفل . قال بعض

الفقهاء إنه إذا فرغ من الصلاة تابع المؤذن ، وإذا دخل المسجد فسمع الأذان يستحب له الانتظار حتى ينتهى الأذان ، فإن لم يفتح و دخل فى الصلاة فلا بأس ولكن متابعة المؤذن ثم الدخول فى الصلاة جمع بين الفضيلتين .

ويكره القيام بصلاة تحية المسجد عند ثلاثة أوقات : الأول عند طلوع الشمس حتى ترتفع قدر رمح أو رمحين . وعند زوال الشمس حتى تميل عن كبد السماء جهة الغرب ، وعند ميل الشمس للغروب حتى تغرب ، ومثل تحية المسجد ركعتا الوضوء وركعتا الطواف ، وسنة الفجر وقت طلوع الشمس وكذلك الفرائض والواجبات التى لزمت فى الذمة قبل دخول هذه الأوقات عند الشافعية .

ولا يكره قضاء الفائتة والصلاة المنذورة وسجدة التلاوة وصلاة الطواف فى هذه الأوقات ، كذلك لا يكره أداء تحية المسجد عند الشافعية فى هذه الأوقات إذا كان دخول المسجد لغرض كالاعتكاف أو طلب العلم أو انتظار صلاة ونحو ذلك ، وأما إذا كان دخوله لمجرد صلاة التحية ، فيكره على الراجح .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تحية المسجد

السؤال :

ما حكم صلاة تحية المسجد ؟

الجواب :

من الصلوات المسنونة فى الإسلام صلاة تحية المسجد إذا دخله الإنسان

لأن المساجد بيوت الله تبارك وتعالى ، وإنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وقد وردت أحاديث عديدة فى فضل المساجد والتنويه بشأنها ومكانتها ، مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من غدا إلى المسجد وراح أعد الله له الجنة نزلا ، [أى مكان ضيافة] كلما غدا وراح » . وقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان . قال الله عز وجل : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) ». وقوله صلوات الله وسلامه عليه :«المسجد بيت كل تقى ، وتكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة ، والجواز على الصراط إلى رضوان الله : إلى الجنة » .

واستدل الفقهاء على استحباب تحية المسجد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا جاء أحدكم المسجد فليصل سجدتين [أى ركعتين] من قبل أن يجلس » .

وفى بعض المذاهب أن تحية المسجد يكره أداؤها فى أوقات ثلاثة : إحداها عند اصفرار الشمس وضعفها ، حين تقدر العين على مواجهتها حتى تغرب ، وعند طلوع الشمس حتى ترتفع مقدار رمح أو رمحين ، وعند زوالها حتى تميل عن كبد السماء جهة الغرب .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

ضم القدمين فى الصلاة

السؤال :

أيهما أحسن فى الصلاة : الوقوف بضم الرجلين ، أم بجعل الفرجة بين القدمين ؟

الجواب :

الأصل فى المصلى أن يقف مستقيماً منتصباً فى حالة القيام ، وحينئذ تكون قدماه متقاربتين ، وهو لا يلصق إحداهما بالأخرى إلصاقاً ، كما أنه لا يباعد بينهما بشكل ملحوظ حتى تكون إحداهما بعيدة عن الأخرى . والأفضل أن يجعل المصلى قدميه متدانيتين وإن كان هناك فرجة قليلة بينهما .

وهذه المسألة من هيئات الصلاة وأشكالها التى ينبغى للإنسان فيها أن يلزم جانب الاستقامة والاعتدال .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الصلاة دون إقامة

السؤال :

رجل تذكر وهو فى الركعة الثانية أن صلاته لم يسبقها لفظ الإقامة فماذا يفعل ؟

الجواب :

ليست الإقامة للصلاة شرطاً لها أو ركناً فيها ، فالرجل الذى تذكر

فى أثناء الصلاة أنه لم يقم لهذه الصلاة ناسياً لا عقاب عليه ، ويستطيع أن يتم صلاته ، وهى صحيحة ، ما لم يكن هناك سبب آخر لفسادها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تذكر الفائتة فى الصلاة

السؤال :

بينما الرجل يصلى العصر تذكر أنه لم يصل الظهر فماذا يفعل ؟

الجواب :

يجب على الإنسان إذا فاتته صلاة أن يصليها قبل صلاة الوقت الحاضر ، وكذلك يجب الترتيب فى قضاء الفوائت إلا إذا صارت الفوائت ست فرائض فأكثر ، وإنما سقط الترتيب بكثرة الفوائت لأن فى التزام الترتيب حينئذ حرجاً ، والله تبارك وتعالى يقول : (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) .

وقد روى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من نسى صلاة فليصليها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك ، وأقم الصلاة لذكرى » ، فإذا صلى الإنسان العصر مثلا وهو ناس أن عليه الظهر ، ولم يتذكر ذلك إلا بعد أن أتم الصلاة فلا شىء عليه ، ويستطيع أن يقضى الفائتة بعد صلاة العصر ، لأن قضاء الفائتة أمر واجب .

ولذلك قال الفقهاء إنه يجب الترتيب بين الفريضة الفائتة والفريضة

الحاضرة عند التذكر واتساع الوقت الاختيارى لأداء الفريضة الحاضرة . فمن أحرم بالفريضة الحاضرة ، ثم ذكر فى أثنائها أن عليه فائتة — والوقت متسع — فإنه يتمها ، ويقضى الفائتة ، ثم يعيد الصلاة التى كان فيها . وقيل إنه يقطعها ، أما إذا لم يتذكر الفائتة إلا بعد فراغه من الفريضة الحاضرة فإنها تجزئه ويقضى الفائتة بعدها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

قضاء فوائت الصّلاة

السؤال :

هناك مسلم لم يصل إلا بعد بلوغ سن الثلاثين فهل يلزمه قضاء الصلوات التى فاتته ؟

الجواب :

الصلاة أهم ركن من أركان الدين ، وأهم قاعدة من قواعده ، وقد وصفها رسول الله عليه الصلاة والسلام بأنها عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، وهذا المسلم الذى ترك الصلاة كل هذا الوقت قد ارتكب جرماً عظيماً ، واقترف إثماً كبيراً . وقد اختلف الفقهاء فيمن فاتته صلاة ، فقالت طائفة : عليه أن يقضيها لقول النبى عليه الصلاة والسلام : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » ، وإذا كان القضاء قد وجب على النائم والناسى مع عدم تفريطهما فوجوب القضاء على العامد والمفرط أولى وأوجب .

وهناك طائفة أخرى من الفقهاء ذكرها ابن القيم فى كتابه « مدارج السالكين » تقول إن الصلاة فريضة محددة بوقت معين ، لقوله تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) ، فلا يكون الإنسان مؤدياً لهذه الفريضة إلا إذا أوقعها على الوجه المأمور به ، وبوصفها ووقتها وشرطها ، وقال هؤلاء إن حقوق الله تعالى المؤقتة لا يقبلها الله فى غير أوقاتها ، وأبو بكر رضى الله عنه قد أوصى عمر رضى الله عنه بقوله : « اعلم أن لله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل » .

وليس هناك إلا التوبة المخلصة الصادقة ورجعة الإنسان إلى طريق الإسلام ، والأئمة الأربعة يقولون إن مثل هذا تجب عليه التوبة بالندم ، والاشتغال بأداء الفرائض المستقبلة وقضاء الفرائض المتروكة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

ترك ركن فى الصلاة

السؤال :

ما حكم المصلى الذى يترك ركناً من أركان الصلاة ، ولم يسجد للسهو ، ولم يتذكر ذلك إلا بعد إتمام الصلاة ؟

الجواب :

ذكر العلماء أن الصلاة تبطل ، ويفوت المقصود منها إذا أتى المصلى بشىء من مبطلات الصلاة ، مثل الأكل والشرب عمداً . والكلام عمداً

فى غير مصلحة الصلاة ، والعمل الكثير عمداً ، والضحك الكثير فى الصلاة ، وترك ركن أو شرط عمداً وبدون عذر .

وقد جاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال للأعرابى الذى لم يحسن صلاته : « ارجع فصل فإنك لم تصل ».

وذكر العلماء كذلك أن من صلى بغير طهارة وجبت عليه الإعادة ، عمداً كان ذلك أو نسياناً ، وكذلك من صلى لغير القبلة عمداً ، سواء كان ذلك عن ذكر أو نسيان . فكل من أخل بشرط من شروط صحة الصلاة وجبت عليه الإعادة ، ويحرم على المصلى أن يفعل ما يفسد صلاته بدون عذر ، فإن وجد سبب لذلك كإغاثة ملهوف أو إنقاذ غريق ونحوه ، وجب عليه أن يخرج من الصلاة ثم يعيدها بعد ذلك .

فالسائل الذى ترك ركناً من أركان الصلاة يجب عليه أن يعيدها متى تذكر ، ومما تنبغى معرفته أن سجود السهو يكون فى أحوال ، كما إذا سلم قبل إتمام ركعات الصلاة ، وعند الزيادة على الصلاة ، كأن يصلى خمس ركعات فى الظهر أو العصر مثلا ، وعند نسيان التشهد الأول أو نسيان سنة من سنن الصلاة ، وعند وجود الشك فى الصلاة .

والحالة التى ذكرها السائل ليست من هذه الأحوال ، فالواجب عليه هو إعادة الصلاة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الصلاة بغير العربية

السؤال :

كيف يصلى المسلم الذى لا يعرف اللغة العربية ؟

الجواب :

من الواجب على المسلم أن يتعلم اللغة العربية ، وهى لغة القرآن الكريم ، وقرر بعض الفقهاء كالإمام الشافعى أن من المفروض على المسلم أن يتعلم من اللغة العربية ما يستطيع به على الأقل أن يقرأ القرآن الكريم ، وأن يؤدى به العبارات العربية التى توجد فى العبادات الدينية المختلفة . ولكن إذا كان المسلم حديث عهد بالإسلام ، وهو لا يعرف اللغة العربية ، فإن بعض المذاهب ترى أنه يمكن أن نترجم له أقوال الصلاة كالفاتحة والتسابيح لكى يكررها فى صلاته مادام عاجزاً عن نطقها بالعربية ، ولكن يجب عليه مع هذا ألا يضيع الوقت ، بل يشرع فوراً فى تعلم اللغة العربية التى يؤدى بها الصلاة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

صلاة القصر والجمع

السؤال :

ما هو البعد الذى يجوز فيه القصر والجمع فى الصلاة ؟ وما مدة جواز استعمال هذه الرخصة فى السفر ؟

الجواب :

جاء فى بعض الكتب الفقهية أن المسافة التى تقصر فيها الصلاة هى مسافة

ثلاثة أيام من أقصر أيام السنة بالسير الوسط ، وقدر بعض العلماء هذه المسافة بنحو ثلاثة وثمانين كيلو متراً ونصف كيلو متر . وبعض الفقهاء لا يشترط مسافة معينة لقصر الصلاة . فما دام هناك سفر يطلق عليه عرف الناس المألوف أنه سفر فإن الصلاة الرباعية تقصر فيه إلى ركعتين ، ويرى كثير من الفقهاء أن ذلك مباح لمدة أربعة عشر يوماً .

وقصر الصلاة مشروع بالكتاب والسنة وإجماع الأمة . وقال النبى عليه الصلاة والسلام عن قصر الصلاة : « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » وكذلك يجمع بين الصلاتين .

ويرى بعض الأئمة كالحنفية أن قصر الصلاة فى السفر واجب . وقالوا يجب القصر فى كل سفر للحديث الذى رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : « فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فى الحضر [المدينة أو القرية] والسفر . فأقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر » .

والله تبارك وتعالى أعلم

* * *

الجمع بين الصلاتين

السؤال :

هل يجوز التقديم والتأخير عن طريق الجمع بين الصلاتين لعذر من الأعذار ؟

الجواب :

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية فى الجزء الثالث من كتابه المشهور « إعلام

الموقعين عن رب العالمين » تحت عنوان « الجمع بين الصلاتين » ما يفيد أن ذلك ثابت فى السنة الصحيحة الصريحة المحكمة ، كالحديث المروى عن أنس ، وفيه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر ، ثم نزل فجمع بينهما » . وفى حديث معاذ ابن جبل : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر حتى يجمعها مع العصر ، فيصليهما جميعاً ، وإذا ارتحل بعد زيغ الشمس صلى الظهر والعصر جميعاً ثم سار ، وكان إذا ارتحل قبل المغرب أخر المغرب حتى يصليها مع العشاء ، وإذا ارتحل بعد المغرب عجل العشاء فصلاها مع المغرب » .

ويقول ابن عباس : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا زاغت الشمس وهو فى منزله جمع بين الظهر والعصر قبل أن يركب ، وإذا لم تزغ فى منزله سار حتى إذا حانت العصر نزل فجمع بين الظهر والعصر ، وإذا حانت له المغرب فى منزله جمع بينه وبين العشاء ، وإذا لم تحن فى منزله ركب حتى إذا كان العشاء نزل فجمع بينهما » .

وقال ابن القيم : إن كل هذه سنن فى غاية الصحة والصراحة ، ولا معارض لها ، وإن ردت بأنها أخبار آحاد فالجواب بأن الجميع من عند الله . فالذى حدد مواقيت الصلاة هو الذى شرع الجمع بين الصلاتين بقوله وفعله ، فلا يؤخذ ببعض السنة ويترك بعضها .

وقد ورد فى السنة الصحيحة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد جمع بين الصلاتين فى غير سفر ولا مطر . وقد سئل راوى الحديث : ماذا أراد

النبى بذلك ؟ قال الصحابى : أراد ألا يحرج أمته . وهذا من تيسير الله على عباده الذى جعل الدين يسراً لا عسر فيه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الاصطفاف فى صلاة الجماعة

السؤال :

تأخر شخص فى صلاة الجماعة ، حتى لم يجد مكاناً له بين الصفوف ، فقام وحده بعد الصف الأخير ، فهل تصح صلاته جماعة ؟

الجواب :

من صلى منفرداً وحده عن صفوف الجماعة لأنه لم يجد مكاناً بينها تصح صلاته مع الكراهة عند الجمهور ، ويرى بعض الفقهاء ومنهم أحمد وإسحاق وحماد وابن أبى ليلى ووكيع والحسن بن صالح والنخعى وابن المنذر : أن من صلى ركعة كاملة خلف الصف بطلت صلاته ، لأنه ورد فى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يصلى خلف الصف وحده ، فأمره أن يعيد الصلاة ، وكذلك روى أن رسول الله عليه الصلاة والسلام رأى رجلا يصلى خلف الصف فوقف حتى انصرف الرجل من صلاته ، فقال له : استقبل صلاتك ، فلا صلاة لمفرد خلف الصف .

وتمسك الجمهور الذى أجاز الصلاة مع الكراهة بحديث أبى بكرة ، قالوا : لأنه أتى ببعض الصلاة خلف الصف ، ولم يأمره النبى صلى الله عليه

وسلم بالإعادة فيحمل الأمر بالإعادة على جهة الندب ، مبالغة فى المحافظة على ما هوَ الأولى .

ويروى عن أبى بكرة أنه انتهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو راكع فركع قبل أن يصل إلى الصف ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « زادك الله حرصاً ولا تعد» وقيل : إن معناه لا تعد فى تأخير المجىء إلى الصلاة ، وقيل إن معناه لا تعد إلى دخولك فى الصف وأنت راكع ، وقيل : معناه لا تعد إلى الإتيان إلى الصلاة مسرعاً .

ومن حضر ولم يجد سعة فى الصف ولا فرجة ؟ قيل : يقف منفرداً ، ويكره له جذب أحد ، وقيل يجذب واحداً من الصف عالماً بالحكم بعد أن يكبر تكبيرة الإحرام ، ويستحب للمجذوب موافقته ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لينوا فى أيدى إخوانكم وسدوا الخلل ، فإن الشيطان يدخل فيما بينكم بمنزلة الحذف » أى مثل أولاد الضأن الصغار .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

استعمال الكحول

السؤال :

ما حكم استعمال الروائح بدون الكحول عند صلاة الجمعة ؟ وما حكم استعمالها مع الكحول؟

الجواب :

إذا كانت الروائح التى تستخدم للتطيب ليس فيها كحول فليس هناك

أى مجال للشك فى طهارتها أو استعمالها ، والتطيب مسنون عند الذهاب إلى صلاة الجمعة ، وقد أعطانا الرسول عليه الصلاة والسلام أفضل القدوة فى هذا الباب ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يحرص على أن يشم الناس منه أطيب رائحة ، وكانت ثيابه من كثرة استعماله للطيب كأنها ثياب دهان أو عطار .

وأما فيما يتعلق باستعمال الروائح التى فيها كحول – والكحول هو « السبرتو » المعروف الذى يضاف إلى أنواع من الروائح والعطور – فقد جاء فى المجلد الثانى من كتاب « يسالونك فى الدين والحياة » أن لجنة الفتوى بالأزهر الشريف كانت قد تلقت سؤالا يدور حول هذا الموضوع ، فأجابت بأن الكحول « السبرتو » – على ما قاله غير واحد من العلماء – ليس بنجس ، وعلى ذلك فالأشياء التى يضاف إليها الكحول لا تنجس به ، وهذا هو ما نختاره فى الفتوى لقوة دليله ، ولدفع الحرج اللازم بالقول بنجاسته[1] .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

وجوب صلاة الجمعة

السؤال :

إذا كنت فى أوربا ، ولم يتوافر المسجد لصلاة الجمعة ، فهل أكتفى بصلاة الظهر ، أو أقيم الصلاة فى البيت مع زملائى ؟ وإذا كنت وحدى فهل أصلى الجمعة وأخطب لنفسى ؟

الجواب :

أجمع فقهاء المسلمين على أن توافر الجماعة شرط من شروط صحة

---

(١) راجع صفحة ٣٠ من المجلد الثانى من كتابى : « يسألونك فى الدين والحياة » طبعة سنة ١٩٧٢ م .

الجمعة ، فإذا لم تتوافر الجماعة سقطت صلاة الجمعة عن الإنسان وصلاها ظهراً ، وذلك لقول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة » . وقد ذكر العلماء أقوالا كثيرة فى العدد الذى تنعقد به صلاة الجمعة ، وذكر بعضهم أنها تنعقد إذا كان هناك أربعون شخصاً ، وهذا أعلى الأرقام التى ذكرها بعض الفقهاء فى هذا المجال ، ولكن الرأى الراجح أن الجمعة تصح باثنين فأكثر ، لقول النبى عليه الصلاة والسلام : « الاثنان فما فوقهما جماعة » . وقد صحت سائر الصلوات بالاثنين فى الجماعة ، والجمعة صلاة فلا موجب لاختصاصها بحكم يخالف حكم غيرها إلا بدليل ، ولا يوجد دليل على اعتبار عدد زائد فيها على المعتبر فى غيرها .

فإذا اجتمع السائل مع زملائه صحت منهم الجمعة ، ولا يشترط أن يؤدوها فى مسجد ، لأن الجمعة يصح أداؤها فى المدينة والقرية والمسجد وأبنية البلد والفضاء التابع له ، كما يصح أداؤها فى أكثر من موضع . ولقد كتب عمر لأهل البحرين يقول لهم : « أن جمعوا حيثما كنتم » . وهذا يشمل مختلف الأماكن .

وأما إذا كان السائل منفرداً ، وليس معه من يشاركه الصلاة حتى تصح الجماعة فلا يلزمه أداء صلاة الجمعة فى هذه الحالة ، وعليه أن يصلى بدلها ظهراً .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

التنفل قبل صلاة الجمعة

السؤال :

ما حكم صلاة السنة قبل الجمعة ؟

الجواب :

وردت أحاديث عن سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام تفيد أن الصلاة تسن قبل الجمعة ، وقبل خروج الإمام ، فقد روى الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من اغتسل يوم الجمعة ، ثم أتى الجمعة ، فصلى ما قدر له ، ثم أنصت حتى يفرغ الإمام من خطبته ، ثم يصلى معه غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى ، وفضل ثلاثة أيام » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يطيل الصلاة قبل الجمعة ، ويصلى بعدها ركعتين ، ويحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

وقت صلاة الجمعة

السؤال :

هل تصح صلاة الجمعة قبل دخول وقت الظهر ، فقد سمعت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أقام صلاة الجمعة قبل دخول وقت الظهر ؟ هل هذا القول صحيح ؟

الجواب :

الذى عليه جمهور المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن

وقت الجمعة هو مثل وقت الظهر ، لأن صلاة الجمعة تقوم مقام صلاة الظهر ، وقد روى البخارى وغيره عن أنس أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يصلى الجمعة إذا مالت الشمس .

وقد قال الصحابي مسلمة بن الأكوع : كنا نصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة إذا زالت الشمس ، ثم نرجع نتتبع الفىء [أى الظل] . وقال الإمام الشافعى : صلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان والأئمة بعدهم كل جمعة بعد الزوال .

ولكن يوجد فى مذهب الحنابلة أن وقت الجمعة من أول وقت صلاة العيد إلى آخر وقت الظهر ، واستدلوا بما روى عن جابر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الجمعة ثم نذهب إلى جمالنا فنريحها حين تزول الشمس . وقد رد جمهور الفقهاء على هذا الحديث بأنه محمول على المبالغة فى تعجيل الصلاة بعد الزوال من غير إبراد ، [أى انتظار لسكون شدة الحر] وأن الصلاة وإراحة الجمال كانتا تقعان عقب الزوال .

وعلى هذا نفهم أن الصحيح هو أن وقت صلاة الجمعة مثل وقت صلاة الظهر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

عدد المصلين للجمعة

السؤال :

نحن مذهبنا شافعي ، وأقمنا صلاة الجمعة مع أن عددنا كان اثني عشر شخصاً فقط ، فهل تصح صلاتنا هذه ؟

الجواب : .

يشترط فى صلاة الجمعة أن تكون فى جماعة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد قال : « الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة » ولكن الفقهاء اختلفوا بعد ذلك فى تحديد العدد اللازم لصلاة الجمعة حتى تكون مقبولة ، ويشترط فى مذهب الإمام الشافعى ألا يقل عدد المصلين للجمعة عن أربعين شخصاً ولو بالإمام ، وعلى هذا فصلاة الذين يتبعون المذهب الشافعى لا تصح منهم صلاة الجمعة إذا كان عددهم – كما جاء فى السؤال – اثنى عشر شخصاً .

وكان من الممكن أن يقلد هؤلاء أى مذهب من المذاهب الفقهية ، كمذهب الإمام مالك الذى يرى أنه يجب ألا يقل عدد المصلين للجمعة عن اثنى عشر رجلا غير الإمام ، بشرط أن يكونوا ممن تجب عليهم الجمعة ، وأن يكونوا متوطنين ، وأن يحضروا من أول الخطبتين إلى ختام الصلاة .

أو كان فى استطاعة هؤلاء أن يقلدوا مذهب الحنفية لأنه يقول إن صلاة الجمعة تصح بثلاثة أشخاص غير الإمام ، وإن لم يحضروا الخطبة .

هذا وقد أورد الإمام الحافظ ابن حجر فى كتابه « فتح البارى » أن الأقوال فى عدد الذين تنعقد بهم صلاة الجمعة قد بلغت خمسة عشر مذهباً .

والراجح عند بصراء الفقهاء أن الجمعة تصح باثنين فأكثر لقول النبى صلوات الله وسلامه عليه : « الاثنان فما فوقهما جماعة » . وقال الشوكانى : « قد انعقدت سائر الصلوات بهما بالإجماع ، والجمعة صلاة ، فلا تختص بحكم يخالف غيرها إلا بدليل ، ولا دليل على اعتبار عدد فيها زائد على المعتبر فى غيرها » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

ترك صلاة الجمعة

السؤال :

ما حكم ترك صلاة الجمعة مرة أو مرتين للضرورة ؟

الجواب :

قرر الفقهاء أن صلاة الجمعة فرض عين على كل مسلم حر عاقل بالغ مقيم قادر على السعى إليها ، خال من الأعذار التى تبيح له التخلف عنها . وقد ثبتت فرضية الجمعة بقول الله تبارك وتعالى فى سورة الجمعة : (يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن المهملين لصلاة الجمعة : « لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » وهذا يتضمن الوعيد الشديد والتحذير المنذر وكذلك قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « من ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه » .

ومع هذا فهناك أعذار ذكرها الفقهاء يباح معها التخلف عن صلاة الجمعة ، فالمريض الذى يشق عليه الذهاب إلى الجمعة ، أو يخاف زيادة المرض أو تأخيره ، يجوز له التخلف عن صلاة الجمعة ، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة إلا أربعة : عبد مملوك ، أو امرأة ، أو صبى ، أو مريض » .

وكذلك لا تجب الجمعة على المسافر ، فقد روى أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يسافر فلا يصلى الجمعة فى سفره .

وكذلك يباح التخلف عن صلاة الجمعة للمدين المعسر الذى يخشى الحبس لو خرج لأدائها ، وكذلك المختفى من حاكم ظالم .

ويباح لصاحب العذر المقبول شرعاً أن يتخلف عن صلاة الجمعة ، كما فى حالات المطر والوحل والبرد .

فإذا كان ترك صلاة الجمعة مرة أو مرتين لعذر أو ضرورة كما جاء فى السؤال فلا إثم على الإنسان فى مثل هذه الحالة إذا تخلف عن صلاة الجمعة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

صلاة الجمعة للمرأة

السؤال :

هل تكون صلاة الجمعة بالنسبة للمرأة بدون صلاة الظهر ، إذا أدت المرأة صلاة الجمعة ؟

الجواب :

المرأة لا تجب عليها صلاة الجمعة ، وقد جاء فى الحديث الصحيح :

« الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة ، إلا أربعة : عبد مملوك ، أو امرأة ، أو صبى ، أو مريض » . ولكن يجوز للمرأة أن تحضر صلاة الجمعة ، إذا لم يمنعها من ذلك مانع ، ومتى أدت المرأة صلاة الجمعة صحت منها ، وسقطت عنها فريضة الظهر ، ولقد جاء فى السنة أن النساء كن يحضرن صلاة الجمعة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجده بالمدينة ، ولم يحدث أنهن صلين الظهر بعد صلاتهن الجمعة ، وقد قال بعض الفقهاء : إن صلاة الظهر لمن صلى الجمعة لا تجوز اتفاقاً ، لأن صلاة الجمعة بدل من صلاة الظهر ، فالجمعة تقوم حينئذ مقام صلاة الظهر ، والله تبارك وتعالى لم يفرض علينا ست صلوات ، ومن أجاز صلاة الظهر بعد صلاته الجمعة ليس له مستند ، من عقل أو نقل ، لا عن كتاب ولا عن سنة ، ولا عن أحد من الأئمة رضوان الله عليهم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

المرأة وصلاة الجمعة

السؤال :

ما حكم صلاة المرأة يوم الجمعة جماعة فى المسجد ؟ وهل تجب عليها صلاة الظهر ما دامت قد حضرت صلاة الجمعة وصلتها مع الإمام؟

الجواب :

صلاة الجمعة واجبة على كل مكلف بقوله تعالى فى سورة الجمعة : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

ولكن الفقهاء قد قرروا أن صلاة الجمعة مفروضة على الرجال الذكور ، وليست مفروضة على الإناث من المسلمين ، ولذلك عندما ذكروا شروط وجوب الجمعة ذكروا من بينها شرط الذكورة ، ومعنى ذلك أنها لا تجب على الأنثى ، ولكنهم قرروا كذلك أن المرأة إذا ذهبت إلى صلاة الجمعة ، وأدت هذه الصلاة مع المصلين قبلها الله تبارك وتعالى منها ، وكانت عوضاً لها عن صلاة الظهر ، ومعنى ذلك أنها لا تصلى صلاة الظهر مادامت قد صلت مكانها صلاة الجمعة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تعدد المساجد فى صلاة الجمعة

السؤال :

يوجد مسجدان فى قرية واحدة ، وأحدهما بقرب الآخر ، وتقام صلاة الجمعة فى كل منهما ، وأحدهما يسبق الآخر . فأى الصلاتين أصح : السابقة أم المتأخرة ؟

الجواب :

يجب أن نعلم أن الإسلام دين إلهى قد جاء لتحقيق أمرين جليلين هما كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، والجمعة هى العيد الأسبوعى الذى يتلاقى فيه أبناء الإسلام داخل بيت من بيوت الله كل أسبوع ، على عبادة الله وباسم الله ، وليؤكدوا روح الأخوة والوحدة فيما بينهم ، ولذلك ينبغى أن يكون المسجد — وخاصة فى القرى — بحيث يسع المكلفين بالصلاة متى كان ذلك أمراً ميسوراً أو ممكناً ، ولذلك قال بعض الفقهاء إنه يحرم أن يقام

مسجد بجوار مسجد ، إلا لحاجة كضيق المسجد الواحد ، ومادام المسجد الواحد يسع كل المصلين للجمعة ، فلا معنى لتعدد الصلاة فى المسجدين لأن هذا يتعارض مع مقصد الإسلام من الوحدة والتوحيد .

ويضاف إلى ذلك أن بعض المذاهب الإسلامية يقول : إن الجمعة تنعقد وتكون مقبولة من المسجد الذى سبق بها ، ولكن بعض الفقهاء يقرر أنه إذا كانت هناك ضرورة إلى المسجدين قبلت صلاة الجمعة فيهما ، سواء تساويا فى الوقت ، أم تقدم أحدهما وتأخر الآخر لضرورة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

النافلة فى أثناء خطبة الجمعة

السؤال :

هل تجوز صلاة النافلة فى أثناء خطبة الجمعة ؟

الجواب :

هناك فى صلاة الجمعة أمران أساسيان مهمان فى هذه الشعيرة ، أولهما خطبة الجمعة التى يجب الاستماع إليها للاستفادة بها والتدبر فيها ، الأمر الثانى هو ركعتا الجمعة التى لا تصح إلا بهما . والمطلوب من المسلم أن يحرص على صلاة الجمعة بخطبتها وركعتيها ، وأن يبكر فى السعى إلى صلاتها لأن الله تبارك وتعالى يقول فى سورة الجمعة : (ياأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) .

وإذا بدأ الإمام فى خطبة الجمعة كان على المصلين أن يصغوا إليها ، وقد ورد فى الحديث : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة والإمام يخطب أنصت فقد لغوت » . ومتى يشرع الإمام فى الخطبة انقطعت صلاة النوافل ليتفرغ الحاضرون لاستماع الخطبة ، ومن هنا قال الفقهاء إنه يحرم صلاة النافلة عند سماع الخطبة، وقد نص على ذلك صاحب الشرح الصغير فى فقه المالكية حيث قال : إنه يحرم صلاة النفل حالة خطبة الجمعة ، لأن هذا النفل يشغل الإنسان عن سماع الخطبة وهو واجب ، ولذلك حرم على حاضر الصلاة كل شاغل يشغله عن سماع الخطبة ، بل جاء فى الكتاب المذكور أنه يجب على الإنسان فى هذه الحالة قطع صلاة النافلة إن أحرم بها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

التأمين عند خطبة الجمعة

السؤال :

ما حكم قولنا : « آمين » وقت دعاء الإمام فى خطبة الجمعة ؟

الجواب :

المعروف من الفقه أن المصلى يسن له أن يقول « آمين » بعد أن يقرأ الفاتحة سواء أكان إماماً أم مأموماً أم منفرداً ، يجهر بها فى الصلاة الجهرية ، ويسر بها فى الصلاة السرية ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول بعد الفاتحة : آمين ، ويقول مثل ذلك الذين وراءه بصوت مرتفع . وقيل : كان يقول : آمين ، حتى يسمع من يليه من الصف الأول ، ثم يرتج بها

المسجد . وجاء الحديث الصحيح القائل . « إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » ومعنى آمين : اللهم استجب .

وجاء فى كتاب « الشرح الصغير » فى مذهب المالكية ، أنه يجوز للمستمع إلى خطبة الجمعة التأمين عند دعاء الخطيب ، على أن يكون التأمين سراً ويسيرا ، ويمنع علماء المذهب أن يؤمن جهراً مع الإكثار ، لأنه يؤدى إلى ترك الواجب وهو الاستماع إلى الخطبة . وجاء فى الكتاب : الظاهر أن الجهر باليسير مكروه ثم أضاف الفقيه صاحب الشرح قوله :

ومن البدع المحرمة ما يقع بدكة المبلغين بالقطر المصرى ، من الصريخ على صورة الغناء والترنم . ولا ينكر عليهم أحد من أهل العلم . ومن البدع المذمومة أن يقول الخطيب المجهول فى آخر الخطبة الأولى : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ثم يجلس فتسمع من الجالسين ضجة عظيمة يستمرون فيها حتى يكاد الإمام أن يختم الثانية ، وعلى دكة التبليغ جماعة يرفعون أصواتهم جداً ، بقولهم : آمين آمين يامجيب السائلين إلى آخر كلام طويل ، وهكذا فإنا لله وإنا إليه راجعون .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

صلاة التراويح

السؤال :

لماذا سميت صلاة التراويح بهذا الاسم ؟

الجواب :

من الصلوات المسنونة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب فيها من غير أن يأمر فيها بعزيمة ، صلاة القيام المسنونة للرجال والنساء ، وهى تؤدى بعد صلاة العشاء فى كل ليلة من ليالى رمضان ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر بقيام رمضان ، ويجعل للرجال إماماً وللنساء إماماً ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من قام رمضان إيماناً واحتساباً [أى تصديقاً يريد به وجه الله] غفر له ماتقدم من ذنبه » . وقالت عائشة رضى الله عنها : صلى النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فصلى بصلاته ناس كثير ، ثم صلى من القابلة فكثروا ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة فلم يخرج إليهم ، فلما أصبح قال : قد رأيت صنيعكم فلم يمنعنى من الخروج إليكم إلا أنى خشيت أن تفرض عليكم . وذلك فى رمضان .

وصلاة قيام رمضان تسمى صلاة التراويح كما هو مشهور عند عامة المسلمين ، والتراويح جمع ترويحة ، وهى المرة الواحدة من الراحة ، وهى تطلق فى الأصل على الاستراحة كل أربع ركعات من صلاة قيام رمضان ، لأنهم كانوا يستريحون بعد كل تسليمتين ، ثم أطلقت كلمة ترويحة على كل أربع ركعات من صلاة القيام ، ومن هنا سميت صلاة القيام بصلاة التراويح .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

صَلاة التراويح مع الإمام

السؤال :

هناك رجل لم يدرك العشاء مع الإمام ، هل يجوز انتظاره حتى ينتهى من صلاة العشاء، ليصلى التراويح مع ذلك الإمام؟

الجواب :

إن صلاة العشاء فرض واجب ، لقول الله تبارك وتعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) [سورة النساء] .

ويقول القرآن الكريم كذلك فى سورة البقرة : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) . وكان ينبغى أن يصلى السائل صلاة العشاء مع الإمام ، حتى يكون قد أدى الفريضة الواجبة عليه ، ويكسب ثواب الجماعة ، لأن صلاة الجماعة يزيد ثوابها على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، وبعد الانتهاء من صلاة العشاء يستطيع هذا السائل أن يصلى صلاة التراويح مع الإمام نفسه .

وتبقى صورة أخرى للسؤال ، وهى أن يكون السائل قد صلى العشاء فى جماعة مع إمام آخر ، ثم وجد هذا الإمام الذى ذكره يصلى العشاء ، فلا مانع من الانتظار حتى تنتهى هذه الصلاة التى أداها ، ثم يصلى بعد ذلك صلاة التراويح مع الإمام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

القراءة فى صلاة العيد

السؤال :

ماذا يقرأ فى صلاة العيد؟

الجواب :

صلاة العيدين سنة مؤكدة ، واظب عليها النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمر الرجال والنساء أن يخرجوا إليها .

وصلاة العيد تقام بلا أذان ولا إقامة ولانداء ، وهى ركعتان ، يسن فيهما أن يكبر المصلى قبل القراءة فى الركعة الأولى سبع تكبيرات بعد تكبيرة الإحرام ، وفى الثانية خمس تكبيرات غير تكبيرة القيام ، مع رفع اليدين مع كل تكبيرة ، ويسكت بين كل تكبيرتين سكتة خفيفة ، واستحب الإمامان أحمد والشافعى أن يفصل بين كل تكبيرتين بذكر الله تعالى ، مثل أن يقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر .

وذكر الغزالى فى « إحياء علوم الدين » أنه يقرأ سورة(ق)فى الركعة الأولى بعد الفاتحة ، ويقرأ سورة (القمر) فى الثانية .

ويخطب بعد الصلاة خطبتين يجلس بينهما جلسة خفيفة ، والاستماع إليهما سنة ، وعلى الخطيب أن يقتدى فيهما بسيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيعظ الناس ويوصيهم ، وبعض الأئمة يرى أن العيد له خطبة واحدة ، وأن كل ما ورد فى أن للعيد خطبتين يفصل بينهما الإمام بجلوس فهو ضعيف .وقال النووى : لم يثبت فى تكرر الخطبة شىء .

ويستحب افتتاح خطبة العيد بحمد الله تعالى ، ويكثر التكبير فى أثناء الخطبة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

صلاة التسابيح

السؤال :

سمعت أن من الصلاة المسنونة الكثيرة الثواب صلاة تسمى صلاة التسابيح ، فما تلك الصلاة ، وما كيفيتها ، ولماذا سميت بذلك الاسم ؟

الجواب :

سميت هذه الصلاة بصلاة التسابيح لأنها يذكر فيها التسبيح ثلثمائة مرة ، وقد جاء فى شأنها حديث رواه الترمذى وأبو داود . وفيه :

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن عبد المطلب : «ياعباس ياعماه ، ألا أعطيك ؟ ألا أمنحك ؟ ألا أحبوك ، ألا أفعل بك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك : أوله وآخره ، قديمه وحديثه ، خطأه وعمده ، صغيره وكبيره ، سره وعلانيته ، عشر خصال : أن تصلى أربع ركعات [بنية صلاة التسابيح] تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة ، فإذا فرغت من القراءة فى أول ركعة وأنت قائم قلت : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، خمس عشرة مرة ، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشراً ، ثم ترفع رأسك

من الركوع فتقولها عشرا ، ثم تهوى ساجداً فتقولها وأنت ساجد عشراً ، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً ، ثم تسجد فتقولها عشراً ، ثم ترفع رأسك فتقولها عشراً [وأنت جالس للاستراحة قبل القيام] فذلك خمس وسبعون فى كل ركعة ، تفعل ذلك فى أربع ركعات ، إن استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل ، فإن لم تفعل ففى كل جمعة مرة ، فإن لم تفعل ففى كل شهر مرة ، فإن لم تفعل ففى كل سنة مرة ، فإن لم تفعل ففى عمرك مرة » .

وزيد فى رواية : فإنك لوكنت أعظم أهل الأرض ذنباً غفر لك بذلك .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

استعمال سجاجيد الصلاة

السؤال :

هل يجوز استعمال سجاجيد الصلاة لأغراض أخرى ، كأن يجلس عليها غير المسلمين من الضيوف ؟

الجواب :

نفهم من الإسلام أنه يجب عند الصلاة أن يكون المصلى طاهر الجسم ، طاهر الثياب ، طاهر المكان . ولم يكن معروفاً فى صدر الإسلام اتخاذ السجاجيد المعروفة للصلاة . كما تعودنا ذلك فى العصور الأخيرة ، لأن الصلاة تجوز على الأرض مادامت لاتتلوث بنجاسة ظاهرة ، وقد أوسع الرسول عليه الصلاة والسلام المجال فى هذا الباب حين قال فى حديثه

المشهور : « جعلت لى الأرض مسجداً وترابها طهوراً » . واستفاد العلماء من هذا الحديث أن الصلاة تصح فى كل بقعة جافة من الأرض لم تتلوث بنجاسة ظاهرة . وليس غير المسلم – مثل المسيحى – نجس البدن حتى يقال إن جلوسه على السجادة سيلوثها بالنجاسة ، ويجعلها غير صالحة للصلاة عليها .

والإسلام العظيم دين سمح كريم ، يؤكد علاقة المودة والمعرفة بين المسلمين وأبناء الأديان الإلهية الأخرى ، مادام لا يوجد ضرر من وراء ذلك أو ضرار .

وإذا كان عند المسلم ضيف غير مسلم لا يطغى ولا يبغى فإن جلوسه على السجادة لا يجعلها غير صالحة للصلاة عليها ، وخاصة إذا كان هناك تبادل للاحترام وعدم الاستهزاء بالشعائر أو العبادات .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الفرق بين الْقَبْلية والْبَعْدية

السؤال :

ما معنى كلمة « القبلية » و « البعدية » فى الصلاة ؟

الجواب :

القبلية كلمة منسوبة إلى كلمة « قبل » والبعدية كلمة منسوبة إلى كلمة « بعد » . وهاتان الكلمتان تتعلقان فى الغالب بالصلوات المسنونة التى تكون قبل أداء الصلاة المفروضة ، أو تكون بعد أداء الصلاة المفروضة ، فإذا كانت الصلاة المسنونة تؤدى قبل الصلاة المفروضة سميت سنة « قبلية » .

وذلك مثل صلاة ركعتين قبل صلاة فريضة الصبح ، وإذا كانت الصلاة المسنونة تؤدى بعد الصلاة المفروضة ، سميت « سنة بعدية » ، وذلك مثل صلاة ركعتين سنة بعد صلاة المغرب .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

قضاء صلاة الظهر

السؤال :

هل يجوز قضاء صلاة الظهر بعد غروب الشمس ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة النساء : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) أى إن الصلاة فريضة معلومة مؤقتة بمواقيت محددة ، فكل فريضة منها لها وقت تبدأ فيه ، ووقت تنتهى عنده ، فإذا أدى الإنسان الفريضة داخل وقتها المحدد كانت أداء ، وإذا أهمل أداءها حتى انتهى وقتها كانت قضاء .

وفريضة الظهر يبدأ وقتها عند زوال الشمس عن كبد السماء ، ويمتد وقتها إلى أن يصير ظل كل شىء مثله أو مثليه ، على حسب اختلاف الفقهاء . فإذا لم يؤد الإنسان صلاة الظهر حتى دخل وقت العصر كان واجباً عليه أن يصلى فريضة الظهر قضاء فى وقت العصر الذى دخل ، وبعد ذلك يصلى فريضة الوقت الحاضر وهى صلاة العصر

وإذا فرضنا أنه أهمل صلاة الظهر أو تركها حتى غربت الشمس فإن وقت المغرب يدخل عقب هذا الغروب ، ومن الممكن أن يصلى الإنسان صلاة الظهر الذى فاته وإن كان قد أساء فى تأخيره عن ميقاته .

والله تبارك وتعالى أعلم.

* * *

حق الإمامة

السؤال :

هل تجوز إمامة شخص تقتصر معرفته على حفظ القرآن الكريم دون الكتب الدينية الأخرى؟

الجواب :

لقد ذكر الفقهاء أن أحق المصلين بالإمامة هو الأقرأ لكتاب الله تبارك وتعالى ، فإن استووا فى القراءة يقدم من بينهم الأعلم بالسنة ، وإن استووا يقدم الأكبر سناً وقد بنوا حكمهم هذا على أساس الحديث الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم ، وأحقهم بالإمامة أقرؤهم » والمراد بالأقرأ هو الأكثر حفظاً .

وقد روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سناً » .

ومن هذا نفهم أنه لا يشترط لكون الرجل إماماً أن يكون حافظاً للكتب الدينية ، لأن هذا ليس شرطاً فى حق الإمام .

ومن الطبيعى أنه يشترط فى الإمام قبل كل هذه الشروط أن يكون محسناً لأداء الصلاة عارفاً بأحكامها ، مميزاً بين مايفسدها وما لا يفسدها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

صلاة الرجل بقرب المرأة

السؤال :

هل يجوز للزوج والزوجة أن يؤديا الصلاة على سجادة واحدة ؟ وهل يجوز ذلك أيضاً بالنسبة إلى الابن والبنت ، أو الابن وأمه ، أو الأخ وأخته ؟

الجواب :

الأصل المعروف فى الإسلام هو أن صفوف الرجال تتقدم ، وأن صفوف النساء تتأخر ، وقد روى أحمد وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجعل الرجال فى الصلاة قدام الغلمان ، والغلمان خلفهم ، والنساء خلف الغلمان . وروى الجماعة إلا البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها » .

وإنما كان خير صفوف النساء آخرها ، لما فى ذلك من البعد عن مخالطة الرجال ، بخلاف الوقوف فى الصف الأول فإنه مظنة المخالطة لهم .

وقد جاء فى المجلد الأول من كتابى « يسألونك[1] » أن السيدة عائشة رضى الله عنها ذكرت أنها كانت تنام أمام النبى وهو يصلى ، ورجلاها فى المكان الذى سيسجد فيه النبى لضيق المكان ، فإذا سبق النبى لمس قدمها فتثنى رجلها .

وهذا الحديث يدل على أن المكان الذى كان يصلى فيه الرسول كان ضيقاً ، فلا يجد متسعاً من المكان ولا من الفراش ، فيصلى والسيدة عائشة تنام أمامه بالقرب منه .

وكذلك روى عن عبد الرحمن بن خلاد أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يزور أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث فى بيتها ، فاستأذنته فى مؤذن ، فجعل لها مؤذناً ، وأمرها أن تؤم أهل دارها ، أى تصلى بهم إماماً ومنهم المؤذن ، فكان يقتدى بها معهم ، فهذا يدل على صحة إمامة المرأة بالرجال ، وهذا هو مذهب المزنى وأبى ثور والطبرى ، ولكن الجمهور يرى أنه لا تصح إمامتها بالرجال ، للحديث الذى رواه ابن ماجة : «لا تؤمن امرأة رجلا » وقد روى البخارى والترمذى الحديث القائل : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » وهم يقولون إن أم ورقة كانت تصلى بنساء أهل دارها فقط .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

(١) انظر صفحة ٢٥ من المجلد الأول من كتاب « يسألونك فى الدين والحياة » .

دخول غير المسلم المسجد

السؤال :

هل يجوز للمشركين أن يدخلوا المساجد والجوامع مع أنهم أهل نجاسة ، مصداقاً لقول الله تعالى فى سورة التوبة : (ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم) ؟

الجواب :

نفهم من هذه الآية أن المشركين كانوا يقربون المسجد الحرام قبل نزول هذا التحريم لغرض من الأغراض ، ثم نصت الآية على تحريم اقتراب المشركين من المسجد الحرام الموجود بمكة وداخله الكعبة المكرمة ، وذلك لأن الإشراك بالله تعالى نجاسة معنوية لا يليق بطهارة المساجد أن يدخلوها أو يقتربوا منها . والشأن فى المساجد أن يعمرها ويدخلها المؤمنون الموحدون لأن الله تعالى يقول فى سورة التوبة أيضاً : (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم فيها خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

قتل المصلى العقرب

السؤال :

إذا رأى المصلى حيواناً مؤذياً مثل العقرب فى أثناء الصلاة فهل له أن يقطع الصلاة ليقتل هذه العقرب ؟

الجواب :

تحدث الفقهاء عن الأشياء التى تباح فى الصلاة مثل البكاء والالتفات عند الحاجة ، والمشى اليسير للحاجة ، ورد السلام بالإشارة ، والتسبيح لأمر عارض ، وتذكير الإمام بصحة الآية التى يقرؤها . وقد ذكر الفقهاء أن من الأشياء المباحة للمصلى قتل الحية والعقرب والزنابير ونحو ذلك من كل مايضر ، وإن أدى قتلها إلى عمل كثير ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، فيما يرويه أحمد وأصحاب السنن ، فى الحديث الحسن الصحيح ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اقتلوا الأسودين فى الصلاة : الحية والعقرب »، ويطلق على الحية والعقرب لفظ الأسودين تغليباً ، وإن كان لا يسمى بالأسود فى الأصل إلا الحية .

ومن هذا نفهم أنه يجوز للمصلى أن يقتل العقرب التى اقتربت منه فى أثناء الصلاة ، ولا يقطع صلاته ، ولو احتاج قتلها إلى عمل كثير بل يستمر فى صلاته حتى يتمها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

المسجد فى المقبرة المهجورة

السؤال :

هل يجوز بناء المسجد مكان مقبرة مهجورة ؟

الجواب :

إن بناء المساجد فى الأماكن المحتاجة إليها من أفضل الأعمال والقربات عند الله تعالى ، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنة » .

والمقبرة تعتبر كالشىء الموقوف فلا يجوز الاعتداء عليه ولا انتهاك حرمته ، مادام يستخدم فى غرضه وهو الدفن ومادام يوجد فى المقبرة شىء من أجساد الموتى أو عظامهم ، ولكن إذا كانت المقبرة مهجورة ، ومضت عليها مدة طويلة بحيث نتأكد من أنه لم يبق فيها شىء من أجسام الموتى أو عظامهم ، فإنه فى هذه الحالة يجوز استعمال أرض المقبرة فى الأغراض المشروعة والمقاصد المباحة ، وإن كان ينبغى أن نتأكد من خلوها من بقايا العظام ، وإذا وجد شىء منها ولو كان قليلا جمعناه وعزلناه فى مكان مصون ، لأن صيانة عظام الميت واجب مثل صيانته وهو حى .

وعلى هذا يجوز بناء مسجد فى أرض مقبرة مهجورة قديمة مضت عليها مدة طويلة دون دفن فيها وتأكدنا من خلوها من أجساد الموتى وعظامهم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

قطع الصلاة لنزول الحيض

السؤال :

ما حكم المرأة إذا جاءها الحيض فى أثناء تأدية الصلاة المفروضة ؟ هل يجوز قطعها ؟

الجواب :

بمجرد نزول الحيض على المرأة تصبح جنباً ، وبذلك لا يجوز لها — بل يحرم عليها — أن تصلى ما دامت حائضاً . وإذا كانت المرأة تؤدى صلاة مفروضة أو غير مفروضة ، ونزل عليها دم الحيض فى الصلاة فإنها تقطع صلاتها فوراً ولا تكملها ، وتمتنع عن الصلاة مدة حيضها حتى تطهر منه ، وبعد ذلك تستأنف الصلاة التى تجب عليها عقب ذلك ، ولا يطالبها الدين بقضاء الصلوات المفروضة التى مرت عليها وهى فى حالة الحيض .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

خروج المصلى من صلاته

السؤال :

إذا بدأ إنسان فى الصلاة ، ثم رأى مجنوناً يتجه إليه ليعتدى عليه ، فدفعه الخوف إلى الهرب ، فما حكم صلاته ؟

الجواب :

قرر الفقهاء أنه يحرم على الإنسان المصلى أن يفعل فى صلاته ما يفسدها

دون عذر ، فإن كان هناك سبب كإغاثة ملهوف ، أو إنقاذ غريق ، أو نحو ذلك ، فإنه يجب عليه أن يخرج من صلاته ، ويرى بعض المذاهب أنه يباح للمصلى أن يقطع صلاته إذا خاف ضياع مال له ولو كان قليلا ، ويباح مثل ذلك إذا كانت هناك أم تصلى وخافت على ولدها من الألم بسبب البكاء ، أو فارت قدر الطعام وهى على النار ، أو خاف المصلى من ضياع دابته إذا هربت ولم يتبعها ، وكذلك ماجاء فى السؤال وهو أن الإنسان المصلى رأى مجنوناً يهجم عليه ، وخاف المصلى من الاعتداء عليه ، فيخرج من صلاته طلباً للهرب والنجاة من ذلك العدوان ، وبعد أن يأمن على نفسه وحياته يعود إلى صلاته .

وقد قرر بعض الفقهاء أن المصلى إذا خاف على نفسه أو أهله أو ماله من عدو أو لص أو حيوان مفترس ، أو ما أشبه ذلك ، فإنه يصلى بالإيماء إلى أية جهة توجه إليها ، ويجوز ذلك فى كل هرب مباح من سيل أو حريق أو عدوان إذا لم يجد معدلا عنه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تذكر الفائتة فى الصلاة

السؤال :

هناك إمام يؤم الناس فى صلاة المغرب ، ولكنه تذكر فى أثناء الصلاة أنه لم يصل العصر ، فماذا يفعل ؟ وما حكم صلاة المأموم خلفه ؟ هل تبطل صلاته ؟

الجواب :

إذا كان الإنسان يصلى مأموماً فإنه يتبع الإمام فى صلاته ، والإمام الذى

يؤم الناس فى الصلاة ، ويتذكر فى أثنائها أنه لم يصل العصر ، فالواجب عليه أن يمد يده يستخلف من ورائه أحد المصلين فيصلى بقية الصلاة بالناس ، ويتوضأ ثم يعود إلى صلاة الفريضة التى فاتته ، ثم يصلى بعدها الصلاة التى كان إماماً فيها .

ولو فرضنا وواصل الإمام صلاة المغرب التى هو إمام فيها ؛ على الرغم من تذكره أن صلاة العصر قد فاتته ، فإن صلاته تبطل ، وتبطل صلاة المصلين خلفه إذا أعلمهم بحقيقة الحال ، وأما إذا لم يخبرهم فإن صلاتهم تكون صحيحة ويتحمل هو الوزر أمام الله تبارك وتعالى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

صلاة العيد

السؤال :

كيف تكون صلاة العيد ، وهل تكون خطبته مرتين ، وكيف يكون تكبير العيد ، وهل يجب وضع اليدين على الصدر بعد كل تكبيرة ؟

الجواب :

صلاة العيد سواء أكانت صلاة عيد الفطر أم عيد الأضحى ركعتان تصليان كركعتى الجمعة أو كركعتى الصبح ، وتتميزان بأن التكبيرات التى تكون فيهما قبل قراءة الفاتحة ، يكبر الإمام فى الركعة الأولى سبع تكبيرات ويفعل المأموم وراءه مثل ذلك ، وفى الركعة الثانية يكبر الإمام خمس

تكبيرات ويفعل المأموم و ـ ءه مثل ذلك والخطبة فى العيد مثل خطبة الجمعة يجلس الإمام جلسة خفيفة بين الخطبة الأولى والخطبة الثانية . ويضع الإنسان يديه على صدره بعد كل تكبيرة عند أهل المذاهب التى توجب وضع اليدين على الصدر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

سجود السهو

السؤال :

إذا كان الإمام فى الصلاة يسجد للسهو قبل السلام أو بعده ، فهل يسجد المأموم معه ؟

الجواب :

سجود السهو سجدتان يسجدهما المصلى قبل التسليم أو بعد التسليم ، إذا ترك واجباً من الواجبات سهواً . وسجود السهو يكون فى الصلاة التى يؤديها المنفرد ، وكذلك يؤديها فى صلاة الجماعة إذا سهى فيها الإمام وسجد للسهو ، فإن المأموم يتبع إمامه ويسجد معه ، لأنه مقتد به تابع له ، والنقص قد دخل صلاته أيضاً لارتباطها بصلاة الإمام ، وكذلك يسجد للسهو إذا شك فى عدد الركعات ، فقد جاء فى الحديث الصحيح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا شك أحدكم فى صلاة فلم يدر كم صلى ، ثلاثا أم أربعا ، فليطرح الشك ، وليبن على ما استيقن ، ثم يسجد سجدتين قبل أن يسلم » . وفى حديث صحيح آخر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا زاد الرجل أو نقص فليسجد سجدتين » .

والحكمة فى سجود السهو أنه كجبر للنقص الذى يوجد فى الصلاة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

سجود التلاوة

السؤال :

ما كيفية سجود التلاوة؟ ومتى يكون؟

الجواب :

هو سجدة يأتى بها الإنسان إذا قرأ آية من الآيات التى وردت فى القرآن ، وفيها موضع من مواضع السجود ، فيكون من المستحب للإنسان أن يكبر ، ويسجد سجدة ، ثم يكبر عند الرفع من هذه السجدة ، وهذه السجدة تسمى سجدة التلاوة — أى تلاوة القرآن — أو سجود التلاوة ، وهى ليس فيها تشهد أو تسليم .

والدليل على مشروعيتها مارواه أبو داود والبيهقى والحاكم ، عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ علينا القرآن ، فإذا مر بالسجدة كبر وسجد وسجدنا .

وقال عبد الله بن مسعود : إذا قرأت سجدة فكبر واسجد ، وإذا رفعت رأسك فكبر .

وحكم هذه السجدة أنها سنة للقارئ والمستمع .

وفى القرآن المجيد خمسة عشر موضعاً للسجود ، بيانها كالآتى :

١ – سورة الأعراف : (إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) .

٢ – سورة الرعد : (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال) .

٣ – سورة النحل : (ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون) .

٤ – سورة الإسراء : (قل آمنوا به أو لاتؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً) .

٥ – سورة مريم : (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً) .

٦ – سورة الحج : (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب . . .) الآية .

٧ – سورة الحج : (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) .

٨ – سورة الفرقان : (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) .

٩ – سورة النمل : (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ماتخفون وما تعلنون) .

١٠ – سورة السجدة : (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) .

١١ ـ سورة ص : (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) .

١٢ ـ سورة فصلت : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) .

١٣ ـ سورة النجم : (فاسجدوا لله واعبدوا) .

١٤ ـ سورة الانشقاق : (وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون) .

١٥ ـ سورة العلق : (واسجد واقترب) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

صلاة الاستسقاء

السؤال :

ما هى مشروعية صلاة الاستسقاء ؟

الجواب :

جاء فى كتاب « الشرح الصغير » فى مذهب المالكية أن صلاة الاستسقاء سنة مؤكدة تؤدى عند طلب السقيا من الله تبارك وتعالى ، وهى ركعتان كالنوافل يقرأ فيهما جهراً ، وبعدها خطبتان فيهما دعاء واستغفار ، ويخرج الإمام والناس إلى المصلى مشاة لإظهار العجز والانكسار فى ثياب مبتذلة ، مع ذلة وخشوع وخضوع ، لأن ذلك أقرب إلى الإجابة . وبعد الفراغ

من الخطبتين يستقبل القبلة بوجهه قائماً ويحول رداءه ، فيأخذ بيده اليمنى ما على عاتقه الأيمن ، ويجعله على الأيسر ، ويبالغ فى الدعاء إلى الله برفع الكرب والقحط ، وإنزال الغيث والرحمة ، وعدم المؤاخذة بالذنوب ، ويؤمن الناس على دعاء الإمام مبتهلين متضرعين .

وقال الإمام الغزالى فى الإحياء عن هذه الصلاة :

إذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار ، أو انهارت قناة ، يستحب للإمام أن يأمر الناس أولا بصيام ثلاثة أيام ، وتقديم ما أطاقوا من الصدقة والخروج من المظالم ، والتوبة من المعاصى ، ثم يخرج بهم فى اليوم الرابع ، وبالعجائز والصبيان ، متنظفين فى ثياب بذلة واستكانة متواضعين . . .

فإذا اجتمعوا فى المصلى الواسع من الصحراء نودى : الصلاة جامعة ، فصلى بهم الإمام ركعتين مثل صلاة العيد بغير تكبير ، ثم يخطب خطبتين يجلس بينهما جلسة خفيفة ، وليكن الاستغفار معظم الخطبتين ، وينبغى فى وسط الخطبة الثانية أن يستدبر الإمام الناس ويستقبل القبلة ، ويحول رداءه فى هذه الساعة تفاؤلا بتحول الحال ، هكذا فعل الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة ، ويقول فى الدعاء : اللهم إنك أمرتنا بدعائك ، ووعدتنا إجابتك ، فقد دعوناك كما أمرتنا ، اللهم فامنن علينا بمغفرة ما قارفنا ، وإجابتك فى سقيانا وسعة أرزاقنا .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الصلاة بالثياب الإفرنجية

السؤال :

هل تجوز الصلاة بثياب إفرنجية مثل البدلة ، أو البنطلون والقميص ؟

الجواب :

الواجب على الإنسان أن يكون مستور العورة حين أدائه للصلاة ، وما دامت الثياب التى يلبسها المصلى تحقق هذا الستر ، فلا تظهر منها عورته ، فإنه يصح الصلاة فيها ، ونحن نرى الآلاف المؤلفة من المسلمين يؤدون الصلوات فى الثياب التى يسمونها إفرنجية ، « مثل البدلة والبنطلون » والقميص كما جاء فى السؤال .

لكن على المصلى فى مثل هذه الثياب أن يجعلها واسعة غير محددة لأجزاء جسمه وخصوصاً مواطن عورته ، بسبب ضيقها وتحديدها لتفاصيل جسمه ، وما دامت هذه الثياب قد توافر لها ما أشرنا إليه فلا بأس بالصلاة فيها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

ترك الصلاة

السؤال :

امتنعت امرأة عن أداء الصلاة فهل يطلقها زوجها أو يعيش معها ؟ وهل يجوز له تناول الطعام الذى تصنعه له ؟

الجواب :

الصلاة عماد الدين ، وهى الفرق ما بين المسلم والكافر ، فإذا ترك

الإنسان الصلاة جاحداً لها ، منكراً لمشروعتيها ، فهو كافر خارج عن الإسلام ، ولكنه إذا تركها تهاوناً وتكاسلا مع اعتقاده أنها واجبة لازمة ، فإنه يكون قد أذنب ذنباً كبيراً ، وارتكب إثماً عظيماً ، فقد جاء فى الحديث الذى رواه مسلم : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » وروى الطبرانى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر الصلاة : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف » . وقد علق على ذلك الإمام ابن القيم بقوله : تارك الصلاة إما أن يشغله ماله أو ملكه أو رياسته أو تجارته . فمن شغله عنها ماله فهو مع قارون ، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون ، ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان ، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أبى بن خلف .

وقد ذكر الفقهاء أن تارك الصلاة يكون جزاءه الحبس والتعزير حتى يصلى .

والرجل يجب عليه أن يأمر زوجته بالصلاة ، ويشدد معها فى ذلك الأمر تشديداً قوياً ، والله تعالى يقول فى سورة طه : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) ، ويجب أن يستنفد معها وسائل الترغيب والترهيب ، فإن أصرت على ترك الصلاة وتضييعها ، فإن أبت هددها بالطلاق ، فإن أصرت طلقها ، ولاينبغى له أن يأكل من طعام صنعته تنفيراً لها مما صنعت وحملا لها على اتباع طريق الهدى ، لأن فريقاً يرى أن من ترك الصلاة إهمالا وتكاسلا وتساهلا يكون كافراً ، ولو كان معتقداً بفرضيتها ووجوبها لأن من ترك الصلاة فقد هدم الدين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *



الزَكَاة



زكاة التجارة

السؤال :

أنا تاجر شاى أشترى الكيلو بمائتين ، وأبيعه بمائتين وخمسين قرشاً ، فهل تكون الزكاة على ثمن الشراء ، أو على ثمن البيع ؟

الجواب :

هذا السؤال يتعلق بزكاة التجارة ، وتسمى فى الفقه زكاة عروض التجارة ، وكلمة « عروض » جمع « عرض » ، وهو غير الأثمان من المال ، ولا ارتباط بين الزكاة وثمن الشراء أو ثمن البيع .

وإنما على التاجر أن يقوّم السلع التى يتاجر فيها ، على حسب الوقت الحاضر ، وما تساويه بالفعل عند أهل البصر بالتجارة ، ويعرف ثمن السلع ، لأن عروض التجارة المتداولة للتجارة والاستغلال تعد نقوداً ، ولا فارق بينها وبين النقود التى هى أثمانها .

وبعد أن يقدر التاجر أثمان السلع بالسعر الحاضر ، يخرج ربع العشر من قيمتها ، إذا مضى عليها العام ، مادامت القيمة تبلغ النصاب ، وهو ما قيمته عشرون ديناراً .

والله تبارك وتعالى أعلم.

* * *

زكاة الذهب والفضة الآن

السؤال :

فى كتاب الفقه على المذاهب الأربعة أن الزكاة تكون بالدينار ، ونحن فى بلادنا لا نستعمل الدينار ، فكيف يكون إخراج الزكاة بعملتنا المحلية ؟

الجواب :

المعروف فى زكاة النقود هو أن الإنسان إذا كان عنده مائتا درهم أو عشرون ديناراً ، وحال عليها الحول فإنه يجب أن يخرج زكاتها وهى ربع العشر ، وبلوغ النقود الحد الأدنى للنصاب وهو عشرون ديناراً شرط لوجوب الزكاة ، أو كان المبلغ قد بلغ مائتى درهم .

ومن الواضح أن القيمة النقدية أو الشرائية للذهب والفضة تتغير من بلد إلى بلد ، ومن عهد إلى عهد ، بل إن بعض البلاد لايوجد فيها التعامل بالدنانير أو الدراهم ، ولكن يمكن أن نقول إن النصاب هو ما يساوى قيمة خمسة وثمانين جراماً من الذهب ، وهى المساوية للعشرين ديناراً التى جاءت بها الآثار واستقر عليها الأمر .

ويقدر نصاب الذهب بنحو اثنى عشر جنيهاً ذهبياً ، وتذكر بعض المراجع أن الجنيه الذهبى يساوى الآن عشرات من الجنيهات الورقية [البنكنوت] ، ويختلف السعر من بلد لآخر ، إذا كان السعر بالنقود الورقية ، ولكن يمكن تحديد ثمن النصاب بالذهب ، وهو كما ذكر خمسة وثمانون جراماً ، ومن السهل معرفة ثمن هذا النصاب بحسب سعر الذهب فى كل قطر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

زكاة البنكنوت

السؤال :

ما هى قيمة الزكاة على أوراق البنكنوت فى مذهب المالكية ؟

الجواب :

أوراق البنكنوت هى قطع من ورق خاص ، تحمل أعداداً صحيحة ، يقابلها فى العادة رصيد معدنى بنسبة خاصة يحددها القانون ، وتصدر إما من الحكومة ، أو من هيئة تبيح لها الحكومة إصدارها ليتداولها الناس عملة ، وقد تسمى نقوداً ورقية مصرفية . وقد ذهب مذهب المالكية إلى أن أوراق البنكنوت – وإن كانت سندات دين – إلا أنها يمكن صرفها فضة فوراً ، وتقوم مقام الذهب فى التعامل ، فيجب فيها الزكاة بشروطها كالزكاة فى الذهب والفضة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الزكاة للمرضى

السؤال :

هل يجوز تقديم الزكاة للأعمى ، والمجذوم ومن يعانى الشلل ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة التوبة عن مصارف الزكاة : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) .

ونلاحظ أن الزكاة تعطى للمحتاجين ، ولذلك كان أول الأصناف التى ذكرتها الآية الكريمة هم الفقراء والمساكين . وعبرت السنة النبوية المطهرة عن الزكاة بأنها تؤخذ من أغنياء المسلمين ، وترد على فقرائهم .

والأعمى إنسان مصاب بفقد البصر وهذا يجعله فى العادة محتاجاً إلى من يعاونه ويأخذ بيده ، فإذا كان الأعمى فقيراً أو مسكيناً استحق أخذ الزكاة ، وربما يكون أولى بها من غيره .

ولكن الأعمى إذا كان غنياً وقادراً ومتمكناً من مطالب حياته وحاجات معيشته فإنه لا يستحق أخذ الزكاة .

ومثل هذا يقال عن المريض بمرض الجذام ، أو الشلل ، فإن كانا محتاجين لثمن دواء أو علاج ، أو لا يجدان ضرورات الحيـــاة ، استحقا الزكاة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

نقل الزكاة

السؤال :

هل يجوز أداء الزكاة إلى أهل بلد آخر غير البلد الذى يعيش فيه المزكى ؟

الجواب :

الزكاة فريضة إسلامية لا ينكرها إلا جاحد للإسلام أو جاهل بأصوله وقواعده ، والأصل فى الزكاة هو أنها تؤخذ من الأغنياء فى البلد ،

وتعطى لفقراء هذا البلد ومستحقيه ، وكذلك يجب على المزكى أن يدفع الزكاة إلى المحتاجين من أهل بلده ، حتى لا تبقى جماعة محتاجة فى مجتمع الإسلام .

ومع هذا قرر الفقهاء أن الزكاة يجوز نقلها إلى بلد آخر فى بعض الحالات كأن يستغنى أهل بلد المزكى ، ولا يوجد بينهم محتاج يستحق المعونة ، وقد حدث مثل هذا على عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد عهد إلى معاذ بن جبل بأن يجمع الزكاة من بعض أقاليم الإسلام ، ولكن معاذاً أرسل إلى الخليفة بثلث الزكاة ، ولما سأله عمر عن السر فى ذلك ذكر له معاذ أنه لم يجد فى البلد من يستحق أخذ الزكاة ، وفى العام التالى أرسل معاذ إلى عمر بنصف الزكاة ، وفى العام الثالث أرسل إليه الزكاة كلها ، لأن الناس فيها قد استغنوا بفضل الله وحمده ، وكذلك يجوز نقل الزكاة من بلد المزكى إلى بلد آخر ، إذا كان فى هذا البلد أقارب له يستحقون الزكاة .

وكذلك يجوز فى بعض المذاهب نقل الزكاة إلى بلدة تعرضت لنازلة أو ضائقة ، ورأى ولى الأمر الشرعى أن من المصلحة نقل الزكاة إليها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

قضاء الزكاة

السؤال :

هل تجب الزكاة على من ليس عنده مال ادخار ؟ وهل تقضى الزكاة كما تقضى الصلاة ؟

الجواب :

لعل المراد بكلمة الادخار فى السؤال هو أن هذا الشخص لا يفيض

عنده شيء من المـال يدخره ، لأن مطالب حياته تستلزم أن ينفق ما يأتيه أولا بأول ، وفى هذه الحالة لا يكون على الإنسان الزكاة ، لأن زكاة الأموال تكون فى المـال المدخر ، والذى يبلغ النصاب الذى تجب به الزكاة ، ويحول عليه الحول ، أى يمضى عليه السنة وهو مدخر .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس عليك شيء حتى يكون لك عشرون ديناراً ، وحال عليها الحول ، ففيها نصف دينار ، فمازاد فبحساب ذلك ، وليس فى مال زكاة حتى يحول عليه الحول » أى يمضى عليه عام .

وإذا لم يخرج الإنسان الزكاة الواجبة عليه فإنها تبقى ديناً فى عنقه ، وأداؤها يشبه قضاء الصلاة الفائتة ، فكما أن الإنسان يقضى الصلاة إذا فات وقتها ، يخرج الإنسان الزكاة الواجبة عليه ، ولو فات وقت استحقاقها ووجوبها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الصَّوْم



الصوم والطب

السؤال :

ما فائدة الصوم من الناحية الطبية ؟

الجواب :

لم يعد الحديث عن فائدة الصوم الصحية والطبية مقصوراً على رجال الدين وأهل الإرشاد الديني ، بل أخذ الأطباء والمتخصصون في العلاج الطبيعي والبدني يوسعون القول في الفوائد التي تنشأ من الصوم صحياً وبدنياً ، حتى إن الأطباء ينصحون بالصوم في طائفة كبيرة من حالات المرض والخلل الصحي ، وهم يستوحون في ذلك القول الحكيم المأثور : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء » .

وإذا كانت هناك مجموعة من الأحاديث في فضل الجوع منها الثابت وغير الثابت ، فمن المؤكد أن تخفيف العبء في الغذاء على المعدة والأمعاء أمر يكاد يكون ضرورياً في أكثر الحالات المرضية التي تتطلب العناية والوقاية .

والله تبارك وتعالى أعلم[1] .

* * *

(١) انظر المجلد الأول من كتابي « يسألونك في الدين والحياة » صفحة ١٢٩ . والمجلد الخامس ، صفحة ٦٧ .

متى يصوم الإنسان

السؤال :

هل يحسن بالفتى وعمره عشرون سنة أن يقوم بالصوم ؟

الجواب :

الصوم فرض واجب على كل مسلم مكلف سليم مقيم ذكراً كان أو أنثى ، وذلك لقول الله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) .

والصوم تختلف القدرة عليه باختلاف القوة والضعف ، وطول النهار وقصره ، ولذلك لا يسهل علينا أن نحدد موعداً مضبوطاً لبدء الصيام ، ولكن البلوغ قد يكون مرحلة مناسبة للقيام به عند الفتى أو الفتاة ، وقد كان الصحابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يشجعون أبناءهم على الصيام ، بأن يجعلوا لهم هدايا مناسبة يقدمونها إليهم إذا ماقاموا بالصيام ، وليس من الملائم أن يرغم الوالدان ولدهما على الصوم وهو عاجز عنه ، ويتعرض بسببه لمرض أو ضعف واضح ، وقد يكون من الخير أن نستأنس فى هذا برأى الطبيب المسلم الحاذق ، فقد يكون أقدر من غيره على تبين مدى قدرة الصوم عند الولد .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

التدخين فى الصوم

السؤال :

هل يفسد التدخين الصوم ؟

الجواب :

الحكمة المقصودة من الصيام هو حرمان النفس من شهوتى البطن والفرج ، ولذلك يفسد الصوم بتناول أى مأكول أو مشروب يصل إلى الجوف بطريق معتاد ، والتدخين فى حد ذاته نكبة من النكبات ، ومفسدة من المفاسد ، ومضيعة للمال فيما لايفيد بل يضر ، وقد تكلم الأطباء كثيراً عن الأمراض التى يسببها إدمان التدخين ، وخاصة مرض السرطان أعاذنا الله منه . ولذلك ذهب جمهور العلماء إلى أن التدخين يفسد الصيام ، لأنه يصل إلى الجوف أولا ، ولو رأينا رئتى المدمن للتدخين لوجدنا عليها طبقات من الدخان ، وفوق ذلك هو استجابة لوسوسة الشيطان وتزيينه ، واستجابة لشهوة خبيثة تسيطر على نفوس الضعفاء ، الذين لا يرجون لله وقاراً ، ولا يرعون للصوم حرمة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

إفطار يوم من رمضان

السؤال :

إذا صام شخص تسعة وعشرين يوماً من شهر رمضان ، وترك يوماً واحداً فهل يثاب على الأيام التى صامها من الشهر ؟

الجواب :

صوم رمضان فريضة واجبة بحكم القرآن والسنة والإجماع . والقرآن

الكريم يقول فى سورة البقرة : (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) .

وقال بعد ذلك : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه) .

وقد جاء فى الحديث أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أخبرنى عما فرض الله على من الصيام ؟ قال : «شهر رمضان» قال الرجل هل علىّ غيره ؟ قال النبى : «لا إلا أن تطوع» .

وأجمعت الأمة على فرضية صوم رمضان ، وأنه من أركان الدين المعلومة بالضرورة . وقد جاءت أحاديث كثيرة فى الترهيب من إفطار رمضان ، منها قوله عليه الصلاة والسلام : «عرى الإسلام وقواعد الدين ثلاثة ، عليهن أسس الإسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله ، والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان». وقال عليه الصلاة والسلام : «من أفطر يوماً من رمضان فى غير رخصة رخصها الله له لم يقض عنه صيام الدهر كله وإن صامه». وقال بعض الأئمة : إن من أفطر فى رمضان بلا عذر أو مرض فهو مشكوك فى إسلامه مظنون به الزندقة والانحلال .

فالشخص الذى صام تسعة وعشرين يوماً من رمضان فقد سقطت عنه تبعة هذه الأيام ، وإذا أفطر ذلك اليوم الباقى لعذر شرعى كسفر أو مرض ، فإن صوم ذلك اليوم يكون ديناً فى ذمته يجب عليه قضاؤه متى وجد القدرة على ذلك ، وأما إذا أفطر يوماً من رمضان عامداً متعمداً ، بلا عذر

ولا سبب مشروع ، فقد ارتكب جرماً عظيماً وكبيرة بشعة ، وقد علمنا ما جاء فى الحديث الشريف من تهديد وترهيب لفاعل ذلك .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

جماع الصائم

السؤال :

ما حكم جماع الصائم المرأة فى نهار رمضان ؟

الجواب :

إذا قام المسلم الصائم بمعاشرة زوجته معاشرة جنسية فى نهار رمضان بطل صومه ، ووجب عليه القضاء والكفارة .

روى أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : هلكت يارسول الله . قال : «وما أهلكك»؟ . قال : وقعت على امرأتى فى رمضان . فقال الرسول : «هل تجد ماتعتق به رقبة»؟ . قال : لا . قال : «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين»؟ ، قال : لا . قال : «فهل تجد ما تطعم ستين مسكيناً »؟ . قال : لا .

ثم جلس الرجل فجاء إلى النبى مكيال فيه تمر ، فقال النبى للرجل : «تصدق بهذا» . قال : فهل على أفقر منى ، فما بين لابتيها [طرفيها] أهل بيت أحوج إليه منى . فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وقال للرجل : اذهب فأطعمه أهلك .

وكثير من الفقهاء يرون أن هذه الكفارة واجبة على الزوج وحده ، إذا لم يكن ناسياً . وتكون الكفارة على الترتيب الذى ذكره الحديث السابق ، فيلزمه عتق الرقبة إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، فإن عجز صام شهرين متتابعين ، فإن عجز أطعم ستين مسكيناً من أوسط مايطعم منه أهله .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

دخول الدخان فى أنف الصائم

السؤال :

من يشتغل فى المصانع هل يفطره دخول الدخان فى أنفه أو فمه ؟

الجواب :

ذكر الفقهاء أن من الأشياء التى لا تفطر – لعموم البلوى بها – ما لا يمكن الاحتراز عنه ، كبلع الريق ، وغبار الطريق ، ودخان الموقد ، وغربلة الدقيق . وذوق الطعام للمرأة فى البيت . وشم الروائح الطيبة ، وذكر بعض الفقهاء أن مثل هذه الأمور لو كانت مما حرمها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فى الصيام ، أو مما يفسد بها الصيام ، لأوضحها الرسول وبينها وشرحها للأمة .

فلما لم ينقل أحد من أهل العلم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك حديثاً صحيحاً ولا ضعيفاً ولا مسنداً ولا مرسلا ، علمنا أنه لم ينكر من ذلك شيئاً ، والأحكام التى تعم بها البلوى لابد من بيان الرسول لها ، ولابد أن تنقل إلى الأمة ، ولاشك أن البخور والطيب والدخان مما تعم به البلوى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الحَجّ



الحج وأثره على الصحة

السؤال :

ما هو أثر فريضة الحج الإسلامية على صحة الإنسان؟

الجواب :

الحج فرض من فروض الإسلام ، وقاعدة من قواعده ، وقد أوجبه الله تبارك وتعالى على عباده بقوله فى القرآن الكريم : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) . وقوله : (وأتموا الحج والعمرة لله) . وإذا كانت للحج فوائده وثمراته الدينية والاجتماعية والاقتصادية التى توسعت كتب الفقه الإسلامى فى الحديث عنها ، فإن للحج كذلك صلته بصحة الإنسان وتقوية جسمه وحسه ، لأن الحج فى أقل صورة رحلة يقوم بها المؤمنون من شتى بقاع الأرض ، فيأتون من كل حدب وصوب ، بأنواع مختلفة من وسائل الانتقال والارتحال ، فمنهم من يمشى ، ومنهم من يركب الدابة أو السفينة أو السيارة أو القطار أو الطائرة ، والارتحال فيه تجديد وتغيير ، وفيه سعى وحركة ، وهذا مما ينشط الجسم ويقويه ، ويعطيه حظاً من الصلابة والحصانة والتماسك .

وأعمال الحج تعاون على هذا كثيراً ، ففيها انتقال ، وصعود وهبوط ، وطواف وسعى ، وصلاة وتلبية ، وذبح أضحية ، ورمى جمرات ، إلى آخر ما فى الحج من أعمال حركية متعددة ، مع تعرض الحجاج فى أكثر أوقاتهم للجو المفتوح والشمس الضاحية ، والإقامة بضعة أيام فى الخيام أو مايشابهها فوق جبل عرفات ، أو فى منى والمزدلفة وغيرهما .

وفى الحج يتجلى نظام : « اخدم نفسك بنفسك » فأغلب الحجاج

يتحركون ويعملون ، ويسهمون فى إعداد حاجاتهم بأنفسهم ، وهذا يعود الإنسان الاعتماد على نفسه فى قضاء مطالبة غالباً ، مما يوجد عنده النشاط والقوة .

وأول أعمال الحج هو « الإحرام » وهو أن ينوى الإنسان الحج ، ويتجرد من ملابسه الكثيرة التى تعود ارتداءها ، والضغط بها على أجزاء كثيرة من جسمه ، ويلبس ملابس الإحرام الخفيفة القليلة السهلة ، حيث تتكون من رداء وإزار فحسب ، أو لا تزيد عن « بشكيرين » أحدهما يلفه حول نصفه الأسفل ، والآخر يلقيه على نصفه الأعلى ، وبملابس الإحرام يتعلم الإنسان معنى التخفف وقلة التعقيد ، كما يتعود الجسم نوعاً من الخشونة التى تفيده وتحصنه ، وتأخذ القدمان أيضاً حظهما من التهوية فى أثناء الإحرام ، لأن المحرم يلبس فى العادة نعلا مفتوح الجوانب ، أو شبشباً بدون جورب ، وهذه « التهوية » تنفع القدمين وأصابعهما .

وبعض خبراء الطب يقرر أن لباس الإحرام يعرض الجسم لأشعة الشمس . وكان هذا حمام شمس يأخذه المحرم فيكسبه العافية والقوة ، ويهلك الجراثيم التى تحيط به ، فتسرى فيه العافية والصحة ، لأنه قد ثبت طبياً أن أشعة الشمس تؤخر نمو الميكروبات وتهلكها ، وقد ثبت أن الإنسان بعد تعرضه للشمس مقدار ساعة من الزمن ، يزيد عدد الكرات الدموية البيضاء فى الدم السطحى ، وتزيد نسبة الخلايا الليمفاوية ، وتنقص الكرات الدموية البيضاء ذوات النواة الكثيرة الأشكال ، والخلايا الليمفاوية تعد أحد أسوار الدفاع ضد مرض الصدر ، ومن هنا تظهر فائدة الشمس فى علاج هذا المرض وغيره من الأمراض ، لأن المحروم من الشمس يكون عرضة لمرض الكساح والروماتزم .

وبعض العوام يسىء فهم الحكمة من الإحرام ، ويخيل إليه أنه مسوغ للوسخ أو عدم النظافة ، وهذا غير صحيح ، لأن أدب الإسلام يدعو عند الإحرام إلى حلق الشعر وغسل الجسم وقص الأظافر وغيرها من الزوائد والتطيب بالطيب ، والمحرم يستطيع أن يستحم كل يوم ، فليس معنى الإحرام ترك الأوساخ على الجسم ، لأن هذا لا توحى به تعاليم الدين ولا تحبب فيه .

وإذا كان من آداب الحج المحافظة الدائمة المستمرة على الطهارة فى الجسم والثياب والمكان ، والمحافظة على الوضوء ونظافته الحس ، فإن الإحرام يحقق للإنسان بجوار ذلك نظافة نفسية وطهارة روحية ، بتطهير القلب من الأحقاد والضغائن ، ومن الشهوات والرذائل ، ومن الهموم الغوائل ، ومن الرغبات الشواغل ، وذلك عن طريق الإقبال على الله ، والإعراض عن أثقال الحياة ، والتفرغ للعبادة والطاعة ، والترديد لنشيد « التلبية » ذلك النشيد الإسلامى الجليل ، المهدئ للنفس ، الشارح للصدر ، الداعى إلى الإقبال على مصدر الفضل والرضوان : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك ، لا شريك لك لبيك » .

ومن المقررات المؤكدات الآن فى حقل العلم أن هدوء النفس وطهارة القلب وقوة الاعتقاد معوان على علاج الإنسان ومنحه حصانة حتى فى بدنه وحسه وكيانه . وفى الحج يأتى « الطواف » . والطواف هو أن يدور الحاج حول الكعبة الحرام سبع دورات ، مبتدياً بالحجر الأسود ومنتهياً إليه ، مع السرعة أو الهرولة فى جانب من كل دورة ، ومع إظهار القوة والنشاط فى الحركة ، ويقول الفقهاء إن الطائف يسرع فى الدورات الثلاث الأولى ، ويمشى فى الباقى ، وتذكر السيرة العطرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه وهم يقومون بالطواف فى عمرة الحديبية : « رحم الله امرأ أرى القوم قوة من نفسه » .

وكان هذا لون من التمرين الرياضى الدينى الوقور على خفة الحركة وسرعتها ، ولهذا أثره فى تنشيط الجسم وتنشيط الدورة الدموية بداخله .

وينبغى أن نذكر هنا أنه ليس بفرض ولا واجب على الحاج – كما قد يظن العوام – أن يقبل الحجر الأسود ولا أن يمسحه أو يلمسه بيده ، بل يكفى أن يشير إليه ولو من بعيد ، كعلامة على بداية أشواط الطواف ولا يليق أبداً بالحجاج أن يتزاحموا ذلك التزاحم الفظيع على استلام الحجر الأسود ، أو يسلكوا إلى ذلك طريقاً غير كريم ، ولنتذكر جميعاً كلمة عمر رضى الله عنه ، وهو أمام الحجر الأسود : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » .

وقد جرت العادة فى الحج عقب الطواف أن يشرب الحاج من ماء زمزم ، ويوجد فى هذا الماء – كما ذكر الخبراء – الصودا والجير وبعض الأملاح والأحماض ، فهو ماء معدنى نافع يفيد الجهاز الهضمى والكليتين ، والكبد ، وقد وردت فى هذا الماء أحاديث وآثار تتفاوت درجاتها ، ولكن ينبغى لنا ألا نزيد عليها أو نسىء فهمها ، وينبغى أن نتعاون على أن ننتزع هذا الماء الطيب من منبعه نظيفاً طهوراً ، وأن نستعمله نظيفاً طهوراً ، وألا نسبب به بللا أو وحلاً فى ساحة المسجد الحرام،ورضى الله عن ابن عباس حين كان يشرب ماء زمزم ويقول : « اللهم إنى أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاءً من كل داء » .

وفى الحج يأتى « السعى بين الصفا والمروة » . والصفا والمروة ربوتان بينهما مسافة يقطعها الحاج سبع مرات ، ويهرول [أى يجرى] فى جزء من هذه المسافة ، والسعى بين الصفا والمروة شبيه بالطواف من ناحية الحركة وتنشيط الجسم ، وإظهاره قوة الحس مع إظهار قوة الروح ، وهذا السعى

يجدد فى نفس الإنسان ذكره السيدة « هاجر » أم جدنا إسماعيل عليه السلام ، حين كانت فى هذا المكان ، واشتد الظمأ بابنها إسماعيل ، فأخذت تهرول هنا وهناك ، باحثة عن الماء لابنها حتى تنقذه ، وقد استجاب الله لدعائها ، ولم يضع عليها جهدها فى بحثها ، فجعلها تعثر على بئر زمزم ، وكأن فى هذا عبرة ، هى أن يسعى الإنسان ويجتهد لحفظ حياته ، وإبعادها عن عوامل الهلاك . والقرآن المجيد يقول : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) .

والحج تكثر فيه الدعوات خلال القيام بشعائره ومناسكه ، والدعاء المخلص الصادق العميق يكون أشبه بحمام روحى ساخن ، يعود على نفس الداعى وحسه بالراحة والسكينة والطمأنينة ، ولو فتحنا الباب أمام أدعية الحج لطال المدى واتسع النطاق ، فحسبنا أن نورد أحد هذه الأدعية ، وفيه نلمح الإشارات إلى حوافز الأمن والأمان فى نفس الإنسان ، وهذا الدعاء المأثور هو :

« اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، والموت راحة لى من كل شر ، اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

« اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ومالى ، اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، واحفظنى من بين يدى ، ومن خلفى ، وعن يمينى وشمالى ، ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى . . . »

« اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأسألك أن

تجعل كل قضاء قضيته لى خيراً ، لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، بيده الخير ، وهوعلى كل شيء قدير » .

وفى الحج يكون « الوقوف على جبل عرفات » .

والعادة جرت فى وقوف عرفات أن يقضى الحجيج يومهم فوق هذا الجبل ، وقد نصبوا عليه خيامهم التى لا يبلغ البصر مداها ، ويتطلعون من حولهم فإذا السماء الواسعة ، والهواء المنطلق ، والجو المفتوح والرقعة الجبلية الممتدة ، وكأن هذا اليوم موعد لإقامة مخيم كشفى دينى عالمى لا مثيل له — إن صح هذا التعبير —بل كأن الحجاج يقيمون مدينة كشفية تضم مئات الألوف ، ثم يعودون فيخلون جبل عرفات من هذه الخيام والأدوات ، بعد انتهاء اليوم ، وهذه صورة رائعة للتجمع والتعاون وسرعة الحركة وتزايد النشاط .

وهم فى اليوم التالى لوقفة عرفات يذهبون إلى ذبح الأضاحى ، رمزاً للتضحية والفداء والوفاء وتذكراً لموقف إبراهيم وإسماعيل فى قصة الفداء الكبرى التى خلدها التاريخ ، ثم يذهبون إلى رمى الجمرات ، وهو أن يرمى كل حاج عشرات من الحصى عند ثلاث علامات منصوبة لتحديد مكان الرمى ، وفى هذا الرمى الحسى تقترن عزيمة النفس بحركة اليد لمقاومة وسوسة الشيطان ومحاربة الباطل ، وكأن كل حاج يقول : لقد طهرت نفسى من الداخل بما فعلته من مناسك الحج ، وهأنذا أرمى هذه الحصوات بيدى فى عزيمة وهمة ونشاط ، ليكون ذلك تعبيراً عملياً يدوياً بعد التعبير القلبى على بذل الجهد فى سبيل تأييد الحق ومحاربة الباطل .

وفى الحج يكتسب الإنسان كثيراً من الرفعة والمعارف والأصدقاء ، وتنشأ بين الحجاج علاقات طيبة وأخوة كريمة ، يسعد بها أهلوها ويطمئنون

إليها ويتقون بها ، لأنها تنشأ وهم يسعون إلى خالقهم وبارئهم تائبين عابدين ، وتنمو وهم فى رحاب منزل الوحى ، وتقوى وهم عند رسولهم عليه الصلاة والسلام . والإنسان فى هذه الحياة قليل بنفسه كثير اً بإخوانه ، ولا يستطيع أن يحيا بمفرده ، لأنه مدنى بطبيعته ، وما أثقل تبعات الحياة إذا واجهها الإنسان فى كل ميدان بلا رفيق وبلا صديق ، وما أسهلها حين تصفو المودة وتصدق الألفة ، ولا شك أن الرفقة الصالحة المخلصة تشعر أهلها بالطمأنينة والسكينة ، وهذا يعاون على استقامة الصحة فى هذه الحياة . والحج فوق هذا ضيافة متنقلة فى حرم الله الكبير ، حيث يسافر الإنسان من بلده إلى الأرض المقدسة ، ثم يقوم بالطواف ، والسعى ، والصعود إلى جبل عرفات والذهاب إلى منى والمزدلفة ، ثم يعود إلى الكعبة . وبعد هذا يذهب إلى « المدينة » لنزور مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهناك يقوم بما استحبه الفقهاء من زيارة مقبرة البقيع ، وشهداء أحد ، ومسجد قباء . وغير ذلك من مواطن العبر والذكريات . والإنسان فى كل هذه الرحلات والتنقلات يشعر بحلاوة الضيافة الإلهية والكرم الربانى ، فيزداد قوة وبهجة وتفتحاً للحياة . والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « الحجاج والعمار ون وفد الله ، إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم » .

وهناك فى حرم الله الآمن لا يجوز عدوان ولا طغيان ، بل يجب أن يعم الأمان الإنسان والحيوان ، ولذلك يقول الله جل جلاله : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) . ويقول : (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقونى يا أولى الألباب) .

هذا وتعاليم الإسلام المصلح توحى بأن يحتاط الإنسان عند الحج ، بأن

يكون قادراً صحيحاً على أداء الحج ، وإلا لم يجب عليه ، وأن يقوم بتطعيم جسمه ضد الأمراض الوبائية وغيرها ، وأن يصحب معه الأدوية الضرورية اللازمة ، فإن الذى خلق الداء خلق الدواء كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن يحافظ على النظافة فى كل شىء ، فالدين النظافة حساً ونفساً . وأن يعتدل فى جميع أموره ، وأن يصون الطرقات والأماكن من كل ما يعرضها للقذارة أو انتشار الجراثيم . وبذلك يحسن فى حجه فينال عليه جزيل الثواب .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

أنواع الحج

السؤال :

يقال إن الحج ينقسم إلى ثلاث مراحل : مفرد ، ومتمتع ،وقران ، فما هى هذه الأقسام؟

الجواب :

قد يكون الصواب أن يقال إن الحج ثلاثة أنواع ، بمعنى أن الإحرام يكون واحداً من ثلاثة أنواع ، الأول يسمى الإفراد ، والثانى يسمى القران ، والثالث يسمى التمتع . والإفراد هو أن ينوى الذى يريد الحج من ميقاته المعروف بالحج وحده ، ويقول فى تلبيته لبيك اللهم بحج . ويبقى المفرد محرماً حتى ينتهى من أعمال الحج ، ويعتمر إذا أراد بعد ذلك ، وفى هذه الحالة لا يجب عليه أن يذبح ذبيحة .

وأما القران فهو أن يحرم الذى يريد الحج من عند الميقات بالحج والعمرة معاً ، ومثل هذا يقول فى تلبيته : لبيك اللهم بحج وعمرة . وهذا يلزمه أن

يبقى محرماً إلى أن ينتهى من أعمال الحج والعمرة معاً ، ويكفيه فى هذه الحالة طواف واحد وسعى واحد للحج والعمرة ، مثل المفرد .

وأما التمتع فإنه يسمى تمتعاً للانتفاع بأداء الحج والعمرة فى أشهر الحج ، والتمتع بالتحلل من الإحرام بعد أداء العمرة ، والانتظار بالثياب العادية حتى يشرع فى أعمال الحج . وهذا يقول فى تلبيته : لبيك اللهم بعمرة . فإذا جاء اليوم الثامن من شهر ذى الحجة أحرم مرة أخرى للحج ، وتكون عليه ذبيحة فى مقابل هذا التمتع .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الحج أم الزواج

السؤال :

هل يجوز لى الحج وأنا لم أتزوج بعد ؟ وهل يجوز لى الحج عن أبوى ؟ وهل يجوز لى السفر إلى السعودية للعمل لا للحج ؟ أرجو إفادتى عن ذلك .

الجواب :

الحج إحدى قواعد الإسلام الخمس ، وقد فرضه الله على القادر المستطيع فقال فى محكم آياته : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) . فإذا توافر للإنسان القدرة والاستطاعة والنفقة وأمن الطريق كان الحج مفروضاً عليه ، سواء أكان على الفور كما يقول بعض الفقهاء ، أم كان على التراخى كما يقول بعض آخر . وإن كنا نستحسن أنه ما دام قد توافرت الأسباب والوسائل ، ولم يوجد مانع من الموانع ، أن يبادر الإنسان إلى أداء الحج .

فإن المستقبل محجوب غير معلوم . (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت) .

وليس هناك ارتباط أو تلازم بين الحج والزواج ، فمن الممكن للإنسان أن يحج وإن كان غير متزوج ، إلا أنه ينبغى لنا أن نتذكر أن الزواج قد يكون مفروضاً على الإنسان إذا تيقن أنه سيقع فى الفاحشة إذا لم يتزوج ، وفى هذه الحالة يجب عليه المبادرة إلى وقاية نفسه وتحصينها بالزواج ، وفى هذه الحالة يبدأ بالزواج . وإذا تيسر له الحج عقب ذلك قام بأدائه .

وقد شرع الإسلام جواز أن يحج الإنسان عن والده أو والدته إذا ماتا وفاتهما الحج . وذلك لأن هذا الفرض يعتبر ديناً لله فى ذمة الإنسان ، ودين الله أحق بالوفاء كما أشار إلى ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أحاديثه ، فلا مانع إطلاقاً فى أن يحج السائل عن أبويه ما دام قادراً على ذلك .

وليس هناك تعارض بين السفر للعمل وأداء الحج ، ولكن موضع التساؤل هنا هو أن السائل مسافر إلى السعودية ، ومعنى ذلك أنه سيكون فى منزل الوحى ، وسيكون على مقربة من مشاعر الحج ، فكيف تطوع له نفسه أن يكون بجوار بيت الله الحرام . ويمر عليه موسم الحج ، ثم لا يقوم به ، فيستطيع أن يسافر للعمل ، ويؤدى الحج . وفى ذلك جمع بين الحسنيين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

وجوب الحج

السؤال :

هل يجوز للأخ الصغير أن يحج إلى بيت الله الحرام ، مع أن إخوته الكبار لم يحجوا ؟

الجواب :

الحج فريضة أوجبها الله على كل قادر مستطيع ، ولذلك يقول الله تعالى فى سورة آل عمران : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) . ونفهم من السؤال أن هناك إخوة ، وأحدهم أقلهم عمراً ، ولكنه بالغ مكلف ، وكأنه يتحرج وهو صغير أن يحج قبل أن يحج إخوته الكبار . ولكن الإنسان على نفسه بصيرة ، والقرآن يقول : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى) . فإذا توافرت شروط وجوب الحج عند هذا الأخ الأصغر ، فإنه يجوز له أن يقوم بالحج ما دام قادراً مستطيعاً ، وعنده مال يملكه يستطيع أن يحج به ، وإذا لم يكن عنده ما يحج به ، فله أن ينتظر حتى يغنيه الله من فضله .

وإذا كان المال المشترك بين هؤلاء الإخوة لا يكفيهم إلا لمطالب حياتهم وضرورات معيشتهم ، لم يكن التعجيل بالحج واجباً فى حقهم ، وهو ليس بواجب فى حق الأخ الأصغر من باب أولى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الحج من أجل التوبة

السؤال :

هناك رجل تعود قتل الناس ، وذهب إلى الحج ليتوب ، فهل يقبل منه هذا الحج ؟

الجواب :

إن قتل النفس المعصومة من أكبر الجرائم وأشنع الكبائر ، وحسبنا قول القرآن فى ذلك فى سورة النساء : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) . وقد اختلف الفقهاء فى قبول توبة القاتل ، فذهب بعضهم إلى أن قاتل النفس لا قبول لتوبته ، لشناعة الجرم الذى ارتكبه ، وذهب فريق آخر إلى أن توبته تقبل ، إذا توافرت فيها شروط التوبة المطلوبة .

فعلى هذا الرجل الذى تعود ارتكاب جريمة القتل أن يقلع عن هذه الجريمة أولا ، وأن تكون توبته توبة نصوحاً خالصة مخلصة عازمة ، وأن يكفر عن جريمته بما استطاع من وسائل ، فإذا صدقت منه التوبة ، واستقام على طريق الهدى ، كان له أن يذهب إلى الحج الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » .

ولكن هذا الرجل إذا أراد من حجه أن يقوم برحلة الحج ، وأن يؤديها أداء شكلياً ظاهرياً ، فإن حجه لا يؤدى إلى زوال ما عليه من تبعة نحو الله جل جلاله ، لأن المقصود من الحج حينئذ محاولة اتخاذه وسيلة ظاهرية للخلاص مما تعود ارتكابه من إزهاق الأرواح البريئة ، وفى هذه الحالة يكون أشبه بالتاجر الذى يتخذ من عبادته وسيلة للمخادعة التى لا تنفع ولا تفيد ،

والواجب عليه أن يبدأ أولا بالندم على ما فعل ، والإقلاع عن جريمته الشنيعة ، والعزم الأكيد على عدم العودة إليها ، وأن يخلص فى ذلك إخلاصاً كاملا ، وأن يعيد إلى الناس حقوقهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حج المرأة

السؤال :

هل يصح للمرأة غير المتزوجة أن تحج إلى بيت الله الحرام ؟ وإذا حجت فهل يكون حجها صحيحاً ؟

الجواب :

ليس الزواج شرطاً لصحة الحج من المرأة ، فمتى كانت المرأة بالغة عاقلة ، وتوافرت فيها شروط الحج التى ذكرها الفقهاء ، فإن حجها يكون صحيحاً ، سواء أكانت متزوجة أو غير متزوجة . وقد قال الفقهاء إن المرأة تحتاج عند حجها إلى محرم من محارمها يحج معها ، سواء أكان زوجاً لها أم أباً أم عماً أم أخاً ، أم غير ذلك من المحارم ، وبعض الفقهاء يقول إذا لم تجد المرأة محرماً عند الحج ، وكان معها جماعة من النساء مأمونة الخلق والدين والرفقة ، فإن المرأة يصح أن تحج فى صحبة هؤلاء النساء ، بل ذهب بعض الفقهاء أن المرأة تستطيع أن تحج بنفسها إذا كانت الطريق مأمونة ، لا تخاف على نفسها ولا على عرضها .

وإن كان الأفضل للمرأة أن يكون معها محرم من محارمها كما ذهب إلى ذلك جمهور الفقهاء .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الحج عن الأم

السؤال :

نوى رجل أن يرسل أمه لأداء فريضة الحج ، ولكنها ماتت قبل إرسالها لعدم استطاعته المادية ، فهل يجوز له بعد أن رزقه الله بالمال أن يحج عن أمه ؟

الجواب :

إن الله تبارك وتعالى يشكر لهذا الابن نيته الطيبة ويثيبه الله عليها خيراً ولا شيء عليه إذا لم يحقق وعده ، مادام عاجزاً عن تحقيق ما يريد . ويجوز له — بل اللائق به — أن يحج عن أمه التي ماتت دون أن تؤدي فريضة الحج وفي الجزء الأول من كتاب « يسألونك في الدين والحياة » حديث مفصل واسع عن حكم الحج عن الغير فليرجع إليه من شاء التفصيل[1] .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

(١) انظر صفحة ١٨٣ — ١٨٦ من المجلد الأول من كتاب « يسألونك في الدين والحياة » .

الحج عن المتوفى

السؤال :

هل يجوز للشخص أن يؤدى فريضة الحج عن المتوفى ؟

الجواب :

قرر الفقهاء أن الإنسان يجوز له أن يؤدى الحج عن أمه المتوفاة أو عن أبيه المتوفى ، فقد روى أن رجلا جاء إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره أن أمه ماتت ولم تستطع فى حياتها أن تؤدى فريضة الحج التى فرضها الله عليها ، فهل يستطيع أن يحج بدلهـا . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : «أرأيت إن كان على أمك دين ، أكنت قاضيه ؟» قال الرجل نعم. قال النبى صلى الله عليه وسلم : «فحق الله أولى بالأداء». وكذلك جاءت امرأة إلى النبى صلى الله عليه وسلم : سألته عن مثل هذا السؤال فأمرها أن تحج عن أبيها .

وقد ذكر بعض الفقهاء أنه يجب فيمن يحج عن غيره أن يكون قد حج من قبل عن نفسه ، حتى تكون ذمته خالية من حق الله المتعلق بنفسه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

التمتُّع

السؤال :

ما هو المقصود بجمع التمتع ؟

الجواب :

التمتع فى الشريعة هو الانتفاع بأداء الحج والعمرة فى أشهر الحج فى عام واحد بلا رجوع الحاج إلى بلده .

والمتمتع قسمان : الأول متمتع لم يسق الهدى ، فيحرم بالعمرة من الميقات أو قبله . ويطوف لها فى أشهر الحج ويسعى بين الصفا والمروة ، ويبقى على إحرامه إن شاء ، أو يتحلل من العمرة بالحلق أو التقصير ، ثم يحرم بالحج يوم التروية ، وهو اليوم الثامن من شهر ذى الحجة ، ويأتى بأعمال الحج ويذبح الهدى بعد رمى جمرة العقبة وجوباً شكراً لنعمة التمتع .

والثانى متمتع ساق الهدى ، وهذا يحرم بالعمرة ثم يسوق الهدى ، ثم يؤدى أعمال العمرة ، ولا يتحلل منها بالحلق أو التقصير ، بل يحرم بالحج ويؤدى أعماله ، فإذا حلق يوم النحر حل من الحج والعمرة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

طواف الحائض فى الحج

السؤال :

هناك امرأة حاضت فى أثناء الحج ، وتريد إكمال حجها بالطواف حول الكعبة لماذا تصنع ؟

الجواب :

ذكر الإمام ابن القيم فى كتابه « إعلام الموقعين » كلاماً طويلا حول هذه المسألة ، وذكر الحديث القائل فيه النبى للحاجة الحائض : « اصنعى ما يصنع الحاج ، غير ألا تطوفى بالبيت » وذكر أن هناك من يظن أن هذا حكم عام فى جميع الأحوال والأزمان ، ولم يفرق بين حال القدرة والعجز ، ولا بين زمن إمكان الاحتباس لها حتى تطهر وتطوف ، وبين الزمن الذى لا يمكن فيه ذلك ، وتمسك بظاهر النص ، وقد نازع فى ذلك فريقان : الأول صحح الطواف مع الحيض ، ولم يجعلوا الحيض مانعاً من صحته ، بل جعلوا الطهارة هنا واجبة تجبر بالدم ويصح الطواف بدونها ، والفريق الثانى جعل وجوب الطهارة للطواف واشتراطها بمنزلة وجوب السترة واشتراطها ، فهى تجب مع القدرة ، وتسقط مع العجز ، وليس اشتراط الطهارة للطواف أو وجوبها له بأعظم من اشتراطها للصلاة ، فإذا سقطت بالعجز عنها فسقوطها فى الطواف بالعجز عنها أولى وأحرى .

وذكر ابن القيم أن هذه الأزمان يتعذر فيها إقامة ركب الحجيج لأجل الحائضات حتى يطهرن ، وبعد أن ذكر أقساماً لهذه الحالة انتهى إلى أن هذه الحائض تفعل ما تقدر عليه من مناسك الحج ، ويسقط عنها ماتعجز عنه من الشروط والواجبات ، واستشهد بقول الله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم). ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ».

ثم يذكر ابن القيم أن هذه المرأة الحائض تطوف بالبيت وحالتها هذه ، وتكون هذه ضرورة مقتضية لدخول المسجد مع الحيض والطواف معه ، وليس فى هذا ما يخالف قواعد الشريعة ، بل يوافقها ، إذ غايته سقوط الواجب أو الشرط بالعجز عنه ، ولا واجب فى الشريعة مع عجز ، ولا حرام مع ضرورة . فالضرورة تبيح دخول المسجد للحائض والجنب .

وذكر ابن القيم أن المرأة يباح لها وهى حائض أو جنب أن تدخل المسجد عند الضرورة ، فإنها لوخافت العدو ، أو من يستكرهها على الفاحشة ، أو يأخذ مالها ، ولم تجد ملجأ إلا دخول المسجد جاز لها دخوله مع الحيض ، والمرأة الحاجة الحائض التى سيفوتها ركب الحجيج قبل طهرها تخاف ما هو قريب من ذلك ، فإنها تخاف إن أقامت بمكة دون ركبها أن يؤخذ مالها إن كان لها مال ، وإلا أقامت بغربة ضرورة ، وقد تخاف فى إقامتها ممن يتعرض لها وليس لها من يدافع عنها .

والنبى صلى الله عليه وسلم لم يمنع الحائض من قراءة القرآن ، والحديث القائل : « لا تقرأ الحائض والجنب شيئاً من القرآن » لم يصح ، وهو حديث معلول ، وقال عنه بعضهم إنه باطل ، فإذا لم يصح هذا الحديث لم يبق هناك مانع من قياس الحائض على الجنب ، فإذا لم نمنع الحائض من قراءة القرآن لحاجتها إليه ، فعدم منعها وهى حائض عن الطواف الذى هى أشد حاجة إليه أولى وأحرى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الأسْرَة وَالزوَاج وَالطّلاق



حرمة الحياة الزوجية

السؤال :

هل يجوز لرجل مصاحبة زوجة غيره دون إذن من زوجها ؟

الجواب :

يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير النساء من إذا نظر إليها زوجها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته فى ماله وعرضه » .

والزواج رابطة مقدسة بين الرجل والمرأة ، تجب رعايتها وصيانتها ، وهذه الرابطة تجعل المرأة مقصورة على زوجها لا تختلط بغيره من الرجال الأجانب ، ولا تصاحب أو تصادق سواه ، سواء أكان ذلك بإذن أم بغير إذن ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا العقد الجليل الشأن بقوله : (وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) ولا تقبل فطرة الإنسان السوى أن تصاحب زوجته غيره من الأجانب ، فلا يتصور إنسان أن يأذن لزوجته فى ذلك .

وهذه المصاحبة المشار إليها فى السؤال تقتضى الانفراد والخلوة بين الزوجة وهذا الأجنبى ، وقد نهى الإسلام نهياً شديداً عن اختلاء الزوجة بأجنبى عنها ، ولذلك يجب على الزوجة العاقلة أن تمنع نفسها من السير فى هذا الاتجاه ، إذا كانت تريد أن تستقيم فى حياتها ، وأن تحفظ للحياة الزوجية حرمتها ومكانتها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

خروج الزوجة من بيتها

السؤال :

هل يصح خروج الزوجة من بيتها دون إذن زوجها ؟

الجواب :

المفهوم من الإسلام أنه يجب على الزوجة أن تطيع زوجها ، وأن تقيم فى بيت الزوجية ، لا تخرج منه إلا بإذنه وعلمه وقد جاء فى سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن الزوجة لا تخرج من بيت زوجها إلا بإذنه ، فإن فعلت لعنها الله ؛ وقد ذكر الفقهاء أن الزوج له الحق فى منع زوجته من الخروج إلا لسبب شرعى ، مثل أن تزور أمها أو أباها ، ولا يجوز للزوج أن يمنعها من هذه الزيارة ، حسبما جرى عليه العرف بين المسلمين .

وكذلك يجوز أن تخرج لتمريض والديها إذا تعينت لذلك ، ولم يوجد غيرها للقيام بهذا التمريض ، لأن صلة الأرحام أمر واجب فى الإسلام ، وفى مقدمة الأرحام الوالدان . وقد جاء فى المجلد الأول من كتاب «يسألونك» أن الزوجة لا تخرج من بيت زوجها خروجاً عادياً إلا بإذن زوجها ، ولكن لو منعها الزوج الخروج لغرض شرعى لازم ، كأداء الحج المفروض عليها ، مع توافر شروطه فيها ، فلها أن تخرج بغير إذنه ، وإن كان عليها أن تعلمه بذلك قبل الشروع فيه أدباً ، وكذلك لوخرجت المرأة لأن المسكن غير شرعى ، ولم يقبل الزوج تبديله ، أو لأن الزوج صار غير أمين على الزوجة فى نفسها أو عرضها أو مالها ، وتحقق ذلك ، فإنه يجوز لها أن تخرج بغير إذنه ، وعليها أن تنذره وتعلمه قبل الشروع فى ذلك .

وكذلك إذا اضطرت للخروج للبحث عن طعام أو شراب تضطر إليه ، ولم يحضر الزوج لهـا ذلك .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

صلة الأخ بزوجة أخيه

السؤال :

هل يجوز لأخى الزوج أن يطلب زوجة أخيه فى بيته ، دون علم من زوجها ، مع أن بيت زوجها يبعد نحو ثلثمائة متر ؟

الجواب :

يلاحظ بين كثير من المسلمين عدم التدقيق فى شئون العلاقات الاجتماعية المتعلقة بالأعراض والعورات والحرمات ، وينشأ عن ذلك كثير من العيوب والمشكلات . ومما تنبغى ملاحظته هنا هو أن أخا الزوج يعد كالرجل الأجنبى بالنسبة إلى زوجة أخيه ، فهو ليس محرماً من محارمها ، ولا يجوز له أن ينظر إليها أو يطلع عليها وهى فى حالة إبداء زينتها ، ولا يجوز له أن يختلى بها ، أو ينفرد معها ، وإلا كان الشيطان ثالثهما ، كما ورد ذلك فى بعض الأحاديث .

ومن هذا البيان نفهم أنه يحرم على أخى الزوج أن يطلب من زوجة أخيه أن تحضر إليه فى بيته ، دون علم من زوجها ، سواء أكان البيت قريباً أو بعيداً ، حتى لا يساء تفسير ذلك ، وحتى لا يجد الشيطان سبيلا للوسوسة أو الإغواء .

والواجب على المسلمين أن يلاحظوا أمثال هذه الأمور بدقة وعناية .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

لبس « الباروكة »(1)

السؤال :

ما حكم لبس الباروكة بالنسبة إلى الجنسين ؟ وما حكم المرأة التى تحلق شعرها مما يشبه الرجال ؟

الجواب :

أمر الإسلام المرأة المسلمة بستر جسمها ، وعدم إبدائها لعورتها أمام الأجانب الغرباء عنها الذين ليسوا بمحارم لهـا ، وقال القرآن الكريم فى سورة الأحزاب : (يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً)

كما أن الكتاب العزيز قد قال عن النساء فى سورة النور : (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) والمنع منع مواضع الزينة إلا إذا كانت مواضع الزينة ظاهرة وجرت العادة الكريمة بإظهارها . وقد قال الفقهاء إنه يحرم على المرأة المسلمة البالغة أن تكشف من جسمها غير وجهها وكفيها وقدميها ، ونص الفقهاء على أن شعر المرأة عورة فلا يباح كشفه ، لأن كشف الشعر مما يثير فتنة يحسن البعد عنها .

و « الباروكة » المذكورة غطاء صناعى للرأس على هيئة شعر المرأة ،

وقد شاع استعمالها عند كثير من النساء ، وإنماهن يضعنها فى العادة للتزين والتجمل ، ولتبدو المرأة عند وضع الباروكة أصغر فى السن ، وأقرب إلى الشباب، وأدنى من نطاق الفتنة والإثارة ، ولذلك ترى المرأة إذا كانت صاحبة شعر جميل جذاب ، لا تستعمل الباروكة ، وتبدى شعرها الفاتن للأنظار ، اللهم إذا كانت تخاف الله وتستر شعرها عن عيون الغرباء .

ومادام الأمر كذلك فإن لبس الباروكة يثير فتنة ولذلك لا يتفق لبسها مع تعاليم الإسلام . ولو قيل فى التسويغ لوضع الباروكة على الرأس إنها قد تستر عيباً فى رأس المرأة ينفر منها ، لكان الجواب على ذلك هو أن الأولى ستر الرأس عن الأنظار بما تتعود المرأة المسلمة ستر رأسها به مما لا يكون مثار فتنة أو شهوة .

وفوق هذا قد تستغل المرأة الباروكة فيما يتصل بالخداع والغش ، فقد تكون المرأة متعرضة للخطوبة ، وفى رأسها أو شعرها عيب تحرص على إخفائه ، لتخدع عنه الذى يتقدم لخطبتها ، وربما لو عرف الحقيقة لانصرف عن الخطبة ، وربما يعجب الرجل بالمرأة التى يريد خطبتها وهى مستورة الشعر ، لو أنها صارحته بالحقيقة .

وأما حلق المرأة لشعرها ، فإن كان ذلك حزناً وحداداً ، فهو عمل من أعمال الجاهلية ، والإسلام يشدد فى النهى عنه ، وقد روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد برئ من الصالقة والحالقة والشاقة . والصالقة هى التى ترفـــع صوتها بالبكاء ، والحالقة التى تحلق رأسها عند المصيبة ، والشاقة التى تشق ثوبها .

وإن كان حلق المرأة شعرها تشبهاً بالرجل فهو حرام ، وقد لعن

رسول الله عليه الصلاة والسلام المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

لبس « الباروكة »[2]

السؤال :

ما حكم استعمال « الباروكة » للمرأة المسلمة ؟

الجواب :

لا ينبغي للمرأة المسلمة المحافظة على آدابها أن تستعمل « الباروكة » فوق رأسها ، وهى شعر مستعار يصنع بطريقة خاصة لتغطية الرأس تجملا وتزيناً ، وينبغي أن نعرف أن شعر المرأة عورة يلزم ستره ، وهى حين تستعمل الباروكة تخدع الناس عن حقيقة شعرها ، والخداع ليس من آداب الإسلام ، وإذا كانت الباروكة أجمل ، وهذا هو الغالب ، فإن ذلك يثير الفتنة ، ويستلفت الأبصار ، وإذا تعمدت المرأة إثارة غير زوجها كان ذلك عملا حراماً .

والمرأة بهذا العمل تضع نفسها موضع الشك والاتهام ، فقد يظن الناظر إليها أن هذا هو شعرها الطبيعى ، وقد أساءت إلى دينها حين كشفته ، وإذا كان الناظر يعرف حقيقة الأمر ساءه من المرأة خداعها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تصفيف الشعر

السؤال :

ما حكم تصفيف الشعر بالكوافير بالنسبة إلى الجنسين ؟

الجواب :

تصفيف الشعر فى حد ذاته ليس حراماً ، لأن تصفيفه هو تمشيطه وترجيله وتنسيقه ، فالرجل يمكنه أن يمشط شعره أو يرجله ، بنفسه أوبوساطة الحلاق ، على أن يتجنب الرجل التشبه بالنساء فى ذلك ، والمرأة أيضاً تستطيع أن تمشط شعرها وترجله ، بنفسها أو بوساطة امرأة أخرى ، على أن تتجنب التشبه بالرجال ، لأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن المتشبهات من النساء بالرجال ، ولعن المتشبهين من الرجال بالنساء .

ولكنه يحرم على المرأة المسلمة أن تجعل الرجل يقوم بتمشيط شعرها وترجيله ، لأن معنى ذلك أنها ستكشف شعرها له وهو عورة ، وسيتحسس بيديه شعرها من هنا ومن هناك ، وفى ذلك ما فيه من الفتنة والإثارة وسوء الاختلاط .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

نسب الولد

السؤال :

هناك امرأة تزوجت برجل ، وللأسف طلقت منه ، وبقيت حتى اكتملت عدتها، ثم تزوجت بآخر ، وبعد خمسة أشهر فقط من زواجها الثانى أنجبت مولوداً ، فلأى أب ينسب هذا المولود للزوج الأول أم الثانى ؟

الجواب :

قال الفقهاء : إن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وفى بعض الأقوال ستة أشهر إلا خمسة أيام ، لاحتمال أن تكون الشهور العربية قد نقصت يوماً فى آخرها خمس مرات وإن كان هذا نادراً ، وقد استنبط الفقهاء تحديد هذه المدة من قول الله تبارك وتعالى فى سورة الأحقاف : (ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) .

فإذا فرضنا أن الزوج الأول طلق زوجته ، وانقضت عدتها ، ثم تزوجت زوجاً غيره ، وأتت بولد لأقل من ستة أشهر ، فإنه ينسب إلى الزوج الأول لا إلى الزوج الثانى ، وفى السؤال الذى معنا قد جاء أن المرأة أتت بمولودها بعد زوجها بالثانى بخمسة أشهر فقط ، وعلى هذا فإن الولد يكون منسوباً إلى الزوج الأول لا إلى الزوج الثانى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حكم ولد السفاح

السؤال :

حملت امرأة سفاحاً ، وتزوجت الجانى ، فما حكم الولد الذى رزقته بهذه الطريقة ؟

الجواب :

إن معاشرة الرجل للمرأة التى لم يتزوجها تكون جريمة منكرة ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) والولد الذى جاءت به المرأة عن طريق السفاح يكون ابن زنى يأخذ حكم ابن الزنى فى أحكامه المختلفة . ومع أن الرجل يجوز له أن يتزوج هذه المرأة ، لأن الزنى لا يمنعه من ذلك ، فإن هذا لا يغير من حقيقة ما حدث شيئاً ، ومع ذلك يستطيع الرجل والمرأة التى زنى بها أن يتوليا رعاية الطفل وتنشئته ، وقد يكون هذا نوعاً من الإسهام فى تخفيف الآثار الوخيمة التى ترتبت على السفاح المذكور ، ومن الواجب عليهما مع هذا أن يخلصا لله الندم والتوبة على ما فرط منهما ، وأن يعودا بعزم وعزيمة إلى الصراط المستقيم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تزويج البكر نفسها

السؤال :

هل تستطيع المرأة البكر أن تزوج نفسها ، دون إذن من وليها ، مع أنها تبلغ سن الرشد ؟

الجواب :

الزواج حق شخصى لكل من طرفى الزواج ، وهما الرجل والمرأة ،

فلابد أن يتم الزواج بالرضا والموافقة ، ولا يستطيع أى شخص ، حتى ولو كان ولى المرأة أن يزوجها دون رضاها ، أو يرغمها على التزوج بمن لا تقبله ولا تريده ، ولقد حدث على عهد سيدنا وقائدنا ورائدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن جاءته فتاة ، وأخبرته أن أباها زوجها بمن لا تقبله ، فرفض النبي ذلك ، وأبطل العقد ، وجعل الخيار إليها .

ومن هذا نفهم أن المرأة البكر التى بلغت سن الرشد تستطيع أن تزوج نفسها بنفسها ، دون أن يتوقف ذلك على إذن من وليها ، لأن الزواج حقها الشخصى الذى لابد أن يتم بموافقتها ورضاها ، وإذا حدث أن هذه الفتاة البكر أساءت استعمال هذا الحق ، فتزوجت من ليس لها بكفء أو جدير ، فإن بعض الفقهاء يرون لولى الأمر حق الاعتراض ، ولكن هذا لا ينفى أن الأصل فى الزواج هو أنه حق شخصى لكل من الزوجين ، وأن الزوجة لا يمكن إرغامها على التزوج بمن لا تريد .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

المرأة وستر العورة

السؤال :

هل تعد المرأة التى تنكر الحجاب وستر العورة عند الصلاة وغيرها منكرة لأمر معروف من الدين بالضرورة ؟

الجواب :

أمر الإسلام المرأة المسلمة بأن تستر جميع بدنها ، إلا الوجه والكفين والقدمين ونصف الذراعين ، على اختلاف بين الفقهاء فى ذلك ، فهم بين

مشدد وميسر ، ومع ذلك نجد فى كتاب الله تبارك وتعالى قوله عز من قائل فى سورة الأحزاب : (يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً) . وقد تكلم المفسرون عن قول الله تعالى فى سورة الأعراف : (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) فذكروا أن المراد بالزينة فى الآية ما يستر العورة عند الصلاة ، أى استروا عوراتكم عند كل صلاة .

وروى عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه أنه قال : قلت يارسول الله أفأصلى فى القميص ؟ قال : « نعم زرره ولو بشوكة » . وحينما تكلم المفسرون عن قول الله تعالى فى سورة النور : (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) قالوا أى ولا يظهرن مواضع الزينة إلا الوجه والكفين .

وعن السيدة عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار » أى لا يقبل صلاة امرأة بالغة إلا بغطاء على رأسها .

وقد سألت أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتصلى المرأة فى درع [قميص] وخمار بغير إزار ؟ فقال النبى : « إذا كان الدرع سابغاً يغطى ظهور قدميها » .

ومما تقدم نفهم أنه ثبت بالقرآن والسنة أن المرأة يجب عليها أن تستر عورتها كما سبق بيانه ، فإذا أنكرت المرأة وأصرت على إنكارها لذلك تكون قد أنكرت أمراً معروفاً من الدين بالضرورة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حرمة زواج الخامسة

السؤال :

هل يجوز للمسلم أن يتزوج أكثر من أربع نساء؟

الجواب :

يحرم على الرجل أن يتزوج أكثر من أربع نساء ، بحيث يجمع فى عصمته أكثر من أربع زوجات فى وقت واحد ، لأن الله تبارك وتعالى قد قال فى سورة النساء : (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) .

وقد أبانت سنة النبى عليه الصلاة والسلام أنه لا يباح لأحد أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، ولم يحدث من أحد من الصحابة ولا التابعين أنه جمع فى عصمته أكثر من أربع ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لغيلان بن أمية الثقفى - وقد أسلم وتحته عشر نسوة - : اختر منهن أربعا وفارق سائرهن . وعن الحارث بن قيس قال : أسلمت وعندى ثمانى نسوة فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال اختر منهن أربعاً .

وعلى هذا لا يستطيع المسلم بحال من الأحوال أن يجمع فى عصمته أكثر من أربع نسوة فى وقت واحد ، ولكن إذا ماتت واحدة منهن أو طلقها جاز له أن يتزوج بدلها ، بحيث لا يتجاوز أربع زوجات .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

معاشرة الحائض

السؤال :

هل يجوز للرجل معاشرة زوجته جنسياً فى أثناء الحيض ؟

الجواب :

المراد بالحيض هنا الدم الخارج من فرج المرأة وهى غير مريضة مرضاً يسبب سيلان هذا الدم ، ويبدأ فى العادة عند البلوغ ، ويكون لونه أسود أو أحمر أو أصفر ، وفى العادة يأتى المرأة كل شهر ، ودم الحيض متميز عن غيره ومعروف عند النساء .

ومن أحكامه أنه يحرم على الزوج معاشرة زوجته الحائض معاشرة جنسية ، ما لم تطهر من الحيض ، وقد نص على ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فنى سورة البقرة جاء قوله تعالى : (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) .

ويحل للزوج أن يستمتع بزوجته الحائض إذا أراد فى غير الفرج ، ولقد سئلت السيدة عائشة : ماللرجل من امرأته إذا كانت حائضاً ؟ قالت : كل شىء إلا الفرج .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تلبية وليمة العرس

السؤال :

ما حكم تلبية الدعوة إلى وليمة العرس ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة الأحزاب : (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا) ، وقد ذكر العلماء ذلك عند الحديث عن الوليمة وحكمها ، والوليمة هى الطعام يدعى إليه الناس لمناسبة سارة كالزواج والختان وحفظ القرآن . وقد روى فى الحديث المتفق عليه عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دعى أحدكم إلى الوليمة فليأتها » وروى البخارى فى صحيحه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فكوا العانى [الأسير] وأجيبوا الداعى ، وعودوا المرضى». وعن أبى هريرة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « من لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله » .

وفيما يختص بوليمة العرس بالذات قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو نحوه » .

وعندما أمر الرسول بالاستجابة للوليمة — قال العلماء — إن ظاهر الأمر هنا وجوب الاستجابة للوليمة مطلقاً ، وعليه جمهور الصحب والتابعين وبعض الفقهاء ، ولكن المشهور بين الفقهاء التفرقة بين وليمة العرس وغيرها ، فقال كثير من الأئمة : إن الاستجابة لوليمة العرس فرض عين ، وأما غير وليمة العرس فلا تجب الإجابة لها إلا عند بعض الفقهاء ، ومهما يكن من

أمر فالأليق بالمسلم أن يستجيب إذا دعاه أخوه إلى وليمة العرس ما لم يكن هناك إثم أو معصية .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

العاجز عن معاشرة الزوجة

السؤال :

هناك رجل عاجز عن الجماع مع زوجته ، فهل يجوز لأخيه الصغير أن يتزوجها ؟

الجواب :

إذا ثبت عجز الزوج عن معاشرة زوجته جنسياً ، ولم يكن له علاج يزيل هذا العجز ، كان ذلك سبباً يجوز عنده الفصل بينهما ، وإذا تراضى الزوجان على هذا التفريق ، وتم بالفعل ، وانتهت عدة المرأة من هذا الزوج ، جاز للأخ الأصغر أن يتقدم لخطبة هذه المرأة ، ثم يعقد عليها برضاها ، وتصبح زوجة له ، مادامت آثار الزواج الأول قد انتهت ، وما دام لا يوجد مانع آخر يمنع من الزواج .

ومما ينبغي للأخ الأصغر أن يحتاط للأمر . ويتصرف بحكمة ورزانة ، حتى لا تسوء العلاقة بين الأخوين ، بسبب انتقال هذه المرأة من الأخ الأول إلى الأخ الآخر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حكم العقيقة

السؤال :

هل يجب على الوالد عمل عقيقة لولده ؟

الجواب :

العقيقة هى الذبيحة التى تذبح عن المولود ، وهى من العق بمعنى القطع والشق ، وقيل للذبيحة عقيقة لأنه يشق حلقها ، وأصل العقيقة هو الشعر الذى يكون على رأس الصبى حينما يولد ، وإنما سميت الشاة التى تذبح عنه فى تلك الحالة عقيقة لأن شعره يحلق عند الذبح ، والحديث يقول فى ذلك : « أميطوا عنه الأذى » ويقصد بالأذى ذلك الشعر الذى يحلق عنه ، ويقال : عق فلان عن ولده إذا ذبح عنه ذبيحة يوم أسبوعه ، وقد جاء فى المجلد الأول من كتابى « يسألونك »[1] عن حفلة العقيقة — وهى التى تسميها العامة : حفلة الأسبوع للمولود — هذه العبارة : « الفرح بالذرية غريزة أصيلة فى نفس الإنسان ، وكل غريزة تحتاج إلى ميدان تتنفس فيه ، وتعبر عن ذاتها به ، ومن بين ذلك مايقيمه أهل المولود فى اليوم السابع لمولده من احتفال وابتهاج ، وهذه الفرحة لا بأس بها ، ولا تعارض بينها وبين الدين ، إذا لم يكن فيها منكر أو فاحشة أو خبث يحرمه الإسلام ، أو أى شىء يكرهه الله تعالى ويبغضه .

وحبذا لو اهتدى المسلمون فى هذا الاحتفال بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففى السنة النبوية إشارة إلى « حفلة الأسبوع » ولكن السنة تسميها باسم آخر هو « العقيقة » ويتلخص منهاج هذا الاحتفال فى أن نحلق شعر المولود ، ونتصدق بوزنه فضة على الفقراء والمحتاجين ، ونحدد للمولود

---

(١) انظر صفحة ٢٨٨ من المجلد الأول و كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » .

اسمه ، ونذبح عنه شاة تسمى شاة « العقيقة » ونستطيع أن نأكل من لحم هذه الشاة ، ونهدى منها ، ونطعم ضيوفنا وأحباءنا ، ونتصدق منها على الفقراء والمحتاجين .

وقد روى فى هذا الباب أن الرسول صلى الله عليه وسلم عق عن الحسن شاة ، أى ذبح باسمه فى حفلة العقيقة شاة . وقال : « يا فاطمة ، احلقى رأسه ، وتصدقى بزنة شعره فضة » ، فوزنوه فكان وزنه درهماً أو بعض درهم . وهذه العقيقة حكمها أنها سنة ، وبعض الفقهاء جعلها واجبة ، والقول الأول أقرب إلى التيسير .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

كيف تزوج أولاد آدم

السؤال :

عندما خلق الله آدم عليه السلام ، وخلق زوجته حواء . وكان لهما أولاد ذكوراً وإناثاً . كيف تم زواج الذكور من الإناث ، مع أنهم من أم واحدة وأب واحد ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة المائدة فى أول قصة قابيل وهابيل : (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين) . وعند تفسير هذه الآية وما بعدها ذكر المفسرون أن حواء أم البشر عليها السلام كانت تلد فى كل بطن ذكراً وأنثى ، وكان آدم عليه السلام يزوج الذكر من هذا

البطن للأنثى من البطن الآخر ، ولا تحل له أخته توأمته ، وبهذه الطريقة أمكن لأولاد آدم أن يتناسلوا ، والسبب فى هذه الطريقة أن هؤلاء الأولاد كانوا طلائع البشر فى الكون ، ولم تكن هناك طريقة أخرى يمكن اتباعها لتحقيق التوالد والتناسل غير هذه الطريقة ، وقد قال بعض المفسرين إن القرآن المجيد أشار إلى ذلك فى قوله تبارك وتعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً) . ويقول الإمام القرطبي إن هذه الآية كالنص فى الموضوع ، ثم نسخ الحكم بعد ذلك . وكان جميع ما ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى فى عشرين بطناً ، ثم بارك الله فى نسل آدم عليه السلام بعد ذلك . حتى يروى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الطلاق ثلاثاً

السؤال :

طلق رجل امرأته ثلاث مرات . هل هذا الطلاق يقع ثلاثاً أم واحدة ؟

الجواب :

الطلاق أمر شرعه الإسلام ليكون وسيلة لإنهاء الحياة الزوجية إذا تبين للزوجين أنه من غير الممكن استمرار الحياة الزوجية ، وأنه لا وسيلة

إلا الطلاق ومن هذا نعرف أن الطلاق لم يشرعه الإسلام ليكون ألعوبة فى أيدى الساخرين واللاهين .

وقد قسم الفقهاء الطلاق إلى قسمين : طلاق سنى أى ما وافق السنة ولم ينحرف عن سواء السبيل ، وطلاق بدعى وهو ما كان مخالفاً لروح الشريعة ، ومبتعداً عن صراط السنة .

والطلاق السنى هو أن يطلق الرجل امرأته التى عزم على تطليقها تطليقة واحدة بحيث تكون فى طهر لم يمسها فيه ، أى تكون خالية من الحيض ، ولم يعاشرها معاشرة زوجية ، والحكمة فى ذلك هى أن عدتها ستبدأ عقب وقوع الطلاق عليها ، فلا تطول عليها العدة فى هذه الحالة ، بخلاف ما لو طلقها وهى فى طهر مسها فيه ، لأن عدتها فى هذه الحالة ، ستبدأ بعد أن تأتيها دورتها الشهرية وتنتهى منها ، وفى هذه الحالة تطول المدة عليها وهى فى عدتها .

والطلاق البدعى المخالف لروح الشريعة هو أن يطلقها ثلاث طلقات بكلمة واحدة مثل قوله : أنت طالق ثلاثاً . أو يطلقها ثلاث طلقات متفرقات فى مجلس واحد ، كأن يقول لها : أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق . أو يطلقها وهى فى حالة الحيض أو النفاس ، أو يطلقها فى طهر عاشرها فيه معاشرة جنسية ، وهذا حرام .

والمعمول به فى المحاكم الآن أنه إذا طلق الرجل امرأته بأن قال لها أنت طالق ثلاثاً فإنها تقع طلقة واحدة رجعية .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

طلاق الثلاث فى عهد عمر

السؤال :

كان الطلاق ثلاثاً فى لفظ واحد ، أو ثلاث مرات فى مجلس واحد ، وذلك فى عهد عمر بن الخطاب . هل يعد ذلك حكماً أساسياً أو كان سياسة شرعية ؟

الجواب :

روى أن أبا الصهباء قال لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما : ألم تعلم أن الثلاث كانت تجعل واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر ، وصدراً من خلافة عمر ؟ قال : نعم .

وروى عنه أيضاً قال : كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر ، وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر بن الخطاب : إن الناس قد استعجلوا فى أمر قد كانت فيه أناة [أى مهلة] فلو أمضيناه عليهم ؟ فأمضاه عليهم ، أى أنهم كانوا يوقعون طلقة بدل إيقاع الناس الآن ثلاث تطليقات .

وعن ابن عباس قال : طلق ركانة امرأته ثلاثاً فى مجلس واحد ، فحزن عليها حزناً شديداً ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف طلقتها ؟ قال : ثلاثاً . فقال : فى مجلس واحد ؟ قال : نعم . قال : فإنما تلك واحدة فأرجعها إن شئت ، فراجعها .

وقال ابن القيم : قد صح عنه صلى الله عليه وسلم أن الثلاث كانت واحدة فى عهده ، وعهد أبى بكر رضى الله عنه ، وصدراً من خلافة عمر رضى الله عنه .

وكان رأى عمر فى ذلك هو أن يحمل الناس على إنفاذ الطلقات الثلاث عقوبة لهم وزجراً ، لئلا يرسلوها جملة ، وهذا اجتهاد من عمر رضى الله عنه ، غاية ما فيه أن يكون سائغاً لمصلحة رعاها ، ولا يجوز ترك ما أفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عليه أصحابه فى عهده وعهد خليفته .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

النية فى الطلاق

السؤال :

تلفظ شخص بيمين الطلاق وهو غاضب وقال بعد ذلك إنه لم يكن يقصد الطلاق ولم ينوه ، ولم يرده ، فما الحكم فى ذلك ؟ ويقول إنه قد صدرت منه عبارة الطلاق وامرأته فى حالة الحيض ، فما حكم هذا الطلاق ؟

الجواب :

ذكر الفقهاء أن الطلاق نوعان : سنى وبدعى ، فالطلاق السنى هو أن يطلق الزوج زوجته المدخول بها طلقة واحدة ، فى طهر لم يمسسها فيه ، أى لم يعاشرها معاشرة جنسية فيه ، وذلك لأن الله تبارك وتعالى يقول : أول سورة الطلاق : (ياأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة) أى إذا أردتم تطليق النساء لداع يدعو إلى ذلك ، فطلقوهن مستقبلات العدة ، وإنما تستقبل المطلقة العدة إذا طلقها زوجها بعد أن تطهر من حيض أو نفاس وقبل أن يمسها ، لأن المرأة إذا طلقت وهى حائض لم تكن حينئذ مستقبلة العدة .

والطلاق البدعى هو ما خالف الطلاق السنى المشروع ، كأن يطلقها فى حالة الحيض أو النفاس ، أو فى طهر جامعها فيه ، وقد أجمع العلماء على أن الطلاق البدعى حرام ، وأن فاعله آثم .

وقد روى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما طلق امرأته وهى حائض على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فسأل عمر رسول الله عن ذلك فقال : « مره فليراجعها ، ثم ليمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ثم تطهر ، إن شاء أمسك بعد ذلك ، وإنما شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك هى العدة التى أمر الله سبحانه أن تطلق لها النساء » .

وقد ذهب فريق من العلماء – كابن حزم وابن تيمية وابن القيم – إلى أن الطلاق البدعى لا يقع ، ومنع هؤلاء أن اندراج هذا الطلاق تحت العمومات ، لأنه ليس من الطلاق الذى أذن الله به ، بل هو من الطلاق الذى أمر الله بغيره ، وقد قال القرآن الكريم : (فطلقوهن لعدتهن) وهذا رسول الله عليه الصلاة والسلام يغضب عندما يبلغه ما فعل ابن عمر ، وهو لا يغضب من الحلال ، وقال لعمر : « مره فليراجعها » . وقد روى أحمد وأبو داود والنسائى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد طلاق الحائض ، ولم ير هذه الطلقة شيئاً ، وإسناد هذه الرواية صحيح .

ومن الذين قالوا بعدم وقوع الطلاق البدعى عبد الله بن عمر وسعيد ابن المسيب ، وطاووس من أصحاب ابن عباس ، وخلاس بن عمرو وأبو قلابة وهما من التابعين ، وكذلك قال بعدم الطلاق الظاهرية ، وهو أحد الوجهين فى مذهب أحمد ، واختاره ابن عقيل من أئمة الحنابلة .

وهناك اتفاق على أن الطلاق المخالف للسنة يقال له طلاق بدعة ، والرسول

يقول : « كل بدعة ضلالة » . ويقول : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » . وهذا حديث متفق عليه .

هذا وقد جاء فى حديث البخارى والترمذى : « كل طلاق جائز إلا طلاق المغلوب على عقله » وكذلك روى أحمد وأبو داود : « لا طلاق ولا عتاق فى إغلاق » والإغلاق هو الغضب ، وحقيقته — كما ذكر ابن تيمية — هو أن يغلق على الرجل قلبه ، فلا يقصد الكلام ، أو لا يعلم به ، كأنه انغلق عليه قصده وإرادته ، فإذا استحكم الغضب ، واشتد بصاحبه ، بحيث يحول بينه وبين نيته ، وبحيث يندم على ما فرط منه ، فوقوع الطلاق منه محل نظر عند الفقهاء ، وعدم الوقوع فى هذه الحالة أولى .

وكذلك ذكر الفقهاء أن طلاق المدهوش لا يقع ، والمدهوش هو الذى لا يدرى ما يقول بسبب صدمة أصابته فاختل عقله .

والعبرة هنا بالقصد والنية ، لا بالألفاظ والكلمات ، ولذلك يقول ابن القيم فى كتابه « إعلام الموقعين » : « من تدبر مصادر الشرع وموارده تبين له أن الشارع ألغى الألفاظ التى لم يقصد المتكلم بها معانيها ، بل جرت على غير قصد منه ، كالنائم والناسى والسكران والجاهل والمكره والمخطئ من شدة الفرح أو الغضب أو المرض ونحوه » .

ويقول ابن القيم فى موطن آخر ما يفيد أنه لا بد من اعتبار النية والمقاصد فى الألفاظ : « وهذا الذى قلناه من اعتبار النيات والمقاصد فى الألفاظ ، وأنها لا تلزم بها أحكامها حتى يكون المتكلم بها قاصداً لها ، مريداً لموجباتها ، كما أنه لا بد أن يكون قاصداً للتكلم باللفظ ، مريداً له ، فلا بد من إرادتين : إرادة التكلم باللفظ اختياراً ، وإرادة موجبة ومقتضاه ، بل إن إرادة المعنى

آكد من إرادة اللفظ فإنه المقصود ، واللفظ وسيلة – هو قول أئمة الفتوى من علماء الإسلام » .

ونقل عن مالك وأحمد فيمن قال : أنت طالق البتة ، وهو يريد أن يحلف على شيء ثم بدا له فترك اليمين لا يلزمه شيء . لأنه لم يرد أن يطلقها .

وقد روى أن عمر بن الخطاب قضى فى أمر امرأة قالت لزوجها : سمنى ، فسماها الطيبة ، فقالت : سمنى خلية طالق ، فقال لها : فأنت خلية طالق ، وجاءت المرأة إلى عمر فقالت : إن زوجى طلقنى ، فقص الزوج القصة على عمر ، فأوجع عمر رأسها ، وقال لزوجها : خذ بيدها وأوجع رأسها .

ويعلق ابن القيم على تصرف عمر بقوله : هذا هو الفقه الحى الذى يدخل على القلوب بغير استئذان ، وإن تلفظ بصريح الطلاق .

وفى مذهب أحمد ومالك وبعض أهل العلم يشترطون لوقوع الطلاق : الرضا بالنطق اللسانى ، والعلم بمعناه ، وإرادة مقتضاه ، فإذا انتفت النية والقصد اعتبر اليمين لغواً ، لأن القرآن المجيد يقول : (وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم) ، والعزم هو ما عزم الإنسان على فعله ، ويستلزم ذلك إرادة جازمة بفعل المعزوم عليه أو تركه ، والحديث يقول : « إنما الأعمال بالنيات » والطلاق عمل مفتقر إلى نية . وقد روى البخارى عن ابن عباس الحديث القائل : « إنما الطلاق عن وطر » أى عن غرض من المطلق فى وقوع الطلاق .

وقد جاء فى المجموع للنووى وهو يتكلم عن طلاق الهازل : يرى الإمام مالك والإمام أحمد أن الطلاق الصريح يحتاج إلى النية ، وحجتهم قول الله سبحانه وتعالى : (وإن عزموا الطلاق) والهازل لا عزم له فلا يقع طلاقه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الملاعنة

السؤال :

تزوج رجل بامرأة ، ولكنه لم يعاشرها حتى زنت وحملت بابن غير شرعي فهل يجب التفريق بينهما ؟

الجواب :

إذا كان الزوج لم يعاشر زوجته إطلاقاً ، وزنت مع غيره ، وحملت من هذا الزنى ، واتهمها الزوج بالزنى ، فإن ولى الأمر يجرى بينهما الملاعنة التى أشار إليها القرآن فى سورة النور بقوله تبارك وتعالى : (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين * والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) .

وإذا تمت الملاعنة بأن يتهمها الزوج بالزنى أربع مرات ، مؤكداً اتهامه باليمين ، وأنكرت المرأة هذه التهمة أربع مرات مؤكدة نفيها باليمين ، وفى المرة الخامسة يستنزل كل منهما لعنة الله أو غضبه على نفسه إن كان من الكاذبين . إذا تمت الملاعنة هكذا يحكم ولى الأمر بالتفريق بينهما تفريقاً نهائياً .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

رضاع الزوج من زوجته

السؤال :

هل يجوز للزوج أن يرضع لدى زوجته إذا كان يوجد فى لديها لبن ؟

الجواب :

المعروف فى الشريعة الإسلامية أن الرضاعة يحرم منها ما يحرم من النسب . ويكون ذلك بشروط ، والإفتاء الآن على أن الرضاع المحرّم هو أن يرضع الذكر من الأنثى خمس رضعات متفرقات مشبعات مؤكدات فى زمن الرضاعة وهو سنتان ، فإذا لم يتحقق شرط من هذه الشروط المذكورة لا يكون الرضاع محرماً .

والمذكور فى السؤال أن الرضاع قد حدث والراضع كبير ، وليس فى زمن الرضاع ، وقد جاء فى المجلد الأول من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة »[1] أن هذه المرأة تظل زوجة لهذا الرجل الذى رضع منها وهو كبير ، ولا تحرم عليه ولا تطلق منه بناء على هذا الرضاع .

وقد جاء فى الجزء الثانى من كتاب « فتاوى شرعية » أن رضاع الكبير ، كرضاع الزوج من ثدى زوجته لا يؤثر فى التحريم بينه وبين زوجته التى رضع منها ولو فعل ذلك مراراً ، ونزل اللبن فى جوفه .

ولكن اللائق بعلاقة الزوجية المصونة أن يحترس الزوج من مثل هذا العمل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

---

(١) انظر صفحة ١٩٨ من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » المجلد الأول .

إفساد المرأة على زوجها

السؤال :

هل يجوز للمسلم أن يحاول الزواج من امرأة متزوجة ، وذلك بإقناعها لتطلق من زوجها ثم يحاول ذلك الشخص زواجها ؟

الجواب :

لقد حرم الله جل جلاله زواج المرأة المتزوجة ، وذلك بنص القرآن الكريم ، حين ذكر ذلك ضمن المحرمات بقوله : (والمحصنات من النساء) ومن الكبائر التي يلجأ إليها من ليس له دين ولا خلق ولا ضمير أن تتطلع عين الإنسان الخبيثة إلى زوجة غيره ، فيطمع فيها ، ثم يحاول هدم بيت الزوجية ، مندفعاً بشيطانه وشهوته ، يريد من وراء ذلك أن يفسد الحياة الزوجية ، وأن يهدم بيتها الذى حصنه الله ورسوله ، وإنما يريد ذلك الأثيم من وراء محاولته أن يستجيب لشهوته المنحرفة التي لا يرضى عنها الله ولا رسوله .

ولا ندرى كيف يستحق وصف الإسلام من يفكر فى ذلك الإثم ويقدم على ارتكابه ؟ إن مثل هذا الإنسان الدنىء يسىء إلى دينه أولا ، وهو الإسلام الحنيف ، ويسىء إلى الزوج ثانياً ، لأنه يسعى فى خراب بيته ، وإفساد زوجته عليه ، وهذا من أقبح أنواع السعى بالفساد فى الأرض ، وإهلاك الحرث والنسل ، وهو يسىء كذلك إلى الزوجة المسكينة المضللة ، لأنه يهدم بيت زواجها ، ويغريها حتى تستجيب له ، وترتكب الجريمة الفاحشة ، بقطع ما وصله الله من ميثاق الزواج بينها وبين زوجها ، دون أن نرى من هذا الزوج انحرافاً أو اعتسافاً يستدعى إصلاحه أن نفرق بينه وبين زوجته .

ولكن إذا كان هذا الزوج قد أساء إلى زوجته إساءة لا تستقر معها حياة الزوجية ،ورأت الزوجة أن بقاء العلاقة الزوجية أمر لا يطاق،وأقنعت زوجها بالانفصال بينهما ، وتم ذلك بالرضا والاختيار ، وبدون إساءة لاستعمال الحق فى هذا المجال ، فلا مانع من زواج الشخص المسلم بها إذا توافرت الشروط المطلوبة فى هذا المجال .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الأخ محرم لأخته

السؤال :

ما هو حال الأخ مع أخته المتزوجة بعد كبره ووصوله سن البلوغ ؟ وهل يجوز أن يزور الأخ أخته فى بيتها (بيت الزوجية) مع أن أخته لها ضرة تسكن معها فى الشقة ؟

الجواب :

الأخ بالنسبة إلى أخته أحد محارمها ، وله الحق فى زيارتها والتردد عليها ، لأن هذا يعد من باب صلة الأرحام ، والتودد إلى الأقارب الذى حث عليه الإسلام ، وهذه الصلة لا ترتبط بالبلوغ أو عدمه ، بل إن كبر السن ، أو بلوغ مبلغ الرجال قد يجعل صلة الأرحام مؤكدة أكثر مما كانت فى عهد الصغر .

وإذا كانت هناك ضرة تسكن مع أخته فى شقتها ، فإنه ينبغى له أن يحسن

التصرف فى الأمر ، فيحسن الجمع بين أداء واجبه نحو أخته ، وتجنب الخلوة أو الانفراد بالضرة التى هى أجنبية عنه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

النظر إلى المرأة

السؤال :

النظر إلى المرأة يجوز أو لا يجوز ؟

الجواب :

المعروف من الإسلام أنه أراد أن يحيط المرأة بستار من الحصانة والوقاية فجعل جسم المرأة الأجنبية عورة ، يحرم على الرجل أن ينظر إليه إلا الوجه والكفين ، فإنهما ليسا بعورة ، فيجوز النظر إليهما ، فى حالة أمن الفتنة ، وقد روى عن أبى حنيفة النعمان أن القدمين ليستا بعورة فى حق المرأة .

ومن أدب الإسلام أن يغض الرجل عن التطلع إلى جسم المرأة ما ظهر منه وما بطن . والقرآن الكريم يقول فى سورة النور : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون) .

وقد حرم الإسلام على الرجل الأجنبى الخلوة بالمرأة ، والنظرة الخائنة إليها . وحينما تعرض الإمام القرطبي لقوله تعالى : (وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) قال القرطبي : يدخل فى ذلك جميع النساء بالمعنى ، وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة ومن ذلك

يديها وصوتها ، فلا يجوز كشف ذلك إلا للضرورة القصوى ، وقد جاء فى الحديث : « المرأة عورة ، وإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وإنها لا تكون أقرب إلى الله منها فى بيتها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

جريمة هتك العرض

السؤال :

هل يجوز للأعزب أن يجامع النساء المحترفات فى بيع أعراضهن ؟

الجواب :

هذا سؤال عجيب غريب ، ماكنا نعتقد أن إنساناً له صلة بأحكام الإسلام يسأل عنه ، ويجعله موضع استفسار واستفهام ، إذ كيف يجوز شرعاً أو عقلا أو عرفاً أن يستبيح الرجل الأعزب لنفسه أن يزنى بامرأة تتاجر فى عرضها وتحترف الرذيلة والزنى ، مع أن الزنى هو أبشع الجرائم وأشنع الرذائل ، وكما جاء فى القرآن الكريم : (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) . ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » . وفى المجلد الثانى من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة »[1] قلت إن الزنى من أكبر الكبائر التى شدد فى أمرها الإسلام ، فإذا وقع الشخص فى هذه الجريمة سواء أكان أعزب أم غير أعزب ، ولم يقم عليه حدها ، فإن كفارتها هى التوبة الصادقة النصوح ، التى يندم

(١) انظر صفحة ٢١٣ من المجلد الثانى من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » .

فيه الإنسان ندماً حقيقياً صادقاً ، ويقلع عنها ويحذرها ، ثم يعزم عزماً أكيداً على عدم العودة إليها ثم يواظب على طاعة الله سبحانه وتعالى .

وهذا هو المفهوم من قول الله سبحانه وتعالى عن عباد الرحمن : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً * إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

اختيار أسماء الأولاد

السؤال :

هل يجوز لغير المسلم أن يختار لأولاده أسماء إسلامية ؟

الجواب :

دعت السنة المطهرة المسلم إلى أن يحسن اختيار الأسماء لأولاده ، فلا يختار لهم اسماً قبيحاً أو منفراً ، ولا يختار لأولاده أسماء تدل على الكفر أو التشبه بالكافرين ، وقد ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خير الأسماء ماحُمد وعُبد ،أى ما كان مشتقاً من مادة « الحمد » مثل : محمد ومحمود وحامد . . . إلخ . أو كان فيه صفة العبودية لله ، مثل : عبد الله وعبد الرحمن وعبد السلام وعبد الرحيم وعبد الحليم . . . إلخ .

وأما غير المسلم فإنه إذا سمى ولده باسم مشترك الاستعمال بين الناس مثل : حسن وحلمي ومجدى ، فليس هناك مانع يمنعه . وأما إذا سمى ولده اسماً إسلامياً خالصاً مثل : محمد وأحمد ، فإننا ننظر ، فإن كان يطلق هذا الاسم استخفافاً بالمسلمين منعناه من ذلك إذا قدرنا ، وإن كان يطلقه فى احترام وهيبة فقد يكون ذلك مفتاحاً إلى الخير .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تبعة الوالدين نحو الأولاد

السؤال :

ما نوع العقاب الذى يقع على الوالدين اللذين ارتد ابنهما عن الإسلام ولم يحاولا أن يرجعاه للإسلام ؟

الجواب :

إن الابن أمانة بين يدى والديه ، يجب أن يرعياها حق رعايتها ، وأن يتقيا الله فى صيانتها وتوجيهها ، ولذلك يجب عليهما أن يبذلا ما يستطيعان فى توجيهه وتربيتـــه وتعليمه أمور الدين والإسلام منذ بداية الطريق ، ولقد جاء فى كتاب « الدين وتنظيم الأسرة »[1] أن الإسلام يطالب الوالد بأن يسهر على ولده ، فيحسن اختيار أمه ويحسن اختيار اسمه ، ويقوم بتربيته وتعليمه لأن الوالد مسئول مادياً ومعنوياً عن ولده حتى يعرف طريق الله المستقيم منذ نعومة أظفاره ، وإذا أهمل الوالدان فى هذا الواجب منذ

(١) انظر صفحة ٢١ من كتاب « الدين وتنظيم الأسرة » .

بداية الطريق كانا آثمين إثماً كبيراً فى حق ولدهما ، ولكن إذا كبر الولد وعاند وأصر على الكفران والارتداد على الرغم من النصح والإرشاد ، والتهديد والوعيد ، فإن مسئولية كفره وضلاله تكون عليه وحده ، لأن الله تبارك وتعالى يقول :(لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الإحسان إلى الوالدين

السؤال :

عشت مع امرأة لم أتزوجها ، وعاملتها كزوجتى ، وأخفيت ذلك عن والدى ، فلما علم من جارى – وكان ذلك خلال شهر شعبان – ترك بيتى فى رمضان ، وصام الشهر كله عند الجيران ، بسبب غضبه منى ، فهل أسأت فى حقه؟

الجواب :

إن طاعة الوالدين والإحسان إليهما فى جميع أنواع المعاملة من ألزم الواجبات وأهم الفرائض ، وقد جعل الله الكريم ذلك فى المنزلة التالية لعبادة الله وحده ، فقال فى سورة الإسراء : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً) .

وقد قال أحد الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «يارسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . فقال الرجل : ثم من ؟ قال : أمك . فقال الرجل : ثم من ؟ قال : أمك . قال الرجل : ثم من ؟ قال أبوك» .

وقد ارتكب هذا الرجل فاحشة كبرى ورذيلة عظمى ، حين تعدى حدود الله تعالى ، وعاش مع امرأة أجنبية عنه كأنها زوجته . ولوالده أن يغضب عليه غضباً شديداً ، وأن ينفر منه نفوراً عنيفاً ، لما ارتكبه ابنه من إثم ورذيلة ، ومن الواجب على ذلك الابن أن يسارع بالتوبة إلى الله ، والندم على ما فعل ، ويجب عليه أن يسترضى والده بأى ثمن .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

قسوة الوالد على أولاده

السؤال :

هناك والد يقسو فى معاملة أولاده قسوة بالغة ، ويعاملهم بعنف وخشونة فهل يجوز لهم أن يعاملوه بالمثل ؟

الجواب :

الوالد الذى يقسو فى معاملة أولاده قسوة بالغة ، ويعاملهم بعنف وخشونة ، قد أخطأ خطأ فاحشاً ، ولا يتصور الإنسان أن والداً عاقلا يفعل ذلك ، لأن الأولاد أمانة من الله سبحانه بين يديه ، والله عز وجل

سائله عنهم يوم القيامة ، ونحن نلاحظ أن القرآن الكريم قد أوصى الأولاد بالآباء ، ولم يوص الآباء بالأبناء ، لأن المنتظر أن يهمل الأبناء فى حق الآباء ، وخاصة إذا بلغ الآباء سن الشيخوخة ، ولكن لا ينتظر من والد عاقل أن يضيع حق أولاده .

هذه القسوة ليست من أخلاق الإسلام ، لا مع الأقارب ولا مع الغرباء، فالواجب على هذا الوالد القاسى أن يقلع عن هذه القسوة ، وأن يعامل أولاده بالرحمة والشفقة ، حتى يكون قد رعى الأمانة حق رعايتها ، وحفظ حق الله فى أولاده .

ومن باب آخر يجب على هؤلاء الأولاد ألا يقابلوا الشر بالشر ، ولا يردوا على السيئة بالسيئة ، لأن القرآن المجيد يقول : « ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ● وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

وعلى هؤلاء الأولاد أن يرعوا حرمة أبيهم ، وأن يتحملوا إساءة أبيهم قدر استطاعتهم ، ولعل الله تعالى يحدث بعد ذلك أمراً .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

معاملة الوالد لأولاده

السؤال :

ما حكم الوالد الذى يفرق بين أولاده فى المحبة والمعاملة ، ولم يرب أولاده تربية حسنة ، ولم يأمرهم بالصلاة وتلاوة القرآن أو غير ذلك من العبادات ؟

الجواب :

إن الوالد الذى يفرق فى المعاملة والمحبة بين أولاده لا يستحق لقب الوالد ، ولا يكون أميناً على رعاية هؤلاء الأولاد ، لأنهم جميعاً أولاده وفلذات كبده ، ومن صلبه وإن تعددت أمهاتهم ، فالواجب عليه أن يرعى الأمانة حق رعايتها ، وأن يصون هذه الذرية حق صيانتها ، وأن يعدل بينها ، ولا يتأثر بمؤثر خارجى فيميل ذات اليمين أو ذات الشمال ، فيفضل منهم ولداً لأن أمه أجمل أو أغنى أو أحظى عنده أو أحب من سواها من زوجة قديمة غيرها أو غير ذلك من الأسباب .

كما أن من أوجب الواجبات على الوالد أن يحسن تربية أولاده وأن ينشئهم على الدين وأداء العبادات واجتناب المحرمات وقراءة القرآن ، والمحافظة على الصلوات ، وليتذكر أن الله جل جلاله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فى سورة طه : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) .

وإذا لم يستجب الوالد لهذه الأوامر الإلهية المقدسة استحوذ عليه الشيطان ، وباء بالخيبة والخسران ، وعرض نفسه لعقاب الله الأليم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

بين حق العمل والميراث

السؤال :

عمل رجل مع أخيه دون راتب ، فرزقه الله مالا كثيراً ، ثم مات وترك ميراثاً ، فهل يستطيع هذا الرجل أن يرث من مال أخيه نظير عمله ؟

الجواب :

الذين يرثون بينهم الله تعالى فى كتابه العزيز ، وتكفلت السنة ببيان بعض الورثة سواء أكانوا يرثون بطريق الفرض المعين ، أم كانوا يرثون بالتعصيب ، أم كانوا من ذوى الأرحام الذين يستحقون الميراث .

والأخ من العصبة ، سواء أكان أخاً لأبوين ، أم أخاً لأب .

ومهما كان الأمر فإن الأخ المسئول عنه الذى تاجر مع أخيه دون أجر ، لا يستحق ميراثاً بسبب هذا العمل ، لأن مثل هذا العمل ليس من الأسباب التى ذكرتها الشريعة للميراث ، وإنما يستحق هذا الأخ أن يطالب بأجر المثل ، أو يطالب بنصيبه من التجارة وربحها ، حسبما اتفق الأخوان على ذلك ، فمتى استطاع الأخ العامل أن يثبت بالأدلة والبراهين إن له حقاً أو حقوقاً فى تركة أخيه ، فإنه يستطيع أن يطالب بهذه الحقوق ، على أنها ديون ، لا على أنها ميراث ، وهذا لا يتعارض مع ما أشرنا إليه من أن الأخ لأبوين أو لأب يعد من العصبات التى ترث فى الحالات المنصوص عليها فى فقه الإسلام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الميراث مع اختلاف الدين

السؤال :

رجل كان كافراً وامرأته كذلك ، وأنجبا أولاداً فى كفرهما ، ثم أسلما ، وأنجبا أولاداً آخرين فى الإسلام فهل يرث الأولاد المولودون أيام كفر والديهما ؟

الجواب :

هناك موانع تمنع من الميراث ، ومن هذه الموانع اختلاف الدين ، فلا توارث بين أهل ملتين ، لا يرث المسلم من الكافر ، ولا يرث الكافر من المسلم ، وهذان الوالدان المسئول عنهما إذا كانا قد أسلما ، ولهما أولاد صغار فإن الأولاد إذا كانوا صغاراً فإنهم يتبعون والدهم المسلم ، ويعاملون معاملة المسلمين ، ماداموا لم يبلغوا مرحلة التكليف ، وكذلك إذا ثبتوا على إسلامهم بعد بلوغهم .

ولكن إذا بلغوا وأصروا على الكفر – لا قدر الله – فإنهم فى هذه الحالة يكونون على دين غير دين أبيهم وأمهم ، وفى هذه الحالة لا يرثون شيئاً من والديهم المسلمين ، لأن اختلاف الدين يمنع من التوارث كما ذكرنا .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حبس الميراث عن مستحقيه

السؤال :

ما حكم الأخ الذى يحبس مال الورثة عنهم ، ولا يوزعه على مستحقيه ، وينتفع به لنفسه؟

الجواب :

إن أحكام الميراث قد جاء أغلبها فى القرآن الكريم نصاً وتحديداً ، وكأن الله عز شأنه لم يرد أن يترك أحكام المواريث لاجتهاد مجتهد ، أو استنباط مستنبط ، بل نص عليها وحددها فريضة ثابتة منه ، ولذلك يسمى الفقهاء علم المواريث بأنه علم الفرائض . أى الأنصبة المفروضة التى حددها الله وأمر بالتزامها وتنفيذها . ومنع الميراث عن مستحقيه يعتبر من أبشع الجرائم التى يرتكبها الإنسان ، وكأن هذا المنع نوع من المحاربة لله ودينه . كما أن منع الميراث عن مستحقيه نوع من أكل أموال الناس بالباطل ، والقرآن الكريم يقول فى جريمة أكل الأموال بالباطل — سواء أكانت ميراثاً أم غيره — : (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) .

ويقول الله تعالى محذراً من حبس الأموال الموروثة المستحقة لأهلها ، وخاصة إذا كانوا يتامى :(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) .

والواجب على الأخ الذى حبس الميراث عن مستحقيه أن يتقى الله ربه ، وأن يقلع عن هذا الجرم الفظيع ، وأن يؤدى الحقوق إلى أهلها كاملة غير منقوصة ، وإلا عرّض نفسه لعقاب الله الأليم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

المعَامَلات وَالإقتصَاد



القرعة على هدايا

السؤال :

تنظم الحكومة عندنا صندوقاً للأعمال الخيرية ، ويحصل المشتركون على أرقام لتبرعاتهم لا تقل عن مائتى روبية ، وتجرى القرعة على هذه الأرقام لتحديد الفائز ، وله هدية مالية ، فما رأى الدين فى هذه الهدايا ؟

الجواب :

القرعة مشروعة مباحة ، وعلى هذه القاعدة أفتت لجنة الفتوى فى الأزهر الشريف من سنوات بجواز أخذ الجوائز المالية التى تعطيها الدولة عن طريق القرعة التى تجريها بين المشتركين فى شهادات الاستثمار حرف « ج » ، وقاستها على القرعة الجائزة شرعاً .

ومن الممكن أن نجعل الحالة الواردة فى السؤال من هذا القبيل ، فإن الحكومة هى التى تشرف على الصندوق المذكور وتلتزم بالهدايا التى يأخذها الفائزون .

وعلى هذا لا مانع من أخذ الهدية التى تأتى عن هذا الطريق .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

بين التزوير والسرقة

السؤال :

أى الذنبين أكبر : شخص تصدق على أعمى بمال مزور (مغشوش بالتزوير فيه) وشخص سرق مال أخرس وهو نائم ؟

الجواب :

لعنة الله عز وجل على الإثم كله ، لأنه يؤدى إلى طريق الشر والفساد ، ويعقب غضب الله ونقمته . وهذان شخصان قد ارتكب كل منهما إثماً عظيماً وذنباً كبيراً ، فالأول قد استباح لنفسه الخداع وترويج النقد المغشوش المزور . ومع من ؟ مع رجل مكفوف البصر ، استغل كف بصره ، هذا الغشاش الأثيم ، وهو يتظاهر بأنه يتصدق وينفق فى سبيل الله ، وليته لم يتصدق ولم يوقع هذا الكفيف فى أحابيل غشه وخداعه ، فقد يؤدى به هذا النقد المغشوش إلى السجن ، أو إلى سوء الظن به ، ومهما يكن من أمر فإنه لم يفز بطائل من صدقة هذا الغشاش الأثيم .

والأثيم الآخر قد ارتكب جريمة السرقة النكراء ، التى يقول فيها القرآن الكريم مهدداً ومتوعداً : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ٭ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) . ويزيد فى جريمته بشاعة وهولا أنه قد استباح لنفسه الجريمة النكراء ، وهى أنه يسرق من شخص أخرس لا يستطيع الكلام أو الاستنجاد أو البيان ، وفى الوقت نفسه هو نائم لا يشعر ولا يدرى .

ومع أننا لا نستحسن المقارنة بين الذنبين ، لأننا نتمنى التوفيق لتجنب الإثم كله ،فإن جريمة السارق من الأخرس والأعمى تبدو أكبر إثماً وجرماً .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الرشوة للحصول على عمل

السؤال :

هنالك رجل يبحث عن عمل له ، ولا بد من تقديم رشوة للحصول على هذا العمل ، وقد اضطر إلى تقديم هذه الرشوة ليحصل على العمل الذى يحتاج إليه ليأكل منه ، فما حكم ذلك؟

الجواب :

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لعن الراشى والمرتشى فى الحكم ، والراشى هو الذى يعطى الرشوة ، والمرتشى هو الذى يأخذ الرشوة ، وقد روى هذا الحديث أبو داود وأحمد والترمذى بسند صحيح ، وفى رواية للإمام أحمد : « لعن الله الراشى والمرتشى والرائش الذى يمشى بينهما » ، واللعن يقتضى التحريم ،والرشوة فى الأصل ما يعطى لإبطال حق ، أو لإحقاق باطل ، وهى بهذا المعنى حرام على الطرفين باتفاق ، كما أنها حرام على الحاكم مطلقاً . وقد جاء فى هذا قول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة : (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) .

أما إعطاء الإنسان المضطر رشوة للوصول إلى حقه ، أو لدفع ظلم

عن نفسه أو أهله ، فلا بأس به ، وقد ذهب إلى هذا بعض التابعين حيث قالوا إنه لا بأس فى أن يصانع الإنسان عن نفسه وماله إذا خاف الظلم .

ويرى الإمام الشوكانى أن تحريم الرشوة مطلق غير مقيد بتخصيص ، وقد ردوا عليه بأن الضرورات تبيح المحظورات ، وعلى هذا فلو لم يجد الإنسان طريقة أخرى يحصل بها على ما يتقوت به ويحفظ نفسه من الهلاك ، فلا بأس بدفع الرشوة فى هذه الحالة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

إيداع الأموال فى البنوك

السؤال :

ما حكم إيداع الأموال فى البنوك ؟

الجواب :

الظاهر أن السائل يسأل عن حكم النقود التى تؤخذ كفائدة عن المبلغ المودع فى البنك : أهو حلال أم حرام ؟ لأنه إذا أودع الإنسان أموالا له قلت أو كثرت ، دون أن يأخذ فائدة نظير هذا الإيداع . فإن ذلك عمل لا غبار عليه ولا ذنب فيه ، اللهم إلا إذا كان البنك المودع فيه ذلك المال فى أيدى أعداء للمسلمين . ويترتب على الإيداع فيه ضرر للمسلمين .

ومن المعلوم شرعاً أن الله سبحانه وتعالى حرم الربا تحريماً قاطعاً ، سواء أكان قليلا أم كثيراً ، وقد قال الله تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : (وأحل الله البيع وحرم الربا) .

ومن الواضح أن الفائدة التى يأخذها صاحب المـــال نظير إيداعه له فى البنك تعد نوعاً من الربا ، والله جل جلاله يقول : (وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) .

ونحن ندعو الله سبحانه أن يوفق ولاة الأمور فى بلاد الإسلام ليقيموا دعائم معاملاتهم فى بنوكهم ومصارفهم ومؤسساتهم الاقتصادية الأخرى على أساس سليم تبيحه الشريعة الغراء ، ونقطع فيه الطريق على النظام الربوى الذى كان اليهود هم الشياطين الذين ابتدعوه وأذاعوه وسيطروا عليه فى أرجاء العالم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

التأمين على الحياة

السؤال :

ما رأى الدين فى نظام التأمين على الحياة ؟

الجواب :

إن كلمة التأمين تدل على الأمن والأمان ، وكل الناس يحبون الأمن ويتطلعون إليه ، والقرآن نفسه يقول عن المؤمنين : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

ولكن هناك فرقاً كبيراً بين الأمن بمعناه اللغوى وبين التأمين كنظام فى الاقتصاد والمعاملات . ولو رجعنا إلى المصادر الفقهية الإسلامية الأولى

لمـــا وجدنا فيها تعرضاً لنظام التأمين أو الحكم عليه بالحل والحرمة ، لأن نظام التأمين نظام حديث بالنسبة إلى صدر الإسلام ، وبالنسبة إلى عصر التدوين الفقهى الإسلامى ، لأن أول نوع من أنواع التأمين لم يظهر إلا فى وسط القرن الرابع عشر الميلادى أى بعد أن مضى عصر الأئمة والفقهاء .

ويضاف إلى ذلك أن نظام التأمين بأنواعه المختلفة قد دخل بلاد الإسلام عن طريق شركات أجنبية استعمارية ، فى وقت كان الاستعمار الأجنبى يفغرفاه لالتهام ثروات البلاد الإسلامية والشعوب الإسلامية ، ولعل هذا هو الذى جعل المسلمين ينظرون إلى نظام التأمين نظرة الشك والارتياب ، ولذلك اختلفوا فى حكمه ، فمنهم من يقول بحرمته ، وخاصة التأمين على الحياة أو النفس ، لأن الأقدار بيد الله ، والأعمار يحددها الله ، والتأمين كذلك نظام قائم على الجهالة والتغرير ، وفيه التعامل بالربا ، وفيه شبهة المقامرة ، وفيه عدم الثقة بالقضاء والقدر ومع هذا يوجد بعض الفقهاء الذين يقولون إن التأمين حلال لا مانع منه ، ويقيسونه على نظام المضاربة أو الكفالة .

ومما يذكر فى هذا الباب أيضاً أن عالمـــاً كبيراً من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف تقدم إليه ببحث فقهى يجيز فيه نظام التأمين ، ولكن المجمع لم يصدر رأيه الفاصل فى الموضوع حتى الآن ، والمـــأمول أن ينتهى كما ذكر من استطلاع آراء العلماء فى البلاد الإسلامية ومواجهة المسلمين بالفتوى الصريحة الواضحة فى هذا الموضوع .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

ما معنى الربا

السؤال :

ما هو تعريف الربا ؟

الجواب:

الربا فى اللغة معناه الزيادة يقال : ربى الشيء إذا زاد عما كان عليه ، وقيل : الربا هو الزيادة على رأس المـــال ، وقد قال الله تعالى فى سورة البقرة :(الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . فالله تعالى قد أحل الأرباح فى التجارة ، وحرم الربا يعنى الزيادة التى يزيدها صاحب المـــال بسبب زيادته لغريمه فى الأجل وتأخيره الدين الذى عليه له . وقد حرم الله الربا لأنه أكل لأموال الناس دون مقابل من صاحب المـــال المعطى ، والشريعة توجهنا إلى أن الإنسان يجب عليه أن يكتسب المـــال من الطرق الصحيحة المشروعة التى لا تضر أحداً .

وقد نزلت آيات تحريم الربا لتشير إلى وقائع كانت للمرابين قبل التحريم ، فأراد بالربا فيها ما كان معروفاً فى الجاهلية من ربا ونسيئة ، وهو ما يؤخذ من المـــال فى مقابل التأخير فى سداد الدين .

والله تعالى يهدد الذين يأكلون الربا فيقول : (وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

ضمان المال

السؤال :

أنا أقيم فى البرازيل ، ولى زميل مقيم معنا . وعند سفر هذا الزميل إلى بلدنا لبنان كلفته أن يشترى لبنتىّ الاثنتين هدية عبارة عن أساور ذهبية وأعطيته ١٠٠ دولار وأكدت عليه ألا يشترى إلا أساور ذهبية ولا يشترى سلاسل ذهبية ، وعندما عاد من لبنان وجدته قد اشترى ٣ سلاسل ذهبية فرفضت تسلمها لأنه خالف تعلياتى له . فهل من حقى شرعاً أن أسترد منه المائة دولار مع أنه لا مفر أماى من تسلم السلاسل الذهبية ؟

الجواب :

حينما طلب السائل من صديقه أن يشترى له بالنقود التى دفعها إليه أساور ذهبية ، وأكد عليه ألا يشترى شيئاً آخر غير الأساور ، كان من الواجب عليه أن يلتزم بما تعهد بشرائه اختياراً لا اضطراراً ، وكان يستطيع أن يرفض مادام لا يستطيع أن يفى بالتعهد الذى أخذه على نفسه أمام السائل !

ومن هنا يجوز للسائل صاحب النقود أن يرفض أخذ السلاسل لأنه لم يطلبها ، ويجوز له أن يطالب صديقه بما أعطاه له من نقود خالف فى أمرها ما اشترطه ، على نفسه وهو شراء الأساور .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الأشربة والأطعمة



أكل الضفادع

السؤال :

هل حقيقة أن الرسول ﷺ نهى عن أكل الضفدع وقتلها ؟

الجواب :

جاء فى كتاب القاموس المحيط أن الضفدعة دابة بحرية ، إذا طبخها الإنسان بزيت وملح كانت ترياقاً أى علاجاً من الهوام وهى الحشرات ، وقال إن الضفدع نوعان : ضفدع برى وهو يقتل آكله ، وبحرى ،وقال الأطباء إن أكل الضفدع البحرى يضر آكله .

وقد جاء فى صحيح الإمام البخارى أن الشعبى قال : « لو أن أهلى أكلوا الضفدع لا طعمتهم » وتساءل الإمام ابن حجر فى كتابه : « فتح البارى شرح صحيح البخارى » بقوله عن الضفدع : هل يذكى ؟ أى هل يذبح ؟ ثم ذكر أن مذهب الإمام مالك رضى الله عنه أنه تؤكل الضفدع بغير تذكية .

ولكنه ورد فى مسند الإمام أحمد بن حنبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الصرد والضفدع . والصرد طائر ضخم الرأس والمنقار ، وله ريش عظيم ، نصفه أبيض ونصفه أسود ، وذكر ابن حجر فى « فتح البارى » ج ٩ ص ٦١٩ أنه وردت بعض الأخبار بمنع أكل الضفدع ، وذكر ابن الأثير أن ابن عباس رضى الله عنهما فى حديثه أنه نهى عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد ، وقال ابن الأثير فى النهاية : إن الذى جاء فيه النهى عن قتل نوع خاص من النمل ، وهو : الكبار ذوات الأرجل الطوال ، لأنها قليلة الأذى والضرر . وأما النهى عن قتل النحلة فلما فيها من المنفعة . وهو العسل والشمع ، وأما

الهدهد والصرد فتحريم لحمها لأن الحيوان إذا نهى عن قتله ، ولم يكن ذلك لاحترامه أو لضرر فيه كان لتحريم لحمه ، والهدهد منتن الرائحة ، والصرد تتشاءم به العرب وتتطير بصوته وشخصه ، وذكر ابن حجر أن النهى عن أكل الضفدع لأن نقيقها تسبيح لله .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

أكل الضفدع وثعبان الماء

السؤال :

ما حكم أكل الضفدع والثعبان المائى على المذهب المالكى ؟

الجواب :

جاء فى كتاب « الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك » للإمام الدردير أنه يباح أكل الحيوان البحرى مطلقاً ، وإن كان ميتاً . للحديث الذى يقول عن البحر : « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » ، وذكر فى المرجع المذكور أن ميتة البحر طاهرة ، ولو تغيرت بنتونة ، إلا أن يتحقق ضررها ، فيحرم أكلها لذلك ، لا لنجاستها وسواء وجدنا فى المـــاء ذلك الميت راسياً أو طافياً ، أو فى بطن حوت .

بل جاء فى المرجع المذكور أنه يجوز أكل الحيات إذا أمن الآكل سمها ،

وإنما يؤمن سمها بذبحها حتى تطهر ، وفى موطن آخر إن ما يفسد البدن كذوات السموم يحرم أكله .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

ذبح الحيوان

السؤال :

كيف يكون ذبح الحيوان لكى يحل أكله شرعاً ؟

الجواب :

شرع الله تبارك وتعالى ذبح الحيوان الذى سيؤكل لكى يصبح صالحاً للطعام ، ولكى يتخلص من انحباس الدماء فيه ، لأن هذا مفسد وضار .

والذبح – ويسميه الفقهاء الذكاة بالذال – هو قطع العروق المعروفة فى رقبة الحيوان ، بين مبدأ الحلق ومبدأ الصدر ، وهذه العروق التى تقطع هى الودجان – وهما عرقان كبيران فى جانبى الرقبة من الأمام ، والعرق الثالث هو الحلقوم ، وهو مجرى النفس ، والعرق الرابع هو المرىء ، وهو مجرى الطعام والشراب ، فهذه أربعة عروق ، لوقطعها الذابح كلها تم الذبح كاملا ، ولو قطع من هذه الأربعة ثلاثة يكفى . وفى بعض المذاهب : لوقطع الحلقوم والمرىء صح الذبح ، أى لا يشترط قطع الودجين معاً .

والذبح – أو الذكاة – تجوز بأى آلة حادة تقطع العروق المطلوب قطعها ، وتسيل الدم ، فيجوز الذبح بالسكين وبغيرها من الآلات ،

سواء أكانت ميكانيكية أو غير ميكانيكية ، إلا السن والظفر ، ولو حدث في الذبح أن آلة القطع قطعت الرقبة كلها ، وفصلتها عن بقية الجسم ولو من جهة القفا ــ صح الذبح ، سواء أكان الذبح يتم بصفة فردية بالنسبة للمذبوح ، أم بصفة جماعية .

وينبغي أن نتذكر أن الذبح قسمان : ذبح اختياري ، وذبح اضطراري ، فالذبح الاختياري هو ما تقدم ، وأما الذبح الاضطراري فهو ذبح الحيوان الذي لا نتمكن من الإمساك به والتمكن منه ، وذبحه بالطريقة المعتادة التي تقطع فيها العروق السابقة ، وهذا الذبح هو جرح جزء من بدن الحيوان يؤدي إلى إسالة دمه وإزهاق روحه .

وقد يكون هذا الذبح في حيوان غير مستأنس ، فلو توحش غنم أو بقر أو جمل وتعسر ذبحه ، ثم رماه الإنسان بسهم فأصابه في أي جزء من جسمه ، وأراق دمه وأماته ، حل أكله ، وكذلك لو شرد الجمل ونفر ، ولم يقدر صاحبه على الإمساك به إلا بمجموعة من الناس ، يجوز له أن يرميه بما يجرحه ويريق دمه ويميته ، ومتى جُرح وسال دمه ومات بهذا الجرح حل أكله ، ومثل هذا لو هاجم الحيوان الإنسان فرماه دفاعاً عن نفسه فأماته ، فإنه يحل أكله إذا جرحه وأسال دمه .

وكذلك لو وقعت بقرة في بئر الساقية مثلا ، وتعذر ذبحها ذبحا عادياً ، وضربها صاحبها بأي آلة حادة ، فجرحها وأسال دمها ، وماتت بهذا الجرح ، حل أكلها ، وصار هذا ذبحاً شرعياً .

وكل من يحسن عملية الذبح ــ سواء أكان كبيراً أم صبياً ، رجلا أم امرأة ــ يحل منه الذبح ويجوز الأكل من ذبيحته ، مادام قد قطع العروق

المطلوبة ، وما دام قد ذكر اسم الله عند الذبح ، ويكفى أى اسم من أسماء الله تعالى ، ويستحسن أن يقول : بسم الله أكبر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

ذبح شاة لمن أسلم

السؤال :

إذا أسلم الكافر فهل يلزمه ذبح شاة قضاء للشاة التى كان من السنة ذبحها يوم العقيقة بعد ولادته ؟

الجواب :

جاء فى سنة النبى عليه الصلاة والسلام أنه ليس لمن ولد له مولود أن يذبح عنه شاة تسمى شاة العقيقة ، وذلك فى اليوم السابع من ولادته ، حيث نحلق شعر المولود ونتصدق بوزنه فضة على الفقراء والمحتاجين ، ونضع للمولود اسمه ونذبح عنه شاة ، نأكل من لحمها ، ونهدى منها ، ونتصدق منها على المحتاجين ، وهذه السنة النبوية يوجه الخطاب عنها للمسلم الذى يقوم على حسب إسلامه بتقاليد الإسلام وسننه وواجباته وأركانه ، والكافر غير مكلف بهذه الأوامر ما دام كافراً ، فإذا أسلم فإن الإسلام يقطع ما قبله ، وعلى هذا فلا يجب عليه أن يذبح عقيقة عن مولوده الذى ولده فى زمن كفره .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

سلخ الذبيحة قبل أن تبرد

السؤال :

ذبحت بقرة ، ثم أمرت بسلخ جلدها ، وذلك قبل موتها تماماً ، فهل يجوز أكل لحمها ؟

الجواب :

لقد جعل الإسلام الحنيف ذبح الحيوان الذى يؤكل سبباً موصلا إلى حل الأكل منه ، وحقيقة الذبح أن يقطع الإنسان من الحيوان بالسكين الحلقوم ، وهو القصبة التى يجرى فيها النفس ، ويقطع الودجين وهما عرقان فى جانبى العنق يتصل بهما أكثر عروق البدن ، ويقطع المرىء وهو المسمى بالبلعوم، ولم يشترط بعض الفقهاء قطع المرىء ، وبعد أن يذبح الإنسان الحيوان يتركه حتى تبرد أعضاؤه ، ويخرج منه دمه وبعد ذلك يبدأ فى سلخ هذا الحيوان ، إعداداً للأكل منه ، وقد جاء فى كتاب « الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك » للعلامة الدردير أن من المكروه أن نسلخ جلد الذبيحة أو أن نقطع عضواً منها قبل تمام خروج روحها وبعد تمام الذبح ، لأن سلخها قبل ذلك فيه نوع من التعذيب ، ولذلك يستحب أن نترك الذبيحة حتى تبرد .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

دوس الذبيحة بالنعل

السؤال :

هل يجوز أن أذبح الشاة وأدوسها بنعلى لمنعها من الحركة ؟

الجواب :

لقد علم الإسلام أتباعه الرفق فى كل شىء وعودهم أن يكونوا أصحاب

رفق ورحمة بالإنسان والحيوان ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تعذيب الحيوان والطير ، وعن تحميل الحيوان ما لا يطيق ، كما علم الإسلام أتباعه أن يكونوا محسنين مترفقين غير مسرفين ولا معتسفين ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » . ولذلك كان من أدب الإسلام في الذبح أن يريح الذابح ذبيحته ، وأن يحد شفرته أي يختار في الذبح سكيناً ماضية تذبح بسهولة وسرعة ، وكان من أدب الإسلام أيضاً أن يسوق الذابح ذبيحته إلى مكان ذبحها سوقاً هيناً رفيقاً ، وألا يحد سكينه على مرأى منها ، وألا يكون عنيفاً في اضجاعها أو تكتيفها ، فإذا استطاع الإنسان أن يذبح ذبيحته دون أن يدوس رقبتها بنعله كان اللائق به والمتفق مع أدب الإسلام ألا يفعل ذلك ، ما دام يستطيع أن يتم عملية الذبح برفق ورحمة ، دون غلظة أو قسوة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حول ذبح المسيحيّ

السؤال :

اشتريت سكيناً منقوشاً عليها كلمة « الله أكبر » فهل يجوز إعطاؤها لصديقي المسيحي ليذبح بها ؟

الجواب :

لقد أباح لنا الله تبارك وتعالى أن نأكل من ذبائح أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وقد جاء بذلك صريح النص في القرآن الكريم ، فذلك حيث

يقول الله عز من قائل فى سورة المائدة : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) وقد قرر فقهاء الإسلام أنه يجوز لك عند الحاجة أن توكل شخصاً مسيحياً ، أو شخصاً من أهل الكتاب ، ليذبح لك ، ولا كراهة فى ذلك ما دام هذا الشخص يحسن الذبح .

وهذا المسيحى المسئول عنه حينما أخذ السكين المكتوبة عليها كلمة « الله أكبر » لم يأخذها ليرتكب بها إثماً ، أو ليسخر بها من اسم الله عز وجل المكتوب عليها ، وإنما أخذها ليذبح بها ، وذبيحته حلال لنا ، وحينئذ لا حرمة فى إعطائه هذه السكين ليذبح بها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تقديم الخمر

السؤال :

إذا أمر رجل الشخص الذى يعمل فى خدمته بشراء الخمر وتوزيعها على الضيوف ، فهل هذا الخادم المأمور من قبل سيده آثم ؟ وعلى من يقع الذنب ؟

الجواب :

الخمر من الأشياء التى حرمها الإسلام تحريماً قاطعاً . فلا يجوز شربها ، ولا تجوز المتاجرة فيها ، ولا يجوز تقديمها للضيوف ولا لغيرهم ، ولا يجوز للمسلم أن يأمر خادمه بشراء الخمر أو توزيعها على الضيوف ، لأن المخدوم فى هذه الحالة هو الذى سيتحمل تبعة أمره للخادم بذلك . ومن هذا نفهم أن

السيد المخدوم سيكون آثماً حينئذ ، لأنه أمر خادمه بأمر منكر يبغضه الله ، وتأباه الشريعة ولا يرضى عنه الإسلام .

هذا بالنسبة إلى المخدوم ، وأما بالنسبة إلى الخادم فعليه أن يختار الأفضل لنفسه ، فيذكر مخدومه بأنه يكلفه بأمر لا يرضاه دينه ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، وعليه أن يترك العمل عند هذا الرجل ، إذا كان يجد عملا آخر يكفى مطالب حياته ، وأما إذا لم يجد الخادم أمامه من وسيلة للحياة غير العمل عند هذا الرجل ، فإن هناك من الفقهاء من يجيز له البقاء فى هذا العمل ، حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً ، والذنب فى هذه الحالة يقع على المخدوم ،لأنه استغل ضعف الخادم وضرورته لاستغلاله فى هذا العمل الآثم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

تحريم الخمر

السؤال :

لماذا حرم الإسلام المشروبات الروحية ، أى المسكرات والخمور ؟

الجواب :

المعروف من دين الله سبحانه أنه حرم الخمر وكل مسكر تحريماً صريحاً واضحاً ، وذلك بنص القرآن والسنة ، والخمر هى كل مسكر يستر العقل ويغطيه ، ويخرج الإنسان عن رشاده ووعيه المستقيم ، سواء سمي هذا باسم الخمر ، أو بأى اسم آخر كالمشروبات الروحية ، وقد ورد فى سنة رسول

الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بأن زماناً سيأتى على الناس يسمون الخمر فيه بغير أسمائها . قد قرر صلوات الله وسلامه عليه فى هذا المجال القاعدة الشرعية التى لا لبس فيها ولا غموض : « كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام » .

وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم الخمر بأنها أم الخبائث ، وبأنها داء وليست بدواء .

وقد جاء فى المجلد الأول من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة »[1] أن الله تعالى حرم الخمر لما فيها من إهلاك المال والصحة . وإتلاف العقل ، ولما تسبب من أمراض فى الكلى والكبد ، ولأنها تسبب داء السل . وتسرع بالشيخوخة إلى مدمنها ، وتضعف فيه القوة العقلية والعصبية . ولقد قال أحد الأطباء الألمان : « أغلقوا نصف الحانات وأنا أضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والملاجئ والسجون » .

وللخمر تأثير فى العصب يدعو شاربها إلى العودة لشربها والإكثار منها . فإن ما تحدثه من التنبيه يعقبه خمود وفتور بمقتضى سنة رد الفعل فيشعر السكران بعد الصحو أنه مضطر إلى معاودة السكر ، ليزول ما حل به ، فإذا هو عاد قويت دواعى التكرار فالإدمان فالاستمرار .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

(١) انظر صفحة ٤٥٨ من المجلد الأول من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » .

القرآن الكريم



العربية لغة القرآن

السؤال :

لماذا اختار الله سبحانه وتعالى اللغة العربية ، وجعلها لغة القرآن الكريم ؟

الجواب :

الله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يشاء المختار لما يريد ، فقد أراد ولا راد لإرادته أن يختار اللغة العربية لكى تكون لغة القرآن الكريم وقال فى محكم تنزيله فى سورة يوسف : (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) . وقال فى سورة الشورى : (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً) وقال فى سورة فصلت : (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياًلقوم يعلمون). وتعجبنى كلمة قالها أبو منصور الثعالبى فى فاتحة كتابه « فقه اللغة » جاء فيها هذه الكلمات : « من أحب الله تعالى أحب رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربى أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية ، التى نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عنى بها ، وثابر عليها ، أو صرف همته إليها ، ومن هداه الله للإسلام ، وشرح صدره للإيمان ، وآتاه حسن سريرة فيه ، اعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم خير الرسل ، والإسلام خير الملل ، والعرب خير الأمم ، والعربية خير اللغات والألسنة » .

والإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى يقرر فى كتابه « الرسالة » أنه يجب على كل مسلم أن يتعلم من اللغة العربية مقداراً يستطيع به أن يصحح دينه ، ويؤدى صلواته .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

القرآن المكى والقرآن المدنى

السؤال :

ما الفرق بين السور المكية ، والسور المدنية ، وما الخصائص والملامح الغالبة ؟

الجواب :

إن القرآن الكريم لم ينزل دفعة واحدة ، بل نزل منجماً موزعاً على حسب النوازل والحوادث ، وقد ذكر الله الحكمة فى ذلك فقال : (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) ، كما أشار فى آية أخرى إلى الحكمة فى نزول القرآن مجزءاً ، فقال سبحانه : (وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) .

فالحكمة فى ذلك هى أولا تثبيت قلب النبى ، بما ينزله الله عليه من آيات بينات متواليات ، فيزداد النبى بذلك ثباتاً واستقراراً وطمأنينة ، كلما جاءه دليل بعد دليل ، أو برهان فى أعقاب برهان .

ومن الحكمة فى ذلك تهيئة الفرصة للحفظ ، فقد نزل القرآن المجيد بين قوم أميين لا يكتبون ولا يقرءون وكان اعتمادهم على الحفظ ، فراعى القرآن ذلك بنزوله على أجزاء ، ليسهل عليهم حفظه .

ومن الحكمة مراعاة طاقة النبى فى الاحتمال ، فوطأة القرآن قوية شديدة ، والقرآن قد قال للنبى : (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) .

كذلك جاء فى كتاب الله قوله : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) .

ومن الحكمة هنا مراعاة الربط بين النص وواقعته ، فيكون ذلك الربط أدعى إلى الانتباه والوعى ، وحسن التذكر للنص عند وقوع حادثته .

ومن الحكمة أيضاً مراعاة التدرج في التشريع فالأوامر والنواهى ، والواجبات والفرائض يصعب على الإنسان أن يقوم بها كلها دفعة واحدة ، فلو نزل القرآن كله دفعة واحدة لصعب أمره على الناس ، وشق عليهم أن يستجيبوا لأوامره كلها دفعة واحدة ، فكان من الحكمة عين الحكمة أن يتدرج المشروع الحكيم فى توجيه التكاليف والأوامر .

والقرآن المكى هو ما نزل بمكة وضواحيها ، والمدنى ما نزل بالمدينة وضواحيها ، وهذا هو أكثر الآراء شهرة بين العلماء .

وقيل إن المكى هو ما نزل قبل هجرة النبي عليه الصلاة والسلام ، والمدنى ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بمكة . وقيل إن المكى هو ما وقع خطاباً لأهل مكة ، مثل خطابه بعبارة (يا أيها الناس) ، لأن الغالب على هؤلاء المخاطبين أن يكونوا كفاراً ، والمدنى ما وقع خطاباً لأهل المدينة ، بمثل قوله (يأيها الذين آمنوا) ، لأن المخاطبين بمثل هذا يغلب عليهم الإيمان . وإن دخل غيرهم فى الخطاب .

ونلاحظ أن بعض السور يذكر فى أولها أنها مدنية ، مع أنه يوجد فيها آية أو أكثر من آية مكية وبالمثال يتضح المقال ، فهذه مثلا سورة البقرة . إنها مدنية إلا الآية رقم (٢٨١) فهى مكية ، نزلت بمنى فى حجة الوداع ، وهى قوله تعالى : (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) .

وهذه سورة النساء نراها سورة مدنية إلا الآية رقم (٥٨) ، فهى آية مكية نزلت بمكة ، وهى قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى

أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً) . فقد نزلت الآية فى شأن عثمان بن طلحة حين أعاد إليه النبي مفاتيح الكعبة كما وعده من قبل ، وقد تطلع بعض قرابة النبي إلى أخذ المفاتيح .

وهذه هى سورة التوبة ، نراها مدنية إلا آيتين فى آخرها ، وهما قوله تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) .

ونلاحظ أن السور المكية تدور آياتها غالباً حول إثبات الوحدانية لله ، ومناقشة الوثنية وعبادة الأصنام ، والتنفير من الإشراك بالله والدعوة إلى تحرير العقول والنفوس والقلوب من الآثام والتقليد الأعمى .

وأما السور المدنية فيغلب عليها بيان الأحكام الفقهية والاجتماعية ، وتحديد العلاقات الدولية ، وذكر أحكام الأسرة ، وأحكام السلام والحرب ، والمعاهدات والصلح ، لأن الإسلام قد صار له دولة وكيان ومجتمع .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

ابن تيمية وتفسير القرآن

السؤال :

هناك رسالة لابن تيمية فى أصول التفسير ، فما هى خلاصة هذه الرسالة ؟ ولماذا كتبها الإمام ابن تيمية ؟

الجواب :

كان الإمام شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية قد سأله بعض إخوانه

أن يكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية ، تعينه على فهم القرآن ، ومعرفة تفسيره ومعانيه ، لأن الكتب المصنفة للتفسير مشحونة بالغث والسمين ، والباطل الواضح ، والحق المبين . فكتب له الإمام مقدمة عبر عنها بأنها مختصرة بحسب تيسير الله تعالى من إملاء الفؤاد . وقد روى عن صحابة النبي أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، وحتى قال أنس رضى الله عنه : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل فى أعيننا .

وإذا كان كل كلام يقصد منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه ، فالقرآن أولى بذلك وأجدر .

ويرى الإمام أن الخلاف فى التفسير بين السلف قليل ، وخلافهم فى الأحكام أكثر من خلافهم فى التفسير ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد ، وذلك صنفان :

أحدهما أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صا . تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى .

والصنف الثانى أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل .

ومعرفة سبب النزول تعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ، وقولهم : « نزلت هذه الآية فى كذا » . يراد به تارة أنه سبب النزول ، ويراد به تارة أخرى أن هذا داخل فى الآية وإن لم يكن السبب ، كما تقول عنا بهذه الآية كذا .

وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما فى تنوع التفسير – تارة لتنوع الأسماء

والصفات ، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى وأقسامه — هما فى الغالب فى تفسير سلف الأمة الذى يظن أنه مختلف .

والاختلاف فى التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك ، لأن العلم إما نقل مصدق ، وإما استدلال محقق ، والمنقول إما عن المعصوم ، وإما عن غير المعصوم .

وأعلم الناس بالتفسير هم أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس ، كمجاهد وعطاء بن أبى رباح وعكرمة مولى ابن عباس ، وغيرهم من أصحابه كطاووس وأبى الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم ، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم ، وعلماء أهل المدينة فى التفسير مثل زيد بن أسلم الذى أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذه عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن ، وأخذه عن عبد الرحمن عبد الله بن وهب . ويرى ابن تيمية أن كتب التفسير فيها من الموضوعات قطعة كبيرة ، مثل الحديث الذى يرويه الثعلبى والواحدى والزمخشرى فى فضائل سور القرآن الكريم سورة سورة ، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم . والثعلبى هو فى نفسه فيه خير ودين ، ولكنه كان حاطب ليل ينقل ما وجده فى كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع . والواحدى صاحبه كان أبصر منه بالعربية ، ولكنه أبعد عن السلامة وأتباع السلف . والبغوى تفسيره مختصر من الثعلبى ، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة .

وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة ، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشرى ، ولو ذكر كلام السلف الموجود فى التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل ، فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد ابن جرير الطبرى ، وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً ، ثم إنه يدع

ما قاله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال ، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة ، لكن ينبغى أن يعطى لكل ذى حق حقه ، ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب ، فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم فى تفسير الآية قول ، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه ، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع فى مثل هذا .

وفى الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك ، كان مخطئاً فى ذلك بل مبتدعاً ، وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه .

فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب ، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم ، وكأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه ، كما أنهم أعلم بالحق الذى بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن خالف قولهم ، وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم ، فقد أخطأ فى الدليل والمدلول جميعاً .

والمقصود هو التنبيه على مثار الاختلاف فى التفسير ، وأن من أعظم أسبابه البدع الباطلة التى دعت أهلها إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه ، وفسروا كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بغير ما أريد به ، وتأولوه على غير تأويله .

فإن قال : ما أحسن طرق التفسير ؟

فالجواب : إن أصح الطرق فى ذلك هو أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما

أجمله فى موضع فقد فسره فى موضع آخر ، وما جاء مختصراً فى مكان فقد جاء مبسوطاً فى موضع آخر .

فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، ولذا قال الإمام الشافعى : كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن . والله تعالى يقول : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً) .

فعليك أن تطلب تفسير القرآن منه ، فإن لم تجده فمن السنة كما قال النبى لمعاذ : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : إأجتهد رأيى . فضرب رسول الله فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله .

وإذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ، رجعت إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك ، لما شاهدوه من القرآن والأحوال التى اختصوا بها ، وبعد الصحابة نأتى إلى أقوال التابعين وتابعيهم .

وأما تفسير القرآن بمجرد الرأى فحرام ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » ، وكان أبو بكر يقول : « أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إذا قلت فى كتاب الله ما لم أعلم » .

ويختم بن تيمية رضى الله عنه إجابته بقول ابن عباس : « التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الاستواءُ على العرش

السؤال :

ما معنى قول الله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى فاتحة سورة طه : (طه • ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى • إلا تذكرة لمن يخشى • تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى • الرحمن على العرش استوى) . والرحمن هو الله سبحانه ، المنعم بجلائل النعم وعظائمها ، والعرش كناية العز والسلطان والملك ، وعرش الله لا يعلم حقيقته أحد من البشر ، وقد يقال لمجلس السلطان عرش اعتباراً بعلوه ورفعته ، واستوى على العرش أى ارتفع وعلا ، واستولى وملك . ويقول الزمخشرى : لما كان الاستواء على العرش — وهو سرير الملك — لا يحصل إلا مع الملك جعلوه كناية عن الملك ، فقالوا استوى فلان على البلد ، يريدون ملكها ، وإن لم يقعد على السرير البتة ، وإنما عبروا عن حصول الملك بذلك لأنه أصرح وأقوى فى الدلالة من أن يقال فلان ملك .

ولا يفيد هذا التعبير الكريم تحديداً بمكان أوجهة أو انحصار بحدود ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

آية فى كتاب الله

السؤال :

ما معنى قوله تعالى : (وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون) ؟

الجواب :

يقول الله تعالى فى سورة البقرة : (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ● وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون) ، فالله تعالى يأمر بنى إسرائيل — كما فى تفسير ابن كثير بالدخول فى الإسلام ، ومتابعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأن يتذكروا نعمته التى أنعم بها عليهم ، وأن يوفوا بعهده الذى أخذه فى أعناقهم للنبى محمد إذا جاءهم ليوفى لهم بعهدهم ، أى ينجز لهم ما وعدهم عليه بتصديقه واتباعه ، ويأمرهم أن يخافوه ويخشوه . وأمرهم بأن يؤمنوا بما أنزله الله مصدقاً لما معهم وهو الإسلام والقرآن ، لأنهم يجدون محمداً صلى الله عليه وسلم مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، ويحذرهم أن يكونوا أول الكافرين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ، ومن كفر بمحمد فقد كفر بالقرآن ، ويحذرهم أن يعتاضوا عن الإيمان بالقرآن والرسول شهوات الدنيا ومتاعها ، فإنها قليلة فانية ، وهو يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار الباطل ومخالفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن واجبهم أن يتقوا الله ويخافوه ، بترك الكفران والدخول فى الإسلام ، ولذلك قال المفسرون : التقوى أن تعمل بطاعة

الله ، رجاء رحمة الله ، على نور من الله ، والتقوى أن تترك معصية الله ، مخافة عذاب الله ، على نور من الله .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

معنى اللَّمَم

السؤال :

ما معنى « اللمم » الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ؟

الجواب :

جاء فى سورة « النجم » قوله تبارك وتعالى : (ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) .

ومعنى الآية الكريمة أن الله جل جلاله هو مالك السموات والأرض ، وهو الغنى عما سواه ، وهو الحاكم بين خلقه بالعدل ، ليجازى كل إنسان بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهو الذى يثيب المحسنين بالثواب الجزيل العظيم ، وهم الذين يبتعدون عن الآثام الكبيرة وعن الذنوب الفاحشة ، فهم لا يتعاطون المحرمات الكبائر ، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم ، والمراد باللمم صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تعالى كتب على ابن آدم

حظه من الزنى ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنى العين النظر ، وزنى اللسان النطق » إلى آخر الحديث الصحيح المتفق عليه .

وروى أن اللمم يراد منه الذنب الذى يلم به الإنسان أو يقترفه ثم يتركه وينزع عنه ، وقيل هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب ، أو يصيب الذنب ثم يتوب ، إن ربك واسع المغفرة ، أى رحمته وسعت كل شىء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها .

وربكم هو أعلم بكم إذ خلقكم وأنشأكم فى الأصل من الأرض ، أى هو بصير بكم عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التى ستصدر منكم ، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض واستخرج ذريته من صلبه ، وجعلهم فريقين ، فريقاً للجنة ، وفريقاً للنـــار ، وهو حليم بكم إذ أنتم أجنة محمولة فى بطون أمهاتكم .

قال مكحول رضى الله عنه : كنا أجنة فى بطون أمهاتنا ، فسقط منا من سقط ، وكنا فيمن بقى ، ثم كنا مراضيع ، فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا يفعة ، فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى، ثم صرنا شبانا فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا شيوخاً ، لا أبالك ، فماذا بعد هذا ننتظر ؟

فلا تزكوا أنفسكم أى لاتمدحوها وتشكروها ، فالله الخبير ، هو أعلم بمن اتقى منكم ومن فجر ، والحديث النبوى يقول : « لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم » .

وروى أن رجلا مدح آخر عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال النبى

للمادح : « قطعت عنق صاحبك ، إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لامحالة ، فليقل أحسب فلاناً والله حسيبه ولا أزكى على الله أحداً » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

سعة مغفرة الله

السؤال :

ما معنى قول الله تبارك وتعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) ؟

الجواب :

جاء فى سورة « الزمر » قول الله تبارك وتعالى : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) .

وهذه الآية الكريمة تصوير رائع لرحمة الله الواسعة ، ومغفرته الفسيحة ، وهى دعوة لجميع العصاة إلى التوبة والإنابة ، وإخبار من الله تبارك وتعالى — وهو ، أصدق القائلين — أنه يغفر الذنوب جميعاً ، ما صغر منها وما كبر ؛ لمن تاب منها ورجع عنها ، وإن كانت كثيرة مثل زبد البحر ، والمشرك إذا أقلع عن شركه وتاب من كفره ، وآمن بربه ودينه غفر الله له سابق كفره وقبله بين عباده ، مادامت توبته صادقة وإيمانه صحيحاً ، وقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمداً

صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن الذى تمول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لمـــا عملنا كفارة فنزل قوله تعالى : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) . والمراد قوله تعالى فى هذه الآية : (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً) ونزل قوله تعالى : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) .

وقد كان رسول الله ينوه بشأن هذه الآية الكريمة التى معنا فيقول : « ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية » .

وقد روى الإمام أحمد أن رجلا جاء إلى النبى وهو شيخ كبير يتوكأ على عصا فقال : يارسول الله ، إن لى غدرات وفجرات فهل يغفر لى ؟ فقال النبى : « ألست تشهد أن لا إله إلا الله ؟ » قال الرجل: بلى وأشهد أنك رسول الله ، فقال النبى : « قد غفر الله لك غدراتك وفجراتك » وهناك أحاديث أخرى فى معنى هذه الآية وهى تدل على أن المراد أن الله يغفر جميع تلك الذنوب مع التوبة ، ولا ييأس أحد من رحمة الله ، وإن عظمت ذنوبه وكثرت فإن باب الرحمة والتوبة واسع و (لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تحدِّى الجن والإنس

السؤال :

ما معنى قول الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم : (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ء فبأى آلاء ربكما تكذبان) ؟

الجواب :

جاء فى سورة الرحمن قول الله تبارك وتعالى : (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ء فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

والمعنى أن الله جل جلاله ينادى كل من فى الكون من الجن والإنس ، قائلا لهم على سبيل التحدى والتعجيز : إن استطعتم أو قدرتم أن تخرجوا من جوانب الأرض ، أو نوافذ السماء ، أو أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض ، فاهربوا واخرجوا منها ، فحيثما كنتم أدرككم الموت ، ولا تستطيعون أن تنفذوا إلا إلى سلطان الله جل جلاله ، فله كل شىء ، وهو مالك كل شىء ، وهو بكل شىء محيط» .

وأنتم لا تقدرون على ذلك إلا بملك يكون لكم ، وليس لكم ملك لأن الله عز شأنه هو المالك لكل شىء .

ويذكر الإمام ابن كثير فى تفسيره أنهم لا يستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ، ولا يقدرون على التخلص من حكمه ، فأينما ذهبوا فالله محيط بهم ، والله سبحانه مسيطر عليهم . ويرى ابن كثير أن هذا يكون يوم القيامة

فى مقام الحشر ، لأن الملائكة ستكون محدقة بالخلائق فى سبع صفوف من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الهرب إلا بأمر الله تعالى ، ومن أين يأتيهم هذا الأمر ، والله يريد إظهار عجزهم أمام سلطانه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

سورة الضحى

السؤال :

ما معنى الآيات الواردة فى سورة الضحى ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة الضحى :(والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث) .

يقسم الله تبارك وتعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام بالضحى وهو ضوء النهار ، وكذلك يقسم له بالليل إذا سجى أى أظلم وسكن واستقر ظلامه ، ثم يؤكد له عقب ذلك أنه ربه ونصيره ومعينه ، ما ودعه كما يودع المفارق ، وما تركه أو أبغضه وكرهه ، وأن الآخرة — وهى ما عند الله تبارك وتعالى — خير لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه من الدنيا ومتاعها الزائل ، وأن الذى ادخره الله له عنده فى الآخرة أكبر وأعظم مما أعطاه من كرامة

الدنيا ، وأن الله تبارك وتعالى سيعطيه مزيداً فى الآخرة من الخير حتى ترضى نفس النبي الكريمة بما ينال من فضل الله العظيم ، وفى طليعة ذلك الشفاعة فى أمته حتى يرضى .

ثم ذكر الله تبارك وتعالى رسوله ببعض النعم العظيمة التى أنعم بها عليه ، فقد كان الرسول يتيماً فآواه الله وأغناه ، وجعل له مأوى يعز به ويقوى . وكذلك وجد الله رسوله قبل نبوته ورسالته ضالا عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهداه إليها ، ووجده فى قوم أصحاب ضلال ، فهداه من بينهم للتوحيد والنبوة وجعله علماً معروفاً بين الناس . ووجده الله سبحانه وتعالى صاحب فقر فأغناه وأرضاه بما أعطاه وآتاه من الرزق والمكانة ما آتاه .

وقد أمر الله تبارك وتعالى نبيه أن يشكر هذه النعم فأمره بألا يقهر اليتيم وألا ينهر السائل إذا جاءه يطلب براً أو مالا أو علماً أو معونة ، فإما أن يعطيه ، وإما أن يرده رداً ليناً ، دون أن يزجره بكلام أو إشارة .

وأمر الله نبيه صلوات الله وسلامه عليه بأن يتحدث عن نعمة ربه عليه ، فقد أنعم عليه بالنبوة والقرآن وجميع الخيرات ، ومن الواجب أن يشكر الله عملياً وقولياً على هذه النعم الكثيرة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

بين السور المكية والسور المدنية

السؤال :

ما الفرق بين السور المكية والسور المدنية فى القرآن ؟

الجواب :

ينقسم القرآن الكريم إلى سور مكية وسور مدنية ، ونجد بيان ذلك فى أوائل السور فى المصحف الكريم ، فينص فى أول كل سورة على أنها مكية أو مدنية ، وإذا كانت هناك آية أو آيات تختلف عن نوع السورة ، فإنه ينص على ذلك أيضاً ، ومن المعلوم أن عدد سور القرآن هى مائة وأربع عشرة سورة ، والمكى من السور هو مانزل فى مكة وما التحق بها أو قاربها ، أو هى السور التى نزلت قبل هجرة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة المنورة ، والسور المدنية هى مانزل فى المدينة وماجاورها ، أو نزل بعد الهجرة ، وقد نزل من القرآن الكريم فى مكة خمس وثمانون سورة ، وهذا العدد هو الذى يعرف بالسور المكية ، ونزل من القرآن فى المدينة المنورة تسع وعشرون سورة وهى السور المعروفة بالمدنية ، ومجموع هذين الرقمين السابقين هو مائة وأربع عشرة سورة ، وهذا كما ذكرنا هو عدد سور القرآن الكريم كلها .

وتدور السور المكية غالباً حول إثبات الوحدانية لله عز وجل ، ومناقشة الوثنية الضالة ، والتنفير من الإشراك بالله عزوجل ، والدعوة إلى تحرير العقول والنفوس والقلوب ، من الآثام والخطايا ، ومن التقليد الأعمى الذى يضل الإنسان .

ويغلب على السور المدنية أنها تعنى ببيان الأحكام الفقهية والاجتماعية ،

والعلاقات الدولية ، وأحكام السلام والحرب ، والمعاهدات والصلح ، وأحكام الأسرة والمجتمع ، وكان هذا طبيعياً لأن الإسلام صار له فى المدينة بعد الهجرة كيان وجماعة ، ودولة ومجتمع .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الأمانة فى القرآن

السؤال :

ما هى الأمانة المقصودة فى قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) .

وما الفرق بين الأمانة الواردة فى الآية السابقة والأمانة الواردة فى آية : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ؟

الجواب :

ذكر العلماء فى معنى الأمانة هنا عدة أقوال ، فقالوا إنها كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، أو العدالة ، أو العقل وقد اختار الأصفهانى معنى العقل ، لأنه فى رأيه يشمل الأقوال كلها ، فقال عنه إن العقل هو الذى بحصوله تحصل معرفة التوحيد ، وتجرى العدالة ، بل لحصوله يتعلم الإنسان كل ما فى طوقه أن يتعلمه ، وبه يظهر فضل الإنسان على كثير من الخلق .

وقد ذكرت فى كتابى « أخلاق القرآن »[1] الجزء الثانى أن الأقرب إلى القبول فى معنى الأمانة هو أنه يراد بها كل التكاليف والحقوق المرعية ،

---

(١) انظر صفحة ١٦ من الجزء الثانى من كتابى « أخلاق القرآن » .

التى أودعها الله المكلفين ، وأئتمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها وأدائها والمحافظة عليها ، من غير إخلال بشىء من حقوقها .

وإذا كان الله تبارك وتعالى يقول فى سورة النساء : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فإن الأمانات تؤدى إلى أهلها على وجهها من المتصفين بفضيلة الأمانة ، حتى يرعوا حقوق الناس حق رعايتها . وقد روى فى سبب نزول هذه الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما فتح مكة دعا عثمان بن طلحة وكان بيده مفاتيح الكعبة ، فلما جاء عثمان قال له النبى : أرنى المفتاح [يعنى مفتاح الكعبة] ، فلما مد عثمان يده بالمفتاح ، قال العباس بن عبد المطلب : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، اجمعه لى مع السقاية .

فجمع عثمان يده بالمفتاح خوفاً أن ينتزعه منه ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام . هات المفتاح ياعثمان . فأعطاه قائلا : هاك أمانة الله . فقام النبى وفتح الكعبة وطهرها ، وخرج فطاف بالبيت ، ثم عاد فرد المفتاح إلى عثمان ، وتلا قول ربه تبارك وتعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الأجر على تحفيظ القرآن

السؤال :

يقوم بعض المسلمين بتعلم القرآن على يد شيخ واحد ، يفسره من أوله إلى آخره ، وفى ختام القرآن يقوم الشيخ بربط عمامة على رأس كل مسلم تعلم القرآن ، مقابل دفع بقرة له ، أو ثمنها ، وبذلك يصير شيخاً . ما موقف الإسلام من ذلك ؟

الجواب :

القرآن الكريم هو كتاب الله العلى الأعلى ، والعناية به فرض محتوم على كل قادر من المسلمين ، وتعلمه واجب كذلك على أبناء الإسلام ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » كما أنه يقول : « القرآن مأدبة الله فخذوا من مأدبته ما استطعتم » ، وقيام الشيخ المذكور بتعليم القرآن عمل جميل يثيبه الله عليه ، ويجزيه به خيراً ، ما دام الإخلاص متوافراً ، والنية طيبة ، ولا مانع من قيامه بجوار التحفيظ بتفسير القرآن ما دام أهلا لذلك وقادراً عليه ، وعنده من العلم والمعرفة والاطلاع ما يؤهله لذلك ، وقيام الشيخ بربطه عمامة على رأس الشخص المسلم الذى ختم القرآن تقليد لم يكن معروفاً أو شائعاً فى مجتمع الإسلام ، ولكنه مع هذا عادة لا بأس بها إذا أريد منها التنويه بشأن الذين يحفظون القرآن الكريم أو حث غيرهم على التنافس فى مثل هذا الميدان الكريم .

وقد أفتى بعض الفقهاء بأنه يجوز أخذ الأجرة على تحفيظ القرآن المجيد ، إذا كان الإنسان متفرغاً لذلك ، أو محتاجاً إلى الأجر ، وإن كان الأفضل أن يتطوع الإنسان بمثل هذا العمل ، مادام غنياً وغير محتاج .

وأما صيرورة هذا الرجل المعمم شيخاً بمجرّد وضع العمامة على رأسه ،

فهذا محل نظر ، فقد يحفظ الإنسان القرآن ، ومع ذلك لا يكون متفقهاً فى الدين ، ولا بصيراً بالإفتاء ، بل إن بعض حافظى القرآن لا يحرصون على حرمته وصيانته ، ولذلك يحرمهم الله بركاته وخيراته .

وأما إذا جمع حافظ القرآن بين حفظه وفهمه والتفقه فى دينه ، والعمل بكتاب الله تعالى فإنه يستحق بحسب العرف المألوف أن نطلق عليه كلمة « شيخ » تكريماً له ، وحثاً لغيره على التشبه به .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

رزق الله بغير حساب

السؤال :

ما معنى قول الله تعالى : (والله يرزق من يشاء بغير حساب) ؟

الجواب :

يقول الله تعالى فى سورة البقرة : (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) ويقول فى سورة آل عمران : (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) وقال تعالى فى سورة النور : (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) ويقول فى سورة

الزمر : (قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ويقول فى سورة غافر : (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) .

وقد أورد الزبيدى فى تاج العروس ما ورد بشأن قوله تعالى : (يرزق من يشاء بغير حساب) فذكر أن المعنى يرزقهم بغير تقتير ولا تضييق ، كقولنا : فلان ينفق بغير حساب أى يوسع النفقة ولا يحسبها ، وقد اختلفوا فى تفسير هذا ، فقال بعضهم : بغير تقدير على أحد بالنقصان . وقال بعضهم : بغير محاسبة أى لا يخاف أن يحاسبه أحد عليه . وقيل : بغير أن يأتى الرزق للإنسان دون أن يقدر مجيئه إليه ، أو من حيث لم يحسبه لنفسه .

وفى تفسير ابن الجوزى أن معنى هذا فيه قولان أحدهما أن الله يرزق من يشاء رزقاً واسعاً غير مضيق ، والثانى يرزق من يشاء بلا محاسبة فى الآخرة .

وفى تفسير المنار أن قوله تعالى : (والله يرزق من يشاء بغير حساب) أى من غير تقدير له على حسب الإيمان والتقوى والكفر والفجور . وفيه وجه آخر وهو أنه كناية عن السعة وعدم التقتير والتضييق ، كقولهم : ينفق فلان بغير حساب ، أى ينفق كثيراً ، والمعنى أنه بذل العطاء فى الدنيا لكل أحد بخلق الأرزاق ، وإقدار الناس على الكسب وقيل إن المعنى بغير حساب عليه من أحد ، فهو الذى خلق ورزق ، وهو الذى قدر فهدى ، من غير محاسبة أحد ولا مراجعته ، والقرآن لم يشترط السعى لرزق الدنيا ، فقد يأتى بلاسعى كالميراث والهبة والوصية ، واشترط للآخرة السعى مع الإيمان كما خص

ذلك بالذين اتقوا ، ثم ذكر أن عطاءه واسع مبذول لكل أحد ، ليس فيه حظر من الله تعالى ، فللمشمر تشميره ، وعلى المقصر تقصيره .

وهناك وجه آخر فى معنى الحساب ، وهو الاحتساب والتقدير من جانب العبد ، فيكون المعنى كما قال تعالى فى سورة الطلاق : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) .

وفى تفسير ظلال القرآن جاء التعليق على قوله : (والله يرزق من يشاء بغير حساب) بقوله : « وهو المانح الوهاب ، يمنح من يشاء ويفيض على من يشاء ، لاخازن لعطائه ولا بواب، وهو قد يعطى الكافرين زينة الحياة الدنيا لحكمة منه ، وليس لهم فيما أعطوا فضل ، وهو يعطى المختارين من عباده فى الدنيا أو فى الآخرة ، فالعطاء كله من عنده ، واختياره للأخيار هو الأبقى والأعلى وستظل الحياة أبداً تعرف هذين النموذجين من الناس تعرف المؤمنين الذى يتلقون قيمهم وموازينهم وتصوراتهم من يد الله ، فيرفعهم هذا التلقى عن سفاسف الحياة وأعراض الأرض واهتمامات الصغار ، وبذلك يحققون إنسانيتهم ، ويصبحون سـادة للحياة ، لا عبيداً لها . كما تعرف الحياة ذلك الصنف الآخر الذين زينت لهم الحياة الدنيا ، واستعبدتهم أعراضها وقيمها ، وشدتهم ضروراتهم وأوهاقهم إلى الطين فلصقوا به لا يرتفعون .

وسيظل المؤمنون ينظرون من عل إلى أولئك الهابطين ، مهما أوتوا من المتاع والأعراض ، على حين يعتقد الهابطون أنهم هم الموهوبون ، وأن المؤمنين هم المحرومون ، فيشفقون عليهم تارة ، ويسخرون منهم تارة ، وهم أحق بالرثاء والإشفاق » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

اليهود والذلة

السؤال :

هل الآية رقم ١١٢ فى سورة آل عمران خاصة بعهد النبى صلى الله عليه وسلم ، أو هى صالحة لجميع العصور ؟

الجواب :

الآية المشار إليها هى قول الله تبارك وتعالى عن اليهود فى سورة آل عمران :

(ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس * وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة * ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق * ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) .

وقد أطال تفسير « المنار » الحديث عن هذه الآية الكريمة مما يمكن للراغب أن يراجعه ويستفيد منه ، ولكن تفسير « فى ظلال القرآن » علق على الآية تعليقاً وجيزاً نستطيع أن نفهم منه ما ورد فى السؤال ، فقال هذه العبارة :

« ضربت عليهم الذلة ، وكتبت لهم مصيراً ، فهم فى كل أرض يذلون ، لا تعصمهم إلا ذمة الله وذمة المسلمين — حين يدخلون فى ذمتهم فتعصم دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وتنيلهم الأمن والطمأنينة — ولم تعرف يهود منذ ذلك الحين الأمن إلا فى ذمة المسلمين . ولكن يهود لم تعاد أحداً فى الأرض عداءها للمسلمين . . (وباءوا بغضب من الله) كأنما رجعوا من رحلتهم يحملون هذا الغضب . (وضربت عليهم المسكنة) تعيش فى ضمائرهم وتكمن فى مشاعرهم .

ولقد وقع ذلك كله بعد نزول هذه الآية . فما كانت معركة بين المسلمين وأهل الكتاب إلا كتب الله فيها للمسلمين النصر — ما حافظوا على دينهم ، واستمسكوا بعقيدتهم ، وأقاموا منهج الله فى حياتهم — وكتب لأعدائهم المذلة والهوان ، إلا أن يعتصموا بذمة المسلمين أو أن يتخلى المسلمون عن دينهم . ويكشف القرآن عن سبب هذا القدر المكتوب على يهود . فإذا هو سبب عام يمكن أن تنطبق آثاره على كل قوم ، مهما تكن دعواهم فى الدين : إنه المعصية والاعتداء : (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) فالكفر بآيات الله — سواء بإنكارها أصلا ، أو عدم الاحتكام إليها وتنفيذها فى واقع الحياة — وقتل الأنبياء بغير حق . وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ، كما جاء فى آية أخرى فى السورة — والعصيان والاعتداء ، هذه هى المؤهلات لغضب الله ، وللهزيمة والذلة والمسكنة » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الآيات الأولى من سورة النبإ

السؤال :

أرجو معرفة معانى الآيات العشر الأولى من سورة النبأ ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى أول سورة النبأ : (عم يتساءلون * عن النبأ العظيم * الذى هم فيه مختلفون * كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون *

ألم نجعل الأرض مهاداً ٭ والجبال أوتاداً ٭ وخلقناكم أزواجاً ٭ وجعلنا نومكم سباتاً ٭ وجعلنا الليل لباساً) .

والمعنى : عن أى شىء يسأل بعضهم بعضاً ؟ . . . عن النبإ العظيم ، أى يتساءلون عن النبإ العظيم ، وهو الخبر الكبير ، الذى هم فيه مختلفون ، أى يخالف فيه بعضهم بعضاً ، فيصدق واحد ويكذب آخر . قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون ، فالقرآن نبأ وخبر وقصص ، وهو نبأ عظيم الشأن ، وعن ابن عباس أن اليهود سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة ، فأخبره الله جل ثناؤه باختلافهم ، ثم هددهم فقال : كلا سيعلمون ، أى سيعلمون عاقبة القرآن ، أو سيعلمون البعث : أحق هو أم باطل ، وكلمة كلا رد عليهم فى إنكارهم البعث ، أو تكذيبهم القرآن . ثم كلا سيعلمون ، أى حقاً ليعلمون صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم ، وماذكره لهم من البعث بعد الموت .

ألم نجعل الأرض مهاداً ؟ ولهم على قدرته على البعث ، أى قدرته على إيجاد هذه الأمور أعظم من القدرة على الإعادة ، والمهاد : الفراش ، فالأرض لهم كالمهد للصبى ، وهو ما يمهد له فينام عليه . والجبال أوتاداً : أى لتسكن وتستقر ولا تميل بأهلها . وخلقناكم أزواجاً : أى أصنافاً ذكراً وأنثى ، وقيل ألواناً . وجعلنا نومكم سباتاً : أى صيرنا النوم راحة لأبدانكم ، وجعلنا الليل لباساً ، أى سكناً لكم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

أوائل سورة الذاريات

السؤال :

ما معنى الآيات الست الأولى من سورة الذاريات ؟

الجواب :

يقول الله عز من قائل فى مفتتح سورة الذاريات :

(والذاريات ذرواً * فالحاملات وقراً * فالجاريات يُسراً * فالمقسمات أمراً * إن ما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع) .

فى هذه الآيات الست يقسم الله تعالى بعدة أقسام وقد روى عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألونى عن آية فى كتاب الله ، ولا عن سنة رسول الله إلا أنبأتكم بذلك .

فسأله سائل فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى : (والذاريات ذرواً) ؟

فقال : الريح. فسأله السائل : (فالحاملات وقراً) . فقال : السحاب . فسأله :(فالجاريات يسراً)؟. فقال : السفن ، فسأله :(فالمقسمات أمراً)؟. فقال : الملائكة .

وروى أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال له :

يا أمير المؤمنين ، أخبرنى عن الذاريات ذرواً ؟ فقال : هى الرياح ، ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته .

قال الرجل : فأخبرنى عن المقسمات أمراً ؟

قال عمر : هى الملائكة ، ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته .

قال الرجل : فأخبرنى عن الجاريات يسراً ؟

قال عمر : هى السفن ، ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته .

وذكر المفسرون أن المراد بالذاريات : الريح ، والحاملات : السحاب لأنها تحمل الماء . والجاريات : هى السفن التى تجرى ميسرة جرياً سهلا . أو النجوم . والمقسمات أمراً : هى الملائكة تنزل بأوامر الله .

يقسم الله تعالى بهذا على أن أمر الله الذى وعد به خبر صادق ، وأن الحساب لكائن لا محالة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

أقدم نسخة من المصحف

السؤال :

أين توجد أقدم نسخة من القرآن الكريم فى العالم ، وفى أى دولة ، وفى أى مدينة ؟

الجواب :

إن المصحف الذى كتب فى عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه هو أول نسخة من القرآن الكريم ، وتوجد منه – فيما علمنا – فى دار الكتب المصرية فى مصر الإسلامية ، فى القاهرة ، وتوجد كذلك نسخة من هذا المصحف فى تركيا فى مدينة إستانبول .

والمهم أن نعلم أن القرآن الكريم متواتر : لسوره وآياته وألفاظه ، فقد تلقاه المسلمون بعد جيل ، وعلمه الآباء للأبناء ، والأبناء للحفدة ، وتوارثوه عصراً بعد عصر ، وعكفوا عليه بالتلاوة والترتيل والحفظ والتفسير ، وغير ذلك من وجوه العناية والرعاية ، والله تبارك وتعالى يقول : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

والله تبارك وتعالى أعلم

* * *

اتخاذ الحجاب من القرآن

السؤال :

هل يجوز للإنسان أن يحمل حجاباً في أثناء الصلاة بقصد الحفظ، علماً بأن هذا الحجاب يتكون من الآيات القرآنية ؟

الجواب :

ينبغي لأبناء الإسلام أن يعلموا أن الله عز وجل قد أنزل القرآن الكريم ، ليكون نوراً وضياءً للعالمين ، وليهدى الناس إلى سبيل الله وصراطه المستقيم .

وقد ذكرت في المجلد الثالث من كتابي « يسألونك في الدين والحياة »[1] أنه لم يكن الغرض من إنزال القرآن الكريم أن يتخذه الناس أحجبة وتمائم تعلق في الرقاب أو على الصدور . ولكن رسالة القرآن الكريم هي أن يكون عقيدة وشريعة ودستوراً ، ولعل هذا هو بعض المفهوم من قول الله سبحانه : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) .

---

(١) انظر صفحة ٢٢٧ من المجلد الثاني من كتابي : « يسألونك في الدين والحياة » .

على أنه لا مانع من أن يحمل الإنسان المصحف أو جزءاً منه ، إذا كان المقصود من ذلك هو أن يتذكر المسلم آيات القرآن المجيد أو جزءًا منه ، أو يستحضر معانيها ، فيكون ذلك باباً من أبواب رضى الله ورضوانه ، ونفهم من ذلك أن الصلاة لا تفسد إذا حمل الإنسان ورقة فيها شيء من القرآن وهو يصلى ، ولنعلم أن الله هو خير الحافظين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

قراءة القرآن

السؤال :

ما هي أحسن طريقة لقراءة القرآن ؟ وما الكتاب الذى يرشد إلى القراءة بطريقة صحيحة ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة المزمل : (ورتل القرآن ترتيلا) ، وخير قراءة للقرآن هى أن يحرص الإنسان فى قراءته على إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة ، وأن يقرأ القرآن المجيد بتفهم وتمهل وتدبر واعتبار ، وأن يلاحظ مواطن الوقف والوصل . وأن يجعل قراءته مفصلة مبينة ، لا يسرع فيها إسراعاً معيباً ، ولا يقطع كلماته تقطيعاً خاطئاً ، وعليه أن يلاحظ أحكام التجويد من مد وإدغام ، وإخفاء وإبانة ونحو ذلك ، وهذا يؤخذ فى العادة بالتلقى ، فآباؤنا قد تعلموا من آبائهم الكيفية السليمة لتلاوة القرآن ، وهم علمونا ذلك ، ونحن من واجبنا أن نعلم ذلك لأبنائنا ، وهكذا دواليك .

ومن طرق التعلم للتلاوة أن يستمع الإنسان إلى التلاوة من المصحف المرتل ، أو من المصحف المعلم ، وأى مجهود يبذله الإنسان فى ذلك يكون له ثوابه وجزاؤه عند الله سبحانه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

حكم الحائض التى تقرأ القرآن

السؤال :

ما حكم الحائض التى تقرأ القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ؟

الجواب :

يحرم على المحدث حدثاً أكبر (وهو الجنب) أن يقرأ القرآن ولو آية منه ، ويحرم كذلك على المرأة إذا كانت فى حالة الحيض أو النفاس أن تقرأ القرآن ، فقد روى أبو داود والترمذى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « لا تقرأ الحائض ولا الجنب شيئاً من القرآن » .

وروى الترمذى والنسائى عن على أنه لم يكن يحجب النبى صلى الله عليه وسلم عن قراءة القرآن شىء ليس الجنابة .

وروى عن سعيد بن المسيب أنه أجاز قراءة القرآن للجنب . وقال : أليس هو فى جوفه .

وينبغى أن نذكر أن الفقهاء قالوا بتحريم مس المصحف الشريف على الجنب والمحدث حدثاً أصغر والحائض والنفساء ، إلا إذا كان المس بحائل ،

كأن يكون المصحف فى كيس أو وعاء . ومذهب داود الظاهرى إباحة مس المصحف للمحدث حدثاً أكبر ، ومذهب ابن عباس والشعبى والضحاك وداود جواز مس المصحف للمحدث حدثاً أصغر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تفسير آية

السؤال :

ما معنى قول الله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة : (ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملّ هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولايأبَ الشهداء إذا مادعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن يكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم) .

وهذه الآية مشهورة عند المفسرين بتسميتها « آية المداينة » ، وهى أطول آية فى القرآن الكريم ، وهى إرشاد من الله تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميعادها ، وأضبط للشاهد فيه ، وقد نبه القرآن على هذا فى آخر الآية حيث قال :(ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا) ، وقد أمر الله تعالى باستشهاد رجلين أو رجل وامرأتين ممن يرتضيهم الناس من الشهداء ، وطلب الله تعالى المتعاقدين بكتابة الدين سواء أكان قليلا أم كثيراً ، وطالب القرآن الناس أن يقوموا بالشهادة ولا يكتموها ، وأن يكون هناك إشهاد عند البيع ، دون أن يرتكب الضرر ضد الكاتب للدين أو الشاهد عليه ، وحذر القرآن من ذلك لأن المضارة والكتمان هنا يكونان من الفسق والفجور .

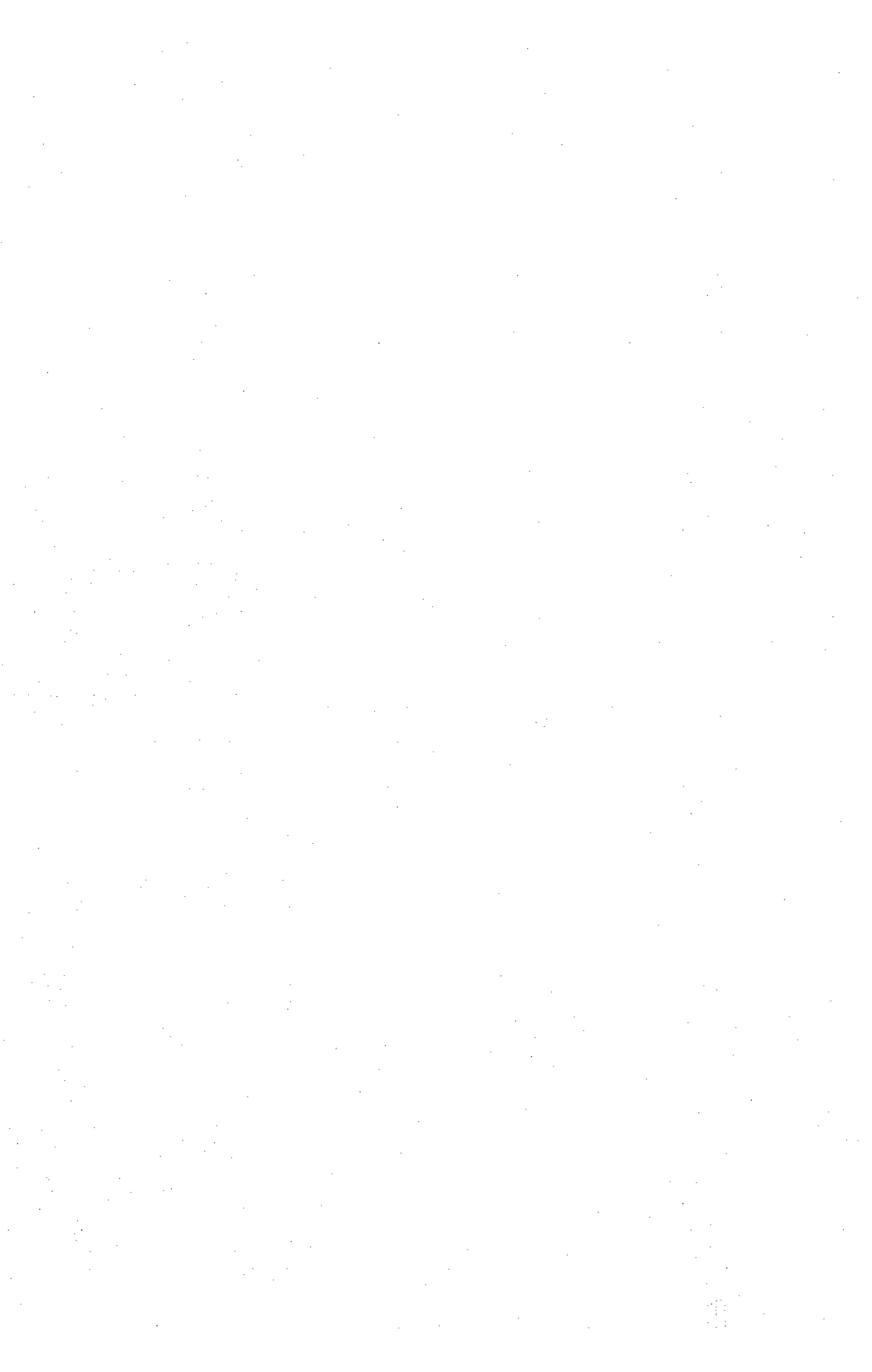
ثم قالت الآية : (واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم) أى خافوا ربكم وراقبوه واتبعوا أمره ، واجتنبوا مخالفته ، وقد قال القرآن فى مكان آخر : (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) وقال : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمة ويجعل لكم نوراً تمشون به)ثم انتهت الآية السابقة عليها بقوله :(والله بكل شىء عليم) أى عالم بحقائق الأمور وعواقبها فلا يخفى عليه شىء من الأشياء ، بل علمه محيط بكل الأشياء ، ومعنى الآية :اتقوا الله فى جميع ما أمركم به ونهاكم عنه ،وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

أحكام الميت





صلاة الجنازة

السؤال :

ما حكم صلاة الجنازة بدون نية ، إلا رفع اليدين للتكبير ، وذلك لعلم المصلى أن الميت غير مسلم ، وأن الاشتراك فى الصلاة كان استجابة لطلب الوريث ؟

الجواب :

الصلاة على الميت فرض كفاية ، أمر بها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحافظ عليها المسلمون . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تبع جنازة وصلى عليها فله قيراط ، ومن تبعها حتّى يفرغ فله قيراطان أصغرهما مثل أحد » . وفى رواية أخرى قال : « من خرج مع جنازة من بيتها ، وصلى عليها ، ثم تبعها حتّى تدفن كان له قيراطان من أجر . كل قيراط مثل أحد » .

وصلاة الجنازة من أركانها النية ، فلا تصح دون النية . والله تبارك وتعالى يقول : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) . ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» والنية محلها القلب .

ومن أركان صلاة الجنازة الدعاء ، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء » . ومن أدعيته فى صلاة الجنازة : « اللهم أنت ربها ، وأنت خلقتها ، وأنت رزقتها ، وأنت هديتها للإسلام ، وأنت قبضت روحها ، وأنت أعلم بسرها وعلانيتها ، جئنا شفعاء لها ، فاغفر لها ذنبها » .

ومن أدعية الرسول أيضاً فى صلاة الجنازة : « اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا ، وشاهدنا وغائبنا ، اللهم من أحييته

منا فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان ، اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تضلنا بعده » .

وأجمع الأئمة على أننا نصلى على المسلم ، ذكراً كان أو أنثى ، صغيرا كان أو كبيراً ، ومعنى هذا أنه لا تجوز صلاة الجنازة على غير المسلم . فلا تجوز على الكافر . والله تبارك وتعالى يقول : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله) ، ويقول أيضاً : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) .

والسائل كان عليه أن يمتنع عن الصلاة على غير المسلم ، والمجاملة الشخصية لا تكون على حساب العقيدة والدين .

والله تبارك وتعالى أعلم

* * *

حمل الجنازة

السؤال :

عند حمل الجنازة ما هو الأفضل : أيضع الإنسان رأسه فى المقدمة ، أم فى المؤخرة ؟

الجواب :

حمل الجنازة وتشييعها أمر شرعه الإسلام الحنيف ، والسنة أن يكون الحامل أو المشيع حول النعش من جهاته الأربع ؛ فقد روى عن ابن مسعود أنه قال : من اتبع جنازة فليحمل بجوانب السرير كلها . فإنه من السنة ،

وابن مسعود هو أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقول الصحابى فى مثل هذا يعطى حكم المرفوع إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام . وإن شاء الحامل أو المشيع بعد ذلك أن يتطوع فعل ، وإن شاء ترك .

وقد روى عن النبي صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « عودوا المريض وامشوا مع الجنازة تذكركم الآخرة » وقد روى الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده هذا الحديث .

وقد تعرض الفقهاء للكلام عن حكم المشى أمام الجنازة عند تشييعها ، والمشى خلفها ، والمشى عن يمينها ، والمشى عن يسارها ، واختلفوا فى ذلك فيرى جمهور العلماء أن المشى أمام الجنازة أفضل ، وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يمشى أمام الجنازة ، وكذلك فعل صاحباه أبو بكر وعمر رضوان الله تعالى عليهما .

ولكن مذهب الحنفية يرى أن الأفضل هو المشى خلف الجنازة ، وذلك لأن هذا هو المتبادر المفهوم من أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام باتباع الجنازة ، لأن المتبع هو الذى يمشى فى الخلف لا فى الأمام .

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه يستوى المشى أمام الجنازة والمشى خلفها ، وذلك لما جاء فى الحديث النبوى : « الراكب يسير خلف الجنازة ، والماشى يمشى خلفها وأمامها وعن يمينها وعن يسارها ، قريباً منها »

والخلاف هنا سهل ميسور تشمله ساحة المباح التى ينبغى التساهل فيها . فقد رووا أن أبا بكر وعمر كانا يمشيان أمام الجنازة ، وكان على بن أبى طالب يمشى خلفها . فقيل لعلى : إنهما يمشيان أمامها . فقال : إنهما يعلمان أن المشى

خلفها أفضل من المشى أمامها ، كفضل صلاة الرجل فى جماعة ، على صلاته فذاً [وحيداً فرداً] ، ولكنهما سهلان يسهلان للناس .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

دعاء صلاة الجنازة

السؤال :

ماذا نقول فى دعاء صلاة الجنازة ؟

الجواب :

صلاة الجنازة كيفيتها أن ينوى الإنسان أن يصلى أربع تكبيرات على من حضر من أموات المسلمين ، وبعد التكبيرة الأولى يقرأ الفاتحة ، وبعد التكبيرة الثانية يقرأ النصف الثانى من التشهد ، وبعد التكبيرة الثالثة يدعو للميت ، وبعد التكبيرة الرابعة يكون السلام .

وأجمع دعاء مأثور — كما جاء فى الإحياء — هو ما روى فى الصحيح عن عوف بن مالك قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على جنازة فحفظت من دعائه : اللهم اغفر له وارحمه ، وعافه واعف عنه ، وأكرم نزله ، ووسع مدخله ، واغسله بالماء والثلج والبرد ، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، وأبدله داراً خيراً من داره ، وأهلا خيراً من أهله ، وزوجاً خيراً من زوجه ، وأدخله الجنة ، وأعذه من عذاب القبر ، ومن عذاب النار » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الأذان فى أذن الميت

السؤال :

هل من الصحيح أنه يستحب أن يؤذن فى أذن المريض عند موته ؟ وما الدليل على ذلك ؟

الجواب :

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » . ولقد ذهبت أم سلمة وقالت للرسول ، يارسول الله ، إن أبا سلمة قد مات ، قال : قولى : اللهم اغفر لى وله ، وأعقبنى منه عقبى حسنة . فأعقبنى الله من هو خير منه محمد صلى الله عليه وسلم .

ويسن عند احتضار الميت تلقينه شهادة « لا إله إلا الله » لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » ، ولقد قال النبى : « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله دخل الجنة» . وقال العلماء ، ينبغى ألا نلح على الميت فى ذلك . فلا نقول له ، قل لا إله إلا الله ، خشية أن يضجر ، فيتكلم بكلام غير لائق . ويرى جماعة من العلماء أنه ينبغى تلقين الميت الشهادتين . لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

ويستحب قراءة سورة « يس » على الميت ، وقد وردت بعض الآثار بذلك . ولم يثبت فيما بين أيدينا أنه يؤذن فى أذن الميت بعد موته .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

دفن الميت بالنعش

السؤال :

هل يجوز دفن المسلم مع النعش ؟

الجواب :

المعروف فى مجتمع الإسلام أن الميت يكفن بكفن ساتر مناسب ، بلا إسراف ولا تقصير ، ويدفن وهو داخل هذا الكفن ، وذلك هو المفهوم من قول الله تبارك وتعالى فى سورة « طه » عن الأرض : (منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى) .

وليس من المألوف ولا من المعروف فى مجتمع الإسلام أن يدفن الميت داخل نعش أو صندوق ، وإذا كان الصندوق غالياً أو كثير التكلفة ، أو يحتاج الأحياء إليه لمصلحة مشروعة ، كان ذلك أمراً يكرهه الإسلام وينهى عنه ، لأن الإسلام يكره الإسراف وينهى عنه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الإحسان إلى الميت

السؤال :

هناك مسلم بالغ ترك والديه بحثاً عن الرزق ، لينفق عليهما ، ولم يرزقه الله حتى مات والداه ، فماذا يفعل حتى يرضى الله تعالى عنه ؟

الجواب :

لا شك أن حق الوالدين مقدم على جميع الحقوق الإنسانية ، والإحسان

إلى الوالدين يأتى بعد الإيمان بالله تعالى وعبادته ، ويكفينا فى ذلك قول الحق جل جلاله : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) كما جاء فى سورة الإسراء . وقال فى سورة النساء : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً) . والظروف التى دعت الولد المسئول عنه إلى ترك والديه غير مذكورة ، ونأمل أن يكون هذا الترك بموافقة والديه ورضاهما ، حتى لا يتعرض الولد لغضب والديه أو دعائهما عليه .

وما دام الولد قد نوى خيراً من بعده عن والديه ، ولم يتمكن بأى طريقة من الطرق أن يعود إليهما فى حياتهما ، أو أن يرسل إليهما بوسيلة أو بأخرى ما يعينهما على مطالب حياتهما ، أو حدثت وفاتهما فجأة أو بعد تركه لهما بزمن قصير ، فهو غير ملوم أو مؤاخذ ، والله تبارك وتعالى لا يعاقبه على ذلك .

ويستطيع هذا الولد ما دام قادراً أن ينفق على ما يستطيع فى سبيل الله عز وجل ، وأن يتودد إلى قرابة والديه ورحمهما بمختلف أنواع التودد المادية والأدبية ، وأن يسدد ما يكون عليهما من ديون ، وأن يحج عنهما إذا كانا لم يؤديا فريضة الحج ، وأن يكثر الدعاء لهما بالرحمة والمغفرة والرضوان

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

المتوفى فى غير بلده

السؤال :

يقال إنه إذا توفى شخص فى بلد غير بلده ، فإن هذا الشخص يصبح جزءاً من هذا البلد فهل هذا صحيح ؟

الجواب :

إن نسبة الإنسان إلى بلد من البلاد تخضع لأكثر من سبب ، فالإنسان قد ينسب إلى بلدة ما ، لأنه ولد فيها ، فهو يعد من أبنائها أو مواليدها ، وقد ينسب الإنسان إلى بلدة لم يولد فيها ، ولكنه نشأ بها وأقام فيها ، وقد ينسب الإنسان إلى بلدة لأنه قد توفى بها ودفن فيها ، ولذلك نجد علماء التراجم ينسبون الإنسان إلى مولده ، وقد ينسبونه إلى مكان إقامته ، وقد ينسبونه إلى مكان وفاته ، أو مكان مدفنه .

وفيما يتعلق بالسؤال الذى معنا يعد الإنسان تابعاً للبلدة التى مات فيها بهذا الاعتبار ، وأما الحكم عليه بأنه قد أصبح جزءاً من هذه البلدة التى مات فيها ، فليس ذلك بصحيح على وجه الحقيقة ؛ إلا أن يقال إنه قد صار جزءاً منها على أساس أن جثمانه قد دفن فيها ، واختلطت أجزاء جسمه بترابها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

ثواب القربات يصل الميت

السؤال :

هناك رجل توفى أبوه ، ويريد الابن أن يقوم بتأدية بعض العبادات ويهب ثوابها لأبيه ، فهل هذا جائز ؟

الجواب :

قرر الفقهاء أن ثواب القراءة للقرآن يصل إلى الميت ، بل يصل إلى الحى ، كما ذكر ذلك فى كتب السادة الحنفية والشافعية والحنابلة ، وذلك إذا سأل القارئ ذلك من الله تبارك وتعالى . . وهذا لأن هذه القراءة الموهوبة من قبيل الدعاء ، فينوى القارئ ويقول : اللهم اجعل ثواب ما قرأته لفلان ؛ وفى مذهب الحنابلة أن الميت ينتفع بثواب جميع العبادات والقربات الموهوبة له ، ويرى ابن تيمية أن الميت ينتفع بالعبادات المالية وغيرها من صلاة وصدقة ، ودعاء واستغفار ، وصوم وحج .

وقد ورد فى السنة المطهرة أن سائلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، إنا نتصدق عن موتانا ، ونحج عنهم ، وندعو لهم ، هل يصل ذلك إليهم ؟ قال : « نعم إنه ليصل إليهم ، وإنهم ليفرحون به كما يفرح أحدكم بالطبق إذا أهدى إليه » .

وعن ابن عباس أن رجلا سأل النبى عليه الصلاة والسلام : يا رسول الله ، إن أمى توفيت أينفعها إن تصدقت عنها ؟ . قال : نعم . قال الرجل : فإن لى بستاناً أشهدك أنى تصدقت به عنها .

وجاء رجل وسأل النبي : يا رسول الله ، إن أمى ماتت وعليها صوم شهر [يعنى رمضان] أفأقضيه عنها ؟ فقال : لو كان على أمك دين أكنت قاضيه عنها ؟ قال : نعم . قال : فدين الله أحق أن يقضى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

معاونة أهل الكتاب فى الدفن

السؤال :

هل يجوز للمسلم أن يذهب إلى مدافن المسيحيين لمساعدتهم فى دفن ميت لهم ؟

الجواب :

الإسلام دين عالمى إنسانى ، يدعو إلى حسن المعاملة ، وحسن الجوار ، وحسن العلاقة بين الناس جميعاً ، وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم ، والمسيحيون هم من أهل الكتاب الذين أمر الإسلام بالتودد إليهم ومعاملتهم بالقسط والعدل ومراعاة الروابط الإنسانية بين البشر ، والله تبارك وتعالى يقول فى سورة الممتحنة : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسن معاملة جيرانه من أهل الكتاب ، ويطيب خاطرهم ، وخصوصاً فى مواقف الموت والعزاء ، والإنسان فى العادة يكون محتاجاً إلى معاونة جاره ومجاملته فى مثل هذه

المناسبات ، وعلى هذا فليس هناك ما يمنع المسلم من مساعدة جيرانه فى دفن ميت لهم ، ما دام لا يرتكب ما يخالف عقيدته أو دينه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

لغة سؤال القبر

السؤال :

ما هى اللغة التى يكلم بها الملائكة الميت فى القبر ؟

الجواب :

ذكر بعض العلماء أن اللغة التى يتكلم بها الملائكة مع الميت هى اللغة السريانية ، وليس هناك نص قطعى على ذلك .

ونفهم أن الملائكة سيخاطبون الميت بلغة يفهمها ، وإذا كان الميت رجلا صالحاً فإن الكلام سيكون سهلا عليه ميسوراً لديه .

وإذا كان الشخص كافراً أو فاجراً فى حياته ، فليس هناك ما يمنع من أن الله تعالى سيجعل الحساب عليه صعباً عسيراً ، حتى يصعب عليه أن يجيب إجابة موفقة لأنه لم يقدم فى حياته عملا صالحاً .

والله جل جلاله هو وحده العليم بحقيقة ما سيكون هناك .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

زيارة القبور

السؤال :

هل تجوز زيارة القبور وقراءة بعض الآيات القرآنية ؟

الجواب :

قرر الفقهاء أن زيارة القبور أمر مستحب للرجال ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها ، فإنها تذكركم الآخرة » ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول القائل منهم : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم فرطنا ، ونحن لكم تبع ، ونسأل الله لنا ولكم العافية » . وكان النبي إذا زار القبور دعا لأهلها واستغفر لهم وترحم عليهم. ويرى فريق من الفقهاء أن الزيارة من أجل التذكير بالآخرة أمر يشترك فيه الرجال والنساء ، فهو جائز بالنسبة إلى الفريقين ، وكره قوم الزيارة للنساء ، لقلة صبرهن وكثرة جزعهن ، ولعل هذا خاص بالمكثرات من الزيارة ، مما يفهم من قوله عليه الصلاة والسلام : « لعن الله زوارات القبور » .

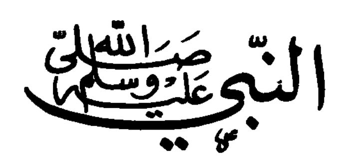
ويرى فريق من الفقهاء أنه تجوز قراءة القرآن إذا كانت القراءة تبرعاً بلا أجر ، ويقول القارئ عقب القراءة : اللهم أوصل مثل ثواب ماقرأته إلى فلان . وقال أحمد بن حنبل : الميت يصل إليه كل شيء من الخير ، للنصوص الواردة فيه ، ولأن المسلمين يجتمعون فى كل مصر ويقرءون ويهدون لموتاهم من غير نكير ، فكان ذلك إجماعاً .

والقائلون بوصول ثواب القراءة للميت يشترطون ألا يأخذ القارئ على قراءته أجراً ، فإن أخذ القارئ أجراً على قراءته صار ذلك حراماً ، ولا ثواب على هذه القراءة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *




النبي صلى الله عليه وسلم



ملامح وجه النبي

السؤال :

ما هى كيفية ملامح وجه الرسول عليه الصلاة والسلام على وجه التقريب كما وصفها الصحابة ؟

الجواب :

فى كتاب « عيون الأثر » لابن سيد الناس أن الحسين بن على رضوان الله عليهما يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم بأحاديث فى بعضها تجلية لصفة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ومنها أن سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه كان فخماً ضخماً ، يتلألأ وجهه كالقمر ليلة البدر ، وكان أزهر اللون واسع الجبين أزج الحاجبين فى غير قرن ، له نور يعلوه ، فى طرف أنفه ارتفاع ، وكان سهل الخدين مفلج الأسنان أبيض العنق ، كأن جيده دمية فى صفاء الفضة معتدل الخلق ، وكان حاجباه بغير قرن بينهما ، وكان كث اللحية أدعج العينين ضليع الفم ، وكان خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، أكثر نظره الملاحظة ، وكان إذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام . صلوات الله وسلامه عليه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الاحتفال بالمولد النبوى

السؤال :

ما الطريقة المثلى للاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ؟ إقامة المولد أم اتباع ما جاءنا به الرسول صلى الله عليه وسلم ، واجتناب ما نهانا عنه ؟ . وما رأى الإسلام فى أولئك الذين يقيمون حفلات الرقص والطبول إحياء لهذه الذكرى العطرة وهم لا يؤدون الصلوات المفروضة ؟

الجواب :

إن رسول الله عليه الصلاة والسلام هو رحمة الله للعالمين ، وإمام النبيين ، وخاتم المرسلين ، وهو البشير النذير ، والنور المبين وهو الذى قال فيه رب العالمين : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) . ولما كان الرسول بهذه المكانة كان تذكر سيرته وصفاته وطباعه وأحواله من خير ما يعظ الإنسان ويهديه إلى صراط ربه المستقيم ، ولا شك أن أعظم شىء يفرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أن يرانا متبعين لسنته ، مهتدين بملته ، سائرين على طريقته ، نتمسك بكل ما أمرنا الله به ، وننتهى عن كل ما نهانا الله عنه ، لأن الرسول مبلغ عن ربه ، والقرآن يقول فى شأنه : (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى) .

وإذا كان الاحتفال بذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم أمراً لم يكن معروفاً فى زمن النبوة ، ولا فى زمن الصحابة أو التابعين . فإن الاحتفال بهذه الذكرى يكون مثمراً ونافعاً إذا جاء على الوجه المحقق لثمرات الذكرى والاعتبار ، وفى المجلد الأول من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة »[1]

---

(١) انظر صفحة ٤٧١ من المجلد الأول من كتابى : « يسألونك فى الدين والحياة » .

قلت هذه الكلمات :الواجب فى الاحتفال بهذه الذكرى الجليلة أن يكون خالياً من المنكرات والسيئات ، ومن الاختلاط الفاحش بين الرجال والنساء ، ومما تعوده كثير من الناس فى هذه المناسبة من بدع لا يرضاها الله تبارك وتعالى ، ولا يرضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخير ما يكون فى هذا الاحتفال هو تدارس حياة النبى الكريم ، وتفهم العبر والعظات التى تحويها هذه الحياة ، ثم السير على منهاج هذا الدين العظيم الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذى يقول فيه رب العزة : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

وأما أولئك الآثمون المجرمون الذين يعطلون أكبر الفرائض الإسلامية مكانة وقيمة وهى الصلاة ، ثم تأتون هذه المنكرات باسم المولد النبوى ، فالإسلام منهم برىء ، والرسول عليه الصلاة والسلام منهم برىء واللعنة عليهم فى الدنيا والآخرة إذا لم يرجعوا ويتوبوا ويعودوا إلى صراط العزيز الحميد .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

جسد النبىّ صلّى الله عليه وسلم

السؤال :

هل صحيح أن جسد الرسول صلى الله عليه وسلم لا يزال سليماً بلحمه ودمه ؟ وهل صحيح أن الإسرائيليين سوف يستولون على هذا الجسد ؟

الجواب

وردت أخبار مختلفة تدل على أن أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

لا تبلى فى قبورهم ومن المعلوم أن سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام هو خاتم النبيين وإمام المرسلين ، وإذا ثبت لبعضهم مزية أو كرامة فمن باب أولى يكون سيدنا رسول الله أولى بهذه المزية ، وذلك التكريم .

ولقد ذكر جمهور العلماء أن الرسول عليه الصلاة والسلام حى فى قبره حياة خاصة لا ندرك كنهها ولا نعرف حقيقتها ، وإنما الذى يدرك ذلك على حقيقته هو العليم بكل شىء ، الخالق جل جلاله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ليس أقل شأناً من الشهداء الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم فى سورة آل عمران : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المحسنين) .

وكذلك روى العلماء ، هنا حديثاً يتعلق بهذا الموضوع ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « حياتى خير لكم ، ومماتى خير لكم ، تعرض علىّ أعمالكم فما كان من حسن حمدت الله عليه ، وما كان من سيئ استغفرت الله لكم » .

وروى عبد الله بن المبارك عن سعيد بن المسيب : « ليس من يوم إلا وتعرض على النبى صلى الله عليه وسلم أعمال أمته غدوة وعشياً . فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم ، فيحمد الله ويستغفره لهم » .

ويستفاد مما سبق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حى فى قبره حياة خاصة لا نحيط بكنهها أو حقيقتها ، وإنما يرد العلم فى ذلك إلى الله جل جلاله . والخوض فى مثل هذه الأمور الغيبية لا يترتب عليه كبير فائدة فى العبادات العملية أو المعاملات الاجتماعية .

وأما الزعم بأن اليهود سيستولون على جسد الرسول صلى الله عليه وسلم .

فهذا من أوهام الضعف التي تعرض للمسلمين في مراحل تفككهم وسوء ظنهم بأنفسهم وأمتهم ، مع أن الله جل جلاله يقول : (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

أولاد النبي ﷺ

السؤال :

ما عدد أولاد الرسول صلى الله عليه وسلم وما هي أسماؤهم ؟

الجواب :

جاء في كتاب « عيون الأثر » لابن سيد الناس أن أول من ولد لرسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم بمكة قبل النبوة ، ثم ولدت له زينب ، ثم رقية ، ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم ، ثم ولد له في الإسلام عبد الله ، وكلهم جميعاً من السيدة خديجة بنت خويلد ، ورزقه الله تعالى إبراهيم من مارية القبطية .

وكان أول من مات من أولاده : القاسم ، ثم مات عبد الله بمكة . وقد أدرك بناته كلهن الإسلام ، وأسلمن وهاجرن مع النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال الجرجاني : أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم وهو أكبر أولاده ، ثم زينب ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية ، ثم عبد الله ، وكان يقال له الطيب والطاهر ، وقال : هذا هو الصحيح .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

ذريّة النبي ﷺ

السؤال :

هل هناك من ينتمون إلى ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم ومن هم ؟

الجواب :

المراد من ذرية سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام هو نسله الكريم الطاهر من ابنته البتول فاطمة الزهراء ، وهما الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة رضوان الله عليهما ، وكذلك تطلق ذرية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أولاد الحسن والحسين إلى ما شاء الله ، فكل من ثبت نسبته إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فهو من آل البيت النبوى رضوان الله عليهم أجمعين ، وقد عنى الكرام من آل بيت النبي بحفظ أنسابهم وتسلسل ارتباطهم وانتسابهم بالعترة الطاهرة ، والناس مؤتمنون على أنسابهم كما قال السابقون ، وهى أمانة من واجب أهلها أن يرعوها حق رعايتها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

نسب رسول الله ﷺ

السؤال :

هل تمتد نسبة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى الآن ؟

الجواب :

إن الله تبارك وتعالى التى قضت حكمته وقدرته العلية البالغة أن يجعل آخر أنبيائه وخاتم رسله سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام يتيماً فريداً ، قد حاطه

برعايته وشمله بعنايته ، وخاطبه فى القرآن المجيد بأفضل خطاب ، فقال له فيما قال له : (والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى) .

وإذا كانت حكمة المولى جل جلاله قد شاءت أن يموت جميع أولاد النبي فى حياته ، ولم يبق منهم بعده إلا البتول الطاهرة الزهراء فاطمة ، فإن هذه الحكمة نفسها قد كتبت لنسل الرسول الكريم البقاء والنماء والتسلسل إلى ما شاء الله عن طريق السبطين الطاهرين : الحسن والحسين رضوان الله عليهما ، وهما ولدا فاطمة وعليّ ، وعن طريق فاطمة الزهراء استمر نسل النبي الزكى باقياً ونامياً إلى ما شاء الله عز وجل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

سلالة النبي ﷺ

السؤال :

من هم سلالة النبي صلى الله عليه وسلم الموجودين الآن ؟

الجواب :

سلالة النبي صلى الله عليه وسلم هم من تناسلوا من أولاده ، سواء أكانوا من الذكور أم الإناث ، ويكاد تنحصر هذه السلالة الكريمة الطاهرة فى أولاد فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهم نسل الإمام الحسن والإمام الحسين ابنى على بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين ، فكل من نشأ من هذه الذرية الطاهرة فهو من سلالة الرسول ونسله وذريته .

ولقد حرص سلالة النبي صلى الله عليه وسلم خلال الأجيال والعصور على أن يحفظوا سلسلة أنسابهم تيمناً بالصلة الكريمة ببيت رسول الله الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، ومن بقى من هذه الذرية فهم من سلالة الرسول صلوات الله وسلامه عليه . ومع هذا ينبغى أن نلاحظ أن بعض الناس يلحقون أنفسهم بهذه السلالة دون برهان أو يقين ، متخذين ذلك مغنماً ومتجراً ، ولا يليق بالمسلم أن يدعى لنفسه نسباً غير صحيح .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

بينَ النبى وأبى بكر

السؤال :

أيهما أكبر سناً الرسول صلى الله عليه وسلم أم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ؟

الجواب :

المعروف عند كثير من الناس أن أبا بكر أكبر سناً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر الإمام عز الدين بن الأثير فى كتابه « أسد الغابة » هذا الخبر : روى حبيب بن شهيد ، عن ميمون بن مهران ، عن يزيد ابن الأصم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر : من أكبر أنا أو أنت؟ قال : أنت أكبر وأكرم وخير منى ، وأنا أسن منك .

ولكن ابن الأثير قال عقب هذا : « وهذا لا يعرف إلا بهذا الإسناد ، والذى عليه أهل العلم أن سن أبى بكر تكمل مع مدة خلافته بمقدار سن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وذكر ابن الأثير أيضاً فى وفاة أبى بكر أنه توفى وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وذلك مجمع عليه ، وكان أبو بكر قد ولد بعد عام الفيل بثلاث سنين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

تصوير النبي ﷺ

السؤال :

هل توجد صورة أو رسم أو تمثال للنبي صلى الله عليه وسلم ؟

الجواب :

لقد حارب الإسلام الحنيف الوثنية بكل شكل من أشكالها أو مظهر من مظاهرها ، ولذلك حطم الأصنام والأوثان ، والأزلام ، وكل ما من شأنه أن يؤدى إلى الإشراك بالله جل جلاله ، ولذلك قال سيدنا ورائدنا وقائدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » الذين يضاهئون ما خلق الله عز وجل ، ولذلك يحرم فى الإسلام اتخاذ التماثيل التى تقام لتعظيم أصحابها لأن هذا تشبه بأعمال الذين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان .

ومن هذا نفهم أنه لا توجد صورة أو رسم أو تمثال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينبغى أيضاً أن نتذكر أن التصوير لم يكن موجوداً بالمعنى الحديث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والرسول صلى الله عليه وسلم مرسوم فى قلوب المسلمين وصدورهم

بصفاته وأخلاقه وشمائله التى أشار إلى طائفة منها القرآن الكريم . وتكفلت السنة المطهرة بسرد صفاته وطباعه وعاداته وأخلاقه ، وكل صغيرة وكبيرة تتعلق بحياته .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

عدد غزوات النبي ﷺ

السؤال :

ما عدد غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ؟

الجواب :

جاء فى صحيحى البخارى ومسلم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام غزا تسع عشرة غزوة .

وعن البراء قال : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة .

وعن ابن بريدة عن أبيه أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ست عشرة غزوة .

وعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا إحدى وعشرين غزوة . غزوت معه منها تسع عشرة غزوة . ولم أشهد بدراً ولا أحداً .

وقال قتادة : غزا رسول الله تسع عشرة غزوة . قاتل منها فى ثمان ، وبعث من البعوث أربعاً وعشرين ، فجميع غزاوته وسراياه ثلاث وأربعون .

وعن غير واحد من أئمة السيرة أنه صلى الله عليه وسلم قاتل يوم بدر فى

رمضان من سنة ثنتين ، ثم فى أحد فى شوال سنة ثلاث ، ثم الخندق وبنى قريظة فى شوال أيضاً من سنة أربع ، وقيل سنة خمس ، ثم فى بنى المصطلق بالمريسيع فى شعبان سنة خمس ، ثم فى خيبر فى صفر سنة سبع ، ومنهم من يقول سنة ست ، والتحقيق أنه فى أول سنة سبعا وآخر سنة ست ، ثم قاتل أهل مكة فى رمضان سنة ثمان ، وقاتل هوازن ، وحاصر أهل الطائف فى شوال وبعض ذى الحجة سنة ثمان .

وقال محمد بن إسحق : وكان جميع ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه الكريمة سبعاً وعشرين غزوة : غزوة ودان ، وهى غزوة الأبواء ، ثم غزوة بواط من ناحية رضوى ، ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع ، ثم غزوة بدر العظمى التى قتل الله فيها صناديد قريش ، ثم غزوة بنى سليم حتى بلغ الكدر ، ثم غزوة السويق ، يطلب أبا سفيان بن حرب ، ثم غزوة غطفان ، وهى غزوة ذى أمر ، ثم غزوة نجران معدن بالحجاز ، ثم غزوة أحد ، ثم حمراء الأسد ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوة ذات الرقاع من نخل ، ثم غزوة بدر الآخرة ، ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة الخندق ، ثم غزوة بنى قريظة ، ثم غزوة بنى لحيان من هزيل ، ثم غزوة ذى قرد ، ثم غزوة بنى المصطلق من خزاعة ، ثم غزوة الحديبية ، لا يريد قتالا ، فصده المشركون ثم غزوة خيبر ، ثم عمرة القضاء ، ثم غزوة الفتح ، ثم غزوة حنين ، ثم غزوة الطائف ، ثم غزوة تبوك .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

النبي الأول والأخير

السؤال :

لماذا يقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم هو النبي الأول والنبي الأخير ؟

الجواب :

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال : « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث ».رواه الديلمي وأبو النعيم وابن أبي حاتم عن أبي هريرة . وقد ذكر الإمام ابن الجوزي في كتابه : « الوفا بأحوال المصطفى » عن العرباض بن سارية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني عند الله لخاتم النبيين ، إن آدم لمنجدل في طينته » وعن ميسرة قال : « قلت يا رسول الله ، متى كنت نبياً ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد » .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، وأنا أكرم ولد آدم على الله ولا فخر » .

وكذلك بعث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الخلق كافة ، ولا نبي بعده ، وهو خاتم النبيين ، وبذلك يكون النبي الأخير .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الرسول والقرآن

السؤال :

أيهما أفضل القرآن الكريم ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

الجواب :

لا ينبغى لأبناء الإسلام أن يشغلوا أنفسهم كثيراً بمثل هذه المقارنات ، التى لا يعرف حقيقة الفصل فى دقائقها وعناصرها إلا العليم الخبير ، كما أن مثل هذه المقارنات لا يتوقف على معرفتها عبادة أو بيان فريضة أو ما أشبه ذلك ؛ والقرآن الكريم هو كلام الله عز وجل ، وهو الذى يقول فيه رب العزة : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

والرسول صلى الله عليه وسلم خير من حفظ للقرآن هيبته وكرامته ، واحتفل به وحث أمته على توقيره والتدبر فيه ، وحسبنا هنا أن نجده يقول : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» ويقول : « القرآن مأدبة الله فخذوا من مأدبته ما استطعتم » .

والرسول صلى الله عليه وسلم هو رحمة الله للعالمين ، وخيرة خلقه أجمعين ، وهو خاتم الأنبياء وإمام المرسلين ، ولا يوجد بين الناس من هو أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو أفضلهم على الإطلاق وبالاتفاق .

ونعود لنؤكد أن الأليق بالمسلم ألا يشغل نفسه بمثل هذه المقارنات ، وينبغى له أن يعطى القرآن الكريم حقه من الرعاية والصيانة والتوقير ، وأن

يحفظ لرسول الله عليه الصلاة والسلام ما يناسب مقامه الشريف من الحب والإجلال والمتابعة فى طريق الله عز وجل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

عمر النبي عند الهجرة

السؤال :

كم كان عمر النبي صلى الله عليه وسلم عندما هاجر من مكة إلى المدينة المنورة ؟

الجواب :

المعروف من سيرة سيدنا ومولانا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى بعثه بالرسالة ، وهو فى الأربعين من عمره ، وقد مكث فى مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه خلالها ، وبعد أن بلغ الثالثة والخمسين من عمره أمره الله تبارك وتعالى بالهجرة إلى المدينة المنورة ، وقد مكث فى المدينة بعد الهجرة عشر سنوات ، ثم توفاه الله تعالى إليه وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وقد كانت هجرة النبي صلوات الله وسلامه عليه فى شهر ربيع الأول ، سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه الصلاة والسلام ، وكانَ ذلك كما قال الرواة فى يوم الاثنين . ومن عجيب ما ذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولد فى يوم الاثنين ، وبعثه الله فى يوم الاثنين ، وهاجر من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، ودخل المدينة بعد إتمام طريق الهجرة يوم الاثنين ، وتوفاه الله تعالى إليه يوم الاثنين ، صلوات الله وسلامه عليه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الصلاة على النبي ﷺ

السؤال :

ما هى الطريقة المثلى للصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ؟

الجواب :

لعل الطريقة المثلى للصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام هى أن نصلى عليه بما ثبت وروده فى السنة الصحيحة ، وهو الوارد فى النصف الثانى من التشهد فى الصلاة ، وهو هذه الكلمات : « اللهم صلّ على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، وبارك اللهم على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد » .

وهناك صيغ كثيرة للصلاة والسلام على رسول الله ، منها المأثور ومنها المصنوع ، ولكن الأمثل هنا هو ما جاء فى التشهد فى الصلاة كما ذكرنا .

ولنتذكر أن الله تبارك وتعالى يقول فى سورة الأحزاب : (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مولد أم الرسول

السؤال :

أين ولدت أم رسول الله صلى الله عليه وسلم : بالمدينة المنورة أم بمكة المكرمة ؟

الجواب :

المروى فى كتب السيرة أن أم النبى عليه الصلاة والسلام هى آمنة بنت

وهب التى كانت أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً ، والمعروف أن إقامة قريش كانت فى مكة ، وأنها ماتت فى الأبواء بين مكةوالمدينة،وكانت سن النبي حيئذ ثمانىسنوات ، وكانت قد قدمت بالنبي صلى الله عليه وسلم على أخواله من بنى عدى بن النجار لزيارتهم ، فماتت وهى راجعة به إلى مكة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

زعماء المسلمين بعد الرسول ﷺ

السؤال :

من زعماء المسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

الجواب :

إذا كان المقصود من السؤال الذين تولوا أمر المسلمين بعد وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكانوا فى موطن الزعامة من توجيه أمور المسلمين فأول خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم تولى أمر الناس هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

وإذا كان المراد هو معرفة الزعماء الأعلام الذين تألقوا فى المجتمع الإسلامى بعد وفاة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : وكان لهم شأنهم وجهدهم فى تسيير دفة الحياة والأحداث فى هذا المجتمع الكبير ، فلنذكر أنه كانت من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم مجموعة عظيمة مباركة ،

فى طليعتهم الخلفاء الراشدون الأربعة ، وقد أشار الله إليهم فى قوله تبارك وتعالى من سورة التوبة : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) .

وينبغى لنا أن نعلم أن هناك عشرة من الصحابة يسمون العشرة المبشرين بالجنة قد اصطفاهم الله تعالى من خلقه ، وفضلهم على غيرهم ، وبشرهم بالجنة ، وجعل منهم لنبيه وزراء وأنصاراً . وهؤلاء هم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد ، وأبو عبيدة بن الجراح ، رضوان الله عليهم أجمعين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

أصل لقمان

السؤال :

من أى البلاد كان لقمان ، وهل كان نبياً ؟

الجواب :

لقمان الحكيم عليه السلام هو لقمان بن باعورا وهو المذكور فى قوله تعالى فى سورة لقمان : (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد ، وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه

يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) ، وأكثر الأقوال أنه كان حكيما ولم يكن نبياً ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لقمان لم يكن نبياً ولا ملكاً بل راعياً أسود ، فرزقه الله العتق ورضى قوله ووصيته ، فقص أمره فى القرآن لتتمسكوا بوصيته . وقيل : خُيِّر بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة . وقال ابن المسيب إنه كان أسود من سودان مصر ، وكان خياطاً وروى أنه كان عبداً حبشياً نجاراً . وروى عنه أنه قال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض .

وقال له بعض الناس : ألست العبد الأسود الذى كنت تراعينا بموضع كذا ؟ قال : بلى . قال : ما بلغ بك ما أرى ؟ فأجاب : صدق الحديث وأداء الأمانة ، والصمت عما لا يعنينى ، وترك ما لا يعنينى . وروى أن مولاه أمره بذبح شاة ، وبأن يخرج منها أطيب مضغتين . فأخرج اللسان والقلب . ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام ، وأن يخرج أخبث مضغتين ، فأخرج اللسان والقلب ، فسأله عن ذلك فقال : هما أطيب ما فيها إذا طابا ، وأخبث ما فيها إذا خبثا .

ولقمان كان كثير الحكمة ، والحكم المنسوبة إليه كثيرة مشهورة ، ومنها قوله لابنه : من يقارن قرين السوء لا يسلم . وقال : من لا يملك لسانه يندم ، يا بنى كن عبداً للأخيار ، يا بنى كن أميناً تكن غنياً ، جالس العلماء ، وزاحمهم بركبتيك ولا تجادلهم ، خذ منهم إذا ناولوك والطف بهم فى السؤال .

ومن حكمه : كن لأصحابك موافقاً فى غير معصية ، وإن أردت غنى الدنيا فاقطع طمعك مما فى أيدى الناس .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

رُوَاةُ الحَدِيْث



رواة الحديث

هذه مجموعة من الكلمات دارت حول رواة الحديث النبوى الشريف ، وهم من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد أذيعت هذه الكلمات بعد أن وجهوا بشأنها أسئلة فى سلسلة سموها : «رواة الحديث» وأذيعت فى البرامج الموجهة :

* * *



أبو بكر الصديق

أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه، هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول من آمن من الرجال ، وهو أول الخلفاء الراشدين ، وقد قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام : « أبو بكر عتيق من النار » فمن يومئذ سمي عتيقاً ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأجمعت الأمة على تسميته بالصديق ، لأنه بادر إلى تصديق النبي ، ولازم الصدق ، فلم تقع منه هناة ولا وقعة فى حال من الأحوال ، وكانت له فى الإسلام مواقف رفيعة ، وخصوصاً فى حادث الإسراء وحادث الهجرة ، ولم يفارق الرسول فى سفر ولا حضر ، وهو ثانى اثنين مع رسول الله ، والقرآن يقول فى سورة التوبة : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذا أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم) .

وإن نسى التاريخ فلن ينسى موقفه يوم موت رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، والناس فى هول وفزع ، فقد وقف بين الناس يخطب ويقول : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) » .

وقد قال أبو هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دعى من أبواب الجنة : يا عبدالله هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان».

فقال أبو بكر : ما على من يدعى من تلك الأبواب من ضرورة ، هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ . قال : «نعم وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر» .

ومن صلة أبي بكر بروايته الحديث لرسول الله عليه الصلاة والسلام أنه كان من كتاب النبي ، بل كان أفضلهم ، ويقول أبو سعيد الخدرى : كان أبو بكر أعلمنا . وقد روى أبو بكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة واثنين وأربعين حديثاً ، وكان المنتظر أن يروى عن أبي بكر أضعاف ذلك ، لتقدم صحبته وملازمته النبي ، ولكن وفاته تقدمت قبل انتشار الأحاديث واعتناء التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها ، وقد روى عنه الأحاديث عشرات من الصحابة والتابعين .

ومن الحسنات الكبرى لأبي بكر أنه استخلف بعده الحاكم العادل والخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، وكتب له في ذلك كتاباً يعد آية في إخلاص النصيحة وصدق التوجيه ، قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة ، في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعن أول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حين يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني مستخلف عليكم بعدى عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإني لم آل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ودينه ونفسى وإياكم خيراً ، فإن عدل

فذلك ظنى به وعلمى فيه ، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذى ظلموا أى منقلب ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله .

وقال أبو بكر : اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة ، فعلمت منهم بما أنت أعلم به ، فوليت عليهم خيرهم ، وأقواهم عليهم ، وأحرصهم على ما أرشدهم .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

• • •

عمر بن الخطاب

عمر هو الفاروق أمير المؤمنين . الخليفة الراشد الثانى الحاكم العادل العبقرى الملهم ، أحد العشرة المبشرين بالجنة على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، الصحابى الجليل الذى كان إسلامه عزاً ونصراً للإسلام والمسلمين يقول ابن مسعود . كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمامته رحمة .

وعنه يقول الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه ، وهو الفاروق فرق الله به بين الحق والباطل » . ويقول فيه أيضاً : « كان فيمن قبلكم ملهمون ، فإن يكن فى أمتى أحد منهم فعمر » .

ومن صفاء سريرة عمر أن القرآن الكريم كان ينزل موافقاً رأيه فى كثير من المواطن يقول عمر : وافقت ربى فى ثلاث ، قلت يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت الآية : (واتخذوا من مقام إبراهيم

مصلى) . وقلت يا رسول الله ، يدخل على نسائك البر والفاجر ، فلو أمرتهن يحتجبن . فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم فى الغيرة فقلت : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن . فنزلت الآية كذلك . وهناك مواطن أخرى .

وعن هجرة عمر يقول الإمام على : ما علمت أحداً هاجر إلا مختفياً ، إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى فى يده أسهماً ، وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها ، فطاف سبعاً ، ثم صلى ركعتين عند المقام ، ثم أتى حلقهم واحدة واحدة ، فقال : شاهت الوجوه ، من أراد أن تثكله أمه ، وييتم ولده ، وترمل زوجته ، فيلقنى وراء هذا الوادى ، فما تبعه منهم أحد .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه من الصحابة المكثرين لرواية الحديث النبوى الشريف ، وقد روى خمسمائة وتسعة وثلاثين حديثاً ، وقد روى عنه الأحاديث عشرات من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

واستخلاف أبى بكر قبيل موته لعمر يدل دلالة واضحة على مكانة عمر من العلم والفضل والعدالة والإنصاف ، وقد كان الناس يخافون أشد الخوف من عمر وشدته وصرامته ، وكانوا يرهبون أن يتولى الخلافة بعد أبى بكر الرقيق الحنون ، ولكن تبدل حاله بعد الخلافة ، فصار رحيماً عطوفاً . وكأن الله تبارك وتعالى استجاب دعاءه الذى كان يناجى به ربه ويرجوه فيه أن يغير شدته إلى لين . وصرامته إلى رفق .

وكان عمر فى أخريات أيامه يدعو ربه جل وعلا ، فيقول له : اللهم كبرت سنى ، وضعفت قوتى ، وقلت حيلتى ، وانتشرت رعيتى ،

فاقبضنى إليك غير مضيع ولامفرط ، اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك عليه الصلاة والسلام [يقصد المدينة] . وقد استجاب الله دعاءه ، وحقق له رجاءه ، فرزقه الله الشهادة فى سبيل الحق والإسلام ، وجعل موته فى المدينة المنورة ، ورقدته بجوار حبيبه الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن خير ما نذكره لعمر الفاروق خطبته التى قالهـا بعد توليه الخلافة ، قال : يا أيها الناس ، إنى داع فأمنوا ، اللهم إنى غليظ فلينى لأهل طاعتك ، بموافقة الحق ، ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الفجور و النفاق ، من غير ظلم منى لهم ، ولا اعتداء عليهم ، اللهم إنى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف ، قصداً من غير سرف ولا تبذير ، ولا رياء ولاسمعة ، واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهم ارزقنى خفض الجناح ، ولين الجانب للمؤمنين ، اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان ، فألهمنى ذكرك على كل حال ، وذكر الموت فى كل حين ، اللهم إنى ضعيف عن العمل بطاعتك ، فارزقنى النشاط فيها ، والقوة عليها ، بالنية الحسنة التى لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك ، اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى ، وذكر المقام بين يديك ، والحياء منك ، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى ، والمحاسبة لنفسى ، وإصلاح الساعات ، والحذر من الشبهات .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

عثمان بن عفان

هو أبو عبد الله عثمان بن عفان بن أبي العاص ، أمير المؤمنين ، ثالث الخلفاء الراشدين ، أحد السابقين إلى الإسلام ، صاحب الهجرتين ، ذو النورين ، الباذل المعطاء لوجه الله ، الشهيد في سبيل الله ، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما هاجر بزوجته رقية : « والذي نفسي بيده إنه لأول من هاجر بعد إبراهيم ولوط صلى الله عليهما وسلم » ، وسمي عثمان بذي النورين لأنه تزوج بابنتي رسول الله : رقية وأم كلثوم ، تزوج إحداهما بعد الأخرى ، ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره . وعثمان هو أحد الذين بشرهم النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة ، وهو أحد الستة الذين توفي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وهو عنهم راض . وعثمان هو الذي اشترى « بئر رومة » من بعض اليهود ووقفها على المسلمين ، وهو الذي جهز جيش العسرة بماله ، وحين جهز عثمان هذا الجيش جاء بألف دينار فنثرها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ماضر عثمان ما عمل بعد اليوم » .

ومما يدل على مكانة عثمان أن البخاري روى أن عثمان قال : أما بعد فإن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق نبياً ، وكنت ممن استجاب لله ولرسوله ، وآمنت بما بعث به ، ثم هاجرت الهجرتين ، وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونلت صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما عصيته ولا غششته ، حتى توفاه الله تعالى ، ثم أبو بكر مثله ، ثم عمر مثله .

ولعثمان بن عفان منقبة ينفرد بها ، ويمتاز على غيره فيها ، هي أنه لما جاءت بيعة الرضوان كان عثمان غائباً عند أهل مكة ، فقال النبي عليه الصلاة

والسلام : إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله وضرب بإحدى يديه على اليد الأخرى . فكانت يد النبى لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

وكان عثمان شديد الحياء ، وله فى ذلك أمثلة رائعة تروى ، وكان النبى صلوات الله وسلامه عليه إذا هم عثمان بالدخول عليه جمع عليه ثيابه . ولما سئل النبى عن ذلك قال : «ألا أستحى ممن رجل تستحى منه الملائكة؟».

ولقد تولى عثمان خلافة المسلمين بالمبايعة منهم ، فهو ثالث الخلفاء الراشدين ، وقد تولى الخلافة وبقى فيها نحو اثنتى عشرة سنة . وقد روى لعثمان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم مائة وستة وأربعون حديثاً ، وروى عنه عدد من الصحابة وخلائق من التابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

وقد حوصر عثمان فى آخر خلافته من أهل الفتنة الذين ثاروا عليه . وحاصروه وهو يتلو القرآن الكريم ، وقد قال لهم حين أشرف عليهم من بيته : أنشدكم بالله ، ولا أنشد إلا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من حفر بئر رومة فله الجنة ، فحفرتها ؟ فقالوا : صدقت ، ومع ذلك لم يرجعوا ولم يرتدعوا . مع أن ابن خباب السلمى الصحابى قال : شهدت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يحث على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان يارسول الله على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها [بعدتها] فى سبيل الله ، ثم حض على الجيش فقال عثمان : على مائتا بعير ، ثم حض النبى على الجيش فقال عثمان : على ثلثمائة بعير . فقال النبى : ما على عثمان ماعمل بعد هذه . وقد قتل عثمان شهيداً يوم الجمعة لثمانى عشرة خلون من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

علی بن أبی طالب

هو أبوالحسن علی بن أبی طالب ، رضی الله عنه وكرم الله وجهه ، رابع الخلفاء الراشدين ، أمير المؤمنين ، ابن عم النبی صلی الله علیه وسلم ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء ، وأخو النبی بالمؤاخاة ، وأبو السبطين الحسن والحسين ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو أحد أصحاب الشورى الذين مات النبی وهو راض عنهم ، وهو أحد العلماء الربانيين ، والشجعان المشهورين ، والزهاد المذكورين ، وهو أول من أسلم من الصبيان ، أسلم وهو ابن عشر سنين .

استخلفه النبی علیه الصلاة والسلام ليلة الهجرة لينام مكانه ، وليؤدی أماناته ، ورد الودائع والوصايا التی كانت عند النبی ، ولقد شهد علیّ المشاهد كلها مع رسول الله علیه الصلاة والسلام ، إلا غزوة تبوك ، لأن النبی استخلفه فيها على المدينة ، وأعطاه الرسول اللواء فی مواطن كثيرة ، وأعطاه الراية يوم خيبر ، وأخبر أن الفتح سيكون على يديه بإذن الله تعالى .

وكان علیّ مكثراً من الرواية عن الرسول صلوات الله وسلامه علیه ، روى خمسمائة وستة وثمانين حديثاً ، ولعل السبب فی ذلك مصاحبته للنبی منذ صغره ، ويضاف إلى ذلك مصاهرته للرسول ، وحرصه الشديد على صحبته ، والتلقی عنه ، ولعل هذا كان له أثره الكبير فی أن يكون علیّ أبلغ الناس بعد رسول الله صلوات الله وسلامه علیه .

وقد روى عن علی كثير من الصحابة ، وروى عنه من التابعين خلائق مشهورون ، وكان عبد الله بن مسعود يقول : كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علیّ ، وكان كبار الصحابة يرجعون إليه فی المسائل المعضلات ، ويأخذون بفتاويه .

وفى غزوة خيبر قال النبي عليه الصلاة والسلام : « لأعطين الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله »، وفى الصباح قال : « أين على بن أبى طالب ؟ ». فقيل : يارسول الله هو يشتكى عينيه ، قال : فأرسلوا إليه ، فجاء فتفل النبي فى عينيه ، ودعا له فبرئ . واستجاب لأمر الرسول ، ففتح الله على يديه .

ومما يدل على مكانة علىّ عند الرسول أن الرسول قال فيه : علىّ منى ، وأنا من على ، ويقول علىّ راوياً عن النبي : والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمى صلى الله عليه وسلم : ألا يحبنى إلا مؤمن ، ولا يبغضنى إلا منافق .

وقد بويع الإمام علىّ بالخلافة فى مسجد رسول الله بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وذلك سنة خمس وثلاثين للهجرة ، ومات الإمام علىّ شهيداً ، ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين .

وللإمام على كتاب جليل يجمع المنسوب إليه من الخطب والوصايا والعظات ، وهو منبع فياض لطلاب الحكمة والبلاغة ومن وصاياه فى هذا الكتاب الذى يسمى بحق كتاب « نهج البلاغة » تلك الوصية البليغة التى قالها لأبى ذر رضى الله تبارك وتعالى عنه ، وذلك عندما أخرجوه إلى قرية « الربذة » ، حينما دعا دعوته المشهورة إلى الانفاق ، قال له : « يا أباذر ، إنك غضبت لله، فارج من غضبت له ، إن القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك ، فاترك فى أيديهم ماخافوك عليه ، واهرب بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عما منعوك . وستعلم من الرابح غداً ، والأكثر حسداً ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله ، لجعل الله له منهما مخرجاً ، لا يؤنسنك إلا الحق ، ولا يوحشنك

إلا الباطل ، فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو قرضت منها [أخذت منها جانباً] لأمنوك » .

ومن كلماته الحكيمة فى هذا الكتاب : « الطمع رق مؤبد » ، « يا ابن آدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك » ، « والإيمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان » ، « لكل امرئ فى ماله شريكان : الوارث والحوادث » .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

أُبَيّ بن كعب

هو الصحابى الجليل ، السيد القارئ : أُبَيّ بن كعب بن قيس بن عبيد ، الأنصارى الخزرجى النجارى المدنى ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه ، وكنيته « أبو المنذر » كناه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله كنية أخرى كناه بها عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليه ، وكان عمر يقول عنه : إنه سيد المسلمين . وقد شهد ابن كعب بيعة العقبة الثانية ، مع سبعين أنصارياً صاروا من أعلام الصحابة ، وقد شهد ابن كعب مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، غزوة بدر الكبرى ، كما شهد المشاهد الأخرى مع النبي عليه الصلاة والسلام . ولقد كان أبى بن كعب من أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وهم ستة : على بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وأُبَيّ بن كعب .

وكان أبيّ بن كعب أول من كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة المنورة مهاجراً .

ولقد روى الترمذى فى صحيحه أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : «أقرأ أمتى أبى بن كعب» . وفى الحديث الصحيح أن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خذوا القرآن من أربعة : عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبى ابن كعب » ، رضوان الله تبارك وتعالى عليهم أجمعين .

وقد ثبت فى صحيحى البخارى ومسلم أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قرأ على أبيّ بن كعب سورة البينة وفى أولهـا قول الله تبارك وتعالى : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتّى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيمة) وما زال الرسول عليه الصلاة والسلام يقرأ إلى آخر السورة ، ثم قال لأبى بن كعب : أمرنى الله عز وجل أن أقرأ عليك هذه السورة . وهذه منقبة عظيمة لأبيّ بن كعب لم يشاركه فيها أحد من الناس . ويروى أن أبى بن كعب كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود ، مطلعاً على الكتب القديمة ، يقرأ ويكتب ، وكان يكتب فى الجاهلية قبل الإسلام ، وكانت الكتابة فى العرب قليلة ، ولمـا أسلم كان من كتاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أمر الله تعالى رسوله بأن يقرأ القرآن على أبى بن كعب ، وقد روى لابن كعب مائة وأربعة وستون حديثاً . وقد روى عنه جماعة كبيرة من الصحابة ، كما روى عنه جموع غفيرة من التابعين .

وأبى بن كعب هو الذى كتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس ، كما أمره عثمان بن عفان رضى الله عنه بجمع القرآن الكريم ، فاشترك فى

جمعه . ويروى أن ابن كعب كان جالساً بجانب عمر بن الخطاب فقال : إن الدنيا فيها بلاغنا وزادنا إلى الآخرة ، وفيها أعمالنا التى نجازى بها فى الآخرة ، فقال قائل لعمر : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ . فقال : هذا سيد المسلمين أبى بن كعب . وكان أبى صاحب عناية كبيرة بالقرآن المجيد ، وكان يختمه فى ثمانى ليال .

وكان أبى بن كعب يفتى الناس ، ولكنه لا يفتيهم إلا فيما يفيدهم وينفعهم ، وكان ينهى الناس عن سؤاله عن أشياء لم تقع ، أو أمور لم تكن . ولقد روى مسروق قال : سألت أبى بن كعب عن مسألة ، فقال : يا ابن أخى أكان هذا ؟ قلت : لا . قال : فأحمنا حتى يكون ، فإذا كان اجتهدنا لك رأينا . وعن ابن ضمرة أنه قال : قلت لأبى بن كعب ، مالكم يا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نأتيكم من البعد ، نرجو عندكم الخير أن تعلمونا ، فإذا أتيناكم استخففتم أمرنا ، كأننا نهون عليكم ؟ فقال : والله لئن عشت إلى هذه الجمعة ، لأقولن فيها قولا لا أبالى استحييتمونى عليه أو قتلتمونى .

فلما كان يوم الجمعة أتيت المدينة فإذا أهلها يموج بعضهم فى بعض ، فسألت : ما شأن هؤلاء الناس ؟ قال بعضهم : أما أنت من أهل هذا البلد ؟ فإنه قد مات سيد المسلمين اليوم : أبى بن كعب . توفى رضوان الله عليه سنة ثلاثين للهجرة بالمدينة .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

عبد الرحمن بن عوف

هو الصحابى الكريم المعطاء المنفق فى سبيل الله : أبو محمد عبد الرحمن ابن عوف الزهرى القرشى ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب الخلافة فيهم وقال : إن رسول الله توفى وهو راض عنهم ، وقد أسلم قبل دخول النبى صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبى الأرقم ، وهو أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، وأحد خمسة أسلموا على يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وقد كان من المهاجرين الأولين ، وقد هاجر الهجرتين ، هاجر إلى الحبشة ، ثم هاجر إلى المدينة ، وآخى الرسول بينه وبين سعد بن أبى الربيع . وفى الحديث أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال : عبد الرحمن بن عوف أمين فى السماء أمين فى الأرض .

وقد شهد عبد الرحمن بن عوف مع النبى صلى الله عليه وسلم غزوة بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد وأرسله النبى إلى « دومة الجندل » ، وعممه بيده ، وسدل طرفى العمامة بين كتفيه ، وقال له مبشراً : إن فتح الله عليك ، فتزوج بنت شريفهم . وقد حقق الله بشرى رسوله ، ففتح على ابن عوف ، وتزوج بنت شريف القوم هناك ، واسمها تماضر ، ورزقه الله تعالى منها بولده أبى سلمة . وكان عبد الرحمن بن عوف شجاعاً جريئاً فى جهاده ، ويروى أنه جرح فى غزوة أحد العصيبة إحدى وعشرين جراحة ، منها جرح فى رجله ، كما سقطت ثنيتاه .

وكان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه جواداً كثير الإنفاق فى سبيل الله عز وجل ، وكان كثير المـــال ، صاحب حظ كبير فى التجارة ،

واسع الكسب منها ، ولقد دخل يوماً على أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضى الله عنها ، وقال لهـا : يا أمى ، خفت أن يهلكنى كثرة مالى . فقالت له : يابنى أنفق . واستجاب ابن عوف لداعى العطاء والإنفاق فى سبيل الله سبحانه ، فتصدق على عهد النبى صلوات الله وسلامه عليه بأربعة آلاف ثم بأربعين ألفاً ، ثم تصدق بأربعين ألف دينار ، ثم تصدق بخمسمائة فرس فى سبيل الله عز شأنه ثم بخمسمائة راحلة ، وأوصى عبد الرحمن بن عوف لأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن بحديقة بيعت بأربعمائة ألف ، وكان عامة ماله فى التجارة . وترك بعد وفاته مالا عظيماً من الذهب كان يقطع بالفؤوس ، غير الإبل والغنم .

ومناقب ابن عوف كثيرة ، وبعضها لا يشاركه فيها أحد ، مثل أن النبى عليه الصلاة والسلام صلى وراءه فى غزوة تبوك حين صلى ابن عوف بالناس ، وقد صلى بهم ركعة .

وكان ابن عوف شديد المحافظة على أمهات المؤمنين ، لأنه روى عن الرسول أنه قال : « الذى يحافظ على أزواجى من بعدى هو الصادق البار » فكان عبد الرحمن بن عوف يخرج بهن ، ويحج معهن ، ويجعل على هوادجهن الطيالسة ، وينزل بهن فى الشعب الذى ليس له منفذ .

وقد روى لابن عوف عن النبى صلى الله عليه وسلم خمسة وستون حديثاً ، وقد روى عنه جماعة من الصحابة وخلائق من التابعين . وقد روى عن ابن إياس الهذلى قال : كان عبد الرحمن بن عوف لنا جليساً ونعم الجليس فانقلب بنا ذات يوم إلى منزله ، فدخل فاغتسل ، ثم خرج فأتانا بقصعة فيها خبز ولحم ، ثم بكى ، فقلنا : ما يبكيك يا أبا محمد ؟ . قال : مات

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يشبع هو وأهله من خبز الشعير ، ولا أرانا أخرنا لما هو خير لنا .

ولما توفى عبد الرحمن بن عوف قال فيه الإمام على : اذهب يا ابن عوف ، أدركت صفوها ، وسبقت كدرها . توفى ابن عوف سنة ثنتين وثلاثين للهجرة ودفن بالبقيع .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

عبد الله بن مسعود

هو الصحابى الجليل صاحب الهجرتين : أبو عبيد الرحمن عبد الله ابن مسعود الهذلى ، وأمه هى الصحابية المهاجرة أم عبد بنت عبد ود ، فهو صحابى ابن صحابية . أسلم قديماً قبل إسلام عمر ، ويقول : لقد رأيتنى سادس ستة ما على الأرض مسلم غيرنا ، وقد هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وشهد غزوة بدر ، وهو الذى أجهز على أبى جهل فرعون هذه الأمة ، كما شهد غزوات أحد والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد معركة اليرموك .

وهو من الذين شهد لهم النبى بالجنة ، وكان يخدم الرسول ويكثر الخدمة له ، وروى الإمام مسلم أن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : آذنك أن ترفع الحجاب ، وتسمع سوادى [سرارى] حتى أنهاك .

وكان ابن مسعود كثير الرواية للحديث الشريف عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، فقد روى عنه ثمانمائة وثمانية وأربعين حديثاً ، وقد روى عنه عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وأبو موسى الأشعرى وأنس وجابر وعمران وأبو هريرة ، وغيرهم من الصحابة ، وخلائق لا يحصون من كبار التابعين .

وقد جاء فى صحيحى البخاري ومسلم عن ابن مسعود أنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ علىّ القرآن . فقلت يا رسول الله أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى . فقرأت عليه سورة النساء حتّى جئت إلى هذه الآية : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) . قال : حسبك الآن . فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان .

كما جاء فى الصحيحين عن مسروق قال : ذكر عند عبد الله بن عمرو ابن العاص عبد الله بن مسعود فقال : لا أزال أحبه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب .

وكان عبد الله بن مسعود يقول : والله الذى لا إله غيره ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حيث نزلت ، وما من آية إلا أنا أعلم فيم نزلت ، ولو أعلم أحداً هو أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لركبت إليه .

ويذكر النووى أن ابن مسعود كان من كبار الصحابة وساداتهم وفقهائهم ومقدميهم فى القرآن والفقه والفتوى وأصحاب الخلق وأصحاب الاتباع فى العلم .

وكان وثيق الصلة ببيت الرسول صلى الله عليه وسلم حتّى قال أبو موسى الأشعرى : قدمت أنا وأخى من اليمن فكثنا حيناً لا نرى ابن مسعود وأمه

إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولزومه له .

ولما مرض ابن مسعود عاده عثمان وقال : ما تشتكى ؟ . قال : ذنوبى . قال : ما تشتهى ؟ قال ابن مسعود : رحمة ربى . قال عثمان : ألا آمر لك بطبيب ؟ فقال ابن مسعود : الطبيب أمرضنى ، قال عثمان : ألا آمر لك بعطاء . قال : لا حاجة لى فيه . قال عثمان : يكون لبناتك . قال ابن مسعود : أتخشى على بناتى من الفقر ، إنى أمرتهن أن يقرأن فى كل ليلة سورة الواقعة ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » .

توفى رضى الله عنه بالكوفة سنة ثنتين وثلاثين للهجرة .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

أبو موسى الأشعرى

هو الصحابى أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعرى الكوفى ، من أعلام الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم أجمعين ، وأمه هى طيبة بنت وهب وقد أسلمت . وقد قدم أبو موسى على النبى صلى الله عليه وسلم قبل هجرته إلى المدينة فأسلم على يديه ، وهاجر أبو موسى إلى الحبشة حين هجرة المسلمين إليها ، ثم هاجر إلى الرسول بالمدينة المنورة ، مع أصحاب السفينتين ، بعد فتح خيبر ، فأسهم له النبى منها ، ولم يسهم منها لأحد غاب عن فتحها غير أبى موسى وأصحاب السفينتين . وقد قال الحافظ السجستانى فى كتابه

« شريعة القارئ » إن أبا موسى له فضيلة ليست لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : هاجر ثلاث هجرات ، هجرة من اليمن إلى رسول الله بمكة ، وهجرة من مكة إلى الحبشة ، وهجرة من المدينة إلى الحبشة ، ولذلك يقال له إنه صاحب الهجرات الثلاث .

وقد روى أبو موسى عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ثلثمائة وستين حديثاً ، وقد استعمله النبي صلوات الله وسلامه عليه على عدن وزبيد وساحل اليمن ، واستعمله عمر بن الخطاب رضى الله عنه على الكوفة والبصرة ، وشهد وفاة أبي عبيدة بالأردن ، وخطبة عمر بالجابية ، وقدم دمشق على معاوية .

وكان أبوموسى رجلا سليم النية طاهر القلب ، كثير العبادة والتهجد ، كثير الصيام والقيام ، وكان يتحرى اليوم الطويل شديد الحر ، فى أشد شهور السنة قيظاً ، ويصومه ليعود نفسه الصبر والاحتمال . ويضيف كتابى : « فدائيون فى تاريخ الإسلام »[1] قوله عن أبي موسى : ومع ذلك كان بارعاً فى الجهاد ، صاحب شجاعة وإقدام ، حتى قيل إن الرسول عليه الصلاة والسلام قال فيه : « سيد الفوارس أبو موسى الأشعرى » . وقد اشترك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة « ذات الرقاع » التى أعطت صورة من صور الاحتمال لخشونة الجهاد ، وكانت فى السنة الرابعة للهجرة ، وفيها يقول أبو موسى : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة ، ونحن ستة نفر نتبادل الركوب ، وتقرحت أقدامنا ، وتقرحت قدماى ، وتساقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع ، لما كنا نعصب على أرجلنا من الخرق » .

---

(١) انظر صفحة ٢٦٨ من كتابى : «فدائيون فى تاريخ الإسلام» فهناك ترجمته مبسوطة .

وكذلك خرج أبو موسى الأشعرى مع عمه أبى عامر الأشعرى فى سرية فدائية إلى واد فى ديار هوازن ، يقال له الأوطاس ، ليهاجموا أعداءهم . وكان عمه هو قائد السرية وحدث أن رمى بعض الأعداء سهماً فأصاب أبا عامر فى ركبته إصابة دقيقة . وهنا أسرع أبو موسى الأشعرى إلى رامى السهم وقتله ، ثم عاد فنزع السهم من ركبة عمه أبى عامر ، ولكن أبا عامر أحس بالموت بعد قليل ، فأناب عنه أبا موسى فى قيادة السرية ، وقال له انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقرئه منى السلام وقل له : استغفر لأبى عامر ، ومضى أبو عامر إلى ربه شهيداً .

رضوان الله على الجميع

* * *

معاذ بن جبل

هو الصحابى الفقيه ، الفاضل الصالح : أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل ابن عمرو الأنصارى الخزرجى المدنى . أسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، وكان من أحسن الناس وجهاً وخلقاً ، وأسمحهم كفاً ، وأكرمهم طبعاً ، شهد بيعة العقبة الثانية مع سبعين رجلا من الأنصار ، وشهد غزوات بدر وأحد والخندق والمشاهد كلها مع النبى عليه الصلاة والسلام ، وآخى الرسول بينه وبين عبد الله بن مسعود . وقد روى عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مائة وسبعة وخمسين حديثاً . روى عنه عبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وجابر ، وأنس ، وأبو ثعلبة ، وأبو قتادة ، وآخرون من الصحابة ، وخلائق من التابعين .

وكان معاذ رضى الله عنه أحد أربعة جمعوا القرآن الكريم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكلهم من الأنصار ، وهم معاذ بن جبل ، وأبى بن كعب

وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ومعاذ ابن جبل ، وأبي بن كعب .

وكان معاذ بن جبل أحد الأعلام الذين يفتون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم ثلاثة من المهاجرين : عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وثلاثة من الأنصار : أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت ، رضوان الله على الجميع .

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ ابن جبل » : وقال : « نعم الرجل معاذ بن جبل » . وذات يوم كان معاذ ابن جبل مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فأخذ الرسول بيده وقال له : يا معاذ والله إنى لأحبك ، ثم قال له أيضاً : « أوصيك يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك ، وحسن عبادتك » . ومما يدل دلالة واضحة على مكانة معاذ فى الفقه والعلم أن النبى صلوات الله وسلامه عليه قد قال فيه : « معاذ بن جبل إمام العلماء يوم القيامة » ويا لها من شهادة عظيمة يقررها الرسول العظيم ، عليه الصلاة والتسليم .

وقد قال عبد الله بن مسعود فى حق معاذ بن جبل : إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ، ولم يكن من المشركين . فقال له بعضهم : إنما قال الله تعالى هذا فى حق إبراهيم . فأعاد ابن مسعود قوله السابق ثم قال : إن الأمة هو الذى يعلم الخير ويؤتم به ، والقانت هو المطيع لله عز وجل ، وكذلك كان معاذ بن جبل معلماً للخير ، مطيعاً لله عز وجل ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم . وقال ابن مسعود فى هذا المقام : كنا نشبه معاذاً بإبراهيم عليه السلام .

ولقد اختبر الله عز شأنه معاذاً بالطاعون فتقبل ذلك راضياً صابراً ، وماتت له فى الطاعون امرأتان ، ومات ابنه عبد الرحمن كذلك ، ثم مات معاذ ، وكان يغمى عليه فى مرضه فإذا أفاق قال يناجى ربه : يا رب غمنى غمك فوعزتك إنك لتعلم أنى أحبك ، ولما حضرته الوفاة فى بلدة « عمواس » بالشام قال : مرحباً بالموت مرحباً . زائر حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، إنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

وكانت وفاته شهيداً بالطاعون سنة ١٨ للهجرة .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

عبد الله بن سلام

هو الصحابى الجليل أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث الأنصارى الخزرجى . وهو من سلالة يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام . وكان اسمه فى الجاهلية حصيناً فسماه النبى صلى الله عليه وسلم : عبد الله . وقد أسلم ابن سلام أول قدوم النبى عليه الصلاة والسلام المدينة ، ويروى أنه قد نزل فى شأنه قول الله تبارك وتعالى فى سورة « الرعد » :

(ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) فقد قيل إنها نزلت فى عبد الله بن سلام ، وهذا موضع نقاش وخلاف . وكذلك قيل إنه قد نزل فى شأنه قول الله تبارك وتعالى فى سورة الأحقاف : (قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين) وقد

ذكر ابن كثير فى تفسيره حديث مالك عن أبى النضر عن عامر بن السعد عن أبيه ، فيما رواه البخارى ومسلم والنسائى ، قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام رضى الله عنه ، وفيه نزلت : (وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله) .

وقد روى عبد الله بن سلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة وعشرين حديثاً ، وقد روى عنه ابناه محمد ويوسف ، وأبو هريرة ، وأنس وجماعات من التابعين .

ويقول عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس ، فكنت فيمن انجفل ، فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شىء سمعته يقول : « افشوا السلام ، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

ولما وقف أمام الرسول ليسلم قال : أشهد أنك رسول الله ، وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم فادعهم فسلهم عنى ، قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىّ ما ليس فىّ فدعا الرسول اليهود فسألهم أى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا ما شاء الله كان ليسلم . قال النبى يا ابن سلام اخرج عليهم ، فخرج عبد الله فقال : يا معشر اليهود ، اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق ، فقالوا كذبت ، فأخرجهم النبى صلى الله عليه وسلم من عنده .

وقد شهد ابن سلام فتح بيت المقدس والجابية مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان ابن سلام حريصاً على أن يفهم تفاصيل الدين من سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ولذلك كان يعاود سؤال الرسول عن دقائق الدين ، ومناقب ابن سلام كثيرة مشهورة ، وقد توفى سنة ٤٣ هـ بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه

* * *

عكاشة بن محصن

هو الصحابى الجليل : أبو محصن عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدى ، وهو من السابقين الأولين فى الإسلام ، وكان من سادات الصحابة وفضلائهم وهو يعد من أهل المدينة ، ويعد كذلك من أهل الهجرة إلى المدينة ، وهو من أمراء السرايا ، شهد غزوة بدر وأبلى فيها بلاء حسناً ، وانكسر سيفه فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم عوداً فانقلب فى يده سيفاً ، شديد المتن أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وكان من أجمل الرجال صورة ، وقد بشره الرسول عليه الصلاة والسلام بدخوله الجنة بغير حساب ، فقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم — كما فى صحيح البخارى وصحيح مسلم — أن سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب . فقام عكاشة بن محصن وقال : يا رسول الله ، ادعو الله أن يجعلنى منهم . فقال النبى : أنت منهم . ثم قام رجل آخر وقال : يا رسول الله ، ادعو الله أن يجعلنى منهم . فقال النبى : سبقك بها عكاشة . وقد توفى النبى عليه الصلاة والسلام وعمر عكاشة أربع وأربعون سنة .

وقد روى عن عكاشة أبوهريرة وابن عباس رضوان الله عليهما . وقد بعثه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى سرية إلى مكان يسمى «الغمر» ومعه أربعون رجلا ، فاستجابوا ولم يلقوا كيداً .

وقد ظل عكاشة يشهد المشاهد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، حتى نال نعمة الشهادة فى زمن أبى بكر رضى الله عنه ، روى أنه قد قتله طليحة بن خويلد ، وقيل : قتل شهيداً سنة اثنتى عشرة فى « بنواحة » فى خلافة أبى بكر . وقد أصيب جسمه بجراحات منكرة .

وقد ذكر ابن سعد فى كتابه « الطبقات الكبرى » قصة استشهاد عكاشة ابن محصن فقال : خرج خالد بن الوليد على الناس يعترضهم فى الردة ، فكلما سمع أذاناً للوقت كف ، وإن لم يسمع أذاناً أغار . فلما دنا خالد من طليحة وأصحابه ، بعث عكاشة بن محصن وثابت بن أقدم طليعة أمامه ، يأتيانه بالخبر ، وكانا فارسين ، عكاشة على فرس له يقال له « الرزام » ، وثابت على فرس يقال له المحبر ، فلقيا طليحة وأخاه مسلمة بن الخويلد ، طليعة لمن وراءهما من الناس ، فانفرد طليحة بعكاشة ، ومسلمة بثابت ، فلم يلبث مسلمة أن قتل ثابت بن أقرم ، فصرخ طليحة لمسلمة : أعنى على الرجل فإنه قاتلى . فكر مسلمة على عكاشة فقتلاه جميعاً ، ثم كرا راجعين إلى من وراءهما من الناس فأخبراهم ، فبصر عيينة بن حصن — وكان مع طليحة ، وكان قد خلفه على عسكره — وقال : هذا الظفر .

وأقبل خالد بن الوليد معه المسلمون ، فلم يرعهم إلا ثابت بن أقرم قتيلا تطوه المطى ، فعزم ذلك على المسلمين ، ثم لم يسيروا إلا يسيراً حتى وطئوا

عكاشة قتيلا . فثقل القوم على المطى ، كما وصفهم واصفهم حتى ما تكاد المطى ترفع أخفافها . رضوان الله على الجميع .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

عمرو بن العاص

هو الصحابى ، فاتح مصر وأميرها ، وأحد أمراء الجيوش : أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل القرشى السهمى ، أمه سلمة بنت حرملة ، أسلم سنة ثمان قبل فتح مكة مع خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة ، وقيل إنه أسلم عند النجاشى .

وقد جعله الرسول صلى الله عليه وسلم أميراً على سرية نحو الشام وقال له : «يا عمرو ، إنى أريد أن أبعثك فى جيش ، يسلمك الله ويغنمك ، وأرغب لك من المال رغبة صالحة» .

وجهه إلى « السلاسل » وهو ماء بأرض جذام من بلاد قضاعة ، داعياً إلى الإسلام فى ثلثمائة . وأمده الرسول عليه الصلاة والسلام بجيش من مائتى فارس من المهاجرين والأنصار ، وأهل الشرف ، فيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة . وولاه الرسول على عمان ، وولاه عمر على فلسطين والأردن ، ووجهه إلى مصر ففتحها ، وكذلك فتح عمرو بن العاص قنسرين ، وصالح أهل حلب ومنبج وأنطاكية .

وعمرو هو أحد الدهاة المقدمين فى الرأى والمكر والدهاء ، ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدنيه ويقربه لمعرفته وشجاعته .

وعمرو بن العاص روى له عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه تسعة وثلاثون حديثاً .

وقد روى عنه ولداه عبد الله ومحمد ، وقيس بعد أبي حازم ، وأبو سلمة ابن أبي عبد الرحمن ، وأبو قيس مولى عمرو ، وعبد الرحمن بن شماسة ، وأبو عثمان الفهدى ، وقبيصة بن ذوئيب وآخرون .

وكان عمرو بن العاص شاعراً حسن الشعر ، حفظوا عنه الكثير فى مواطن شتى ، ومن شعره :

إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه	ولم ينه قلباً غاوياً حيث يمما
قضى وطراً منه وغادر سبة	إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

ويروى لما حضرته وفاته قال : اللهم إنك أمرتنى فلم أأتمر ، وزجرتنى فلم أنزجر ، اللهم لا قوى فأنتصر ، ولا برىء فأعتذر ، ولا مستكبر بل مستغفر ، لا إله إلا أنت ، فلم يزل يكررها حتى مات .

روى ابن عبد البر فقال : دخل ابن عباس على عمرو بن العاص فى مرضه فسلم عليه وقال : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ قال : أصبحت وقد أصلحت من دنياى قليلا ، وأفسدت من دينى كثيراً ، فلو كان الذى أصلحت هو الذى أفسدت ، والذى أفسدت هو الذى أصلحت لفزت ، ولو كان ينفعنى أن أطلب طلبت ، ولو كان ينجينى أن أهرب هربت ، فصرت كالمنجنيق بين السماء والأرض ، لا أرقى بيدين ولا أهبط برجلين ، فعظنى بعظة أنتفع بها يا ابن أخى . فقال له ابن عباس : هيهات يا أبا عبد الله ، صار ابن أخيك أخاك . ولا تشاء أن تبكى إلا بكيت ، كيف يؤمر برحيل

من هو مقيم . قال عمرو : اللهم إن ابن عباس يقنطنى من رحمتك ، فخذ منى حتى ترضى . مات سنة ثلاث وأربعين . وعمره تسعون سنة .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه

* * *

عمار بن ياسر

هو الصحابى أبو اليقظان : عمار بن ياسر بن عامر الشامى الدمشقى ، كان من السابقين إلى الإسلام ، وكان هو وأبوه وأمه سمية ممن أسلم أولا . وكان إسلام عمار وصهيب بن سنان فى وقت واحد ، حين كان النبى صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم . وأسلم عمار بعد بضعة وثلاثين رجلا ، وهو ممن نالهم العذاب الشديد فى سبيل الله عز وجل . وأمه سمية هى أول شهيدة فى الإسلام .

وعن مجاهد : أول من أظهر إسلامه سبعة : رسول الله وأبو بكر وبلال وخباب وصهيب وعمار وأمه سمية . وكان عمار وأبوه وأمه يعذبون فى الله تعالى على إسلامهم ، ويمر بهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول : صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة .

هاجر عمار بن ياسر مع النبي إلى المدينة المنورة، وشهد غزوات: بدر ، وأحد ، والخندق ، وبيعة الرضوان ، وجميع المشاهد ، وقيل إنه هاجر أيضاً إلى الحبشة ، وهذا موضع خلاف بين الرواة .

وعمار هو أول من بنى مسجداً لله تعالى فى الإسلام ، بنى مسجد قباء . وقد نزل فى عمار قول الله تبارك وتعالى فى سورة النحل : (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان . ولكن من شرح بالكفر

صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) . فقد أخذه المشركون فعذبوه ، ولم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر آلهتهم بالخير ثم تركوه . فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له النبي : ما وراءك ؟ قال عمار : شر يا رسول الله ، ما تركت حتى نلت منك ، وذكرت آلهتهم بالخير . قال النبي : كيف تجد قلبك ؟ قال عمار : مطمئناً بالإيمان . قال النبي : فإن عادوا فعد لهم .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول عن عمار : مرحباً بالطيب المطيَّب. وكذلك قال الرسول فى شأنه : ما خيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما . وقد روى الترمذى الحديث التالى :

« لا أدرى ما قدر بقائى فيكم ، فاقتدوا بالذين من بعدى — وأشار إلى أبى بكر وعمر — واهتدوا بهدى عمار ، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه » .

وقد استعمله عمر على مدينة الكوفة . وقد روى لعمار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنان وستون حديثاً . وقد روى عنه من الصحابة رضوان الله عليهم : على وابن عباس وأبو موسى وأبو أمامة وجابر وعبد الله بن جعفر وغيرهم . وروى عنه من التابعين : ابن المسيب وابن الحنفية وأبو وائل وابنه محمد بن عمار وآخرون .

وقد شهد عمار بن ياسر معركة اليمامة فى عهد أبى بكر الصديق ، فأشرف على صخرة ونادى قائلا : يا معشر المسلمين ، أمن الجنة تفرون ؟ إلىّ إلىّ ، أنا عمار بن ياسر ، وقتل شهيداً فى معركة صفين فى ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وأوصى أن يدفن بثيابه ، فدفنه علىّ بثيابه

ولم يغسله . وكان الرسول قد قال فيه : « ويح عمار تقتله الفئة الباغية » فكان الصحابة يتبعونه لعلمهم أنه مع الفئة العادلة .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

عمران بن الحصين

هو الصحابى أبو نجيد عمران بن الحصين بن عبيد بن خلف الخزاعى البصرى ، أسلم قديماً هو وأبوه وأخته ، وقيل أسلم هو وأبو هريرة عام غزوة خيبر ، سنة سبع للهجرة ، وكان من فضلاء الصحابة ، وكان مجاب الدعوة . وقيل إن والده الحصين أسلم وله صحبة ، روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لحصين : كم تعبد اليوم إلهاً ؟ قال الحصين : سبعة ، ستة فى الأرض ، وواحد فى السماء . قال له النبى : فأيهم تعده لرغبتك ورهبتك ؟ قال الحصين : الذى فى السماء ، قال النبى : يا حصين أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك . فلما أسلم الحصين قال : يا رسول الله علمنى الكلمتين اللتين وعدتنى . فقال له النبى : قل اللهم ألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى .

وقد غزا عمران بن الحصين غزوات مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وروى له عن النبى مائة وثمانون حديثاً ، وقد روى عنه أبو رجاء العطارى ، ومطرف بن عبد الله ، وزرارة بن أوفى ، وعبد الله بن بريدة ، وابن سيرين والحسن والشعبى وأبو الأسود الدؤلى وآخرون .

وروى أن عمران بن الحصين لم يزل فى بلاد قومه ، وينزل المدينة كثيراً إلى أن قبض النبى صلى الله عليه وسلم ، ومصرت البصرة فتحول إليها فنزلها

إلى أن مات فيها . وروى أن عمر بن الخطاب بعثه إلى البصرة ليفقه أهلها ، ويروى أن عبد الله بن عامر جعله قاضياً على البصرة . فظل أياماً ثم طلب من عبد الله أن يعفيه من ذلك فأعفاه . وكان الحسن البصرى يحلف بالله تعالى ما قدم البصرة راكب خير لهم من عمران .

ولقد روى أن عمران قضى على رجل بقضية فقال له الرجل : والله لقد قضيت علىّ بجور وما ألوت . قال عمران وكيف ذلك؟ فقال الرجل شُهد علىّ بزور . فقال عمران ما قضيت عليك فهو فى مالى ، والله لا أجلس مجلسى هذا أبداً .

وكان عمران بن الحصين يلبس الخز ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

ولقد اشتد المرض بعمران بن الحصين ، فدخل عليه رجل ليعوده ، فقال : يا أبا نجيد ، والله إنه ليمنعنى من عيادتك ما أرى بك ، فقال عمران يا ابن أخى ، فلا تجلس فوالله إن أحب ذلك إلىّ أحبه إلى الله عز وجل .

أى إنه راض كل الرضا بقضاء الله وقدره ، فكل ما يريده الله له فهو راض به ، فتقبل له تقبل الإنسان للشىء المحبوب إليه .

وقد أوصى عمران بألا يحدث عليه أحد صراخاً عند موته وأن يجعل ارتفاع قبره أربع أصابع أو نحو ذلك .

وقد توفى رضى الله تبارك وتعالى عنه بالبصرة سنة ثنتين وخمسين للهجرة .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه

* * *

عوف بن مالك

هو الصحابى أبو عبد الرحمن : عوف بن مالك بن أبى عوف الأشجعى الغطفانى من الشجعان الرؤساء . أول مشاهده مع النبى صلى الله عليه وسلم غزوة خيبر ، وشهد معه فتح مكة ، وكانت معه راية أشجع ، وقد آخى رسول الله عليه الصلاة والسلام بينه وبين أبى الدرداء ، وقد نزل عوف الشام وسكن دمشق ، ونزل حمص أيضاً ، وكان من المعمرين .

وقد روى له عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه سبع وستون حديثاً . وروى عنه من الصحابة أبو أيوب الأنصارى والمقدام بن معد يكرب ، وأبو هريرة .

وروى عنه من التابعين جماعات ، منهم أبو مسلم الخولانى ، وجبير ابن نضير ، وأبو إدريس الخولانى ، ومسلم بن قرضة ، وشداد أبو عمار ، وراشد بن سعد ، ويزيد بن الأصم ، وسليم بن عامر ، وسالم أبو النضر ، وأبو بردة بن أبى موسى ، وشريح بن عبيدة ، وضمرة بن حبيب ، وكثير ابن مرة وخلق سواهم .

وكان عوف بن مالك غيوراً على حرمات المسلمين ، صارماً فى مناصرة الحق ، وقد روى أبو عبيد فى كتابه « الأموال » — كما ذكر ابن حجر فى الإصابة — عن سويد بن غفلة أنه لما قدم عمر بن الخطاب إلى الشام ، شكى إليه رجل من أهل الكتاب ، فقال إن رجلا من المسلمين قد ضربه وشجه فى وجهه ، فغضب عمر غضباً شديداً ، وقال لصهيب انطلق فانظر من صاحبه — المعتدى عليه — فأتنى به . فبحث صهيب عن الضارب للرجل فإذا هو

عوف بن مالك ، فقال صهيب لعوف : إن أمير المؤمنين قد غضب عليك غضباً شديداً ، فاذهب إلى معاذ بن جبل ، ليكلم الخليفة عمر ، فإنى أخاف أن يعجل عليك – أى يقسو عليك – فلما انتهى عمر من الصلاة قال لصهيب : أجئتنى بالرجل ؟ قال صهيب : نعم .

وهنا قام معاذ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه عوف بن مالك ، فاسمع منه ولا تعجل عليه . فأحضر عمر عوف بن مالك وسأله عن الرجل المضروب قائلا : مالك ولهذا ؟

فردّ عوف قائلا : إنى رأيت هذا الرجل يسوق حماراً عليه امرأة مسلمة فنخس الحمار لتقع المرأة وتصرع ، ولكنها لم تقع ، فدفعها بيديه ، فوقعت وصرعت ، فأكب عليها وغشيها – هتك عرضها – .

وأراد عمر أن يستوثق من هذه الجريمة البشعة ، فقال : فلتأتنى المرأة فلتصدق ما قلت . وذهب عوف إلى أهل المرأة لتذكر ما حدث ليصدق عمر الحادثة . وهناك لقيه أبوها وزوجها . فقالا لعوف مستنكرين : ما أردت إلى هذا ؟ لقد فضحتنا .

ولكن المرأة قالت والله لأذهبن معه لأصدقه – فقال أبوها وزوجها : فنحن نذهب عنك . وأتيا عمر ، فأخبراه بصدق ما قاله عوف ، فأمر عمر بالرجل المجرم فصلب ، وقال : ما على هذا صالحناكم . قال الراوى فذلك أول مصلوب رأيته فى الإسلام.توفى عوف بن مالك بدمشق سنةثلاث وسبعين للهجرة .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

فضالة بن عبيد

هو الصحابى أبو محمد فضالة بن عبيد بن نافذ الأنصارى الأوسى العمرى أمه عقبة بنت محمد بن عقبة بن الجلاح الأنصارية . كان من فضلاء الصحابة وأعلامهم .

أسلم فضالة قديماً ، ولم يشهد غزوة بدر ، وكان أول مشاهده هى غزوة أحد ، فقد شهدها وشهد ما بعدها من الغزوات ، كما شهد بيعة الرضوان ، وشهد الفتح الإسلامى لمصر .

وقد سكن فضالة بن عبيد دمشق ، وولى قضاءها لمعاوية ، وجعله أميراً على غزو الروم فى البحر .

وقد روى لفضالة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسون حديثاً .

وروى عنه ثمامة بن سعد ، وعلى بن رباح ، وحنش الصنعانى ، ومسلمة ابن صالح ، وعمرو بن مالك ، وعبد الله بن محيرز ، وآخرون .

ويروى أن معاوية بن أبى سفيان حينما عين فضالة لقضاء دمشق بعد أبى الدرداء قال له : لم أحبك بها ، ولكن استترت بك من النار فاستتر ، ويروى التاريخ فيما يروى أنه لما حضرت الوفاة أبا الدرداء قال له معاوية ابن أبى سفيان : من تراه يصلح لهذا الأمر ؟ يعنى قضاء دمشق . فقال له أبو الدرداء : فضالة بن عبيد . فلما مات أبو الدرداء أرسل معاوية إلى فضالة فولاه القضاء ، وقال له : أما إنى لم أحبك بها . ولكنى استترت بك من النار فاستتر .

وهو يعنى أنه حين اختار فضالة للقضاء لم يختره لمجاملة أو لمحاباة،أو لأى

غرض من أغراض الدنيا ، بل اختاره لأنه يعتقد فيه الصلاح ، ويثق بعدله وإنصافه ، فهو قد جعل تعيينه وقاية له من النار ، لأن الله تبارك وتعالى سيجزيه خيراً ، ويحفظه من العذاب ، لأنه أحسن إلى الإسلام والمسلمين ، حينما اختار لولاية القضاء فى دمشق فضالة بن عبيد رضوان الله عليه .

وقد يدل على ذلك أنه لما مات فضالة حرص معاوية على أن يشترك فى جنازته ، وحمل نعشه بنفسه ، وقال لابنه : أعنى يا بنى ، فإنك لا تحمل بعده مثله .

وهى عبارة تدل على مكانة فضالة ومنزلته أقوى الدلالة .

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

* * *

قيس بن سعد بن عبادة

هو الصحابى بن الصحابى أبو الفضل قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى الساعدى المدنى . أمه فكيهة بنت عبيد بن وُليم .

وكان قيس ضخماً حسناً طويلا . وهو كما قالوا عنه صحابى ابن صحابى ، جواد ابن جواد .

وأخبار جوده كثيرة مشهورة ، ومنها أنه كان فى سرية فيها أبو بكر وعمر ، فكان يستدين ليطعم الناس ، فقالا : إن تركناه أهلك مال أبيه ، وهمّا بأن يمنعاه فسمع أبوه سعد بقصدها ، فذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : من يعذرنى منهما ؟ يبخلان علىّ ابنى . وقديماً قال المثل إن هذا الشبل من ذاك الأسد .

ولقد كان قيس بن سعد بن عبادة من فضلاء الصحابة ، وأحد دهاة العرب ، وكان من أصحاب الرأى الصائب ، والمكيدة فى الحرب ، مع النجدة والشجاعة ، وكان شريف قومه غير مدافع ، ومن بيت السيادة فيهم .

وكان قيس بن سعد يحمل راية الأنصار مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى أن النبي أخذ الراية يوم فتح مكة من أبيه سعد ودفعها إليه .

وقد روى لقيس بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة عشر حديثاً . وقد روى عن أبيه سعد بن عبادة . وروى عنه أنس ، وثعلبة بن أبى مالك ، وأبو ميسرة ، وعبد الرحمن بن أبى ليلى ، والشعبى ، وعمر ابن شرحبيل ، وأبو عمار عريب بن الحميد الهمدانى ، وآخرون .

وقد شهد قيس بن سعد فتح مصر واختار له بها داراً . ولما تولى علىّ الخلافة صحبه قيس فى خلافته ، وكان معه فى حروبه ، واستعمله على مصر .

وفى صحيح الإمام البخارى أن قيس بن سعد كان بين يدى النبي بمنزلة الشرطى من الأمير . [يعنى أنه كان يلى أموره ويرعى شئونه ويخدمه] . وإن ذلك لشرف عظيم لقيس بن سعد .

ومما يدل على ذكاء قيس وسعة حيلته ، وبعد تدبيره ، وعمق دهائه أنه يقول فيما يقول : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المكر والخديعة فى النار » لكنت من أمكر هذه الأمة . فهو لا يمنعه من دقة الاحتيال وعمق الاصطناع إلا خوفه من أن يتعرض بسبب ذلك لعذاب الله عز وجل .

وكان قيس بن سعد بن عبادة يدعو ربه تبارك وتعالى فيقول : « اللهم ارزقنى مالا ، فإنه لا يصلح الفعال إلا بالمال » فهو لا يريد المال ليكنزه

أو ليبخل به ، وإنما يرجوه من ربه ليستطيع عن طريقه صنع المحامد وفعل المكارم . وتوفى رضى الله عنه سنة ستين .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

أبو هريرة

هو الصحابى أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسى ، وفى اسمه اختلاف واسع . قيل كان اسمه فى الجاهلية عبد شمس ، وسماه الرسول صلى الله عليه وسلم فى الإسلام عبد الرحمن . وكنيته أبو هريرة ، لأنه وجد وهو صغير قطة صغيرة . فحملها فى كمه فسماه الناس أبا هريرة .

وهو صاحب رسول الله عليه الصلاة والسلام وأكثرهم رواية عنه ، قال الإمام الشافعى : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى عصره . أسلم أبو هريرة عام غزوة خيبر ، وشهد الغزوة مع النبى ، ثم لازمه وواظب عليه ، رغبة فى العلم فدعا له النبى صلوات الله وسلامه عليه .

وقد أسلمت أم أبى هريرة ، وقد روى صحيح مسلم قصة إسلامها ، وفيها أن أبا هريرة قال للرسول صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، ادع الله أن يحببنى أنا وأمى إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : اللهم حبب عبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحبب إليهما المؤمنين ، فما خلق الله مؤمناً يسمع بى ولا يرانى إلا أحبنى .

وكان أبو هريرة كثير التحديث وهو يروى أنه كان ذات يوم مع الرسول فقال له: يا رسول الله أسمع منك أشياء فلا أحفظها . فقال له ابسط رداءك ، فبسطه ، فحدثه النبي حديثاً كثيراً فما نسى شيئاً حدثه به النبي صلى الله عليه وسلم .وعن الأعرج قال: سمعت أبا هريرة يقول : إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله الموعد ، كنت رجلا مسكيناً أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطنى ، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يبسط ثوبه فلن ينسى شيئاً سمعه منى . فبسطت ثوبى حتى قضى حديثه ، ثم ضممته إلى ، فما نسيت شيئاً سمعته بعد .

وقد روى عن أبى هريرة أكثر من ثمانمائة رجل ، من صحابى وتابعى ، روى عنه من الصحابة عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك ووائلة بن الأصقع رضوان الله عليهم أجمعين . وكان أبو هريرة من أهل الصفة ، وقد تحدثت فى المجلدين الثانى والثالث من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » عن أهل الصفة فذكرت هناك أن « الصفة » هى اسم المكان الذى يوجد فى شمالى المسجد النبوى فى المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وكان ينزل فى هذا المكان المهاجرون الفقراء الذين لا تتهيأ لهم أمكنة أخرى ينزلون فيها ، وقد اختلف عددهم قلة وكثرة . فقد بلغوا فى بعض الأحيان سبعين صحابياً ويقول عنهم الإمام ابن تيمية إنهم كانوا من أعظم الناس جهاداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد أشار إليهم القرآن الكريم فى قول الله تبارك وتعالى : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون) . كما أشارت إليهم الآية

الكريمة : (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) .

وقد توفى أبو هريرة فى المدينة سنة سبع وخمسين للهجرة .
رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

أبو ذر الغفارى

هو الصحابى الجليل أبو ذر جندب بن جنادة بن سفيان الغفارى الحجازى ، من قبيلة بنى غفار التى قال فيها الرسول عليه الصلاة والسلام : « غفار غفر الله لها » . وأمه هى رملة بنت الرفيقة .

أسلم أبو ذر بعد أربعة كان خامسهم ، وكان من كبار الصحابة ، ويضرب به المثل فى الصدق ، حتى قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام : « ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء رجلا أصدق لهجة من أبى ذر » .

ويقول أبو ذر نفسه : مازال بى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى ما ترك لى الحق صديقاً .

وكان أبو ذر رضى الله عنه قوّالا بالحق جاهراً بالصدق ، زاهداً متقللا من الدنيا ، وكان مذهبه أنه يحرم على الإنسان ادخار مازاد على حاجته . وكان كلما عرضوا عليه الدنيا أباها ، وقال لا حاجة لى فى دنياكم ، وهو أول من حيا رسول الله بتحية الإسلام ، ويقول : لقد صليت يابن أخى

قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين . فقيل له : لمن ؟ قال : لله . قيل : فأين تتوجه ؟ قال : أتوجه حيث يوجهني الله .

وحينما كتب الله له نعمة السبق إلى الإسلام قدم إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى أول الإسلام فقال : يارسول الله ، من اتبعك على هذا الدين ؟ قال : حر وعبد . وأقام أبو ذر فى مكة ثلاثين يوماً ثم أسلم . ولما أعلن إسلامه أقسم ألا يرجع إلى بلده حتى يعلن إسلامه بين المشركين فى مكة ، فذهب إلى جوار الكعبة وجعل ينادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فأقبل عليه المشركون يضربونه حتى صرع مرات . ولما أمره الرسول بالعودة إلى قومه قال له : هل أنت مبلغ عنى قومك عسى الله أن ينفعهم بك بأجرك فيهم ، ولما هاجر النبى إلى المدينة هاجر أبو ذر إليها ، وصحب رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى لحق النبى بربه .

وقد روى أبو ذر عن رسول الله مائتين وواحداً وثمانين حديثاً . وقد روى عنه عبد الله بن عباس ، وأنس بن مالك ، وعبد الرحمن بن غنم ، وزيد بن وهب ، والمعرور بن سويد ، والأحنف بن قيس ، وقيس ابن عباد ، ويزيد بن شريك التيمى وخلق سواهم .

ومن كلام أبى ذر : « أوصانى خليلى بسبع : أمرنى بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرنى أن أنظر إلى من هو دونى ، ولا أنظر إلى من هو فوق ، وأمرنى ألا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرنى أن أصل الرحم وإن أدبرت ، وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مراً ، وأمرنى ألا أخاف فى الله لومة لائم ، وأمرنى أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فإنهن من كنز تحت العرش » .

ولقد هاجر أبو ذر بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام إلى بادية الشام ، فأقام فيها إلى أن توفى أبو بكر وعمر ، وتولى عثمان فسكن أبو ذر دمشق ، وأخذ يبشر بدعوته التى ينتصر فيها للفقراء ، ويقاوم الكانزين ، ويتمثل بقول الله تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يُحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) ، وكان معاوية ابن أبى سفيان والياً للشام حينئذ ، فشكى أبا ذر إلى الخليفة عثمان ، فاستقدمه إلى المدينة ، ولكن أبا ذر استأنف نشر دعوته لحمل الأغنياء على دفع أموالهم الزائدة إلى الفقراء ، فأمره عثمان بالخروج إلى الربذة وهى قرية قرب المدينة المنورة .

وخرج الإمام على لوداعه وهو خارج وقال له : « يا أبا ذر ، إنك غضبت لله فارج من غضبت له إن القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك ، فاترك فى أيديهم ماخافوك عليه ، واهرب بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عما منعوك ، وستعلم من الرابح غداً والأكثر حسداً . ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً ، لا يؤنسنك إلا الحق ، ولا يوحشنك إلا الباطل ، فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو قرضت منها لأمنوك » .

وكان أبو ذر لا يخزن من المال قليلا ولا كثيراً ، ولما مات لم يكن يملك ما يكفن به . وتوفى أبو ذر فى الربذة سنة ثنتين وثلاثين للهجرة ، وصلى عليه ابن مسعود ، وعقب الصلاة بكى وقال كأنه يخاطب أبا ذر : « صدق رسول الله تمشى وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك » .

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

* * *

زيد بن ثابت

هو كاتب الوحى أبو سعيد زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصارى الخزرجى النجارى المدنى الصحابى ، كان من كبار الصحابة وأعلمهم ، ومن الراسخين فى العلم ،ولذلك يقول عنه النبى صلى الله عليه وسلم : « أفرضكم زيد » أى أعلمكم بعلم الفرائض وهو علم المواريث . وأمه هى النوار بنت مالك . وقد ولد زيد فى المدينة ونشأ فى مكة ، وهاجر مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى الحادية عشرة من عمره ، وقد قتل أبوه وهو ابن ست سنوات ، واستصغره الرسول فى غزوة بدر فأمره بالرجوع ، وكان زيد ينقل التراب مع المسلمين وهو صغير فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : نعم الغلام .

شهد زيد غزوة أحد والخندق وسائر المشاهد مع النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وأعطاه النبى راية بنى النجار يوم تبوك ، وقال : « القرآن مقدم ، وزيد أكثر أخذاً للقرآن » .

وكان زيد يكتب الوحى للنبى ، ويكتب له أيضاً المراسلات إلى الناس ، وكان أحد الثلاثة الذين جمعوا القرآن وحفظوه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم من الأنصار . وعرضه على النبى ، وهو الذى كتب المصحف لأبى بكر ثم لعثمان . وكانت ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب باللغة السريانية فأمر النبى زيداً بتعلم هذه اللغة ، وكتب بعد النبى لأبى بكر وعمر .

وقد تعلم زيد وتفقه ، وكان علماً فى الفتوى والقضاء ، والمواريث والقراءة . وكان ابن عباس مع جلالة قدره وعلو شأنه وسعة علمه يذهب إلى بيت زيد ليأخذ عنه ويقول : العلم يؤتى ولا يأتى . ولقد أخذ ابن عباس

بركاب زيد وهو على دابته ، فنهاه زيد عن ذلك ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا . فأخذ زيد بكف ابن عباس وقبلها وقال : وهكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم .

ولقد جاء فى الصحيحين اثنان وتسعون حديثاً رواهما زيد بن ثابت ، وقد روى عنه جماعات من الصحابة ، روى عنه عبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن عباس ، وأبو هريرة ، وأنس بن مالك ، وسهل بن حنيف ، وسهل ابن أبي حثمة ، وأبو سعيد الخدرى ، وسهل بن سعد .

وروى عنه من كبار التابعين سعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ، وأبان بن عثمان ، وقبيصة بن ذؤيب ، وسليمان بن زيد ، وخارجة بن قبيصة ، وآخرون غيرهم .

وكان زيد بن ثابت من أفكه الناس وأظرفهم إذا خلا مع أهله ، وأوقرهم إذا كان فى القوم .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا حج يستخلف زيداً عنه ، وكذلك كان عثمان رضى الله عنه إذا حج يستخلف زيداً ، وولاه عثمان على بيت المـــال فى عهده . وكان زيد بن ثابت يظهر فضل الإمام علىّ ويعظمه .

وقد روى ابن عبد ربه فى كتاب « العقد الفريد » ماجاء عن أنس قال :

تفاخرت الأوس والخزرج ، فقالت الأوس منا غسيل الملائكة حنظلة الراهب ، ومنا عاصم بن الأفلح الذى حمت لحمه الدبر ، ومنا ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت ، ومنا الذى اهتز لموته العرش سعد بن معاذ .

وقالت الخزرج : منا أربعة قرءوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقرؤه غيرهم : زيد بن ثابت ، وأبو زيد ، ومعاذ بن جبل ،

وأبي بن كعب سيد القراء ، ومنا الذى أيده الله بروح القدس فى شعره حسان بن ثابت .

وقد لحق زيد بن ثابت بربه سنة خمس وأربعين للهجرة ، وقال عنه أبو هريرة : اليوم مات حبر هذه الأمة ، وعسى الله أن يجعل فى ابن عباس منه خلفاً . وقال عمار بن أبي عمار : لمـــا مات زيد بن ثابت جلسنا إلى ابن عباس فقال : هذا ذهاب العلماء ، دفن اليوم علم كثير . وفى رواية أنه لمـــا دفن زيد فى قبره قال ابن عباس : من سره أن يرى كيف يقبض العلم فهكذا يقبض .

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

* * *

عبد الله بن عباس

هو الصحابى ابن الصحابى ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحبر الأمة والبحر لكثرة علمه : أبو العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن هاشم المكى الهاشمى . أمه لبابة بنت الحارث الهلالية . ولد ابن عباس قبل الهجرة بثلاث سنوات . وتوفى الرسول عليه الصلاة والسلام وابن عباس سنه ثلاث عشرة سنة . وقد دعا الرسول له بالحكمة وحنكه بريقه حين ولد والرسول والمسلمون محاصرون فى الشعب بمكة .

وقد ضم النبى ابن عباس إلى صدره وقال : اللهم علمه الكتابة . وفى رواية للبخارى اللهم علمه الحكمة . وقال عبد الله بن مسعود نعم ترجمان القرآن ابن عباس .

وكانت الرحال تشد إلى ابن عباس ويقصده الناس من جميع الأقطار ، وكان عمر يعظمه ويعتد به ، ويقدمه مع حداثة سنه ، ومع ذلك عاش ابن عباس بعد عمر نحو سبع وأربعين سنة يقصد ويستفتى ويعتمد . وهو أحد العبادلة الأربعة : ابن عمر وابن عباس وابن زبير وابن عمرو بن العاص .

وقد روى عبد الله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ستين وستمائة وألف حديث . وهو أحد الست من الصحابة ، الذين هم أكثرهم رواية عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وهم أبو هريرة ثم ابن عمر ثم جابر وابن عباس وأنس وعائشة . وقد روى الحديث عن ابن عباس ابن عمر وأنس وأبو الطفيل وأبو أمامة بن سهل ، وروى عنه خلائق لا يحصون من التابعين . وهو أكثر الصحابة فتوى .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : ما رايت أحداً أعلم من ابن عباس بما سبقه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقضاء أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، ولا أفقه منه ، ولا أعلم بتفسير القرآن وبالعربية والشعر والحساب والفرائض وكان ابن عباس يجلس يوماً للفقه ، ويوماً للتأويل ، ويوماً للمغازى ، ويوماً للشعر ، ويوماً لأيام العرب ، وما رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له ، ولا سائلا سأله إلا وجد عنده علماً . وهذا سفيان بن عيينة يقول : كان الناس ثلاثة ، ابن عباس فى زمانه ، والشعبي فى زمانه ، وسفيان الثورى فى زمانه .

وقد استعمله الإمام علىّ رضى الله عنه وكرم الله وجهه على البصرة ، ثم فارقها قبل مقتل على وعاد إلى الحجاز .

وكان ابن عباس جميل الصورة يقول عطاء : ما رأيت القمر ليلة أربع عشرة إلا ذكرت وجه ابن عباس . وكان لموضع الدمع من خدى

ابن عباس أثر لكثرة بكائه ، وقد كف بصره فى آخر عمره . وتوفى بالطائف سنة ثمان وستين ، وصلى عليه محمد بن الحنفية وقال : اليوم مات ربانى هذه الأمة . ولما دفن ابن عباس سمعوا صوتاً لا يرون شخص صاحبه يرتل (يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

عبد الله بن عمرو بن العاص

هو الصحابى ابن الصحابى ، العابد الزاهد أبو محمد عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمى ، أمه ريطة بنت منبه بن الحجاج ، وقد أسلمت ، ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى أسرة ابن عمرو : « نعم أهل البيت عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله» . وقد أسلم عبد الله بن عمرو قبل أبيه ، وكان كثير العلم ظاهر التقوى مجتهداً فى العبادة ، كثير الترتيل للقرآن ، وكان أكثر الناس أخذاً للحديث والعلم عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : ما كان أحد أكثر حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منى إلا عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب وأنا لا أكتب .

وقد روى له عن سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام سبع مائة حديث ، وإنما قلت الرواية عنه لأنه سكن مصر ، وكان الواردون إليها قليلا ، بخلاف أبى هريرة فإنه سكن المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . وهى مقصد المسلمين من كل جهة ، من جميع الأقطار

والأمصار . ولقد قال عبد الله بن عمرو رضى الله عنه : حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل . وهذا يشير إلى ضخامة ما تلقاه عبد الله عن سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وقد روى عن عبد الله بن عمرو جماعة كبيرة منهم سعيد بن المسيب وعروة وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وحميد بن عبد الرحمن ، ومسروق ، وخلائق من التابعين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ولقد قال عبد الله بن عمرو : لخير أعمله اليوم أحب إلىّ من مثليه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأننا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تهمنا الآخرة ولا تهمنا الدنيا ، وإننا اليوم مالت بنا الدنيا . وهو يقصد بذلك أن المجتمع الذى كان حول سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام كان مجتمع خير وبر وإحسان ، وكان من السهل الميسور على الإنسان أن يعمل الخير ويسعى فى سبيله ، لأن الناس كانوا يتعاونون على البر والتقوى ولا يتعاونون على الإثم والعدوان . ولكنه صار إلى مجتمع قد تغلبت فيه نوازع الدنيا على نوازع الآخرة ، فمن يعمل خيراً ولو كان قليلا يعتبر محسناً سباقاً لأنه يعيش فى مجتمع لا يجد فيه أعواناً كثيرين على الخير والإحسان .

ومع تقوى عبد الله بن عمرو وعبادته وتهجده أدى نصيبه من الجهاد فى سبيل الله فهو قد خرج إلى الميدان مقاتلا لتكون كلمة الله هى العليا ، وقد شهد عبد الله مع أبيه عمرو بن العاص فتح الشام باسم الإسلام ، وكذلك كانت معه راية أبيه فى معركة اليرموك المشهورة .

وقد ظل عبد الله بن عمرو بن العاص صالحاً تقياً نقياً ، حتى شاب

فى الإسلام شيبة مباركة ، وزاد عمره على السبعين من السنوات ، ثم جاءه أجله وهو فى مصر حيث كان يقيم بها سنة ثلاث وستين للهجرة .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

عبد الله بن عمر بن الخطاب

هو الصحابى الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب القريشى العدوى المدنى العابد الزاهد ، أمه زينب بنت مظعون . أسلم قبل بلوغه وإسلام أبيه وهاجر قبل أبيه . عرض على النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد وكان عمره أربع عشرة سنة فاستصغره النبى ورده ، وشهد غزوة الخندق وما بعدها مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وشهد غزوة مؤتة ومعركة اليرموك وفتح مصر وفتح أفريقية . وقد قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى ابن عمر : « نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل » فكان عبد الله بعد ذلك لاينام من الليل إلا قليلا .

وكان ابن عمر شديد الاقتداء بالسنة والاتباع لآثار النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى إنه ينزل كل منزل نزله الرسول ، ويصلى فى كل مكان صلى فيه ، ويبرك ناقته فى مبرك ناقته ، ورووا أن النبى نزل تحت شجرة ليستظل بها فكان ابن عمر يتعاهدها بالمـــاء حتى لا تيبس .

وقد روى عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ألفاً وستمائة وثلاثين

حديثاً ، وقد روى عنه أولاده الأربعة سالم وحمزة وعبد الله وبلال ، وخلائق لا يحصون من التابعين وغيرهم.

وقد قل نظير ابن عمر فى المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل شيء من الأفعال والأقوال ، وفى الزهادة للدنيا ومقاصدها ، والزهادة فى التطلع إلى الرياسة وغيرها . وقد قال الصحابى جابر بن عبد الله رضى الله عنه لم يكن أحد من الصحابة ألزم لطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أتبع من ابن عمر .

وقد قال الزهرى : لا يعدل برأى ابن عمر فإنه أقام بعد رسول الله ستين سنة ، فلم يخف عليه شيء من أمره ، ولا من أمر الصحابة . وقد أكد مالك هذا بقوله : أقام ابن عمر ستين سنة تقدم عليه وفود الناس .

ومناقب عبد الله بن عمر كثيرة مشهورة ، وحسبنا أن نسمع إمام الأنبياء وهو الصادق المصدوق يقول عن ابن عمر : إن عبد الله رجل صالح . وكان ابن عمر رجلا كريماً سخياً كثير الصدقة ، وربما تصدق فى المجلس الواحد بثلاثين ألفاً ، وكان إذا اشتد إعجابه بشيء من ماله تقرب إلى الله تعالى به ، وكان ابن عمر كذلك كثير الحج إلى بيت الله الحرام تقرباً من ربه تبارك وتعالى ، وكان أيضاً يكثر الصوم ، حتى إنه يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان من عادته إذا قرأ قول الله تبارك وتعالى فى سورة الحديد : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) يبكى حتى يغلبه البكاء خوفاً وخشية ، وتأثراً بكلام الله العلى القدير .

وكان ابن عمر حسن التوجيه إلى حسن الفعال وفضائل الخصال من أقرب الطرق وأيسر السبل ، ولذلك كان يقول للناس : « البر شيء هين : وجه طلق ، وكلام لين » .

وقد توفى ابن عمر رضى الله عنه بمكة سنة ثلاث وسبعين ، ودفن بالمحصب .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

عائشة أم المؤمنين

هى الصادقة الصديقة بنت الصديق ، أم المؤمنين ، وحبيبة حبيب الله رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزوجته فى الدنيا والآخرة : السيدة أم عبدالله عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها وأرضاها ؛ وأمها هى أم رومان بنت عامر ، أسلمت قبل الهجرة رضى الله عنها .

وقد أسلمت عائشة صغيرة بعد ثمانية عشر إنساناً ممن أسلم . وتزوجها رسول الله قبل الهجرة بسنة ونصف ، ودخل عليها بعد الهجرة ، بعد غزوة بدر ، فى شوال سنة ثنتين ، وروى أنه لمـــا أرسل النبى إحدى النساء لتخطب له عائشة ، قال أبوها : وهل تصلح له وهى بنت أخيه ؟ فلما علم النبى بذلك قال : قولى له أنت أخى فى الإسلام ، وابنتك تحل لى . فتزوجها .

وكانت عائشة تفخر بأشياء تفضل الله بها عليها دون سواها : منها أن جبريل عليه السلام جاء النبى بصورتها فى قطعة من حرير ، وقال له :

هذه زوجتك فتزوجها ، أى أن الله هو الذى زوجها له ، وأن النبى لم يتزوج بكراً سواها ، وأنه قبض وهو فى حجرها ، وأنه دفن فى بيتها ، وأن الوحى كان ينزل على الرسول وهو فى لحافها ، وأن براءتها من الإفك نزلت من السماء ، حيث برأها الله جل جلاله فى قرآن يتلى إلى يوم الدين ، يقول الله تبارك وتعالى فى سورة النور : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم • لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين) .

وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام فى حق عائشة : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام » .

وكانت السيدة عائشة إذا عملت عملا من أعمال الخير لزمته وداومت عليه ، وقد قال لها حبيبها صلى الله عليه وسلم : « أحب الأعمال إلى الله أدومها ، وإن قل » .

وكان أكابر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يسألونها عن الفرائض — علم المواريث — وكانت أفقه الناس ، وأعلم الناس . وهذا هو الزبير بن العوام يقول فى حقها : ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر عن عائشة .

وكانت رضى الله عنها من أكثر الصحابة رواية عن سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، رووا لها عن الرسول ألفين ومائتى حديث وعشرة أحاديث وممن يعد بعدها فى كثرة الرواية أبو هريرة ، وقد روى عنها كثير من الصحابة والتابعين ، روى عنها عمر وابنه عبد الله وأبو هريرة وأبو موسى ، وزيد بن خالد وابن عباس وربيعة ابن عمرو والسائب ابن يزيد ، وصفية بنت شيبة وعبد الله بن عامر .

وروى عنها كبار التابعين مثل سعيد بن المسيب ، وعمرو بن ميمون ، وعلقمة بن قيس وعبد الله بن حكيم .

يقول أبو موسى : ما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون فى شىء إلا سألوا عنه عائشة فيجدون عندها من ذلك علماً . وقال أبو سلمة ابن عبد الرحمن : ما رأيت أحداً أعلم بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أفقه فى رأى إن احتيج إلى رأيه ، ولا أعلم بآية فيما نزلت ، ولا فريضة من عائشة ، وعن محمود بن لبيد : كان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يحفظن من حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا مثلا لعائشة وأم سلمة . وكانت عائشة قد استقلت بالفتوى فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وبعده إلى أن ماتت رحمها الله تبارك وتعالى .

توفيت رضى الله عنها ليلة الثلاثاء فى السابع عشر من رمضان سنة سبع وخمسين للهجرة ، وصلى عليها أبو هريرة ، واجتمع أهل المدينة وأهل المدينة على جنازتها ، مع أنها كانت ليلا ، ودفنت فى البقيع .

رضوان الله تبارك وتعالى عليها .

* * *

أنس بن مالك

هو الصحابى الجليل خادم النبى صلى الله عليه وسلم : أبو ثمامة أنس ابن مالك بن النضر بن ضمضم النجارى الخزرجى الأنصارى ، وقيل : كناه الرسول بأبى حمزة ببقلة كان يحبها ، وأمه هى أم سليم سهلة بنت ملحان ، وكانت خالة الرسول صلوات الله وسلامه عليه من جهة الرضاع ،

وكانت من فضليات الصحابيات . وقد ولد أنس فى السنة العاشرة قبل الهجرة، وأسلم صغيراً، وخدم النبي إلى أن لحق الرسول بربه، وكان يتسمى بأنه خادم الرسول ويفخر بذلك ، وحق له أن يفخر ، فإنه شرف عظيم ، وقد خدم النبي عشر سنين ، وهى مدة إقامة النبي بالمدينة .

وكان أنس بن مالك أحد المجيدين للرماية ، وكان كثير الرواية للحديث النبوى الشريف ، روى عنه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ألفين ومائتين وستة وثمانين حديثاً .

وكان أنس أكثر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أولاداً بسبب دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام له ، فقد رجت أمه أم سليم أن يدعو الرسول لولدها أنس ، فما ترك النبي شيئاً من خير الآخرة والدنيا إلا دعا له به ، وقال النبي فيما قال : اللهم ارزقه مالا وولداً ، وبارك له .

وكان من فضل الله تعالى على أنس أن بستاناً له كان يحمل فى السنة مرتين ، وكان فيه ريحان يجىء منه ريح المسك .

وقد ظل أنس بن مالك بالمدينة طيلة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما لحق النبي بالرفيق الأعلى رحل أنس إلى دمشق فسكن فيها زمناً ، ثم ارتحل عنها إلى البصرة ، وأقام بها ومات فيها ، وهو آخر من مات بها من الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليها أجمعين .

وقد مات أنس بن مالك فى أصح الروايات سنة ثلاث وتسعين بالبصرة، وكان عمره أكثر من مائة عام ، وقد اتفق العلماء على مجاوزة عمر أنس مائة سنة رضى الله تعالى عنه .

ومن كلام ابن قتيبة فى كتابه المعارف : ثلاثة من أهل البصرة لم يموتوا

حتى رأى كل واحد منهم مائة ذكر من صلبه : أنس بن مالك ، وأبو بكرة، وخليفة بن بدر .

ولما مات أنس بن مالك قال مورق : ذهب اليوم نصف العلم ، قيل له : كيف ذلك ؟

قال : كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفنا فى الحديث قلنا له : تعال إلى من سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم [يعنى أنس بن مالك] .

وقد أوصى أنس قبل موته أن توضع تحت لسانه عند تكفينه شعرة من شعر رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، كان يحتفظ بها .

وقال أبو هريرة عن أنس : ما رأيت أحداً أشبه صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن أم سليم ، يعنى أنساً .

ولقد خرج أنس مع النبي إلى غزوة بدر وهو غلام يخدمه ، ولقد سأله بعض الناس : أشهدت بدراً ؟ قال : وأين أغيب عن بدر لا أم لك . وإنما لم يذكروه فى قائمة البدريين لأنه لم يكن فى سن من يقاتل . وقد غزا مع النبي ثمانى غزوات .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

جابر بن عبد الله

هو الصحابى ابن الصحابى أبو عبد الله جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى السجنى . أمه نسيبة بنت عقبة بن عدى . استشهد أبوه يوم أحد وأحياه الله وقال له : يا عبد الله ما تريد ؟ . فقال : أن أرجع إلى الدنيا

مرة أخرى . وقد استخرج جابر جثة ابنه بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم دفنه .
شهد جابر بيعة العقبة الثانية مع أبيه وهو صغير ولم يشهد العقبة الأولى وقد
شهد معه العقبة الثانية أبوه وخاله .

وقد غزا جابر بن عبد الله مع الرسول صلى الله عليه وسلم تسعة عشر
غزوة ولكنه لم يشهد غزوة بدر ولا غزوة أحد وبعد أن توفى أبوه فى غزوة
أحد لم يتخلف جابر عن رسول الله غزوة واحدة قط ، ومع أنه لم يشترك
فى غزوة بدر فقد كان يعاون فى الصفوف الخلفية قال : كنت أمنح
أصحابى الماء يوم بدر .

وقد شهد جابر معركة صفين مع الإمام على بن أبى طالب وهو أحد
المكثرين للرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى عنه ألفاً وخمسمائة
وأربعين حديثاً . روى جابر عن أبى بكر ، وعمر ، وعلى ، وأبو عبيدة،
ومعاذ ،وخالد بن الوليد ، وأبى هريرة .

وروى عنه جماعات من أئمة التابعين منهم سعيد بن المسيب وأبو سلمة
ومحمد الباقر وعطاء وسالم بن أبى الجعد وعمرو بن دينار ومجاهد ومحمد
ابن المنكدر والشعبى وغيرهم وكان جابر من المكذبين للحفظ والحفاظ للسنن
وكان لجابر حلقة فى المسجد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام يؤخذ
عنه العلم . وقد روى عن جابر أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يوم الحديبية أنتم خير أهل الأرض ، وكنا ألفاً وأربعمائة لو كنت أبصر اليوم
لرأيتكم موضع الشجرة . يقصد الشجرة التى بايع تحتها النبى أصحابه فى غزوة
الحديبية وقد كف بصر جابر فى آخر حياته . ويروى جابر أن الرسول
استغفر له فى ليلة خمسة وعشرين مرة .

توفى جابر بالمدينة سنة ثلاث وسبعين وهو ابن أربع وتسعين سنة : رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

كعب بن مالك

هو الصحابى أبو عبد الله كعب بن مالك بن عمرو بن القين بن سواد الأنصارى الخزرجى السلمى ، وأمه هى ليلى بنت زيد بن ثعلبة من بنى سلمة . كان أحد شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم ثلاثة : حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك . وقد قال كعب بيتين من الشعر كانا سبباً فى إسلام قبيلة دوس وهما :

قضينا من تهامة كل وتر ... وخيبر ثم أعمـــدنا السيوفا
تخبرنا ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دوساً أو ثقيفا

فلما بلغ ذلك دوساً قالوا : خذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف . وأسلموا : وقال بعض السلف : أشجع بيت وصف به رجل قومه قول كعب بن مالك :

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا ... يوماً ونلحقها إذا لم تلحق

وآخى النبى عليه الصلاة والسلام بين كعب وطلحة بن عبيد الله ، وهو المجاهد الذى كان يسمى « الشهيد الحى » . وقد شهد كعب بيعة العقبة وغزوة أحد ، وسائر المشاهد إلا بدراً وتبوك . وجرح كعب يوم أحد ، أحد عشر جرحاً فى سبيل الله تعالى وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم ، وأنزل فيهم قوله فى سورة التوبة : (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم

الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) . والثلاثة هم كعب بن مالك ومرارة بن ربيعة وهلال بن أمية ، وقصتهم فى الصحيحين .

وقد روى له عن الرسول صلى الله عليه وسلم ثمانون حديثاً . وقد روى عنه أولاده عبد الله وعبد الرحمن وحمد وعبيد الله ، وعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله ، وأبو أمامة الباهلى ، ومحمد بن على بن الحسين وآخرون. وروى عنه عمرو بن الحكم بن ثوبان .

وكان كعب بن مالك من أصحاب عثمان بن عفان ، وأنجده وقت الثورة ، وحرض الأنصار على مناصرته رضى الله عنه .

وقد أصيب كعب بن مالك بكف بصره فى آخر عمره ، وقد عاش سبعاً وسبعين سنة ، فشاب شيبة مباركة فى الإسلام .

وقد توفى كعب بن مالك بالمدينة المنورة ، فى زمن معاوية بن أبى سفيان سنة ثلاث وخمسين من الهجرة النبوية .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *

اَلْمِسْوَر بن مخرمة

هو الصحابى أبو عبد الرحمن المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب القرشى الزهرى ، وأمه عاتكة بنت عوف أخت عبد الرحمن بن عوف ، وقد أسلمت وهاجرت . وقد ولد المسور بمكة بعد الهجرة بسنتين ، وقدم المدينة وهو

غلام يافع بن ست سنين ، وكان النبي يلاحظه بالتوجيه والتعليم ، ويروى أن المسور قال : أقبلت بحجر يحمله ثقيل ، على إزار خفيف ، فانحل الإزار فلم أستطع أن أضع الحجر حتى بلغت به موضعه ، فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم : ارجع إلى ثوبك فخذه ، ولا تمشوا عراة .

وكان المسور بن مخرمة من فقهاء الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن أهل الدين . وله ولأبيه صحبة مع النبي عليه الصلاة والسلام ، وصحّ سماع المسور من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد روى له عن الرسول اثنان وعشرون حديثاً . وروى عنه أبو أمامة بن سمعل بن حنيف وهو صحابى ، وعلى ابن حسين وسعيد بن المسيب ، وعبيد الله بن أبى رافع ، وسليمان بن يسار وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وجهم بن أبى جهم وابن أبى مليكة ، وعروة بن الزبير وابنته أم أبى بكر وغيرهم .

وقد روى المسور عن الخلفاء الراشدين الأربعة وغيرهم من أكابر الصحابة ، وحفظ أشياء عن خاله عبد الرحمن بن عوف ، وكان المسور يلزم عمر بن الخطاب رضى الله عنه يريد بذلك أن يتشبه به فى أعماله وتصرفاته ، وقد شهد المسور بن مخرمة فتح أفريقية مع عبد الله بن سعيد . وهو الذى حرض عثمان بن عفان على غزوها ، وكان المسور مع خاله عبد الرحمن ابن عوف فى أمر الشورى ، عقب شهادة عمر رضى الله عنه وكان هوى المسور فى أمر الخلافة مع الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه .

وقد أقام المسور بن مخرمة فى المدينة المنورة بعد أن قتل ذو النورين عثمان ابن عفان ثم سار إلى مكة فأقام فيها ، ولم يزل بها حتى توفى فى زمن معاوية ابن أبى سفيان .

وقد قتل المسور بن مخرمة فى حصار عبد الله بن الزبير بمكة ، أصابه حجر من أحجار المنجنيق ، وهو قائم يصلى فى الحجر عند الكعبة ، فقتله فى أول شهر ربيع الأول سنة أربع وستين للهجرة وقد مات المسور بعد إصابته بخمسة أيام ،ودفن المسور بالحجون وصلى عليه عبد الله بن الزبير.
رضى الله تبارك وتعالى عنه .

* * *

معاوية بن أبى سفيان

هو الصحابى ابن الصحابى أبو عبد الرحمن معاوية بن أبى سفيان صخر ابن حرب بن أمية القرشى الأموى ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيع .

أسلم هو وأبوه أبو سفيان وأخوه يزيد بن أبى سفيان وأمه هند فى فتح مكة ، وكان معاوية يقول : إنه أسلم يوم الحديبية وكتم إسلامه عن أبيه وأمه .

وكان معاوية وأبوه من المؤلفة قلوبهم ثم حسن إسلامهما ، وشهد غزوة حنين مع الرسول فأعطاه من غنائم هوازن مائة بعير وأربعين أوقية .

وكان معاوية أحد الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان من الموصوفين بالدهاء والحلم ، وقال عنه عمر بن الخطاب : هذا كسرى العرب . وقد قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام : اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به . وقال عنه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : معاوية فقيه .

وقد روى لمعاوية عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مائة وثلاثة وستون حديثاً . وروى عنه من الصحابة : عبد الله بن عباس وأبو الدرداء وجرير ابن عبد الله ، والنعمان بن بشير وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ،

وأبو سعيد الخدرى والسائب بن يزيد وأبو أمامة بن سهل . وهؤلاء من الصحابة ، وروى عنه من التابعين : سعيد بن المسيب وحميد بن عبد الرحمن وغيرهما .

وقال ابن سعيد : بقى معاوية أميراً عشرين سنة ، وخليفة عشرين سنة . وقد ولى معاوية إمارة دمشق أربع سنين من خلافة عمر ،واثنتى عشرة سنة من خلافة عثمان ، وأربع سنين تقريباً أيام خلافة على ، رضى الله عنهم .

وكان معاوية يطمع فى الخلافة من قبل ، وكان يقول : ما زلت أطمع بالخلافة منذ قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم إن وليت فأحسن .

وبعد أن نال الإمام على نعمة الشهادة ، تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية حسما للفتنة ، وجمعاً للكلمة ، فصار معاوية خليفة وبقى خليفة عشرين سنة .

ولما حضرته الوفاة أوصى أن يكفن فى قميص كان للنبى صلى الله عليه وسلم كساه إياه ، وأن يجعلوه مما يلى جسده . وكان عنده قلامة أظفار رسول الله عليه الصلاة والسلام فأوصى أن تسحق وتجعل فى عينيه وفمه وقال : افعلوا ذلك بى وخلوا بينى وبين أرحم الراحمين .

ولما نزل به الموت قال : يا ليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى ، وأنى لم ألى من هذا الأمر شيئاً .

ولما مات معاوية حمل الضحاك بن قيس أكفانه ، وصعد المنبر وخطب الناس وقال : إن أمير المؤمنين معاوية كان جد العرب ، وعود العرب [الكبير المجرد] قطع الله به الفتنة ، وملكه على العباد ، وسير جنوده فى البر والبحر ، وكان عبداً من عبيد الله ، دعاه فأجاب ، وقد قضى نحبه ، وهذه

أكفانه ، فنحن مدرجوه ، ومدخلوه ومخلوه فى ما بينه وبين ربه ، إن شاء رحمه ، وإن شاء عذبه .

وقد توفى معاوية سنة ستين للهجرة .

رضى الله تبارك وتعالى عنه .

* * *

معقل بن يسار

هو الصحابى أبو عبد الله معقل بن يسار بن معبر المزنى البصرى . كان من مشهورى الصحابة . شهد بيعة الرضوان ، وجاء فى صحيح مسلم عن معقل ابن يسار قال : لقد رأيتنى يوم الشجرة ، والنبى صلى الله عليه وسلم يبايع الناس وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسى ، ونحن أربع عشرة ومائة ، ولم نبايعه على الموت ، وإنما بايعناه على ألا نفر .

روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة وثلاثون حديثاً ، وقد روى عنه عمرو بن ميمون الأودى وأبو عثمان النهدى والحسن البصرى وآخرون .

وقد ذكروا أن معقل بن يسار روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن النعمان بن مقرن ، وقد قال يونس بن عبيد : ما كان ها هنا – يعنى بالبصرة – أحد من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أهنأ من معقل بن يسار ، ومعقل ابن يسار هو الذى حفر نهر معقل بالبصرة ، بأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فنسبوه إلى معقل ، وسموه باسمه .

وقد روى الإمام أحمد أن عبيد الله بن زياد زار معقل بن يسار فى مرضه الذى مات فيه فقال له معقل : إنى محدثك حديثاً لو علمت لى حياة ما حدثتك .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من عبد يسترعيه الله رعيته يموت غاشاً برعيته إلا حرم الله عليه الجنة .

وهذا حديث نبوى واعظ ، يبين لنا التبعة الكبرى التى يتحملها الراعى تجاه رعيته ، فهو ليس مسئولا عن نفسه وبيته وحده ، وإنما هو مسئول عن جميع رعيته التى وكل إليه الله عز وجل أمانة الرعاية ، والإخلاص بحكمها ، وعدم الخيانة أو الخديعة فى أمر من أمورها ، فإن الإنسان إذا غش رعيته فى أى وقت من أوقات حياته ورعايته حرمه الله تبارك وتعالى من دخول الجنة ونعيمها ، فكتب عليه الخسارة والوبال ، والحرمان من الجنة مع دخول العذاب فى النار .

وقد نزل معقل بن يسار البصرة ، وكان له فيها دار ،وكما نسبوا إلى معقل نهر معقل الذى بالبصرة كما سبق ، ينسب إليه أيضاً التمر المعقلى الذى بالبصرة .

وقد توفى معقل بن يسار بالبصرة سنة خمس وستين لهجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم السلام .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

* * *



مَذَاهِبُ وَشخصيَّاتٌ



مكان المُحَمّدِيّة

السؤال :

قرأت فى بعض الكتب أن كلمة « المحمدية » اسم يطلق على عدة بلاد ، فأين توجد هذه البلاد ؟

الجواب :

كلمة « المحمدية » نسبة إلى اسم « محمد » ومعنى هذا الاسم أنه يحمد كثيراً . وإذا رجعنا إلى « معجم البلدان » لياقوت الحموى ، و « تاج العروس » للزبيدى ، عرفنا أن اسم « المحمدية » أطلق على عدة مواضع ، سمى كل منها باسم بانيها : « محمد » . فهناك قرية باسم « المحمدية » من نواحي بغداد ، من كورة طريق خراسان ، أكثر زرعها الأرز .

والمحمدية اسم لقرية ببغداد من قرى بين النهرين . ومنها الشاعر الأديب على بن الحسين بن أحمد بن الطيب . ومن قوله :

إذا الحـــر الكريم بدت له ثلاث خصال كلهن صعاب
تفرق أحباب وبذل لحيبـــة وإن مات لم تشقق عليه جيوب

والمحمدية من أعمال برقة . من ناحية الإسكندرية .

والمحمدية مدينة بنواحي الزاب من أرض المغرب . وهناك مدينة « المسيلة » . يقال لها المحمدية . اختطها محمد بن المهدى الملقب بالقائم فى أيام أبيه .

وهناك بلدة كانت تسمى : « إيتاخ التركى» سماها المتوكل « المحمدية » باسم ابنه محمد المنتصر ، وكانت تعرف أولا بدير أبى الصفرة ، وهى بقرب سامرا بالعراق .

والمحمدية اسم محلة بالرى، وروى أن الرى جدد بناؤها سنة ثمان وخمسين ومائة وسميت بالمحمدية باسم الخليفة المتوكل .

والمحمدية قرية قرب تونس ، والمحمدية قرية باليمامة .

هذا وينبغى أن نلاحظ أن المستشرقين والمبشرين يخطئون عمداً أو سهواً حين يطلقون على الإسلام اسم « المحمدية » والله جل جلاله قد سمى دينه فى القرآن الكريم باسم : الإسلام ، وهو عز شأنه يقول فى سورة المائدة : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) . كما جاء فى سورة الحج تسمية أتباع الإسلام باسم المسلمين : (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

المذاهب الفقهية فى مصر

السؤال :

ما هى المذاهب الأربعة فى مصر ؟ وأى مذهب منها يتبعه معظم المسلمين فيها ؟

الجواب :

المشهور فى تاريخ المذاهب أنه يشتهر منها أربعة مذاهب ، الأول هو مذهب الحنفية وذلك نسبة إلى الإمام أبى حنيفة النعمان ، والثانى منها وهو مذهب المالكية ، وذلك نسبة إلى الإمام مالك بن أنس ، والثالث هو مذهب الشافعية ، وذلك نسبة إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعى ، والرابع مذهب الحنابلة وذلك نسبة إلى الإمام أحمد بن حنبل ، وهذه المذاهب الأربعة موجودة فى مصر ، ولكل منها أتباع وأنصار ، ولكن أكثرها شيوعاً ، وخصوصاً فى الوجه البحرى ، فى الريف هو مذهب الإمام الشافعى ، وأكثرها انتشاراً فى العاصمة [القاهرة] وبعض المدن هو المذهب الحنفى ، وينتشر المذهب المالكى وبخاصة فى الوجه القبلى ، ويوجد عدد محدود من أتباع المذهب الحنبلى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تقليد المذاهب

السؤال :

ما حكم شافعى المذهب يتابع بعض آراء غير الشافعية ؟

الجواب :

مثل هذا العمل يسميه الفقهاء : التلفيق بين المذاهب ، وهو أن يكون

الإنسان متبعاً فى عبادته مذهباً من المذاهب الفقهية المعروفة ، ولكنه يتبع مذهباً آخر فى حالة من الأحوال ، أو فى جزء من الأجزاء ، وقد رأى بعض الفقهاء أن ذلك يجوز للتيسير والتخفيف ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) . ويقول أيضاً : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ، ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا » .

ولكن الفقهاء اشترطوا فى ذلك ألا يتعمد الملفق تتبع الرخص الموجودة فى المذاهب ، لأن ذلك يعد تخلصاً من عزائم الدين وواجباته وأحكامه ، والرخص جمع رخصة ، ويراد بها فى اللغة التسهيل والتيسير ، ويراد بها فى الشريعة ما شرع لعذر شاق استثناء من أصل كلى يقتضى المنع ، مع الاقتصار على مواضع الحاجة فيه .

وقد تطلق الرخصة كما ذكر بعض العلماء على ما وضع عن هذه الأمة من التكاليف الغليظة التى كانت على من قبلنا ، مثل اشتراط الصلاة فى المسجد ، ودفع ربع المال فى الزكاة ، وهو ما دل عليه قول الله تبارك وتعالى على لسان عباده : (ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) . وقوله تعالى : (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) .

وكذلك قد تطلق الرخصة على ما كان توسعة على العباد مطلقاً ، بنيل مآربهم المباحة ، والتمتع بالملذات الطيبة ، فإن الله تعالى يقول : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . ولكن الله تعالى – رحمة بعباده – أباح لهم الطيبات والسعى لابتغاء الرزق ، فكان هذا يسراً من الله ، ولهذا سموه رخصة .

فإذا كان الإنسان يقلد فى عبادته مذهباً من المذاهب المعتمدة لدى المسلمين ثم احتاج أو اضطر إلى أن يقلد مذهباً آخر فى جزء من أجزاء العبادة ، فلا مانع من ذلك على الأساس المذكور .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الوهابية

السؤال :

هل عندكم توجد وهابية كما توجد عندنا فى نيجيريا ؟

الجواب :

الوهابية هم أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى قام بحركة واسعة لمقاومة الخرافات والبدع فى الدين ، وهو حنبلى المذهب ، من أتباع الإمام الجليل أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، وبعض الباحثين يعد الشيخ محمد ابن عبد الوهاب مجدداً فى القرن الرابع عشر الهجرى ، ولا يوجد عندنا فى مصر طائفة تسمى الوهابية ، بل إن أتباع الشيخ ابن عبد الوهاب أنفسهم لا يسمون أنفسهم بالوهابية . بل إن كثيراً منهم يضيق بهذه التسمية ، لما ألقاه كثير من الناس عليها من ظلال المخالفة والاعتراض .

وأهل مصر لا توجد بينهم طوائف كالطوائف الموجودة فى البلاد الأخرى . فهم من أهل السنة وإن راجت بينهم طائفة من البدع والخرافات .

ونسأل الله تباركت آلاؤه أن يمن على المسلمين بلم الشمل واتحاد الكلمة

ونبذ الخلافات وأسباب التفرق والتمزق وأن يجمعهم على الكتاب والسنة : و (إن هذه أمتكم أمة واحدة) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الوهابيّة والصّوفيّة

السؤال :

لماذا ينتقد الوهابيون أصحاب الطرق الصوفية ؟

الجواب :

يجب أن نعرف أولا أن كلمة « الوهابية » قد أطلقها بعض الناس على أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى يعده كثير من الباحثين مجدد القرن الرابع عشر الهجرى ، وأساس دعوته هى اتباع مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، وأتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب يسمون أنفسهم أهل عقيدة التوحيد ، وقد قاموا بمحاربة البدع والخرافات والأساطير التى أضيفت إلى الدين وليست منه .

وأتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب يحملون على الصوفية وينتقدونهم لأن هذه الطرق لم تكن موجودة فى عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولا فى عهد الخلفاء الراشدين ولا فى عهد الصحابة والتابعين ، ويأخذون على الصوفية أنهم لا يخضعون خضوعاً كاملا لأحكام الشريعة ، ولهم شطحات الله أعلم بحقيقتها ، وهم يتوسعون فى التأويل والعلم الباطنى وما إلى ذلك ، ولو

أخلص الصوفى فى تقيده بالقرآن والسنة لما كان هناك وجه لانتقاده أو الحملة عليه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

أبرز معجزات الأنبياء

السؤال :

ما أبرز معجزات أنبياء الله : محمد وموسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم ؟

الجواب :

إن معجزات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كثيرة متنوعة ، يطول عنها الحديث ولا يتسع لها المجال إن أردنا الإحصاء أو الاستقصاء ، فقد أيد الله تعالى كل رسول من رسله بمعجزة أو أكثر ، تكون دليلا على صدقه وإعجاز الناس أمامه ، فرسولنا محمد عليه الصلاة والسلام كانت أبرز معجزاته وأبقاها على الدهر هى كتاب الله المجيد الذى يقول فيه رب العزة : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) . وهذا لا يمنع أن لرسول الله عليه الصلاة والسلام معجزات أخرى يطول الحديث فى تفصيلها .

وأبرز معجزات موسى عليه السلام هى العصا التى يقول عنها القرآن الكريم : (وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) .

وأبرز معجزات عيسى عليه السلام هى إبراء الأعمى والأبرص بإذن الله وإحياء الموتى بإذن الله ، والقرآن يقول فى سورة المائدة فى مخاطبة عيسى : (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى) .

وأبرز معجزات داود عليه السلام إلانة الحديد له ، مع تأويب الجبال معه والطير ، والله تعالى يقول فى سورة سبأ : (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ٭ أن اعمل سابغات وقدّر فى السرد واعملوا صالحاً إنى بما تعملون بصير) .

وأبرز معجزات سليمان تسخير الريح والجن ، والقرآن يقول فى سورة سبأ : (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

سارة وإبراهيم

السؤال :

هل كانت سارة زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام أختاً له من أبيه ؟ وكيف تكون زوجة له وهى أخته لأبيه ؟ نرجو إيضاح ذلك .

الجواب :

سارة زوجة الخليل إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كانت صدّيقة

من الصدّيقات ، وهى ابنة عم إبراهيم ، وليست أخته لأبيه ، وقد ذكر المؤرخ أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى فى كتابه : « البداية والنهاية » أن من زعم أن سارة ابنة أخى إبراهيم فقد أفتى بلا علم ، بدعوى أن زواج بنت الأخ حينئذ مشروعاً ، وليس له على ذلك دليل ، ولو فرضنا وكان ذلك مشروعاً فإن الأنبياء لا تتعاطاه .

ونص عبارة ابن كثير كما جاء فى الصفحة المائة والخمسين من الجزء الأول من الطبعة الأولى من كتاب « البداية والنهاية » هو كما يلى :

« والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذى تنسب إليه حران ، ومن زعم أنها ابنة أخيه هارون أخت لوط — كما حكاه السهيلى عن القتيبى والنقاش — فقد أبعد النجعة [أى ابتعد عن الصواب] وقال بلا علم . وادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً ، فليس له على ذلك دليل . ولو فرض أن هذا كان مشروعاً فى وقت — كما هو منقول عن الربانيين من اليهود — فإن الأنبياء لا تتعاطاه . والله أعلم » أ هـ .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

بئر يوسف

السؤال :

أريد أن أعرف أصحيح أن البئر التى رمى فيها يوسف موجودة بمصر أم لا ؟ وأين مات يوسف عليه السلام ؟

الجواب :

نبى الله يوسف : هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وقصته مبسوطة مفصلة فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة متظاهرة بفضائله. عن أبى هريرة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكرم الناس ؟ قال : أتقاهم لله . قالوا : ليس عن هذا نسألك. قال : فأكرم الناس يوسف ابن نبى الله ابن نبى الله وخليله الله » وفى كتاب العرائس لأبى إسحاق الثعلبى فى قصة يوسف أنه كان أبيض اللون حسن الوجه جعد الشعر ضخم العين مستوى الخلق غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن أقنى الأنف صغير السرة وكان بخده الأيمن خال يزين وجهه وبين عينيه شامة تزيده حسناً .

أقام يعقوب وأولاده بعد قدومهم على يوسف بمصر أربعاً وعشرين سنة بأغبط عيش، فلما حضرته الوفاة أوصاهم بأن يحمل جسده إلى بيت المقدس ويدفن عند أبيه وجده، فخرج به يوسف وإخوته وعسكره محمولا فى تابوت وكان عمر يعقوب مائة وسبعاً وأربعين سنة وعاش يوسف بعد يعقوب ثلاثاً وعشرين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة ودفن بمصر فى النيل ثم حمله موسى فى زمنه إلى الشام حين خرجت بنو إسرائيل من مصر إلى الشام .

ويوجد فى القلعة الموجودة فى مصر بئر يسمى بئر يوسف والناس يتكلمون أن هذه البئر هى التى ألقى فيها يوسف . وقد رأيت بنفسى هذه البئر ونزلت إلى قاعها ، ولكن ليس هناك خبر يقينى أو متواتر عن أن هذه البئر هى التى ألقى فيها يوسف عليه السلام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الأسباط

السؤال :

من هم « الأسباط » الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ؟

الجواب :

وردت كلمة « الأسباط » في مواطن من القرآن الكريم . فورد في سورة البقرة : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) . وفي السورة نفسها : (أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون) وفي سورة آل عمران : (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) . وفي سورة النساء :(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً) .

والسبط معناه في اللغة : ولد الولد . كأنه امتداد للفروع . ويراد بالأسباط أفراد كل قبيلة من نسل الرجل . وقيل : الأسباط الأولاد . وقيل هم أولاد الأولاد . وقيل هم أولاد البنات . وقد جاء في الحديث : « إن الله غضب على سبط من بني إسرائيل فسخهم دواب » . أي غضب على طائفة منهم فسخهم . وجاء في الحديث أيضاً :«الحسن والحسين سبطا

رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى طائفتان وقطعتان منه . وفيه أيضاً : « الحسين سبط من الأسباط » أى الحسين أمة من الأمم فى الخير .

والأسباط المذكورون فى القرآن هم أولاد إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وهم بمنزلة القبائل فى ولد إسماعيل ، واحدهم سبط ، فهو واقع على الأمة ، والأمة واقعة عليه .

وقد ذكر المفسرون أن الأسباط هم بنو يعقوب وهم اثناعشر رجلا ، وولد كل رجل منهم أمة من الناس ، فسموا الأسباط .

وقد أشار القرآن إلى هذا عندما قال فى سورة الأعراف : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتاعشرة عيناً) وقد قال قبل ذلك فى سورة البقرة : (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم) ففى هذا إشارة إلى أن الله فجر المـــاء لهم من اثنتى عشرة عيناً لكل سبط من أسباطهم عين قد عرفوها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

إلْياسين

السؤال :

ورد فى القرآن الكريم اسم « إلياسين » فمن صاحب هذا الاسم ؟

الجواب :

يقول الله تعالى فى سورة الصافات : (سلام على إلياسين * إنا كذلك

نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين) . وقد ذكر الإمام النووى أن « إلياسين » من المرسلين ، وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره أن « إلياسين » هو ابن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران ، بعثه الله تعالى فى بنى إسرائيل ، بعد حزقيل عليهما السلام ، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له « بعل » ، فدعاهم إلى الله ، ونهاهم عن عبادة ماسواه ، وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد ، واستمروا على ضلالتهم ، ولم يؤمن به أحدهم . فدعا الله عليهم ، فحبس عنهم المطر ثلاث سنين ، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم ، ووعدوه الإيمان به إن نزل عليهم المطر ، فدعا الله تعالى لهم ، فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر . فسأل الله أن يقبضه إليه ، وكان قد نشأ على يديه إليسع بن أخطوب عليه السلام ، فأمر إلياس بن ياسين أن يذهب إلى مكان كذا وكذا ، فمهما جاءه فليركبه ولا يهبه ، فجاءته فرس من نار فركب ، وألبسه الله النور ، وكساه الريش ، وكان يطير مع الملائكة ملكاً إنسياً سماوياً أرضياً ، هكذا حكاه وهب بن منبه عن أهل الكتاب ، والله أعلم بصحته .

ونزل قوله تعالى فى سورة الصافات : (وإن إلياس لمن المرسلين * إذ قال لقومه ألا تتقون * أتدعون بعلا [اسم صنم] وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين * فكذبوه فإنهم لمحضرون * إلا عباد الله المخلصين * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إلياسين * إنا كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين) .

وقرأ بعض القراء (سلام على إدراسين) ، وآخرون قرءوا (سلام على آل ياسين) يعنى آل محمد صلى الله عليه وسلم . وبعضهم قال : إن إلياس هو إدريس .

ويرى بعض المفسرين أن « إلياسين » وهو « إلياس » ولكنه أرجع اسم إلياس بصيغة « إلياسين » على طريقة القرآن فى ملاحظة تناسق الإيقاع فى التعبير .

وقد جاء فى كتاب « فى ظلال القرآن » العبارة التالية : « دعى إلياس قومه إلى التوحيد مستنكراً عبادتهم لبعل ، وتركهم أحسن الخالقين ، ربهم ورب أبائهم الأولين ، كما استنكر إبراهيم عبادة قومه للأصنام ، وكما استنكر كل رسول عبادة قومه للأوثان ، وكانت العاقبة هى التكذيب ، والله سبحانه وتعالى يقسم ويؤكد أنهم سيحضرون مكرهين ليلقوا جزاء المكذبين . إلا من آمن منهم واستخلصه الله من عباده فيهم .

وتختم اللمحة القصيرة عن إلياس تلك الخاتمة المكررة المقصودة فى السورة لتكريم رسل الله بالسلام عليهم من قبله ، ولبيان جزاء المحسنين ، وقيمة إيمان المؤمنين .

وسيرة إلياس ترد هنا لأول مرة فى مثل تلك اللمحة القصيرة . ونقف لنلم بالناحية الفنية فى الآية : (سلام على إلياسين) فقد روعيت الفاصلة وإيقاعها الموسيقى فى إرجاع اسم إلياس بصيغة « إلياسين » على طريقة القرآن فى ملاحظة تناسق الإيقاع فى التعبير .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

المبشرون بالجنة

السؤال :

هل من الصحيح أن هناك عشرة مبشرين بالجنة من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ؟ ومن هم ؟

الجواب :

نعم إن هناك عشرة من الصحابة بشرهم النبي صلوات الله وسلامه عليه بدخول الجنة ، وقيل إنهم هم الذين أشار إليهم الله تبارك وتعالى فى قوله من سورة التوبة : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) .

وقد ذكر النبي هؤلاء العشرة فى الحديث الذى يقول : « أبو بكر فى الجنة ، وعمر فى الجنة ، وعثمان فى الجنة وعلى فى الجنة ، وطلحة فى الجنة ، والزبير فى الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة ، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة ، وسعيد بن زيد بن عمرو فى الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة » .

وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى جانب من صفات هؤلاء العشرة فى حديث آخر فقال : « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأقواهم فى دين الله عمر ، وأشدهم حياء عثمان ، وأقضاهم على بن أبى طالب ، ولكل نبى حوارى وحوارى طلحة والزبير ، وحيثما كان سعد بن أبى وقاص كان الحق معه ، وسعيد بن زيد من أحباء الرحمن ، وعبد الرحمن بن عوف من تجار الرحمن ، وأبو عبيدة بن الجراح أمين الله وأمين رسوله » .

وقد وضع السلف كتباً مختصة بالحديث عن هؤلاء العشرة مثل : « محيي الدين الطبرى »فله كتاب سماه « الرياض النضرة فى مناقب العشرة » ولجار الله الزمخشرى كتاب فى الموضوع نفسه سماه « خصائص العشرة الكرام البررة » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

المغيرة بن شعبة

هو الصحابى أبو عبد الله المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود الثقفى الكوفى . وأمه هى أمامة بنت الأفقم بن أبى عامر . كان موصوفاً بالدهاء والحلم . وقد ورد عن الشعبى أنه قال : دهاة العرب أربعة : معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد ،فأما معاوية بن أبى سفيان فللأناة والحلم ، وأما عمرو بن العاص فللمعضلات ، وأما المغيرة ابن شعبة فللمبادهة ، وأما زياد فللصغير والكبير . وكان يقال للمغيرة : مغيرة الرأى . وقال قبيصة بن جابر : صحبت المغيرة ، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب ، لا يخرج من باب منها إلا بالمكر ، لخرج المغيرة من أبوابها كلها . وقال الطبرى : كان المغيرة لا يقع فى أمر إلا وجد له مخرجاً ، ولا يلتبس عليه أمران إلا ظهر له الرأى فى أحدهما .

وقد أسلم المغيرة عام غزوة الخندق ، وقد شهد غزوة الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله فى صلحها كلام ، فقد روت السيرة أنه لما اختلفت قريش مع النبى فى هذه الغزوة أرسلت عروة بن مسعود الثقفى

ليكون متحدثها ، فلما وقف بين يدى النبى أخذ يتناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله فى الحديد ، فجعل يقرع يد عروة ، كلما تناول لحية النبى ويقول له : اكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ألا تصل إليك ، فيقول عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك . فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال النبى : هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة فسب عروة المغيرة .

وكان المغيرة مع أبى سفيان فى هدم طاغية ثقيف بالطائف .

وقد روى للمغيرة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام مائة وستة وثلاثون حديثاً ، وروى عنه من الصحابة أبو أمامة الباهلى والمسور بن مخرمة وقرة المزنى . وروى عنه من التابعين جماعات منهم أبناؤه الثلاثة عروة وحمزة وعقار ، وقيس بن أبى حازم ومسروق وأبو وائل وأبوإدريس الخولانى وعروة بن الزبير والشعبى ووراد كاتب المغيرة ومولاه وآخرون.

ولقد كان المغيرة بن شعبة رسول سعد بن أبى وقاص إلى رستم ، وقد ولاه عمر البصرة مدة ، ثم نقله عنها ، وولاه الكوفة ، فلم يزل عليها حتى قتل عمر فأقره عليها عثمان ثم عزله .

وقد شهد المغيرة غزوة اليمامة وفتح الشام ، وذهبت عينه يوم اليرموك ، وشهد القادسية وشهد فتح نهاوند وشهد فتح همدان وغيرها . وهو أول من وضع ديوان البصرة وقد استعمله معاوية على الكوفة فلم يزل عليها حتى توفى المغيرة بها سنة خمسين للهجرة .

رحمه الله تبارك وتعالى .

• • •

هبوط آدم وحواء

السؤال :

ما اسم المكان الذى نزل فيه سيدنا آدم بعد خروجه من الجنة ؟ وأين نزلت زوجته حواء؟ وأين نزل إبليس أيضاً؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) .

وقد جاء فى تفسير الإمام ابن كثير أن آدم عليه السلام نزل بالهند ، وعن ابن عباس أنه قال : إن آدم أهبط فى مكان يقال له « رضا » بأرض الهند . وفى رواية أخرى عنه أن هذا المكان يوجد بين مكة والطائف . وجاء فى التفسير المذكور أن حواء هبطت فى « جدة » .

وفى رواية عن ابن عمر قال : أهبط آدم بالصفا ، وحواء بالمروة ، وأما إبليس عليه لعنة الله فقد نزل فى مكان يقال له « دستميسان » ، وهو مكان يقع على أميال من البصرة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

وفاة سليمان

السؤال :

نريد أن نعرف كيف كانت وفاة سيدنا سليمان عليه السلام ؟

الجواب :

جاء فى كتاب قصص الأنبياء لابن كثير فى ذكر وفاة سليمان الاستشهاد بقول الله تبارك وتعالى فى سورة سبأ عن سليمان عليه السلام : (فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) . وروى عن ابن عباس حديثاً فيه أن سليمان نبى الله كان إذا صلى رأى شجرة ثابتة بين يديه فيقول لها ما اسمك ؟ فتقول كذا . فيقول لأى شيء أنت ؟ فإن كانت لغرس غرست ، وإن كانت لدواء أنبتت . فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها ما اسمك ؟ قالت الخروب . قال لأى شيء أنت ؟ قالت لخراب هذا البيت ، فقال سليمان : اللهم عم على الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنحتها عصا ، فتوكأ عليها حولا ، والجن تعمل فأكلتها الأرضة ، فتبينت الإنس أن الجن لو كانو يعلمون الغيب مالبثوا حولا فى العذاب المهين .

وروى عن خيثمة قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت : إذا أردت أن تقبض روحى فأعلمنى ، قال : ما أنا أعلم بذلك منك ، إنما هى كتب يلقى إلى فيها تسمية من يموت .

وجاء فى تفسير ظلال القرآن : روى أنه كان متكئاً على عصاه حين وافاه أجله ، والجن تروح وتجيء مسخرة فيما كلفها إياه من عمل شاق

شديد ، فلم تدرك أنه قد مات ، حتى جاءت دابة الأرض ، قيل إنها الأرضة التى تتغذى بالأخشاب ، وهى تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة فظيعة فى الأماكن التى تعيش فيها ، فلما نخرت عصا سليمان لم تحمله فخر على الأرض ، وحينئذ فقط علمت الجن موته ، وعندئذ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين . فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس ، هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله ، وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب ، وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

اسم المسيح

السؤال :

لماذا سمى عيسى ابن مريم باسم المسيح ؟

الجواب :

سمى عيسى ابن مريم عليهما السلام مسيحاً ، لأن جبريل عليه السلام مسحه بالبركة ، أو لأن الله مسح عنه الذنوب ، أو لأن الله تبارك وتعالى مسح عنه القوة الذميمة من الجهل والشره والحرص ، وسائر الأخلاق القبيحة أو لأنه يسيح فى بلاد الدنيا وأقطارها ، أو لحسن وجهه ، لأن المسحة – بكسر الميم – القطعة من الفضة ، والمسيح هو الحسن الوجه الجميل ، أو لصدقه ، لأن من معانى المسيح : الصديق ، أو لأنه ممسوح

بزيت الزيتون المبارك ، أو لأنه كان يمسح بيده على العليل والأكمه والأبرص ، فيبرئه بإذن الله عز وجل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

وفاة المسيح

السؤال :

هل من الصحيح أن عيسى عليه السلام قد توفى ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة آل عمران : (إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) .

وقد جاء فى تفسير المنار أن كلمة « التوفى » فى اللغة معناها أخذ الشيء وافياً تاماً ، ولذلك استعمل بمعنى الإماتة ، قال تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها) وقال أيضاً : (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وُكّل بكم) فالمتبادر إلى الذهن من كلمة الوفاة هنا معنى : إنى مميتك وجاعلك بعد الموت فى مكان رفيع عندى . كما قال فى إدريس عليه السلام : (ورفعناه مكاناً علياً) . ومعنى هذا أن عيسى عليه السلام قد توفى ومات . هذا ما يفهمه القارئ الخالى الذهن من الأقوال والروايات . لأنه هو المتبادر من العبادة . وأيدته الشواهد من الآيات . ولكن بعض المفسرين قد رووا

أن عيسى قد رفعه الله إلى السماء بجسده . ويقول الإمام محمد عبده إن بعض المفسرين يرى أن الله قبض عيسى من الأرض بروحه وجسده ، ويقول إن الآية على ظاهرها تفيد أن التوفى بمعناه الظاهر المتبادر وهو الإماتة العادية ، وليس فى الموضوع حديث متواتر ، والوارد حديث آحاد ، وهو يتعلق بأمر اعتقادى ، لأنه من أمور الغيب ، والأمور الاعتقادية لايؤخذ فيها إلا بالقطعى ، لأن المطلوب فيها هو اليقين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

يأجوج ومأجوج

السؤال :

ما قصة يأجوج ومأجوج ؟

الجواب :

أشار القرآن إلى قصة يأجوج ومأجوج ، حين يقول فى سورة الكهف متحدثاً عن ذى القرنين : (ثم أتبع سبباً . حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً . آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا . قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقاً) .

وقال أهل التفسير فى ذلك إن الله تبارك وتعالى يخبر عن ذى القرنين بأنه سلك طريقاً من مشارق الأرض ، حتى إذا بلغ بين السدين ، وهما جبلان متقابلان بينهما ثغرة ، يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيها فساداً ، ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم كما جاء فى الصحيحين ، والقوم المشار إليهم كلامهم فيه عجمة ، وهم بعيدون عن الناس ، وقد طلبوا من ذى القرنين أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً لكثرة فسادهم ، وقالوا لذى القرنين إنهم سيعطونه أجراً عظيماً ، فأجابهم بتعفف وصلاح وقصد للخير : إن الذى أعطانى الله تعالى من الخير والملك والتمكين أفضل لى من أجركم ، وطلب منهم أن يساعدوه ويعاونوه بقوة ، وأمرهم أن يحضروا قطع الحديد حتى يجعل بينهم وبين هؤلاء ردماً ، ووضع بعض الحديد على بعض حتى حازى رءوس الجبلين طولا وعرضاً ، ثم أمرهم بنفخ النار عليه حتى صار كله ناراً . ثم أفرغ عليه النحاس المذاب . فما قدر يأجوج ومأجوج أن يصعدوا فوق هذا السد . ولا قدروا على نقبه من أسفله .

ولما أتم ذو القرنين البناء قال : هذا رحمة من ربى بالناس . حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلا يمنعهم من العبث فى الأرض والفساد . فإذا اقترب الوعد الحق جعله الله مساوياً للأرض وكان وعد ربى كائنا لا محالة .

هكذا تحدث السابقون من أهل التفسير . ولكن المتأخرين يتساءلون : من يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم ؟ وماذا سيكون ؟ كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عنها على وجه التحقيق واليقين ، ونحن لا نعرف عنهم إلا ماذكره القرآن أو السنة الصحيحة والقرآن يقول

فى القصة : (فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقاً) . وهذا النص الكريم لا يعين زماناً والوعد هنا معناه الوعد بدك السد ، وربما يكون ذلك قد وقع بهجوم التتار وتدميرهم البلاد .

وفى سورة الأنبياء يقول الله تعالى : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق) . وهذا القول الكريم المجيد لا يحدد لخروجهم زمناً معيناً ، لأن اقتراب الوعد الحق — بمعنى اقتراب الساعة — قد ذكره القرآن من عهد نزوله فجاء قوله تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر) .

والزمان فى حساب الله تعالى غيره فى حساب الناس ، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين ، وهى مدة يراها البشر طويلة ، وهى عند الله قصيرة . فيجوز أن يكون السد قد فتح فى المدة ما بين قوله (اقتربت الساعة) ويومنا هذا وتكون غارات التتار هى انسياح يأجوج ومأجوج .

وقد روى الإمام أحمد عن السيدة زينب زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : استيقظ الرسول صلى الله عليه وسلم من نومه ، وهو محمر الوجه ، وهو يقول : « ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا [وحلّق بإصبعيه السبابة والوسطى] . قلت : يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبيث » .
والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الفرق بين شيخ الأزهر والمفتى

السؤال :

ما الفرق بين منصب شيخ الأزهر ، ومنصب مفتى الجمهورية ، وأى منصب منهما أعلى من المنصب الآخر ؟

الجواب :

يعد شيخ الأزهر رئيساً لأكبر جامعة إسلامية ، وهى جامعة الأزهر الشريف ، ويعد كذلك الإمام الأكبر للمسلمين فى العالم ، وهو كذلك رئيس مجمع البحوث الإسلامية ، الذى يضم ممثلين لجميع مسلمى العالم ، وكان من المعروف والمألوف إلى وقت قريب أن يسمى شيخ الأزهر بشيخ الإسلام ، ولذلك نستطيع أن نقول إن منصب شيخ الأزهر تغلب عليه الصفة العامة ، فهو المرجع الأعلى فى الشئون الإسلامية .

وأما المفتى فهو المرجع الرسمى فى الإفتاء ، فى كل ما تطلب الحكومة إليه الإفتاء فيه ، وخصوصاً فى القضايا التى تكون ذات صبغة رسمية أو حكومية ، وهذا لا يمنع – كما هو مشاهد – أن يفتى مفتى الجمهورية فى مسائل دينية ، عن طريق الفتوى الشخصية ، أو بواسطة الصحف والمجلات ، أو بوساطة أحد أجهزة الإعلام الأخرى ، ولفتاوى مفتى الجمهورية مكانتها ومنزلتها ، من الناحيتين الرسمية والشعبية .

وأما المقارنة بين المنصبين ، وتفضيل أحدهما على الآخر فما لا تتعلق به همة العقلاء ، فكل من المنصبين له قدره واحترامه ، ويستطيع البصير بعد أن عرف مهمة كل من المنصبين أن يتعرف إلى مكانة كل منهما .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الشيخ طنطاوى جوهرى

السؤال :

أريد أن أعرف لمحة عن حياة الشيخ طنطاوى جوهرى .

الجواب :

يعد الشيخ طنطاوى جوهرى أحد أعلام الإسلام فى العصر الحديث ، وقد ذاعت شهرته بالبحوث التى كتبها فى مختلف فروع العلم والدين ، وخاصة ما يتعلق بالارتباط بين القرآن والعلوم الكونية ، وهو أحد أعلام الأزهر الشريف الذين تفخر بهم تلك الجامعة الإسلامية الكبرى .

وقد ولد العلامة الشيخ طنطاوى جوهرى فى قرية من قرى محافظة الشرقية بجمهورية مصر العربية ، وتسمى قرية « كفر عوض الله حجازى » . وقد نشأ فى أسرة مسلمة فقيرة ، وتلقى علومه الأولية فى قرية تسمى « الغار » بالقرب من مدينة الزقازيق ، ولما ناهز الخامسة عشرة من عمره التحق بالأزهر الشريف لينهل من علومه ، وكان ذلك فى سنة ١٨٧٧ م . ولكن الفتى النابغة لم يكتف بهذه المواد الأزهرية المحدودة ، وتطلعت عينه إلى دخول مدرسة دار العلوم ، وكان ذلك فى سنة ١٨٨٩ م ، ولما تخرج فيها اشتغل مدرساً فى مدرسة دمنهور الابتدائية ، ثم انتقل إلى التدريس بالمدرسة الخديوية بالقاهرة ، ثم انتقل إلى تدريس النحو فى دار العلوم .

وفى سنة ١٩١٤ م انتقل إلى التدريس بمدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية . وأخذ يلهب نار الوطنية فى صدور التلاميذ . وأنشأ جمعية سماها الجمعية الجوهرية ، وقد أثمرت هذه الجمعية خير ثمار فى إحياء مشاعر الوطنية والدين فى نفوس الشباب .

وفى سنة ١٩٢٢ م ترك التدريس حيث أحيل إلى المعاش لبلوغه السن القانونية .

وقد ظهر حبه العارم للطبيعة وبدائع الله فيها منذ طفولته ، وكان مولعاً بعلم الفلك والعلوم الطبيعية . وشارك فى الحركة الوطنية بمقالاته وأناشيده وإسهامه فى المظاهرات القومية ، وتحمل فى سبيل ذلك كثيراً من الأذى والعنت .

وقد أصدر هذا الشيخ العلامة كثيراً من الكتب ، ومنها : كتاب « أين الإنسان » وكتاب « أحلام فى السياسة » وكتاب « كيف يتحقق السلام العـــام » وكتاب « المدخل فى الفلسفة » وكتاب « أصل العالم » وكتاب « جواهر التقوى فى الأخلاق » وكتاب « جمهرة الشعر والتعريب » وكتاب « نهضة الأمم وحياتها » وكتاب « نظام العالم والأمم » ولعل أعظم كتبه هو تفسيره الضخم الذى يسمى « تفسير الجواهر » . وقد توفى فى ١٢ من يناير سنة ١٩٤٠ م عليه رحمة الله ورضوانه .

* * *



مُتَفَرِّقَاتٌ



البسملة فى أول كل عمل

السؤال :

لماذا يسن بدء الأعمال بالبسملة ؟

الجواب :

جاء فى تفسير الإمام القرطبى ، وهو من أئمة المالكية أن الشرع يندب إلى ذكر « بسم الله الرحمن الرحيم » فى أول كل فعل كالأكل والشرب والذبح والطهارة والمعاشرة الزوجية إلى غير ذلك من الأفعال ، فإن الله تبارك وتعالى يقول فى سورة المائدة : (فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب) وقال فى سورة الأنعام : (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) ويقول فى السورة نفسها : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) وقال فى سورة هود : (وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اغلق بابك واذكر اسم الله واطفئ مصباحك واذكر اسم الله وخمر إناءك [غطه] واذكر اسم الله ، وأوك سقاءك [احكم غطاءه] واذكر اسم الله » وقال عليه الصلاة والسلام : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال : باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما فى ذلك لم يضره شيطان أبداً » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه لعمر بن أبى سلمة : « يا غلام سم الله

وكل بيمينك وكل مما يليك » وقال : « إن الشيطان ليستحل الطعام ألا يذكر اسم الله عليه » .

وقد ندب الإسلام إلى هذه البسملة تيمناً باسم الله عز وجل وتبركاً بذكره واستحضاراً لمراقبته .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حرس النار

السؤال :

سمعت أن حرس النار من الملائكة تسعة عشر فما الحكمة فى ذلك ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى متحدثاً عن الوليد بن المغيرة ودخوله النار فى سورة المدثر : (سأصليه سقر • وما أدراك ما سقر • لا تبقى ولا تذر • لواحة للبشر • عليها تسعة عشر • وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ما ذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر) .

يخبر الله تعالى فى هذا النص الكريم أنه سيدخل ذلك الشقى النار ، وسيغمره فيها من جميع جهاته . وهذه النار هائلة لا تبقى من الكافرين شيئاً ، فهى

تأكل لحومهم وعروقهم وجلودهم ، وهم مع ذلك لا يموتون ولا يحيون ، وهذه النار لواحة للبشر أي حراقة للجلد تحرق بشرة الإنسان وتجعل جلودهم مظلمة مسودة كالليل ، وهذه النار عليها تسعة عشر من الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا يقاومهم أحد ولا يغلبهم غالب وقد جعلهم الله تسعة عشر اختباراً منه للناس ، ليعلم أصحاب الكتاب أن هذا الرسول حق ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً إلى إيمانهم ، وإن كان أهل النفاق والكفر يسخرون من ذلك ويقولون هازئين ماذا أراد الله بهذا مثلا . والله هو صاحب الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، ولا يعلم عدد جنود الله أو كثرتهم إلا هو سبحانه وتعالى ، فملائكته يعدون بمئات الألوف ، ولكنهم يعرفون عما لا يعرفون ، وهذا رسول الله في بعض حديثه يقول : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط [أي تصدر منها أصوات لكثرة من فيها من الملائكة] ما فيها موضع أصبع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم من الصعدات [الطرقات] تجأرون إلى الله عز وجل » .

وقد جعل الله عدة هؤلاء الحراس تسعة عشر اختباراً منه للناس .

وقد ذكر العلماء الحكمة في هذا العدد المخصوص — وهو تسعة عشر — فذكروا وجوهاً منها :

أولا — أن اليوم بليلته أربع وعشرون ساعة ، منها خمس مشغولة بالصلوات الخمس ، يبقى تسع عشرة ساعة خلت من ذكر الله ، فلا جرم كان عدد الزبانية بعدد هذه الساعات .

ثانياً — أن أبواب جهنم سبعة ، قال الله تعالى في سورة الحجر : (لها سبعة أبواب) وذكر العلماء أن ستة منها للكفار ، وواحد للفساق ، وأركان

الإيمان ثلاثة : إقرار واعتقاد وعمل ، فالكفار تركوا هذه الثلاثة ، فلهم بسبب تركهم لهذه الثلاثة الأركان ثلاثة من الزبانية على كل واحد من الأبواب الستة ، فكان المجموع ثمانية عشر ، وأما الباب الواحد للفساق فهم قد أتوا بالإقرار والاعتقاد ، وما أتوا بالعمل ، فلم تكن زبانيتهم إلا واحداً ، فثمانية عشر للكفار وواحد للفساق فيكون المجموع تسعة عشر .

ثالثاً – أن عدد الزبانية فى الآخرة بحسب عدد القوى الجسمانية المانعة من معرفة الله ، وتلك القوى تسع عشرة ، خمس هى الحواس الظاهرة ، وخمس أخرى هى الحواس الباطنة ، واثنتان أخريان وهما الشهوة والغضب ، وسبع هى القوى الطبيعية ، وهى : الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة ، فمجموع هذه القوى تسع عشرة وهى الزبانية الواقفة على باب جهنم ، وعلى وفق هذه العدة زبانية جهنم فى الآخرة .

وبعض المفسرين يذكرون أن تحديد العدد أمر غيبى من شأن الله ، وليس لدى البشر عنه علم ، فإذا أخبر الله عنه خبراً فشأن البشر أن يتلقوا الخبر بالتسليم وذكره العدد يجب أن يقابل بالإيمان والتفويض ، وقد تقاصرت علوم الخلق فلم تتعلق إلا بمقدار دون مقدار . والذى أحاط بكل شىء علماً هو الله عز شأنه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

بين الشفع والوتر

السؤال :

قرأت فى بعض الكتب أن الله وتر يحب الوتر ، وأن الوتر أفضل من الشفع فما معنى ذلك؟وما حكمته؟

الجواب :

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر » ثم ذكر الحديث تسعة وتسعين اسماً هي أسماء الله الحسنى . والوتر معناه الفرد ، فالله وتر أى واحد فى ذاته ، لا يقبل الانقسام والتجزئة ، وواحد فى صفاته فلا شبه له ولا مثيل ، واحد فى أفعاله فلاشريك له ولا معين ، وقد قال العلماء إن العدد الوتر أشرف من الشفع وهو ما يقبل القسمة ، وذكروا حججاً لتفضيل الوتر على الشفع ، ومنها ما يلى :

الحجة الأولى : أن الفردانية صفة للحق سبحانه وتعالى ، والشفعية صفة الخلق . قال الله تعالى فى ذاته سبحانه : (قل هو الله أحد) .

وقال فى شأن المخلوقات : (ومن كل شيء خلقنا زوجين) ومن الواضح أن صفة الخالق أشرف من صفة المخلوق .

الحجة الثانية : أن كل شفع محتاج إلى الواحد ، وهو الوتر ، والوتر يستغنى عن الشفع . فإن الواحد غنى عن العدد ، فثبت أن الوتر أشرف من الشفع .

الحجة الثالثة : أن الوتر يحصل فيه الشفع والوتر ، فإن كل عدد وتر

إذا قسم بقسمين فإما أن يكون كل واحد منهما شفعاً ، وإما أن يكون كل واحد منهما وتراً ، والمشتمل على القسمين أشرف مما يكون مشتملا على قسم واحد ، فثبت أن الوتر أشرف من الشفع .

الحجة الرابعة : أن الوتر لا يقبل القسمة على النصف والشفع يقبلها وقبول القسمة ضعف وعدم قبولها قوة ، فثبت أن الوتر أقوى من الشفع .

الحجة الخامسة : أن جميع الأعداد إنما تتكون من الواحد ، وذلك أن الواحد إذا ضم إليه واحد آخر حصل الاثنان ، وإذا ضم إليها واحد حصل الثلاثة ، وهلم جرا فثبت أن الواحد علة لجميع الأعداد والواحد وتر ، فثبت أن الوتر علة لكل ما سواه من الأعداد .

الحجة السادسة : أن الوتر غالب على الشفع ، وذلك لأنه إذا ضم الوتر إلى الشفع كان المجموع الحاصل وتراً ، وهذا يدل على أن قوة الوتر غالبة على قوة الشفع ، والغالب أشرف ، فكان الوتر أشرف .

الحجة السابعة : الوحدة لازمة لجميع مراتب الأعداد ، فإن كل مرتبة من مراتب الأعداد إذا أخذت من حيث إنها هي هي ، كانت واحدة بذلك الاعتبار ، والواحدة وتر ، فالوترية لازمة لجميع مراتب الأعداد ، والزوجية ليست كذلك ، فكان الوتر أشرف ، فثبتت بهذه الوجوه أن الوتر أشرف من الشفع .

والله تبارك وتعالى أعلم :

• • •

التلاعب بالدين

السؤال :

هناك رجل حج بيت الله تعالى ، وأخذ يزنى بحجة أنه سيجدد حجته فما الحكم ؟

الجواب :

إن مثل هذا الرجل الفاسق يتخذ من الحج ألعوبة فى يده ، ويتخذ أحكام الله هزواً وسخرية ، وما دامت نيته معقودة على العودة إلى الفاحشة والإثم ، فأى فائدة يستفيدها من حجه وتعبه ، وما هو الأثر الذى يتركه مثل هذا الحج الشكلى الصورى فى تدينه وأخلاقه ؟

إن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال فى حديثه الشريف : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». ومثل هذا الحج المبرور لا بد أن تصحبه عزيمة صادقة على التوبة النصوح الذى يعزم عزماً أكيداً على عدم الرجوع إلى المعصية . فأين هذا من قول الله تبارك وتعالى : (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقونى يا أولى الألباب) .

وليت ذنبه الذى ارتكبه كان هفوة يسيرة أو ذنباً خفيفاً . بل هو أخذ يزنى مع أن الله جل جلاله يقول : (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » .

وهذا الرجل يرتكب تلك الفاحشة الكبيرة الشنيعة بحجة أنه سيجدد حجته

ليغفر الله له إذا كرر حجته ، ومن الذى أخبره أن الله عز وجل يقبل توبة المخادعين المنافقين ، الذين يقولون ما لا يفعلون ؟

ومن الذى أوهم ذلك المذنب الأثيم أن الله سبحانه وتعالى سيمد له فى أجله ويمهله على قيد الحياة حتى يرتكب جريمته ، ويكرر حجته ؟

إن هذا من غير ريب هو عمل الضالين المفسدين المطرودين من رحمة الله سبحانه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مساجد القاهرة

السؤال :

ما عدد المساجد فى القاهرة ؟ وما أشهر المساجد الممتازة فيها ؟ وما عدد المساجد الأهلية بالقاهرة ؟ وأرجو ذكر أسماء المساجد المشهورة بالقاهرة ومواقعها ؟

الجواب :

عدد المســاجد التابعة لوزارة الأوقاف فى القاهرة هو خمسمائة وخمسة وسبعون مسجداً ، بحسب آخر إحصائية ، منها ثلاثة وثلاثون مسجداً ممتازة ؟ وأسماؤها هى :

مسجد الإمام الحسين بالجمالية ، ومسجد القبة الفداوية بالعباسية ، وعمر بن الخطاب بمصر الجديدة ، والغورى بالقبة ، والمطراوى بالمطرية ، والشعرانى بالجمالية ، وبيبرس بالظاهر ، والعشماوى بالعتبة ، وأولاد عنان

بالأزبكية ، والكخيا بالأوبرا ، وشركس بعابدين ، والفتح بعابدين ، والسيدة زينب ، والسلطان الحنفى بحى السيدة ، وعمرو بن العاص بمصر القديمة ، والسيدة سكينة ، والسيدة نفيسة بالخليفة ، والشافعى بحى الإمام الشافعى ، وصلاح الدين بالمنيل ، وشريف بالروضة ، والخازندارة بشبرا ، وعمر مكرم بميدان التحرير ، وأبو العلا ببولاق ، والزمالك الجديد بشارع ٢٦ يوليو ، والجامع الأزهر بحى الأزهر ، والمؤيد بالغورية ، وقيسون والرفاعى ومحمد على الكبير والسلطان حسن بالقلعة ، وفاطمة النبوية بالدرب الأحمر ، ومحمد أبو الدهب بالأزهر ، والأشرف بالغورية .

ويوجد فى القاهرة من المساجد الأهلية المعانة من الوزارة مائة وثمانية وثلاثون مسجداً ، ويوجد بها من المساجد الأهلية غير المعانة ستمائة مسجد .

وهذا البيان بحسب آخر إحصاء حصلنا عليه من الوزارة فى بيان رسمى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

إرم ذات العماد

السؤال :

أريد أن أعرف المراد بإرم ذات العماد التى ذكرها القرآن ، أهى قرية أم مدينة أم قوم ؟

الجواب :

جاء فى بعض التفاسير . عند تفسير قوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ◦ إرم ذات العماد ◦ التى لم يخلق مثلها فى البلاد) أن عاداً جيل من

العرب العاربة أو البائدة ، يقول النسابون إنه من ولد عوض بن إرم بن سام ابن نوح عليه السلام . وسواء صح النسب أم لم يصح فقد كان ذلك الجيل معروفاً باسم عاد ، ويلقب أيضاً بإرم ، وبقى مشهوراً عند العرب بذلك ، ومعنى ذات العماد : سكان الخيام حلا وارتحالا ، أو ذات العماد الرفيعة والقوة المنيعة . عبر بالعماد عن العلو والشرف والقوة . وكانت ديارهم بمنطقة الرمال والأحقاف — جهة حضرموت —

وقد بلغت عاد من الشدة والقوة مبلغاً لم يصل إليه غيرها في عصرها ، ولذلك قال القرآن الكريم : (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) . وقد بين الله تبارك وتعالى كيف فعل بهم فى سور أخرى من القرآن المجيد ، فقال مثلا فى سورة الحاقة : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً) والصرصر الريح الباردة ، والعاتية الشديدة الهبوب لا بركة فيها ، والحسوم المتتابعات المشئومة .

يقول الإمام محمد عبده : « وقد يروى المفسرون هنا حكايات فى تصوير ذات العماد كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله ، فإذا وقع إليك شيء من كتبهم ، ونظرت فى هذا الموضع منها ، فتخط ببصرك ما تجده فى وصف إرم ، وإياك أن تنظر فيه » .

وقد جاء فى تفسير القرطبى من هذا القبيل ما يصعب تصديقه أو قبوله ، فقد نقل أن الرجل من قوم إرم كان طوله خمسمائة ذراع ، والقصير منهم طوله ثلثمائة ذراع ، وهذا باطل لأنه جاء فى الحديث الصحيح قوله : « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً فى الهواء . فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن » .

وكان هؤلاء القوم أهل خيام وأعمدة ، ينتجعون الغيث ، ويطلبون الكلأ ، ثم يرجعون إلى منازلهم الضخمة العظيمة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الدين السماوىّ

السؤال :

ما المقصود بالدين السماوى ؟

الجواب :

فى الأرض ملل ونحل كثيرة . منها ملل وضعية وضعها البشر لأنفسهم أو لغيرهم ، وهناك أديان سماوية ، والدين السماوى نسبة إلى السماء ، والسماء فى لغة الإسلام هى قبلة الدعاء ، ويرمز بها إلى العلو ، لأن الله تبارك وتعالى هو العلى الكبير ، ويراد بالدين السماوى الدين الإلهى الذى جاء فى حقيقة وصفه أنه من عند الله عز وجل، وإن ناله تحريف أو تغيير بعد ذلك . فالموسوية والعيسوية تعدان من الأديان السماوية . لأن كلا منهما قد جاء فى الأصل من عند الله سبحانه . وإن كانا قد نالهما الزيادة والنقص بعد ذلك . والمسلم مطالب بالإيمان بكل الديانات السماوية التى جاءت من عند الله تبارك وتعالى ، وتنزلت كتبها على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، والقرآن الكريم يقول فى سورة البقرة : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورســـله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) .

ويقول فى سورة آل عمران : (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

ومع أن المسلم مأمور من ربه بأن يؤمن بالأديان السماوية التى أشرنا إليها فهو فى الوقت نفسه مأمور من ربه بأن يلتزم الإسلام وهو الدين الخاتم الجامع ، وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

تربية اللحية

السؤال :

هل تربية اللحية واجبة فى الإسلام ؟

الجواب :

يرى بعض الفقهاء أن إطلاق اللحية واجب من الواجبات ، ويرى جمهورة العلماء أن إطلاق اللحية سنة من السنن ، إذا فعلها الإنسان يثاب عليها وإذا تركها لن يعاقب عليها ، ويرى بعض المتأخرين أن اللحية هيئة من الهيئات لا تدخل صميم الأمور الدينية .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

فائدة العمامة

السؤال :

ما فائدة العمامة وما حكمها فى الإسلام ؟

الجواب :

العمامة هى غطاء الرأس عند كثير من الناس ، وخصوصاً الذين يسكنون فى البلاد الحارة أو الصحراوية ، وهم يرون أن العمامة تفيد فى وقاية الرأس وظهر الرقبة من أشعة الشمس المتوهجة ، وقد تعارف الناس كذلك فى البيئات التى تعود أهلها لبس العمامة على أن العمامة مظهر من مظاهر الرجولية والهيبة ، ولقدماء العرب وللسلف الماضى كلمات كثيرة فى التنويه بالعمامة والتمجيد بشأنها ، وقد استوحوا هذه الكلمات من عاداتهم وتقاليدهم .

والعمامة أنواع مختلفة وأشكال متباينة ، وهى هيئة من الهيئات التى لا يتعلق بلبسها فرض أو وجوب فى الإسلام الحنيف .

والله تبارك وتعالى أعلم.

* * *

الأديان فى مصر

السؤال :

هل هناك اختلاف فى الأديان فى مصر ؟ وما هى تلك الأديان ؟ وما نسبة المسلمين فيها ؟

الجواب :

مصر هى كنانة الله فى أرضه ، من أرادها بسوء قصمه الله جل جلاله ،

والأغلبية الغالبة من أهل مصر مسلمون يؤمنون بالله تبارك وتعالى ، ورسوله محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وهناك نسبة من المسيحيين ، وهناك عدد قليل من اليهود ، والكل يعيشون تحت ظل الدولة والقانون ، ويتمتع الجميع بحرية الاعتقاد والتدين ، ويمارس شعائره الدينية فى أمان .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

بين الجن والشياطين

السؤال :

ما الفرق بين العفريت والجن والشيطان وإبليس ؟

الجواب :

الشيطان هو كل عات متمرد ، والشيطان مخلوق خبيث لا يراه الإنسان ، وهو يغرى بالشر والفساد ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الشيطان يبعث سراياه [جنوده] فيفتنون الناس » .

وقيل إن الشيطان والعفريت والجن وإبليس بمعنى واحد . ولكن الجن أنواع ، فمنهم الصالح ومنهم الخبيث .

ولقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » .

وتحدثت السيدة عائشة فقالت : خرج النبى صلى الله عليه وسلم من عندى ليلا فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع [من أثر الغيرة] فقال : مالك

يا عائشة ؟ أغرت ؟ قلت ومالى لا يغار مثلى على مثلك ؟ فقال : أقد جاءك شيطانك ؟ قلت : يا رسول الله أمعى شيطان ؟ قال : نعم . قلت : ومع كل إنسان ؟ قال : نعم . قلت : ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم ولكن ربى أعانني عليه حتى أسلم [أى حتى أنجو من شره] .

وفى كتابى « من أدب القرآن » قلت إن الشيطان خبيث ماكر ، يحتال بشتى الوسائل وأدق المداخل ليتمكن من الإغواء والإضلال ، ولذلك صورته لنا السنة المطهرة بأنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فقد مر اثنان على رسول الله ومعه زوجته صفية ، فأسرعا ، فقال لهما النبى على رسلكما إنها صفية بنت حيى [أى زوجتى] . فقالا : سبحان الله يا رسول الله . فقال : إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما سوءاً .

وأما إبليس فهو رأس الشياطين نعوذ بالله منه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تعلم السحر

السؤال :

ما حكم دراسة علوم السحر والشعوذة ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة : (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس

السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) .

ومن هذه الآية الكريمة نفهم أن الشياطين هم الذين كفروا وهم الذين يعلمون الناس السحر ، وأن تعلم السحر ضار ليس بنافع .

ويحرم على الإنسان أن يتعلم السحر أو الشعوذة إذا كان يريد بذلك خداع الناس أو إضلالهم أو فتنهم أو التأثير السيئ فيهم .

وأجاز بعض العلماء أن يتعلم الإنسان هذه العلوم إذا كان يريد منها كشف حيل المحتالين وفضح أعمال الخداعين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

السؤال :

ما معنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ وما هو النص القرآنى الذى يتعلق بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

الجواب :

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام ، وفرض جليل من فروضه ، والله تبارك وتعالى يقول فى سورة آل عمران :

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الحصانة التى تحفظ وحدة الأمة واجتماعها ، لأن معنى هذا أن الأمة المؤمنة بتناصحها وتواصيها ستحرس قوتها ووحدتها ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ، والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض محتوم على المسلم ، لأن الأمة إذا تركت الدعوة إلى الخير ، وسكت بعضهم لبعض على ارتكاب المنكرات خرجوا عن معنى الأمة . ولذلك يقول القرآن الكريم : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

عبارة « رضى الله عنه »

السؤال :

أحلال أم حرام إطلاق عبارة « رضى الله عنه » على كافة الأموات المسلمين غير الصحابة ، لأن بعض الناس يفتون بتحريم إطلاق هذه العبارة على غير الصحابة ؟

الجواب :

إن عبارة « رضى الله عنه » جملة دعائية يراد منها التوجه إلى الله عز وجل بأن يكتب الرضا والرضوان للشخص المتحدث عنه . وقد جرى العرف من قديم على إطلاق هذه العبارة الدعائية على صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام . لأن الصادق الصدوق يقول فى شأنهم : « الله الله فى أصحابى

لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن أذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » . وقال أيضاً : « لا تسبوا أصحابى ، لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده ، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » . وقال أيضاً : « أصحابى كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » وقال : « أنا أمنة لأصحابى ، وأصحابى أمنة لقومى » .

وبعض العلماء يطلق عبارة « رضى الله عنه » على التابعين وتابع التابعين .

وما دمنا قد فهمنا أن الجملة دعائية فليس هناك حرمة ولا مانع شرعى من أن يدعو الإنسان بها لأى مسلم كان ، وخاصة من استقامت سيرته وظهر الصلاح فى عمله ، والله تبارك وتعالى قد أطلق الرضوان على أنواع من المؤمنين فقال مثلا فى سورة التوبة : (والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) وقال فى سورة المجادلة : (رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله) وقال فى سورة البينة : (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) وقال فى سورة الفتح : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) .

ومن هذا نفهم أن تحريم إطلاق هذه العبارة على المسلمين غير الصحابة تحريم لا يستند على برهان أو دليل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الاختلاف فى أول أيام العيد

السؤال :

نحن فى تنزانيا احتفلنا بأول أيام عيد الأضحى المبارك يوم الثلاثاء الموافق ٢٢ من نوفمبر عام ١٩٧٧ ، واحتفلت مصر والسعودية بأول أيام العيد يوم الأحد الموافق ٢٠ من نوفمبر عام ١٩٧٧ فلماذا لا توحد الدول الإسلامية أعيادها لتحتفل بها فى يوم واحد ؟

الجواب :

إن هذه الظاهرة تثير الأسف بين عقلاء المسلمين جميعاً لأن الإسلام دين الوحدة والتوحيد ، فيجب على المسلمين أن يجمعوا رأيهم وكلمتهم على رأى واحد فى تحديد بدء رمضان وبدء شوال وبدء ذى الحجة الذى تكون فيه وقفة عرفات ، ونحن نعرف أن أهم أركان الحج هو الوقوف بعرفات حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحج عرفة » .

وإذا كان الفقهاء قد اختلفوا فى مسألة ثبوت الهلال ، فمنهم من قال بتعدد مطالع الهلال وأن كل بلد لها مطلع يجب عليها أن تقوم فيه برؤية الهلال ومنهم من يقول متى ثبتت رؤية الهلال بقطر من الأقطار وجب الصوم على جميع الأقطار لا فرق بين القريب من جهة الثبوت والبعيد ، إذا بلغهم من طريق موجب للصوم .

ومن الممكن أن يعتمد المسلمون طريقة التوقيت بالحساب الفلكى .

وفى المجلد الأول من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » تكلمت عن التوقيت للهلال بالحساب ، وذكرت أن بعض المتأخرين من الفقهاء والمفسرين يميلون إلى استحسان الأخذ بحساب الفلك فى تحديد المواقيت ، وعللوا رأيهم بأن إثبات أول رمضان وأول شوال من أجل العبادة هو كإثبات مواقيت

الصلاة التى أجاز العلماء فيها الاعتماد على حساب علماء الفلك ، ولا شك أن الشريعة تهدف إلى اتفاق الأمة المؤمنة كلها فى عبادتها ، ما أمكن التوصل إلى هذا الاتفاق ، ولو تقرر لدى أولى الأمر العمل بالتقاويم والحسابات الفلكية فى تحديد مواقيت شهرى الصيام والحج كمواقيت الصلاة ، لكان ذلك من مظاهر التوفيق والاتحاد بين المسلمين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تعليق المسبحة

السؤال :

ما حكم المسلم الذى يحمل مسبحة فى عنقه أو فى يده ؟

الجواب :

المسبحة هى مجموعة من الخرز أو حبات من أنواع أخرى ، قد يكون عددها ثلاثاً وثلاثين حبة ، ويسمى هذا فى العادة ثلثاً ، لأن مجموعها يرمز به إلى ثلث أسماء الله الحسنى ، وعدد هذه الأسماء كما هو معروف تسعة وتسعون اسماً ، وقد يكون هذا العدد إشارة إلى عدد التسبيحات التى يفعلها الإنسان عقب الصلاة ، فقد ورد فى السنة ما يفيد أن الإنسان يسبح ربه عقب الصلاة ثلاثاً وثلاثين مرة ، ويحمده ثلاثاً وثلاثين مرة ، ويكبره ثلاثاً وثلاثين مرة ، وقد تكون المسبحة مكونة من تسع وتسعين حبة مقسمة إلى ثلاثة أثلاث .

ولم يرد أن هذه المسبحة المعروفة الآن كانت موجودة فى عهد الرسول

صلى الله عليه وسلم ، ولا فى عهد الصحابة أو التابعين ، بل إن بعض المؤرخين يرى أن هذه المسبحة دخلت المجتمع الإسلامى من مجتمع غير مسلم ، وعلى ذلك فهى بدعة لم تكن معروفة ، وقد نقل منذ صدر الإسلام أن السلف الصالح كان يستعين فى عد التسبيح بالأصابع ، وقد جاء فى بعض الروايات أن بعضهم كان يستعين فى عد التسبيحات بعد النوى ، فإذا أخلص الإنسان النية فى اتخاذ المسبحة للاستعانة بها فى عد التسبيحات ، أو ذكر أسماء الله الحسنى ، لم يكن فى الأمر بأس شديد . وأما إذا أراد الإنسان من تعليق السبحة حول الرقبة للتظاهر والادعاء ، أو النفاق والرياء ، كان ذلك عملا سيئاً لا يليق بمسلم أن يفعله ، وكذلك يقال إذا أمسك الإنسان بالمسبحة فى يده للتظاهر أو التزين ، أو للعبث بحباتها دون اعتبار أو اتعاظ ، كما يفعل ذلك كثير من الناس اليوم ، لأن هذا عمل ينبغى أن يتنزه عنه المسلم ويبتعد عنه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

حكم الشطرنج

السؤال :

هل تجوز لعبة الشطرنج فى الإسلام ؟

الجواب :

الشطرنج لعبة معروفة تجرى بين اثنين وتعتمد على التفكير والكر والفر ، وأخذ الاحتياط من هجوم الخصم ، وملاحظته فى تحركاته وتصرفاته فى القطع التى يلعب بها ، ومن هنا قالوا إن لعبة الشطرنج تعود الإنسان التفكير والتدبير

وأخذ الأهبة للهجوم والدفاع بحسب تقدير وتدبير ، ومن هنا استثناها بعض الفقهاء من بين الألعاب الداخلة فى اللهو المحرم النرد واللعب بالورق [الكوتشينة] ، ومع هذا اشترط من أجاز الشطرنج ألا يكون اللعب به على طريقة الميسر والقمار ، بأن يكون هناك جعل أى أجر لمن يفوز فى اللعب ، وإلا كان ذلك حراماً ، وكذلك اشترطوا ألا يصحب اللعب بالشطرنج أى منكر من المنكرات أو معصية من المعاصى ، واشترط كذلك ألا يدمن اللاعب اللعب بالشطرنج حتى ينسيه واجباته الدينية أو الدنيوية ، وألا يشغله الشطرنج عن أداء فريضة من الفرائض أو واجب من الواجبات .

ولو رجعنا إلى كتاب « الشرح الصغير » فى مذهب المالكية لوجدنا أنه يذكر الشطرنج من الأمور التى تسقط قبول شهادة الإنسان ، وأن الشطرنج لو كان على طريقة القمار لأصبح من الكبائر لأنه من أكل أموال الناس بالباطل ، وهو داخل فى الفسق وجاء فى الكتاب المذكور أن لعبه حرام ، وقيل مكروه وهناك قول بجواز لعبه فى الخلوة مع نظيره ، لا مع الأوباش ، وعلى كل من القول بالحرمة والكراهة ترد الشهادة بلعبه إذا كان هناك إدمان على لعبه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الاستمناء خوفاً من الزنى

السؤال :

ما هى جريمة من استمنى بيده خوفاًمن الزنى ؟ هل يقام عليه الحد ؟

الجواب :

إذا كان من استمنى بيده قد فعل ذلك خوفاً من الوقوع فى الزنى بحيث إنه إذا لم يفعل ذلك الاستمناء وقع فى الزنى ، فإن ذلك يكون من باب قولهم : إن الضرورات تبيح المحظورات ، وعلى هذا لا تكون هناك جريمة تستوجب إقامة الحد كما جاء فى السؤال .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

عقاقير لجلب الرزق

السؤال :

هناك أدوية محلية تصنع من عقاقير مختلفة ، ومن هذه الأدوية ما يقال عنه إنه خاص لجلب الرزق فهل يجوز تعاطى هذه الأدوية ؟

الجواب :

إن الله تبارك وتعالى هو الرزاق ذو القوة المتين . وقد طالب عباده بالسعى والعمل واكتساب الرزق من وجوه طيبة ووسائل مشروعة . وقد حث عباده مثلا على بذل الجهد وسلوك الطرق التى تهدى إليه الفطرة والعقل

السليم لكسب الرزق الحلال من الطريق الحلال ، فالله تبارك وتعالى يقول مثلا : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) ويقول أيضاً : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) ويقول كذلك : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى) ويقول أيضاً : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

ومن الغفلة الواضحة أن يعتقد المسلم أن هناك عقاقير يصنعها بعض الناس لجلب الرزق وتحقيق الخير ومنع الشر فالله تبارك وتعالى هو النافع الضار ، وإليه يرجع الأمر كله وهو سبحانه وتعالى القائل : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاعتقاد فى مثل هــذه الأشياء أو الركون إليها ، لأنها تنطوى على روح الإشراك بالله وإدخال غيره فيما هو من اختصاصه وعلمه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

التنبؤ بالمستقبل

السؤال :

ما رأى الإسلام فى قراءة الكف وما أشبه ذلك ؟ وهل يجوز للإنسان كالفلكى مثلا التنبؤ بالمستقبل ، مع أن المستقبل بيد الله الواحد القهار ؟

الجواب :

شاعت بين المسلمين بدع كثيرة شائنة وأوهام سخيفة عديدة ، منها

قراءة الكف ، وقراءة الفنجان ، وقراءة الأثر ، وقراءة البخت والحظ ، واستنباء الرمل والودع ، وغير ذلك من الأمور التى تدل على العقلية الساذجة من جهة المعتقدين بهذه الأوهام ، والمكر والخداع من جهة المستغلين والمحتالين ، مما لا يقره دين ولا عقل ، فالغيب أمر محجب استأثره الله بعلمه ، وفى المجلد الرابع من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » تحدثت عن بعض هذه الأوهام واستشهدت بقول الله جل جلاله : (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) وقوله فى سورة هود : (ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) وقوله فى سورة النمل : (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون) .

وادعاء علم المستقبل عن طريق التنجيم أو التنبؤ بالمستقبل أو غيره من الوسائل أمر يحرمه الإسلام ، وهو من أعمال الكهانة التى نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عنها ، فقد روت السيدة عائشة أنها قالت : « سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس عن الكهان ، فقال : ليسوا بشىء » وعن الرسول أنه قال : « من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر » والسحر حرام ، وقال أيضاً : « من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

قراءة الكتب غير الإسلامية

السؤال :

ما حكم قراءة الكتب الدينية غير الإسلامية والاحتفاظ بها ؟

الجواب :

الطريق إلى معرفة الإسلام وفهم تعاليمه يكون من مصدرين هما القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، والله تبارك وتعالى يقول : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) ويقول فى شأنه أيضاً : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ، ورحمة للمؤمنين) . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله وسنتى » .

فشأن المسلم أن يجد فى القرآن والسنة غذاءه ودواءه وضياءه ، وأن يعكف على قراءة الكتب الإسلامية التى تعاونه على فهم القرآن والسنة وتفسير نصوصهما وتبيان أحكامهما .

وقد يوجد هناك من الدعاة أو العلماء أو الباحثين فى المعتقدات والأديان ما يجعلهم فى حاجة إلى الاطلاع على الكتب الدينية غير الإسلامية ، وقد يكون الغرض من ذلك هو الرد على الشبهات والمفتريات التى قد توجه إلى الإسلام وتعاليمه وفى هذه الحالة لا مانع بالنسبة إلى هذا الداعية أن يطلع على الكتب الدينية غير الإسلامية أو يحتفظ بها عنده ليتمكن عن طريق الاطلاع عليها الدفاع عن تعاليم الإسلام ومبادئه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

حرمة الشعوذة

السؤال :

هل يجوز للمسلم أن يصنع دواء يردد عليه ألفاظ الشعوذة قبل استعماله ؟

الجواب :

الإسلام هو دين العقل والفهم والإدراك ، والنافع والضار هو الحق جل جلاله وفى سورة آل عمران يقول عز من قائل : (**قل اللهم مالك الملك تؤتى** الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) ويقول القرآن فى سورة الشعراء على لسان إبراهيم : (الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين) وهذا المشعوذ قد ارتكب أكثر من خطأ ، فهو قد تطفل على الطب وصنع دواء وهذا ليس من اختصاصه ، وهو قد ردد ألفاظ الشعوذة على الدواء ، متوهماً أن تلك الألفاظ هى التى تعطيه قوة الشفاء .

وقد جاء فى كتاب فتاوى شرعية أن الشريعة الغراء كما حافظت على الأبدان بوقايتها من المحرمات التى تضعفها ، أو تهدمها كالمخدرات والمسكرات ، حافظت على العقول مما يوهنها أو يفسدها . ومن ذلك منعها من الجرى وراء هذا السراب ، حتى يبقى ميزان التفهم ومدار العلم سليماً من الآفات ، وكم يكون الإنسان سعيداً إذا أخذ فى أمره كله بالأسباب الطبيعية ، وفكر بعقله مهتدياً بتجاربه واستشارته ذوى الرأى الناضج . ثم أقدم على ما يريد معتمداً على الله تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

وكم يكون شقياً إذا ظل حياته عبد الأوهام والخرافات . حليف الشعوذة

والتكهنات ، يقلد الخادعين ، ويجرى وراء الدجالين ، ويلغى عقله الموهوب له للتفكر والتبصر .

وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الذى خلق الداء خلق الدواء » وقال فى حديث آخر : « ما خلق الله داء إلا خلق له دواء إلا الهرم » .

وعلى هذا لا يجوز لهذا المسلم أن يردد هذه الألفاظ المشعوذة ، وألا يعتقد هذا الاعتقاد الضال . .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

جنة آدم وحواء

السؤال :

يقول الله تعالى فى سورة البقرة : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ٠ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين)

فهل هذه الجنة تختلف عن الجنة التى أعدها الله للمتقين ؟ وإذا كان آدم وزوجته قد أخرجا من الجنة فكيف نوفق بين هذه وبين قوله تعالى فى سورة الحجر : (لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) . وهل هذه الجنة لا تزال موجودة حتى الآن ؟ وأين موقعها ؟

الجواب :

اختلف علماء المسلمين فى المراد بالجنة : أهى البستان أو المكان الذى تظلله الأشجار ، أم هى الدار الموعود بها فى الآخرة ، والمحققون من أهل

السنة يرون الرأى الأول . وقال الإمام الماتريدى : نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين كان آدم وزوجه منعمين فيها ، وليس علينا تعيينها ، ولا البحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ، ولا دليل لمن خاض فى تعيين مكانها .

وعلى هذا فلا تعارض بين ما ذكره الله هنا ، وما ذكره فى سورة الحجر فى قوله تعالى : (لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) لأن الإخبار بعدم الخروج ورد فى شأن الجنة التى وعد الله بها المتقين ، وهى غير الجنة التى سكن فيها آدم وزوجته .

ولم يخبرنا الله بشىء عن وجود هذه الجنة ، أو عدم وجودها ، وكذلك لم يعين لنا مكانها إن كانت موجودة ، فليس هناك دليل يقينى على تعيين ذلك .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

كلام الله مع جبريل

السؤال :

كيف يكلم الله سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام؟

الجواب :

لا يستطيع أحد أن يعرف حقيقة الطريقة التى يوصل بها الله تعالى أقواله وأحكامه إلى جبريل عليه السلام ، لأن الله مخالف للحوادث والمخلوقات ، وكما قال الأولون كل ماخطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، والقرآن الكريم

يقول عن ذات الله سبحانه وتعالى : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير). وكل ما يجب الإيمان به هو أن الله تعالى قادر على أن يخلق فى جبريل قوة خاصة تجعله يفهم كلام الله سبحانه بالطريقة التى يريدها ، وفوق تدبيرنا لله تدبير .

والله تبارك وتعالى أعلم.

* * *

نطق الشهادتين

السؤال :

جاء إلى مدينتنا شخص يقول إن نطق الشهادتين الصحيح هو أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » دون الإدغام عند النطق ، فما الرأى فى ذلك ؟

الجواب :

أولا كان ينبغى لهذا الشخص ألا يثير زوبعة بسبب هذه الجمله كان ينبغى له أن يمتنع عن تخطئة الناس جميعاً لأنهم يتبعون طريقة لإدغام فى نطقهم بشهادة التوحيد (أشهد ألا إله إلا الله) .

لأن هذا الإدغام هو الطريق الصحيح لنطق هذه العبارة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الوفاء بالنذر

السؤال :

نذر شخص إذا نجح أن يتصدق بمائة ريال ، ولكنه بعد نجاحه لم يستطع الوفاء بالنذر فماذا يعمل ؟

الجواب :

يلاحظ أن بعض الناس يتوسعون فى النذر توسعاً لا يقدرون عواقبه أو نتائجه ، فترى الواحد منهم تحت إلحاح الرغبة والطمع فى تحقيق ما يريد ينذر بما يعجز عن الوفاء به أحياناً ، ولذلك كره بعض الفقهاء النذر أصلا ، لأنه يشبه عمل البخلاء الذين كأنهم يشترطون على الله ألا يفعلوا الطاعة أو العبادة إلا فى مقابل الحصول على شىء يريدونه ويطلبون من الله إنجازه .

ومتى نذر الإنسان على نفسه شيئاً فقد صار واجباً عليه الوفاء بما نذره ، لأن النبى عليه الصلاة والسلام قد أمر بالوفاء بالنذر وقال : من نذر وسمى فعليه الوفاء بما سمى ، ويشبه الشىء المنذور أمانة فى عنق من نذر به ، فإن استطاعه أداه وقام به ، وإن عجز عجزاً مطلقاً ودائماً فالمرجو أن يغفر الله له .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

التماس بركة الأشياء

السؤال :

هناك شخص يذهب إلى مكان ما ، ويحمل معه شيئاً ما ، ويقرأ شيئاً ما ، ويعالج بشيء ما ، لينال بركة هذه الأشياء ، فما رأيكم في ذلك ؟

الجواب :

هكذا جاء السؤال ، ولم يتضح لنا اتضاحاً كافياً ، ولم نعرف حقيقة ما يفعله ذلك الشخص المسئول عنه ، ومع ذلك نقول للسائل : إن الإسلام هو دين العقل والعلم ، وطريقه كما عبر عنه القرآن الكريم هو الصراط المستقيم : (اهدنا الصراط المستقيم) . وقد جعل الله تبارك وتعالى لهذا الكون سنناً ثابتة وقواعد واضحة تقوم على العلم والعمل واتباع السنن الإلهية : (ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

والتماس البركة من الأشياء كما جاء في السؤال ليس بأن يلبس الإنسان ثوباً ما ، أو يذهب إلى مكان ما ، أو يستعمل شيئاً ما لم يثبت عند أهل الخبرة والمعرفة والحذق أنه علاج ودواء ، وإنما يكون إلتماس البركة في الأشياء عن طريق الإيمان والإخلاص وصدق الدعاء وعمق الرجاء في فضل الله وتوفيقه ، مع السعي وبذل الجهد واتباع الوسائل التي شرعها الله تعالى لعباده في هذه الحياة .

والله تبارك وتعالى أعلم.

* * *

انشقاق السماء

السؤال :

نسمع عن زلزال الأرض فهل يحدث كذلك انشقاق فى السماء ؟

الجواب :

ذكر الله تبارك وتعالى زلزال الأرض فى قوله تعالى : (إذا زلزلت الأرض زلزالها ۝ وأخرجت الأرض أثقالها ۝ وقال الإنسان مالها ۝ يومئذ تحدث أخبارها) والمعنى حديث عن زلزال الأرض يوم القيامة ، إذا حركتها القدرة الإلهية حركة شديدة ، فاضطربت أقوى ما يكون من التحريك والاضطراب الذى تطيقه وتحتمله ، وأخرجت الأرض مما فى بطنها من الكنوز والموتى .

وكذلك ذكر القرآن الكريم انفطار السماء وانشقاقها فقال فى سورة الانفطار : (إذا السماء انفطرت ۝ وإذا الكواكب انتثرت) أى انشقت ، وجاء فى سورة الفرقان : (ويوم تشقق السماء بالغمام) وانشقاق السماء هو انصداع نظامها ، حيث لا يبقى أمر ما فيها على ماتراه اليوم . ويقول القرآن أيضاً : (إذا السماء انشقت) والمراد بالانشقاق هو فساد تركيبها واختلال نظامها ، عند ما يريد الله خراب هذا العالم الذى نحن فيه وهو يكون بحادثة من الحوادث التى قد ينجر إليها سير العالم . كأن يمر كوكب فى سيره بالقرب من كوكب أخر ، فيتجاذبا فيتصادما ، فيضطرب نظام الكون بأسره . ويحدث من ذلك غمام وأى غمام ، يظهر فى مواضع متفرقة

من الجو والفضاء الواسع ، فتكون السماء قد تشققت بالغمام ، واختل نظامها حال ظهوره .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

السموات والأرض

السؤال :

يقال إن هناك سبع سموات وسبع أراض ، فأين توجد هذه السموات والأرضين ، وما نوع الأشخاص الذين يسكتونها ؟

الجواب :

إن القرآن الكريم يصرح بأن الله حلق سبع سموات وخلق كذلك سبع أرضين فيقول فى سورة الطلاق : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً) . والسموات هى الموجودة فى الآفاق العليا ، واللغة تقول إن كل ما علاك فهو سماء ، والبحث فى طبقات السموات والأرض ، وفى طبيعة كل طبقة ، وتحديد مكانها وحدودها ومساحتها أمر يطول بحثه عن هذا المجال .

وفى القرآن الكريم ما يشير إلى أن الأحياء مبثوثة فى السموات والأرض ، فذلك حيث يقول الله تبارك وتعالى فى سورة الشورى : (ومن آياته خلق السموات والأرض ومابث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير)

والدابة اسم لكل حيوان ذكراً كان أو أنثى ، عاقلا أو غير عاقل ، وغلب على غير العاقل وهو يشمل الإنسان وغيره ، وقد جاء فى بعض التفاسير أن هناك أحياء مبثوثة فى كل مكان فوق سطح الأرض ، وفى أعماق البحار ، وفى أجواز الفضاء ، وفى أرجاء السموات ، وهذه الأحياء الكثيرة لا يعلم منها الإنسان إلا النذر اليسير ، ولا يدرك منها إلا القليل ، والله وحده هو العليم بفصائلها وحقائقها ، فقد أحاط بكل شىء علماً .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

الله الفاعل لما يشاء

السؤال :

هنا أقوال مشبوهة تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلانى فى احتفال الموالد ، كقوله ، « نعم الولى وليها » و « أنا السماء بانيها والنار أطفيها » . فما هو القول الفصل فى ذلك ؟

الجواب :

الطريقة القادرية هى — كما جاء فى المجلد الخامس من كتاب « يسألونك فى الدين والحياة » — إحدى الطرق الصوفية المنتشرة فى أكثر من بلد من بلاد الإسلام .

ومؤسس هذه الطريقة هو الشيخ عبد القادر الجيلانى المولود فى القرن الخامس الهجرى ، وهو من شيوخ العلم والزهد والتصوف ، وله كلمات منها : « يارب كيف أهدى إليك روحى ، وقد صح بالبرهان أن الكل لك » . وكان يقول لأتباعه : « اتبعوا ولا تبتدعوا ، واجتمعوا ولا تتفرقوا »

وكان يقول : « إذا وجدت فى قلبك بغض شخص أوحبه ، فاعرض أعماله على الكتاب والسنة ، فإن كانت محبوبة منهما فأحبه ، وإن كانت مكروهة فاكرهه ، لئلا تحبه بهواك ، وتبغضه بهواك » . قال تعالى : (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

وقد انتشرت القادرية الجيلانية فى غرب أفريقيا ، ولا يجوز لنا أن نقبل من الكلام والحكم إلا ما أقره القرآن والسنة أو مالم يتعارض معهما ، ونحن نعرف أن الله جل جلاله هو الفاعل المختار وهو الذى بيده ملكوت السموات والأرض ، وهو سبحانه يقول فى سورة آل عمران : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) .

وقد غالى بعض الناس فى شيوخهم من الصوفية ، ولا نعتقد أنه يقر أنه بانى السماء أو هو الذى يقوم بإطفاء النار ، فذلك من اختصاص الله تبارك وتعالى وهو القائل فى سورة إبراهيم : (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام * يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مكانة مكة والمدينة

السؤال :

هل يجوز دخول المشركين والكفار مكة والمدينة ؟

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم) .

وقد ذكر المفسرون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل أبا بكر رضى الله عنه أميراً على الحج فى السنة التاسعة للهجرة ، وأن يبلغ الناس أنه لا يحج بعد ذلك العام مشرك ، وكذلك أمر علياً رضى الله عنه أن يتبع أبا بكر فيقرأ على الناس أوائل سورة التوبة يوم الحج الأكبر ، وأن ينادى بألا يحج بعد ذلك العام مشرك ، وقد كانت الآية السابقة من الآيات الأربعين التى قرأها علىّ على الناس .

وقد أخبر الله تعالى فيها بأن المشركين نجس ، والنجس هو القذر غير النظيف ، وإذا وصف المرء بأنه نجس أريد به أنه شرير خبيث النفس ، وإن كان طاهر البدن والثوب فى الحس ، لأن النجاسة هى القذارة ، والقذارة ضربان : ضرب يدرك بالحاسة ، وضرب يدرك بالبصيرة ، وقد وصف الله المشركين بالثانى فقال : (إنما المشركون نجس) ، أى ليس المشركون إلا أنجاساً فاسدى الاعتقاد ، يشركون بالله مالا ينفع ولا يضر ، فيعبدون الرجس من الأوثان والأصنام ، ويدينون بالخرافات

والأوهام ، ولا يتنزهون عن النجاسات والآثام ، ويأكلون الميتة والدم من الأقذار الحسية ، ويستحلون القمار والزنى من الأرجاس المعنوية .

وقد اختلف الفقهاء – كما يذكر تفسير المنار – فى دخول غير المشركين من الكفار المسجد الحرام وغيره من المساجد وبلاد الإسلام ، وقد لخص الإمام البغوى أقوالهم فى ثلاثة أقسام :

الأول – الحرم فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال ، ذمياً كان أو مستأمناً لظاهر هذه الآية السابقة ، وبه قال الشافعى وأحمد ومالك ، فلو جاء رسول من دار الكفر – والإمام فى الحرم – فلا يأذن له فى دخول الحرم ، بل يخرج إليه بنفسه أو يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم ، وأجاز أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم ، بإذن الإمام أو نائبه فى الحكم .

الثانى – الحجاز من بلاد الإسلام ، وحده ما بين اليمامة واليمن ونجد ، والمدينة النبوية الشريفة قيل : نصفها تهامى ونصفها حجازى ، وقيل هى كلها حجازى ، وهو الصحيح فى عرف الإسلام ، وقيل إن تبوك من الحجاز . فيجوز للكفار دخول أرض الحجاز بالإذن ، ولكن لا يقيمون فيها أكثر من إقامة المسافر وهو ثلاثة أيام . وقد جاء فى الحديث : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلماً » . ويقول الحديث أيضاً : « لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب » .

الثالث – سائر بلاد الإسلام فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان وذمة ، أى بأحد الثلاثة ، فالمعاهد هو الأجنبى الذى بينه وبين الحكومة

الإسلامية معاهدة سلم ، والمستأمن الحربى الذى يدخل بأمان كالرسل ، والذمى التابع للحكومة الإسلامية .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الذين يظلهم الله بظله

السؤال :

من هم الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة ؟ وهل عددهم سبعة ؟

الجواب :

جاء فى الحديث النبوى الشريف المتفق عليه أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله : اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب [أى نسب وحسب] وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً [منفرداً] ففاضت عيناه » .

وهؤلاء سبعة ، وكثير من الناس يظنون أن الذين يظلهم الله بظله سبعة فقط ، هم الذين جاء ذكرهم فى الحديث السابق ، ولكن العلماء ذكروا أن العدد فى الحديث لا مفهوم له ، وأن الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ، أكثر من سبعة ، فمنهم من أنظر معسراً أو وضع عنه ، ومنهم

المقسطون الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا ، فهم عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن .

ومنهم من راعى مواقيت الصلاة ، ومنهم الذى إن تكلم تكلم بعلم ، وإن سكت سكت على حلم ، ومنهم تاجر يبيع ويشترى ولا يقول إلا حقاً ، ومنهم من كفل يتيماً أو أرملة ، ومنهم من أعان مجاهداً فى سبيل الله ، أو أعان مكاتباً فى فكاك رقبته ، أو أعان مديناً فى عسرته ، ومنهم من لا يعق والديه ، ومن لا يمشى بالنميمة ، ومن لا يحسد الناس على ما أتاهم الله من فضله ، ومنهم رجل يحب الناس لجلال الله ، وحيث توجه علم أن الله معه ، ومنهم حملة القرآن العاملون به ، ومنهم صاحب الخلق الحسن .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الدعاءُ بغير العربية

السؤال :

هل يجوز للإنسان أن يدعو بغير اللغة العربية فى الصلاة ؟

الجواب :

الدعاء رجاء ومناجاة من العبد إلى الله جل جلاله ، ليحقق للإنسان خيراً أو يدفع عنه شراً ، والقرآن الكريم يقول : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) وجاء فى سورة غافر : (ادعونى أستجب لكم) وجاء فى سورة آل عمران : (إنك سميع الدعاء) والله وحده هو المجيب للدعاء ، وهو سبحانه يعلم كل دعاء لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ونحن نعلم أن لغة الإسلام هى لغة القرآن وهى اللغة العربية ، فقد أنزل الله القرآن كتاباً عربياً مبيناً ، فالأساس هو أن يدعو الإنسان بلغة القرآن وهى العربية ، سواء أكان الدعاء فى الصلاة أم خارجها . وأوجب بعض الفقهاء أن تكون كلمات الصلاة باللغة العربية ولكن إذا كان الداعى المسلم غير عربى ، وهو جاهل بالعربية عاجز عن النطق بها ، لأنه جديد على الإسلام ، فقد أجازت بعض المذاهب أن يقرأ الفاتحة بغير العربية ، فيقول ترجمتها باللغة التى يعرفها ، والقرآن يقول فى سورة الروم : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين) . وقال العلماء إنه يجب على المسلم غير العربى الذى يجهل النطق بها أن يتعلم الإنسان المسلم العربية حتى يستطيع أن يصلى ويقرأ الفاتحة ويفهم ما يتلو من القرآن . وقد ذكر الإمام الشافعى أن ذلك فرض على كل مسلم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

باب الاجتهاد

السؤال :

ألا يزال باب الاجتهاد مفتوحاً ؟ ومن هو المجتهد ؟

الجواب :

روى عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه قال : « لا يحل لأحد أن يفتى فى دين الله إلا رجلا عارفاً بكتاب الله ، بصيراً بحديث رسول الله ، بصيراً باللغة الفصحى والشعر الجيد ، وما يحتاج إليه منها فى فهم القرآن والسنة ، ويكون مع هذا مشرفاً على اختلاف أهل الأمصار ، وتكون له

قريحة وقادة ، فإذا كان هكذا فله أن يفتى فى الحلال والحرام . وإذا لم يكن هكذا فليس له أن يفتى » .

ولقد كان المجتهدون فى عصور السلف هم أعلام الأمة الذين تخصصوا فى العلم بكتاب الله المجيد وكانوا أصحاب بصر وبصيرة بالسنة النبوية المطهرة ، وأصحاب إحاطة بها وبعلومها جهد الطاقة ، وكانوا حاذقين متضلعين فى علوم اللغة وقواعدها وأساليبها ، وكانوا أصحاب دراية واسعة بالناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد ، والخاص والعام ، وغير ذلك .

فإذا أولى الإنسان هذه الفنون وحذقها ، وكان صاحب نية طيبة وإخلاص صادق لخدمة الكتاب والسنة ، واستأنس بما سبقه من بحوث العلماء وآراء الفقهاء وأقوال الأئمة ، كان له أن يقبل على ساحة الاجتهاد المتهيئ لكل عليم بصير خبير من الراسخين فى الفقه والنظر فيجتهد فى رزانة وحكمة وخشوع لله تبارك وتعالى .

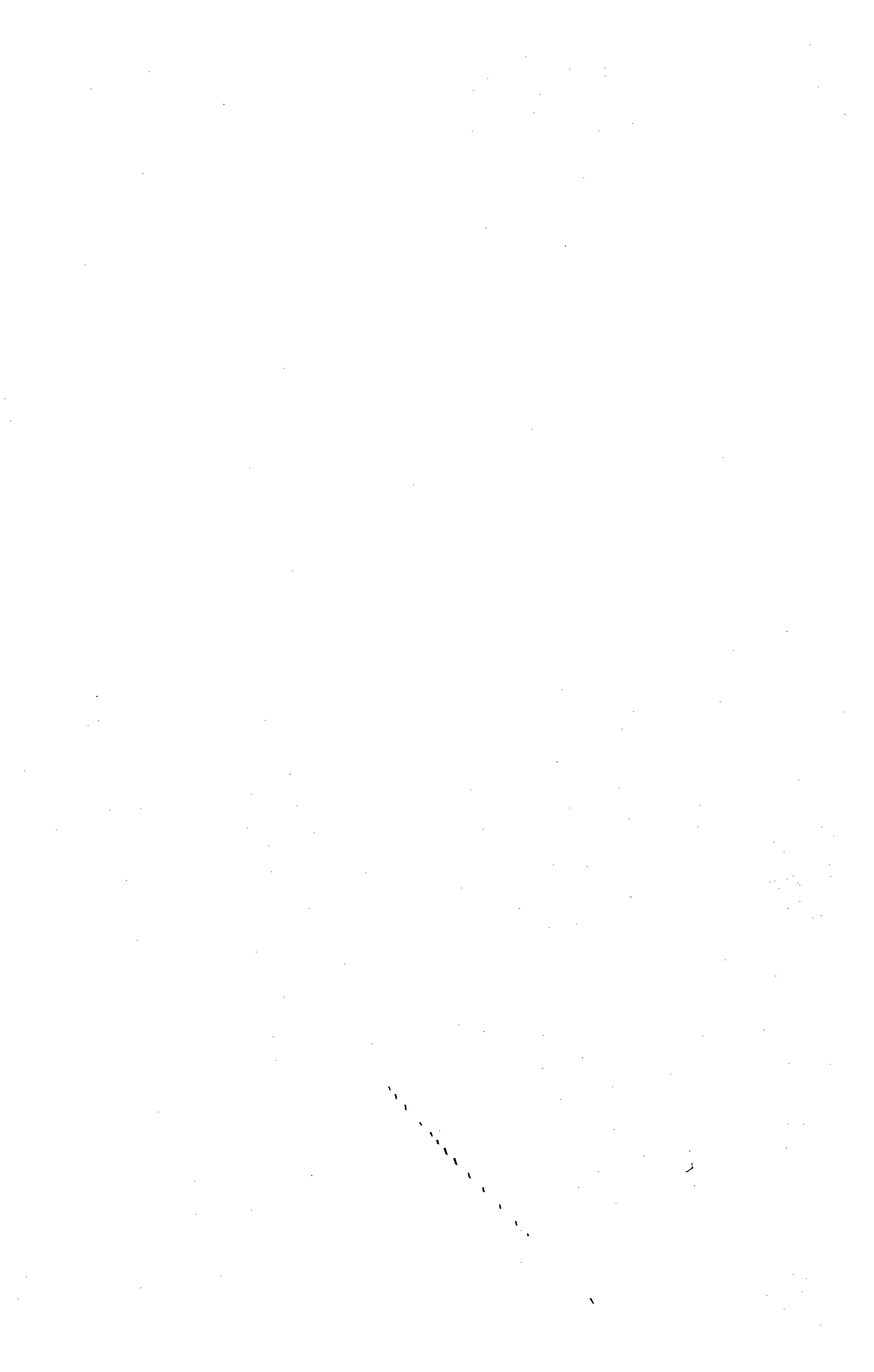
وهذا هو الإمام ابن تيمية مثلا يحذر من التهجم على كتاب الله العزيز ، دون دراية وبصيرة وهو يذكر أن قوماً اعتقدوا جهلا أن معانى التنزيل المجيد كما شاءوا وأرادوا ، ثم حملوا ألفاظه على ما توهموا أو اشتهوا فضلوا وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل . وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

وبهذا يتبين أن باب الاجتهاد مفتوح فى كل عصر . لا يجوز أن يقتحمه إلا من توافرت له شروط الاجتهاد وهى كثيرة عديدة ، لا يصلح لها إلا من أوتوا العلم والفقه والخبرة والاطلاع الواسع .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الإسلام والتنمية



الإسلام والتنمية

السؤال :

نريد بياناً شافياً عن موقف الإسلام من التنمية ، مع الاستشهاد بآيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام .

الجواب :

« التنمية » فى لغة العرب – لغة الإسلام – هى الزيادة . من قولهم : نما المال نمواً زاد : وأنماه زاده ، والتنمية عند علماء الاقتصاد هى سياسة تنصرف إلى العمل على زيادة الدخل القومى بمعدل أكبر من معدل تزايد السكان بحيث يزداد متوسط نصيب الفرد منه ، ويتطلب هذا الهدف تغيير البنيان الاقتصادى ، وذلك عن طريق إيجاد الجهاز الإنتاجى المتقدم ، ورفع الإنتاجية فى جميع المجالات .

ويرى علماء الاقتصاد أن هناك عوامل مساعدة للتنمية ، منها ما يلى :

١ – اكتشاف موارد جديدة للثروة .

٢ – تراكم رأس المال اللازم للاستثمار .

٣ – استخدام الفن الإنتاجى المتقدم .

٤ – تحسين الكفايات والمهارات الإنتاجية للعامل .

٥ – تحسين الأجهزة والتنظيمات الإدارية .

كما تستلزم التنمية الموفقة ما يلى :

١ – أن يكون الوطن بأيدى أصحابه وأهليه حراً ، يتصرفون فيه كما يجب عليهم ، وكما يلزم لهم ، بلا تبعية ولا عبودية .

٢ – وحدة أبناء هذا الوطن ، حتى لا يحرقوا طاقاتهم بنيران الصراع الطبقى :

٣ – العمل من كل قادر على العمل أو صالح له :

٤ – مضاعفة العمل فى مجالات البناء والتعمير والاستثمار :

* * *

وإذا كان المعنى المشهور للتنمية هو المعنى الاقتصادى المادى ، فإن التنمية قد يقصد بها معنى التقدم العام الشامل للنواحى المادية والنواحى الأخلاقية ، وبذلك تشمل التنمية النواحى الاقتصادية والاجتماعية ، ويقال لها فى هذه الحالة : التنمية الشاملة ، ومن هنا ترتبط التنمية بعدة عوامل فى المجتمع ، ومن بينها القيم الأخلاقية والاجتماعية ، ولذلك تقول طائفة من الباحثين :

« تعتمد زيادة الدخل القومى – وبالتالى متوسط نصيب الفر دمنه – على الموارد الإنتاجية المتاحة ، وعلى الكيفية التى تستخدم بها استخداماً مثمراً ، كما تعتمد أيضاً على أوضاع النظام الاجتماعى والسياسى الذى تمارس فى محيطه وجوه النشاط الاقتصادى كافة ، فالقيم الاجتماعية والثقافية والخلقية ، والنظم القانونية السائدة ، إن لم تكن تعطى أهمية للعمل ، فإنه لن يكون من وراء زيادة المعدات الرأسمالية . أى زيادة فى حجم الإنتاج ورفع مستوى الإنتاجية ».

والتنمية الشاملة تضم تحت جناحيها تنمية الموارد الطبيعية ، والمحصولات الزراعية ، والمواد الاستخراجية ، والمنتجات الصناعية ، والخدمات المختلفة :

ومن المعروف أن العالم الآن يسيطر على كثير من نواحيه نظامان اقتصاديان هما الرأسمالية والشيوعية ، وهما يأخذان بالتنمية ، كل منهما يسير على عقيدته

وفلسفته وطريقته الخاصة ، وكل منهما يبذل ما يستطيع من جهد لشد الأبصار والبصائر إلى رحابه والتعلق بأسبابه ، وقد نسى هذا العالم أو تناسى أن هناك نظاماً سبقهما وتألق قبلهما ، وهو « النظام الإسلامى » الذى غفل عنه أهلوه ، فلم يأخذوا به ، ولم يدعوا غيرهم إليه ، وهذا النظام الإلهى الربانى ، الدينى الدنيوى ، الروحى المادى ، يذكرنا بعدة حقائق :

١ – الله ، وهو الخالق لكل شىء ، القائم على كل شىء ، وإليه يصير كل شىء : (ألا إلى الله تصير الأمور) .

٢ – الكون ، وهو كتاب الله المنظور ، بما فيه من طاقات وإمكانات فى الأرض ، بسطحها وجوفها ، وفى السماء بأرجائها ، وفيما بين الأرض والسماء ، وهذا الكون كله مسخر من الله المنعم لخدمة الإنسان ، حتى يقول القرآن فى سورة لقمان : (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) .

٣ – القرآن ، وهو كتاب الله المقروء ، الذى يتضمن من الأصول والأسس والمبادئ ما يضمن للإنسانية سعادتها فى الدنيا ، ونعيمها الباقى فى الآخرة ، إن استجابت إليه والتزمت به : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

٤ – دعوة الإسلام بما تتضمن مصادرها من عقائد وعبادات وأخلاق وتكوين للفرد وتنظيم للمجتمع .

٥ – بنو الإنسان : وهم عباد الله الذين يريد الله بهم اليسر ، ولا يريد بهم العسر ، والذى يدعوهم إلى الخير ، ويحذرهم الشر ، ولذلك يقول القرآن فى سورة الإسراء : (ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات . وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) .

إن تذكرنا لهذه الحقائق الخمس ينير أمامنا الطريق لكى نفهم أن الإسلام فيه نظام اقتصادى خاص ، ونظام اجتماعى خاص ، ولا يصح أن نفهم الإسلام فى ضوء مقاييس شرقية أو غربية ، بل يجب أن نفهمه فى ضوء أنه تشريع إلهى مستقل ، وهدى ربانى متكامل : (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) .

* * *

ونستطيع أن نعرف جوانب من فضل الإسلام على البشرية إذا أدركنا الفوارق الشاسعة بين ما كانت عليه الإنسانية قبل الإسلام ، والمستوى الرفيع الذى بلغته الإنسانية على يد الإسلام .

كانت الفوضى ضاربة أطنابها قبل الإسلام ، فى أمور الدين وأمور الدنيا ، فالوثنية مستأسدة ، والقيم الفاضلة ضائعة ، والصراع على المطامع والشهوات متنمر متجبر ، والرق والاستعباد يحطمان معانى الإنسانية فى نفوس الأفراد والجماعات ، و « السادة » يسخرون « العبيد » كأنهم آلات للعمل فحسب ، ويسخرون الإماء [الجوارى] فى التكسب بالعرض والإكراه على البغاء ، حتى قال القرآن الكريم فى سورة النور : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) .

والربا قبل الإسلام شائع ذائع ، ومن الناس من يأكلون هذا الربا أضعافاً مضاعفة ، ويأكلون أموال الناس بالباطل . والاحتكار يحطم قوى العدالة وروح التراحم ، بأيدى الطغاة من الأغنياء والمستبدين : (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) . والشعوب حينئذ جائعة ضائعة ، فقيرة كادحة . . هكذا كانت الحياة قبل الإسلام . .

ثم أشرق نور الله على الأرض .

وبزغت شمس الدين الإلهى الخاتم ، تردد على أسماع البشرية قول خالقها فى سورة المائدة : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

وجاء الإسلام بمنهج محدد واضح ، فيه فكرة وتطبيق ، وفيه مبدأ وسلوك ، وفيه تصور وتخطيط ، بلا لبس ولا غموض ، ولذلك يقول القرآن الكريم لرسول الله محمد عليه الصلاة والسلام فى سورة يوسف : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) . ويقول فى سورة الأنعام : (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ) . ويقول فى السورة نفسها : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

ونحن نعلم أن الصلة وثيقة بين التنمية وإعداد الخطة وتحديد المنهج وتوضيح الطريق .

ولقد جاء فى الأثر الإسلامى الحكيم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ، وهذا النص يجمع بين الدعوة إلى التخطيط ، والدعوة إلى التنمية عن طريق العمل المتنوع المستمر الموصول .

والإسلام يدعو الإنسانية الكريمة المؤمنة المستجيبة لربها إلى أن تعيش فى مستوى رفيع من الحياة ، لا تشعر معه بالمذلة أو المهانة ، ولا بالجوع أو العرى ، ولعل مما يشير إلى ذلك قول الله تعالى لأبى البشر آدم عليه السلام ، فى سورة طه : (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى • وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى)

وإذا كان الله قد خلق عباده ليسعدوا فى الحياة لا ليشقوا، وليكتفوا لا ليحتاجوا، فإن هذا يتطلب ما يحقق هذا الاكتفاء من زاد وعتاد ، والقرآن يقول فى سورة النجم : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فكأن هذا حث قوى على تنمية موارد الإنسان فى كل مكان .

ولقد طبق المسلمون فى صدر الإسلام هذه القيم السامية ، حتى أصبح مجتمع الإسلام الفسيح الواسع قائداً فى مجال التنمية خلال قرون طويلة ، فى رقعة واسعة ممتدة من الأرض ، حيث حطم المسلمون الأوائل طغيان القياصرة وبغى الأكاسرة ، وقلموا أظافر الجبروت هنا وهناك ، وانتقموا للشعوب المظلومة المهضومة من ظالميها وهاضميها ، وبعثوا همم الملايين للعمل والسعى والابتغاء من فضل الله ،واستخرجوا الكنوز من الذهب والفضة التى احتكرها الطغاة من الأغنياء والرهبان ، وبعثروا هذه الكنوز فى أيدى الخلائق شرقاً وغرباً ، لتكون رءوس أموال فى أيديهم يعملون بها ويكسبون ، وحركوا هذه الكنوز للاستثمار والإنفاق فى سبيل الله : سبيل الخير والحق والعدل والبناء ، فشهد العالم صورة رائعة للتنمية المثمرة المعمرة ، بعد أن حمل الإسلام حملته الصارمة على الاحتكار والمحتكرين ، والقرآن يقول عن ذلك مثلا فى سورة التوبة : (يأيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

ولولا الحروب الصليبية بمآسيها ، وغارات التتار بفظائعها ، لظلت قيادة المسلمين فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى مستمرة فى طريقها إلى ما شاء الله عز وجل .

• • •

ومن شواهد عناية الإسلام بالتنمية ومضاعفة الإنتاج أن نرى القرآن الكريم يوجه الإنسان إلى غنى الطبيعة وثراء الكون واحتشاده بالطاقات والخامات ، فيقول فى سورة إبراهيم : (الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار) .

فالمصادر غنية وقوية ، كثيرة وغزيرة ، كافية ووافية ، ولكن ظلم الإنسان للإنسان هو الذى يدخل عليها بالاحتكار أو سوء الاستغلال أو انحراف الاستعمال ، فتبدو كأنها شحيحة عليه : (وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

ولو استقام الإنسان فى السعى والإنتاج والتوزيع لكفت الخيرات ، ولذلك يقول الله تعالى : (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) . أى لو اهتدوا بهدى الله واستقاموا على الطريق . وعدلوا فى المجهود وفى التوزيع . لأغناهم ربهم بما فوقهم . وهو ما ينزل إليهم من السماء ماء . ولأغناهم أيضاً بما تحت أرجلهم مما تنبته الأرض أو تطويه من معادن وكنوز .

ومن شواهد عناية الإسلام بالتنمية أن القرآن يخبر أهله بأن الله تبارك وتعالى قد يسر لهم مجالات العمل وحقول الاستثمار لما فى الأرض من طاقات وهبات . فيقول : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) .

وهو يربط بين عمل الدنيا وعبادة الله عز وجل ، فيدعو الناس إلى الصلاة ، ثم يأمرهم عقبها بالعودة إلى ما كانوا فيه قبلها من مواطن العمل والإنتاج فيقول فى سورة الجمعة : (يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون • فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

* * *

ولقد حثت السنة النبوية المطهرة على التنمية حينما وجهت الأبصار والبصائر إلى المنابع الأساسية للكسب الطيب والإنتاج الواسع ، مما يؤدى إلى مضاعفة الدخل الفردى والدخل الجماعى ، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » .

ومثل هذا يقال فى أمر الزراعة وما يتصل بها من استغلال تربة الأرض وجوفها ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « التمسوا الرزق فى خبايا الأرض » .

ويحث الرسول حثاً قوياً على أن يمارس الإنسان العمل بيده ، لينال كل مؤمن شرف المشاركة فى العمل اليدوى قدر طاقته ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده » .

ويركز القرآن المجيد تركيزاً ملحوظاً على التنمية الزراعية ، ومضاعفة الإنتاج الزراعى ، وقوة النبات والزرع ، فيحدثنا فى سورة البقرة عن الربوة [الأرض المرتفعة] التى (آتت أكلها ضعفين) ، وعن المدى الواسع الذى تمتد إليه المضاعفة فى محصول الزراعة ، فيقول فى سورة البقرة : (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم) فجعل الأضعاف الكثيرة التى تنتجها الزراعة الطيبة القوية مثلا لثواب الله العظيم الكبير .

ويمثل القرآن المجيد الكلمة الطيبة الهادية إلى الحق والهدى والصراط المستقيم ، بما يعد مثلا فى قوة الزراعة وتطورها ، فيقول فى سورة إبراهيم : (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) .

ويمثل القرآن الحكيم الأمة الإسلامية المؤمنة القوية الرحيمة العابدة بالزرع المتدرج المتزايد المتضاعف ، فيقول فى سورة الفتح : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما) .

ويشير القرآن إلى قوة الزراعة بمثل قوله فى سورة الشعراء : (فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم) أى طيب ناضج . وبمثل قوله فى سورة النحل : (هو الذى أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون [ترعون دوابكم] ينبت لكم بهالزرع والزيتون و النخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) . وبمثل قوله فى سورة الأنعام : (وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله ، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) . وما أروع القرآن حينما يجمع بين كثرة الإنتاج الزراعى وعدم الإسراف فى الاستعمال ، فإنه يجمع حينئذ بين عاملين متعاونين على تحقيق التنمية : « الكثرة ، والاعتدال فى الإنفاق » .

وكأن القرآن يدفعنا إلى استغلال الأرض واستنباتها ، حتى يجعل ازدهارها بمختلف الزروع والنبات شاهداً على قدرة الله جل جلاله ، فيقول فى سورة الحج : (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) أى كل صنف جميل نضير . ويقول أيضاً فى سورة فصلت : (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموت ، إنه على كل شىء قدير) .

* * *

وتأتى السنة النبوية المطهرة من وراء القرآن الكريم فتؤكد الدعوة إلى الإكثار من الزراعة ، وفى ذلك تنمية لها وتطوير ، فيقول رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يزرع زرعاً ، أو يغرس غرساً ، فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له به صدقة » . ويقول : « إذا قامت القيامة على أحدكم وفى يده فسيلة فليزرعها » . والفسيلة هى النخلة الصغيرة .

وينهى الإسلام عن تعطيل أى بقعة من الأرض وتركها دون زراعة ، ما دام من الممكن زرعها أو استصلاحها ، ولذلك يقرر الإسلام أن الأرض إما أن يزرعها صاحبها ، وإما أن يعطيها لأخيه الذى يستطيع استثمارها ، ولا يجوز تملك الأرض مع تعطيلها عن الإنبات والإخصاب ، والدليل على ذلك قول رسول الله ﷺ : « من كانت له أرض فليزرعها ، أو ليمنحها أخاه » .

وقد جاء فى السنة النبوية المطهرة أن من أخذ أرضاً مواتاً [بوراً] لإحيائها فيجب عليه أن يقوم بذلك الإحياء خلال ثلاث سنوات على الأكثر ، وإلا كان لولى الأمر أن ينزعها منه ، ويعطيها من يحييها .

* * *

والإسلام يعنى كذلك بتنمية الصناعة والعناية بها ، فالقرآن الكريم له مع الصناعة حديث وشأن ، فنحن نتذكر أولا قول ربنا جل جلاله : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) . وكلمة (قوة) هنا تشمل كل نوع من أنواع القوة ، وكل جزء من أجزائها ، سواء منها ما كان بادياً أو خافياً ، وسواء منها ما كان حسياً أو معنوياً ، وسواء منها ما كان للتحصين ، أو للدفاع ، أو للهجوم .

والقرآن الكريم يحرض بقوة وشدة على الصناعة والتصنيع ، فالله تعالى يقول : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) والحديد هو المادة الأساسية لأغلب الصناعات السلمية والحربية . وقد جمعت الآية بين الصنفين من الصناعات ، لأنها بذكرها (البأس الشديد) ، وهو القوة الشديدة ، قد أشارت إلى صناعات الحرب والقتال فى الميدان ، وبذكرها (منافع للناس) قد أشارت إلى الميادين المختلفة التى يستعمل فيها الحديد لتوفير الخدمات والمصالح لأبناء الأمة هنا وهناك .

ثم يذكر القرآن تصوير حال الصناعة فى عهد نبى الله سليمان عليه السلام ، وكيف اتسع نطاقها ومجالها ، وكيف امتن الله عليه بذلك ، بعد أن سخر له الريح غدوها شهر ورواحها شهر — وفى الريح تذكير بالجو وبالطيران وما يتبعه — وبعد أن أسال له (عين القطر) — وهى معدن الحديد الذائب — وهذا يشير إلى مختلف الصناعات التى تتخذ من النحاس — وبعد أن سخر له الإنس والجن فى ميادين الصناعة والإنتاج ، فيقول القرآن الكريم : (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً ، وقليل من عبادى الشكور) .

و (المحاريب) هنا هى الأبنية الضخمة ، و (التماثيل) هى النقوش الدقيقة ، و (الجفان) هى أوانى الطعام الكبيرة التى تشبه الأحواض العظيمة ، وهى (الجوابى) و (القدور الراسيات) هى الأوعية الهائلة الثابتة على مواقدها ، لأنها لا تنقل بسبب عظمتها وضخامتها ، وهذا كله يدل على طول باع فى الصناعة ، وعلى تقدم باهر فى أنواعها المختلفة .

* * *

والإسلام يعنى أيضاً بتنمية التجارة ، وحسبنا أن نطالع سورة قريش ، لنرى فيها كيف جعل الله سبحانه سبب اطمئنان قريش وائتلافهم هو رحلتان من رحلات التجارة ، إحداهما فى الشتاء إلى اليمن ، والأخرى فى الصيف إلى الشام . يقول الله تعالى : (لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)

والإسلام يقيم تنمية الإنتاج وكل نشاط اقتصادى على أساسين هما المال والعمل ، وفيما يختص بالمال يقرر الإسلام أن المال فى الأصل ملك الله تعالى ، ولذلك يقول القرآن الكريم : (لله ملك السموات والأرض) . ويقول : (آتوهم من مال الله الذى آتاكم) . ويجعل القرآن الإنسان خليفة الله فيما يملكه ، فيقول : (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « المال مال الله وأنا عبده » . ويقول : « إنما أنا قاسم والله معط » .

ويقول بعض مفكرى الإسلام : « اهتم الإسلام بالمال اهتماماً كبيراً ، وجعله مال الله فى الأصل ، وجعل الناس خلفاء عن الله فى القوامة على المال والانتفاع به ، ويعتبر نسبة المال إلى الله ضماناً وجدانياً لتوجيه المال إلى نفع

عباده ، وإضافة ملكية المال إلى البشر ضماناً بماثله فى توجيه المالك إلى الانتفاع بالمال بكل ما يقتضيه الانتفاع ، من حق التصرف وحق الاستهلاك .

وبما أن الإسلام دين المسئولية لم يقبل أن تكون مسئولية البشر عن المال الذى سخره الله لهم ، وأودعه بين أيديهم مسئولية شائعة غير محددة ، فأقر مبدأ ملكية الفرد ، ليسأل كل فرد عن الحصة التى بين يديه من مال الجماعة وحق الجماعة فيها .

ثم جعل ولى الأمر مسئولا عن حق الجماعة فيما لا يخص الأفراد من هذا المال ، وربط بعض المال بآحاد الناس ، لتنطلق غريزتهم من كبت الحرمان ، وحتى يندفعوا فى نشاطهم إلى استثمار المال الذى فى حوزتهم وتنميته . وقضت الشريعة فى أموال أخرى بعدم ربطها بآحاد الناس ، كضرورات الحياة ، فقال الرسول ﷺ : « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار » . ويقاس عليها غيرها من ضروريات الحياة المشتركة .

وأمر الإسلام بأن يكون ما يملكه الإنسان من مال ناشئاً عن طريق سليم ، بأن يكون طيباً لا آفة فيه ، فقال القرآن فى سورة البقرة ، (يأيها الذين آمنوا كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً) . وقال أيضاً : (يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) . وقال الرسول ﷺ : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » .

وحرص الإسلام على مقاومة سوء الاستغلال للمال ، فحرم الربا فقال فى سورة البقرة : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله .

ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم) .

وحرم الإسلام محاولة التملك الأثيم بطريق الرشوة أو سوء الاستغلال فقال فى السورة نفسها :

(ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) .

وحرم الإسلام الكنز ، لأنه تجميد لرءوس الأموال ، ومنع لها عن الاستثمار المؤدى إلى النشاط الاقتصادى والنمو الاقتصادى فقال القرآن فى سورة التوبة : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) .

ونصح الرسول ﷺ ولى اليتيم بألا يجمد ماله ، أو يكنز ثروته ، لأن هذا التجميد سيؤدى إلى عدم الانتفاع بهذا المال فى زراعة أو صناعة أو تجارة ، بل يؤدى ذلك إلى نقصان المال ، لأن الزكاة ستؤخذ منه عاماً بعد عام ، وهو لا يدرى شيئاً عن طريق الاستثمار ، فيتضرر اليتيم بذلك .

وقد حث الإسلام على توسيع توزيع الثروة فى أيدى الناس كلهم قدر ما يستطيعون ، وقاوم حصر المال فى أيدى طائفة الأغنياء ليزدادوا غنى ، على حين يزداد غيرهم فقراً وحرماناً ، فقال القرآن فى سورة الحشر عن تعميم توزيع الفىء : (كى لا يكون دولة [متداولا] بين الأغنياء منكم) .

والعجيب أن هناك كثيرين يسيئون فهم الإسلام وعرضه ، حين يحسبون أنه يقاوم الغنى ويحبب فى الفقر ، وهذا غير صحيح ، والرسول ﷺ كان يدعو فيسأل ربه الغنى ، ويعوذ به من الفقر ، وجاء فى الأثر : « كاد الفقر أن يكون كفراً » . ويقول الرسول ﷺ : « نعم المال الصالح للرجل الصالح »

ولا ريب على أساس التنمية هو العمل بمختلف أنواعه ، سواء أكان يدوياً أم عضلياً أم عقلياً أم فنياً ، والإسلام قد أعطى العمل أكبر العناية ، وتكررت « مادة العمل » فى القرآن عشرات وعشرات من المرات ، وقال الكتاب المجيد فيما قال : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى) . وأمرنا بالمسارعة إلى ميادين العمل والإنتاج والكسب ، فقال : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) . وقال : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

وقال الرسول ﷺ : « من أمسى كالا [متعباً] من عمل يده أمسى مغفوراً له » . وقال : « إن الله يحب العبد المحترف » .

ورأى النبي يد رجل قد ورمت من عمله بالمسحاة فقال : « هذه يد يحبها الله ورسوله » .

وقال عمر بن الخطاب : « إنى أرى الرجل فيعجبنى شكله ومنظره ، فإذا قيل لى : لا عمل له ، سقط من عينى » .

والعمل من أجل التنمية وتوفير مطالب الحياة غير مقصور على الرجل ، بل هو يشمل الرجل والمرأة ، ومن واجب كل منهما أن يبذل جهده فى الميدان المهيأ له ، والقرآن الكريم يشير إلى اشتراك النوعين فى العمل بقوله تعالى فى سورة آل عمران : (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) .

ويقول : (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .

ومما يدل على اتجاه الإسلام إلى التنمية فى مختلف نواحيها ، ومتنوع مجالبها ، أنه لا يدعو إلى مطلق عمل ، حتى ولو كان ضعيفاً أو رديئاً ، بل يدعو إلى العمل المحكم المتقن ، فيقول الرسول ﷺ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » . ويقول أيضاً : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء » أى أن الله أوجب وفرض الإتقان فى كل عمل .

والتنمية تحتاج إلى اتصال العمل ، ودوام الجهد من كل فرد ولو كان قليلا ، لأن القليل مع الدوام يؤدى إلى المضاعفة والكثرة ، ولكن الزيادة فى بعض الأوقات والانقطاع عن العمل فى وقت آخر ، مما يؤدى إلى التأخر أو التعطل ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » .

ومما يساعد على التنمية تشجيع العاملين وتقديرهم ، وإعطاؤهم أجورهم وحقوقهم ، بلا ظلم ولا هضم ، حتى يخلص العامل فى عمله ، ويكون أميناً عليه وفياً له ، ولذلك يقول القرآن الكريم : (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) . ويقول النبى ﷺ : « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » .

والإسلام يعطى ولى الأمر الشرعى حق الإجبار على العمل والتكليف به ، إذا امتنع عنه القادر عليه تعنتاً أو إفساداً ، لأن الأيدى الممتنعة عن العمل بلا حق مشروع ، تثير روح الاضطراب والخلل ، والإسلام يرى أن المصلحة العامة تقدم على المصلحة الخاصة ، وأن الفرد يجب أن يكون فى خدمة المجموع ، حينما يحتاج إليه المجموع ، كما أن المجموع مسئول شرعاً عن حماية الفرد وتوفير الأمان له والاطمئنان .

ومن أقوى العوامل المساعدة على تحقيق التنمية أن يتعود الأفراد الاقتصاد والتوفير والادخار ، حتى تزيد الأرصدة اللازمة للاستثمارات ، وتتوافر

رؤوس الأموال التى نستطيع بها تحقيق الكثير من المشروعات . والقرآن المجيد يقول : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) . ويقول : (ولا تبذر تبذيراً * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً) . ويقول : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) .

ومما يتصل بهذا مقاومة الإسلام للترف ، لأن الترف يمحق الاستثمار ويستنزفه من جهة ، ويعود أصحابه الكسل والبطالة من جهة أخرى ، فلا هم اكتسبوا ما يشبع رغباتهم ، ولا هم اعتدلوا فى قضاء رغباتهم وإرضاء شهواتهم ، ولذلك يقول القرآن الحكيم : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) . ولذلك يقف أهل الترف فى وجه الدعوة إلى العدل والحق والاستقامة والإنصاف : يقول الله تعالى : (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) .

وما أحكم الطريقة التى يرشد إليها القرآن ليعلم الناس التوسط والاعتدال، فيقول فى سورة القصص : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين) .

وما دام التبطل والانحراف والإسراف والترف عللا وأمراضاً تنخر فى كيان الأمة ، فإن للدولة المسلمة — أو عليها — أن تتدخل فتقف فى وجه هذه العلل للقضاء عليها ، ولقد قرر أكثر من باحث إسلامى فى النواحى الاقتصادية أن تدخل الدولة المسلمة فى الاقتصاد من أهم المبادئ فى الاقتصاد الإسلامى ، فهى تتدخل فى الحياة الاقتصادية لضمان تطبيق أحكام الإسلام التى تتصل بحياة

الأفراد الاقتصادية ، فتمنع تعامل الناس بالربا ، والسيطرة على الأرض دون إحياء وتحقق الضمان الجماعى والتوازن العام فى الحياه الاقتصادية ، بالطريقة التى أرشد الإسلام إلى اتباعها .

ومن المعلوم — كما يقررون — أن المال إذا كان من مصادر الإنتاج وجب شرعاً استثماره فى نطاق الوجوه المشروعة للاستثمار ، وما دام تعطيل المال عن الاستثمار يؤدى إلى فقر صاحبه وفقر المجتمع ، فمن حق ولى الأمر الشرعى أن يحمل مالك المال على استثماره ، ومما يدل على ذلك قول رسول الله ﷺ : « ليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين » . والمحتجر هو الذى احتجر الأرض ، أى جعلها لنفسه دون غيره ، وأقام حولها حدوداً من أجل ذلك ، والمراد بالاحتجاز هنا وضع اليد على الأرض الموات لمحاولة إحيائها وتعميرها. وقد طبق عمر بن الخطاب مفهوم هذا النص حينما كان أميراً للمؤمنين .

ويتفرع عن هذا اتباع أرشد السبل فى الاستثمار . ولما كان ولى الأمر هو المسئول عن تنفيذ التكاليف الإسلامية ، صار له حق التدخل بما يكفل نفاذ هذه التكاليف ، ووسائل ذلك أمر تعالجه السياسة الشرعية فى كل قطر إسلامى فى ضوء ظروف هذا القطر .

ثم يضيفون قولهم : بما أن الإسلام يطلب من المسلم إذا عمل عملا أن يتقنه ، فإن لولى الأمر أن يتدخل لمساعدة العامل على الإتيان بعمله على أحسن وجه ، بإرشاده وإمداده بالخبرة التى يتوقف عليها هذا الإتقان .

ومن مهمات الحكومات الإسلامية تحقيق التوازن فى توجيه الاستثمارات ، فيجب أن يتوازن كيان العالم الإسلامى الاقتصادى بقدر ما تتيح له موارده وإمكانياته إقامة هذا التوازن .

وولى الأمر يكلف بقبض الزكاة ، والبحث – علماً وعملا – عما تجب فيه الزكاة ، من الأصناف المستجدة وغيرها ، ويلحق بالزكاة حق الدولة فى أخذ ما تقتضيه مصلحة المجتمع ، وقد جاء فى الحديث : « فى المال حق غير الزكاة » .

ومن واجب ولى الأمر أن يمنع المال من استغلاله فى الحرام والعبث ، أو استعماله فى إلحاق الضرر بالأفراد أو المجتمع ، لأن الرسول ﷺ يقول : « لا ضرر ولا ضرار » .

ومن واجب ولى الأمر أن يمنع صاحب المال من استثماره بغير الوسائل التى أباحها الإسلام كالغش والاحتكار والربا وغير ذلك .

ولا ينبغى أن ننسى أن الإسلام قد حقق التوازن بين الفرد والمجتمع ، فضمن للفرد حقوقه المشروعة ، دون طغيان من الفرد على حقوق غيره ، ودون إضراره بسواه ، وضمن الإسلام للمجتمع سلامته ، دون أن يسخر هذا المجتمع أفراده كالآلات صماء ، فالفرد فى خدمة المجموع ، والمجموع لحماية الفرد ، والقرآن الكريم يقول فى نحو هذا : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) . . ويقول الرسول ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . ويقول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .

ومما لا يحتاج إلى تأكيد أن التنمية الواسعة المتنوعة تحقق للأمة رفع مستواها ، وتمتعها بزينة الحياة الطيبة . والقرآن يقرر أن الزينة الحلال مباحة ،

ويستنكر تحريم الجهل لها ، ويقرر أنها من حق المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، فيقول فى سورة الأعراف : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) .

* * *

ومن لطائف الإشارات هنا أن القرآن المجيد قد تحدث عن كثير من أنواع « الزيادة » حديث التقدير والتنويه ، ونحن نعلم أن مفهوم التنمية هو « الزيادة » .

لقد تحدث القرآن فى أكثر من موطن عن « زيادة الفضل » فى مقابل العمل الصالح ، فقال فى سورة النساء : (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) . ويقول فى سورة النور : (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) . ويقول فى سورة فاطر : (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور) . ويقول فى سورة الشورى : (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) .

ولنلاحظ أن الآيات هنا كررت ذكر « العمل الصالح » ، وهو العمل الطيب المخلص النافع المصلح ، وما أروع التنمية حين تنهض على أساس العمل الطيب المخلص النافع المصلح .

وتحدث القرآن عن « زيادة النعم » فى مقابل الشكر القولى والشكر الفعلى ، فقال فى سورة إبراهيم : (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) . وقال فى سورة الشورى : (ومن يقترف حسنة [يعملها] نزد له فيها حسناً) . وقال فى سورة البقرة : (وسنزيد المحسنين) .

وتحدث القرآن عن « زيادة الخلق والحس » . فقال فى سورة الأعراف : (وزادكم فى الخلق بسطة) . وقال فى سورة فاطر : (يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير) .

وتحدث القرآن عن « زيادة القوة » فقال فى سورة هود : (يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم) .

وتحدث القرآن عن « زيادة العلم » . فقال فى سورة البقرة : (وزاده بسطة فى العلم والجسم) . وقال فى سورة طه : (وقل رب زدنى علماً) . وقال فى سورة النساء : (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) .

وتحدث القرآن عن « زيادة الإيمان » والإيمان هو النار التى تصهر العزائم وتشعل الهمم ، والإيمان هو الذى يدفع إلى العمل وقوة الأمل ، فيقول فى سورة الأنفال : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) . ويقول فى سورة التوبة : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) . ويقول فى سورة آل عمران : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) . ويقول فى سورة الأحزاب : (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله * وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) . ويقول فى سورة الفتح : (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً) .

وتحدث القرآن عن « زيادة الهدى » فقال فى سورة محمد : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) . ويقول فى سورة الكهف : (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) .

* * *

وهكذا تحدث القرآن الحكيم عن « الزيادة » ، والتنمية عمادها « الزيادة » وكأن القرآن بهذا الحديث يريد لنا أن تكون التنمية بيننا شاملة كاملة ، حيث تكون تنمية اقتصادية اجتماعية علمية أخلاقية ، وحيث تكون زيادة فى العمل الصالح ، والفضل الإلهى الغامر ، والنعم الربانية التى لا تحد ولا تعد ، وزيادة فى قوة الحس والإنتاج ، وزيادة فى العلم ، وزيادة فى الإيمان ، وزيادة فى الهدى . .

أما بعد ، فمن واجبنا ألا ننسى أن نجاحنا فى التنمية مرتبط بنجاحنا فى تحقيق شخصيتنا الإسلامية : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) . ومرتبط بتخلصنا من الاستدمار الذى يسمونه « الاستعمار » ، وبتخلصنا من النفوذ الأجنبي المباشر أو غير المباشر ، فى ضوء قول الله تعالى : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) . ومرتبط بتحقيق العزة لأنفسنا كما قال خالقنا : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) :

إن الإسلام يبارك التنمية حين تقوم على الإيمان بالله خالق كل شيء ، والسعى فى الكون قرآن الله المنظور ، والاهتداء بهدى القرآن كتاب الله المقروء ، والعمل الجاد الموصول من كل صالح له وقادر عليه ، والعدل بين الناس بلا حيف ولا عسف : والوسيطة فى الحياة بلا إسراف ولا تقتير .

وعلى الله قصد السبيل .

حَدَثَ في رَمَضَان



حدث فى رمضان

السؤال :

ما أهم الحوادث التى وقعت فى شهر رمضان خلال التاريخ ؟

الجواب :

كنت فى طفولتى ، وأنا فى قريتى « البجلات » ، لا أتصور « رمضان » قطعة من الزمن تمر علينا وتنتهى ، أو نمر عليها ونخلص منها ، بل كنت أتصور « رمضان » كائناً حياً ، له جماله وجلاله ، وله هيبته وروعته ، وكأنه شيخ مهيب وقور ، لا تستطيع حواسى أن تستوعب أطرافه ، أو تحدد ملامحه ، يقبل على المكان والإنسان ، ومن حوله أشعة وأطياف ، فيغمر المكان بالنور ، ويعمر قلب الإنسان بالفرحة والبهجة ، ولذلك يستقبله الناس كما يستقبلون ضيفاً عظيماً كريماً ، أو كما يستقبلون حبيباً عزيزاً غالياً ، طال انتظاره لعودته ، فشملهم السرور لقدومه .

وكانت أساليب الاستقبال لرمضان ، والاستجلاء لهلاله ، والترحيب بقدومه ، والتعبير عنه بأسلوب التحدث إليه ، والتخاطب معه ، والمناداة له ، تؤكد فى نفسى هذا التصور ، حتى كنت أتصور – وما زلت طفلا أو صبياً – أن رمضان هو الذى يطوف فى الليل قبيل وقت السحور ، ليوقظ الناس ، حتى يتسحروا استعداداً ليوم جديد من أيامه .

ويشغلنا رمضان بصيامه وقيامه ، وإيمانه وقرآنه ، وبره وإحسانه ، حتى إذا أقبلت الأيام الأخيرة منه ، عاد هذا التصور يراود عقل الصبي الناشئ ، وعاونت على تعميق ذلك التصور تلك الأناشيد الحزينة المؤثرة التي تتردد لتوديع رمضان ، بأصوات ندية شجية ، يتأثر بها مرددوها أولا ، حتى تسيل دموعهم فى كثير من الأحيان ، وتسيل دموع السامعين منهم بغزارة ، والصبي يبكى مع هؤلاء ، ويتصور أن الشيخ المهيب الوقور « رمضان » قد نوى الرحيل ، وعزم على المضى إلى حيث لا يدرى الصبي .

ويزداد تصور الصبي وتأثره عمقاً حين يسمع المودعين لرمضان يرجونه ألا « يشتكى إلى الله أفعالنا ، وأن يصفح فإن الصفح عادات الكرام ، وألا يحرمنا من عودته فى كل عام ، وأن يذهب فى سلام ، وأن يعود إليهم من عام قادم بسلام » إلى آخر هذه الصور التى كانت تؤكد للصبي أن رمضان كائن حى ، وليس مجرد وقت أو زمن ، وأنه يقبل ، ثم يرحل ، ثم يعود وهكذا دواليك .

وحينما شببت عن الطوق ، واختار لى القدر أن أنتظم فى سلك الدراسة الدينية أدركت أن رمضان هو أهم موسم من مواسم الطاعة والعبادة فى هدى الإسلام وفى حياة المسلمين ، وأنه الشهر الوحيد الذى نص القرآن الكريم على اسمه فى موطن من مواطن التنويه والتكريم ، وقرنه بتحقق أعظم شيء فى كيان الإسلام والمسلمين ، وهو نزول القرآن الكريم ليكون شفاء وغذاء وضياء للمسلمين .

ووجدت السنة المطهرة تتحدث عن رمضان كأنه قادم جليل عزيز ، وتخصه بمزيد من العناية والاهتمام . فيقول الحديث : « أتاكم رمضان ،

شهر مبارك ، فرض الله عز وجل عليكم صيامه ، فيه تفتح أبواب السماء ، وتغلق أبواب الجحيم ، وتغل مردة الشياطين ، ولله تعالى فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرم خيرها فقد حرم » . فيكون هذا الحديث لوناً من ألوان التعبير المجازى المشير إلى أن رمضان فرصة ذهبية أمام المسلمين للتوبة والإنابة والطاعة والعبادة ، والإقبال على الله ، والإعراض عن الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، وبذلك يقل العاصون ، ويكثر الطائعون ، فيستحق المغفرة والرحمة والقبول جمع غفير ، فكأن الشهر موسم للهداية والاستقامة ، وهذا هو ما رمز إليه الحديث عن تفتح أبواب السماء ، وانغلاق أبواب الجحيم ، وتقييد عتاة الشياطين ، إذ ليس هناك فى حياة المسلمين خلال رمضان – كما ينبغى أو كما يجب ويلزم – إلا العبادة والطاعة .

ويروى عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما فيقول : كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة فى رمضان حتى ينسلخ [أى ينتهى] يعرض عليه النبى ﷺ القرآن ، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة .

تصوير رائع لمكانة رمضان ، وتنويه كريم بمنزلته بين الأيام . وحث عميق على انتهازه للتطهر والتدبر والتذكر ، وإشعار بليغ للناس أن رمضان زائر جليل ، ينبغى أن يلقاه العباد بالصيام والقيام ، والخير والبر ، ودعم الإيمان ومضاعفة الإحسان ، وتقوية الارتباط بمائدة القرآن الكريم .

وتطلعت إلى مسيرة التاريخ الإسلامى خلال الأيام والأعوام ، فإذا رمضان يقترن ببطولات وأمجاد ومفاخر تتحقق فيه ، فتزيد الشهر جلالا

وهيبة ، وكان سراً من أسرار الله أودعه الله فى هذا الشهر ، فإذا بين حين وحين يختاره ليكون ظرفاً لأحداث فى كثير منها ما يربط بالعزة والمجد ، وفى كثير منها ما يثير العظة والعبرة .

ولقد ظللت سنوات وأنا أتابع أحداث التاريخ الإسلامى التى وقعت فى فى رمضان للجماعات أو الأفراد ما بين جهاد وفتح ، أو دفاع وتحرير ، أو ميلاد علم من الأعلام أو وفاته ، أو غير ذلك من الأحداث ، فإذا بين يدى زاد كبير ضخم ، يحتاج عرضه بشىء من التفصيل والتحليل إلى مئات من الصفحات ، والنية معقودة على تحقيق هذا العرض إذا شاء الله .

وإذا كان مثل هذا العمل الواسع يتطلب من القائم به جهداً مضنياً ، فقد تتطلب متابعته من القارئ بوعى جهداً ووقتاً لا يتيسران على وجههما لعامة الناس ، وقديماً قيل : ما لا يدرك كله ، لا يترك كله . كما قيل : إن البعض يدل على الكل ، ومن هنا نكتفى فى مجالنا المحدود اليوم بجانب من الحديث عما « حدث فى رمضان » ، ليكون زاداً وذكرى ، لأهل التزود والتذكر : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب) .

والنية معقودة بإرادة الله ، والرجاء فيه كبير ، أن يوفق يوماً لعرض هذا الزاد الواسع المتكامل الذى يشمله هذا العنوان الفسيح : « حدث فى رمضان » ، ليجول القارئ يومئذ فى دنيا واسعة من الذكريات والعبر والدروس والأحداث التى ارتبطت برمضان العظيم على طول مسيرة المسلمين فى هذه الحياة .

* * *

بدأ الوحى فى رمضان

إن أعظم حدث وقع فى رمضان العظيم هو – بلا جدال – نزول القرآن الكريم .

فى يوم الاثنين السابع عشر – أو الرابع والعشرين – من شهر رمضان ، من السنة الثالثة عشرة قبل هجرة المصطفى ﷺ بدأ نزول الوحى على رسول الله [(١)] .

يقول الله تبارك وتعالى : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) . ويقول عن الليلة التى بدأ فيها هذا النزول : (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم) . ويقول : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر) .

ولقد كان عمر النبى ﷺ حين نزل القرآن أربعين عاماً ، وكان قبل ذلك بحين من الزمان يرى فى نومه الرؤيا ، فتتحقق فى دنيا الواقع واضحة صريحة ، كأنها ضوء النهار الساطع ، وذلك لصفاء نفسه وطهارة روحه ، وإعداد الله له ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ثم حبب الله تعالى إلى رسوله ﷺ الخلوة بعيداً عن الناس ، ليتأمل ويتدبر ويتعبد على طريق « الحنيفية » دين جده إبراهيم عليهما الصلاة والسلام

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ص ٣٨٩ و ٣٩٢ . وقال النبى عن يوم الاثنين : « ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم أنزل على فيه » .

وليزداد استعداداً لتلقى الوحى الجليل ، فكان يخلو فى غار « حراء » بجوار مكة ، فيظل هناك أياماً ، ثم يعود إلى زوجته الوفية : السيدة خديجة ، فيتزود بما يحتاج إليه ، ثم يعود ، وهكذا دواليك .

وذات ليلة هى خير الليالى فى تاريخ البشرية بلا ريب ، كان الرسول فى غار حراء ، والسكون سائد ، وفجأة غمر النور الساطع أركان الغار ، وأقبل سفير الرحمن جبريل على الرسول يقول له : اقرأ ، فأجاب الرسول فى دهشة ، ما أنا بقارئ [أى لا أحسن القراءة ، أو لعله استفهام عما يقرؤه] ، فأخذ جبريل النبى وضغط عليه تنبيهاً وتدريباً له على تحمل أعباء النبوة ، حتى أحس النبى بالتعب .

وأرسله جبريل وقال له مرة أخرى : اقرأ . فكان جوابه كما سبق : ما أنا بقارئ . ففعل معه جبريل ما فعل فى المرة السابقة ، ثم تكرر ذلك مرة ثالثة ، ثم قال له جبريل : (اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم) .

فكانت هذه الآيات أول ما نزل من كلام الله العزيز المجيد ، وفاز بهذه المكرمة العظمى شهر رمضان، ولا شك أن نزول القرآن كان أعظم منة أهداها الخالق الوهاب إلى عباده ، وكان أجل حدث وقع فى تاريخ البشرية ، ولعل الله تبارك وتعالى قد أشار إلى جلال هذا الحدث حين قال فى سورة الحشر : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

بل كان الله جل جلاله قد أراد أن يلفت أبصارنا وبصائرنا إلى جلال نزول القرآن ، فتحدث سبحانه فى عشرات من آيات كتابه عن هذا الإنزال ، فقال يخاطب رسوله فى سورة النساء : (وأنزل الله عليك الكتاب

والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً) . وقال فى سورة الحجر : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . وقال فى سورة النحل (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) ، وقال أيضاً : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) . وقال فى سورة الإسراء : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) ، وقال فى سورة الكهف : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً) ، وقال فى سورة الفرقان : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

وهذا جانب من عشرات الآيات الكريمة التى تتحدث عن نزول القرآن لإشعار القلوب والعقول بجلال هذا النزول الذى وقع فى الشهر المبارك : شهر رمضان .

وإذا كان الوحى قد بدأ نزوله قبل أن يبدأ النبى دعوة الناس إلى الإسلام ، فإن هذا مما يشير إلى سابق تكريم الله لرمضان ، ويزداد هذا المعنى وضوحاً حين نطالع ما رواه أحمد وابن مردويه ، وهو الحديث القائل : « أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » وحين نتأكد من صحة هذا الحديث نفهم أن التكريم الإلهى لشهر رمضان كان منذ قديم الأزمان . وأن الحق جل جلاله أراد لحكمة يعلمها أن يربط بين هذا الشهر ووحيه إلى أعلام أنبيائه ورسله ، وكان هذه الحكمة هى أن يكون رمضان موسماً لتجديد الصلة بالله ،

والعودة إلى صراطه ، والعكوف على كلامه ، فيتجدد تطهير البشرية بهدى الله العلى الكبير .

* * *

وينبغى لنا – بل يجب علينا – أن نطيل التأمل فى قيمة النعمة التى من الله بها على عباده فى رمضان بإنزال القرآن ، لأن شأن القرآن دونه كل شأن والله تعالى يقول فى سورة الواقعة : (إنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين) ، ويقول فى سورة الشورى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) . ويقول فى سورة المائدة : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام * ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

إنه القرآن الذى يجب أن تستمسك به دائماً وأبداً أمة القرآن ، ففيه الدواء وفيه الشفاء ، وفيه الغذاء ، وفيه الهناء : (فماذا بعد الحق إلا الضلال) ؟ .

وإذا كان الله تبارك وتعالى قد أرانا مكانة القرآن بهذه الصورة ، فإن نبى القرآن قد زادنا إشعاراً بمنزلة هذا الهدى الإلهى العظيم فقال : « فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » . وروى الترمذى بسند غريب عن الحارث الأعور رضى الله عنه قال : مررت فى المسجد ، فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث فدخلت على علىّ رضى الله عنه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ألا ترى أن الناس قد خاضوا فى الأحاديث ! . قال : وقد فعلوها؟ فقلت : نعم . قال :

أما أنى قد سمعت رسول الله ﷺ يقول : ألا إنها ستكون فتنة . فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله؟

قال :«كتاب الله . فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء [لا تميل عن الحق] ، ولا تلتبس به الألسنة [أى لا يختلط به غيره] ، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد [لا يبلى مع كثرة تلاوته وترديده] ولا تنقضى عجائبه .

هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : (إنا سمعنا قرآناً عجباً ، يهدى إلى الرشد) . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم» .

ثم قال الإمام على عقب ذلك للأعور : خذها إليك يا أعور [أى تمسك بالعمل بهذه الوصية] . وكذلك قال النبى ﷺ محبباً فى الإقبال على القرآن ، والاستضاءة به ، والدعوة إليه ، وخاصة فى شهر رمضان : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

وحذر النبى أتباعه أن يهجروا القرآن أو يبعدوا عنه . فقال : « إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب ».ودعاهم إلى الجلوس على مائدته قدر استطاعتهم ، فقال : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم » .

وبشرهم بالخير العميم والفضل العظيم ، إذا عكفوا عليه، وأخذوا منه ، ورجعوا إليه ، وعملوا به ، فقال :

«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » ! . .

* * *

والليلة التى نزل فيها القرآن تسمى « ليلة القدر » أى ليلة الشرف والعظمة والمنزلة العالية الرفيعة ، وهى ليلة يزدان بها شهر رمضان العظيم، وقد وصفها القرآن كما سبق بأنها (مباركة) وبأنها (يفرق فيها كل أمر حكيم) أى يبين ويفصل . وبأنها (خير من ألف شهر) وليس المراد من ذكر (الألف) هنا تحديد العدد ، وإنما يذكر (الألف) دلالة على الكثرة ، لأن ليلة القدر خير من مئات الآلاف من الشهور ، والله أعلم بمراده .

وقد سبق إخبار الرسول عن ليلة القدر بأنها « ليلة الله » ، وأن المحروم من خيرها يكون محروماً من كل خير ، لأن خيرها الأول والأعظم هو القرآن ، لنزوله فيها ، وإذا أعرض الإنسان عن القرآن ، ولم يهتد بهدايته ، كان محروماً كل الحرمان .

والمفهوم من السنة النبوية أن ليلة القدر تلتمس فى العشر الأواخر من رمضان ، ولذلك جاء فى الحديث المتفق عليه : « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان » ، وفى الحديث الثانى : « تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان » . وهذا تخصيص بعد تعميم ، وفى الحديث الثالث : « من كان متحريها فليتحرها فى السبع الأواخر » وهذا تخصيص بعد تخصيص .

وقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا دخل العشر الأواخر من رمضان شد مئزره ، وأحيا ليله ، وأيقظ أهله . وشد المئزر كناية عن الجد والاجتهاد فى العبادة ، وأحيا ليله بالتهجد ، والمراد بإيقاظ الأهل أمرهم بالاجتهاد فى الطاعة . وعن عائشة أيضاً أن النبي ﷺ كان « يجاور » فى العشر الأواخر من رمضان ، أى يعتكف فى المسجد التماساً لليلة القدر .

إلا أنها مفخرة عظمى لرمضان ، أن يضم ليلة القدر : ليلة نزول القرآن .

غزوة بدر الكبرى

كانت هذه الغزوة أولى الغزوات المشهودة فى تاريخ الإسلام ، وكانت فى السنة الثانية بعد الهجرة ، وكانت فى شهر رمضان المبارك من السنة المذكورة وكانت فى اليوم السابع عشر من هذا الشهر .

ولجلال هذه الغزوة ورفعة شأنها ، سماها مؤرخو السيرة العطرة بطائفة من الأسماء التى تدل على جلالها وعظمتها ، فسموها « غزوة بدر الكبرى » و « غزوة بدر العظمى » و « يوم وقعة بدر » وسماها القرآن الكريم (يوم الفرقان) و (يوم التقى الجمعان) ، فذلك حيث يقول كتاب الله المجيد : (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شىء قدير) .

وبعض المؤرخين سماها : « يوم البطشة الكبرى » أخذاً من قول الله تبارك وتعالى : (يوم نبطش البطشة الكبرى . إنا منتقمون) .

ولقد قضى الرسول ﷺ المدة التى أعقبت الهجرة وسبقت هذة الغزوة فى إرسال السرايا والطلائع التى أراد منها إشعار المشركين بأن المسلمين المهاجرين لم يذلوا ولم يهونوا بسبب هذه الهجرة، بل هم ما زالوا فى تماسك وتعاون ، وأراد منها كذلك أن يعقد مصالحات ومعاهدات مع الذين يحيطون بالمدينة من جموع أو قبائل ، حتى لا تأتيه الطعنات من الخلف إذا بدأ المعركة مع المشركين وجهاً لوجه ، كما أراد التعرض لقوافل المشركين التجارية ليستولى عليها كتعويض جزئى عن أملاك المسلمين التى استولى عليها المشركون عند الهجرة وعقبها .

ولقد أرسل النبى ﷺ فى شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة عمه البطل « حمزة بن عبد المطلب » ، ومعه ثلاثون فارساً من المهاجرين إلى ناحية تسمى « العيص » بالقرب من ساحل البحر الأحمر ، ليعترض طريق قافلة كانت ذاهبة إلى الشام ، يقودها عدو الله وعدو رسوله ، وعدو الإسلام والمسلمين ، أبو جهل .

وفى شوال من السنة نفسها بعث النبى ﷺ : عبيدة بن الحارث ومعه ثلاثون رجلا فى سرية بلغت ماء بأرض الحجاز ، بأسفل « ثنية المرة » للاستطلاع والاستكشاف .

وفى بداية السنة الثانية خرج النبى ﷺ بنفسه فى سرية ، حتى بلغ قرية « ودان » ، وعقد مصالحة مع قبيلة « بنى ضمرة » ، وكتب النبى ﷺ فى ذلك كتاباً يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة ، بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصرة على من رامهم [أى هاجمهم] إلا أن يحاربوا فى دين الله ، ما بل بحر صوفة [أى ما بقى فيه ماء يبل الصوفة

وهذا موجود باستمرار] ، وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنصر أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله » .

وقضى النبي فى هذه السرية نحو خمسة عشر يوماً بعيداً عن المدينة .

* * *

ثم أقبلت بوادر الغزوة الكبرى . . غزوة بدر . .

فى شهر جماد الأولى من السنة الثانية علم رسول الله ﷺ أن قافلة تجارية ضخمة للمشركين الباغين المعتدين ، قد أخذت طريقها نحو الشام ، وفيها ما قيمته خمسون ألف دينار ، وقد حملها ألف بعير ، ويقودها أبو سفيان ابن حرب الذى كان زعيماً للمشركين فى ذلك الوقت[1] ، فخرج رسول ﷺ ومعه نحو المائتين من أصحابه ، ليقطع الطريق على قافلة الأعداء ، فى مقابل ما استولوا عليه من أموال المسلمين المهاجرين من ديار وعقار وأشياء أخرى .

وسار النبي ﷺ حتى بلغ مكاناً يسمى « العشيرة » ، وهناك علم أن القافلة قد مرت قبل وصوله .

وحالف الرسول ﷺ فى هذه المرحلة قبيلة « بنى مدلج » .

وفى شهر رجب أرسل النبي ﷺ ، عبد الله بن جحش الأسدى مع مجموعة من المهاجرين ، وأعطاه كتاباً مختوماً ، وأمره ألا يفتحه إلا بعد يومين من مسيره فى الطريق الذى عينه له الرسول ﷺ ، وبعد اليومين فتح عبد الله الكتاب ، فوجد فيه ما يلى : « إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة ، بين مكة والطائف فترصد لنا قريشاً ؛ وتعلم لنا من أخبارها » .

(١) وقد أسلم فيما بعد ، عند فتح مكة .

وحدثت مناوشة بين عبد الله وزملائه من جهة وقافلة المشركين من جهة أخرى ، ووقع جانب من القتال انتصر فيه عبد الله وزملاؤه ، وعادوا ببعض الغنائم [1] .

• • •

وجعل الرسول ﷺ ينتظر عودة القافلة التى يقودها أبوسفيان من الشام إلى مكة ، ليتعرض لها ، ويستولى عليها ، تعويضاً جزئياً عن الأموال التى أخذها المشركون من المهاجرين ، وكان النبى ﷺ يقصد أيضاً إضعاف الناحية الاقتصادية عند المشركين ، لعلمه بارتباط هذه الناحية ارتباطاً وثيقاً بالناحية العسكرية ؛ فإذا ضعف التموين أو قل ، أثرا تأثيراً قوياً فى حالة القتال والحرب.

وأرسل النبي ﷺ اثنين من صحابته ، هما طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد ، ليستطلعا أخبار القافلة ، ويترقبا عودتها ، حتى يخبرا الرسول ﷺ عند اقترابها فيخرج إليها ، فمضى الصحابيان ونزلا فى مكان يسمى « الحوراء » ؛ ولما علما باقتراب القافلة سارعا بإخبار الرسول ﷺ عنها .

وانتهز الرسول ﷺ الفرصة ، واستخدم عنصر السرعة ، فعجل باستدعاء الحاضرين من المسلمين ليشاورهم ، حتى لا يحسبوا أنه قد انفرد بالأمر وحده وإن كان نبياً ورسولا .

جمع النبي ﷺ المسلمين وقال لهم : هذه عير قريش [أى قافلة المشركين] فيها أموالكم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله ينفلكموها [أى يجعل ما فيها أنفالا لكم ، أى غنائم مباحة لكم] .

---

(١) انظر تفاصيل هذه السرية فى كتاب « الفداء فى الإسلام » ص ٨٥ — ٩٢

فاستجاب فريق من المسلمين للخروج ، ولم ينشط فريق آخر لهذا الخروج ، وذلك لأن الرسول ﷺ لم يفرض عليهم أن يخرجوا ، وظن الباقون أن الأمر لا يزيد عن مهمة الاستيلاء على القافلة ، وهى مهمة يسيرة ، لأن القافلة محروسة بنحو أربعين رجلا ، والذين استجابوا قد زادوا على الثلثمائة بقليل ؛ فلا داعى إذن لكى يخرج الجميع .

وخرج الرسول ﷺ بالذين استجابوا فى اليوم الثامن من شهر رمضان ، بعد أن كلف عبد الله بن أم مكتوم أن يصلى بالناس فى المدينة ، وجعل أبا لبابة والياً عليها ، وأذن لعثمان بن عفان أن يبقى بالمدينة لتمريض زوجته « رقية » بنت رسول الله ﷺ .

وكان عدد الخارجين مع الرسول ﷺ ثلثمائة وخمسة ، ومعهم سبعون بعيراً ، فكان الثلاثة أو الأربعة منهم يشتركون فى ركوب البعير الواحد بالتناوب ؛ ولقد اشترك النبى ﷺ نفسه مع على بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد الغنوى فى ركوب بعير ، فقال على ومرثد : « اركب ونحن نمشى عنك يا رسول الله » .

فرفض الرسول ﷺ ذلك ، وأصر أن يأخذ حصته من المشى كما يأخذان ، وقال لهما : « ما أنتما بأقوى منى على المشى ، وما أنا بأغنى منكما عن الأجر » !

وكان الرسول ﷺ يدعو لقومه بالفوز والتوفيق ، فيقول : « اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فأكسهم ، اللهم إنهم جياع فأشبعهم » . وهذا الدعاء يصور شدة الحالة الاقتصادية التى كان عليها المسلمون ؛ والتى نشأت بسبب اضطرار المسلمين إلى الهجرة .

ولما بلغ الرسول ﷺ مع قومه المكان الذى كان مقدراً أن تمر منه القافلة علموا قائدها أبو سفيان قد نجا بها ، لأنه سلك طريقاً آخر غير الطريق المعتاد .

فكيف حدث هذا ؟

كان أبو سفيان يحس فى أعماق نفسه بأن المسلمين سيترصدون له ، وأنهم إذا استطاعوا الوصول إليه ، فيستولون على كل ما معه ، ولذلك كان يتحسس الأخبار من كل مكان وهو فى طريقه بالقافلة ، وحدث أن سأل أبو سفيان بعض الأعراب الذين لقيهم فى الطريق : هل شاهدت أحداً ؟ فأجابه بأنه لم ير سوى رجلين ألما بالماء واستقيا منه ، ومعهما بعيران لهما ، ثم ارتحلا .

فذهب أبو سفيان إلى ناحية البئر ، وبحث فى الأرض فوجد فيها بعرات ، ففت بعضها بيده ، فوجد فيها نوى المدينة ، فأدرك بقوة ملاحظته أن الرجلين من المسلمين ، وأحس أن هناك حركة تتبع لها ، فسارع وابتعد بالقافلة عن الطريق المعتاد ، واتجه بها نحو الساحل حتى يسير بها فى طريق غير مألوف ، ولم يكتف بذلك ، بل أرسل رجلا إلى المشركين فى مكة يخبرهم بأن المسلمين يترصدون للقافلة وأنهم سيستولون عليها ، فليبادروا بالخروج لإنقاذها وحمايتها حتى تصلهم سالمة .

واستجاب المشركون لنداء الشر ، وزادهم تحريضاً أبو جهل اللعين ، حتى أجمعوا على الخروج للحرب ، ولما هم أحدهم ، وهو أمية بن خلف ، أن يتخلف ، جاءه أبو جهل ، ومعه مكحلة ومرود ، وجاءه عقبة بن أبى معيط بمجمرة فيها بخور . وقال أبو جهل لأمية : اكتحل يا أبا على ؛ فإنما أنت امرأة . وقال له عقبة : استجمر يا أبا على ، فإنما أنت من النساء .

فثارت حمية أمية ، وأخذته العزة بالإثم ، وخاف الفضيحة والعار ، فسارع بالخروج مع القوم .

* * *

ونترك هذه المجموعة المشركة التى قاربت الألف تتابع خطواتها الأثيمة نحو بئر بدر ، ونعود لنرى ماذا صنع النبى وأصحابه .

لقد بلغوا طريق القافلة وبحثوا عنها ، ثم عرفوا أنها أفلتت من أيديهم للمرة الثانية وبينما هم فى تفكير وتأمل لما حدث ، بلغهم أن المشركين قد خرجوا يريدون حرب المسلمين والتنكيل بهم ؛ تأديباً لهم على تفكيرهم فى التعرض للقافلة .

وهنا جاء الموقف الحاسم . . .

ماذا يصنع المسلمون ؟

لقد خرجوا فى عددهم القليل الذى عرفناه ، وكل فكرتهم عن الأمر أنهم سيعترضون طريق القافلة ، ويستولون عليها فى مقابل ما أخذه منهم المشركون .

ولكنهم بعد خروجهم عرفوا – كما رأينا – أن القافلة قد أفلتت من أيديهم ، وأن المشركين قد خرجوا لقتالهم ، وهم فى الطريق إليهم. فماذا يصنعون ؟

أيرجعون أم ينتظرون ؟ . . إن عددهم القليل سيلاقى إذا انتظروا جمع المشركين بعدتهم وسلاحهم ، ولكن التقهقر والارتداد إلى المدينة أمام جيش زاحف ، أشد خطراً ، وأسوأ عاقبة ؛ لأنه سيورث مسبة وتوهيناً ، وقد جاء فى الحديث : « ما غزى قوم فى دارهم إلا ذلوا » ! .

لا بد إذن من الصبر والثبات ، ليكن ما يكون .

وأراد الرسول ﷺ أن يستشير صحابته كعادته ،لا يحب أن ينفرد برأى ، ولا أن يفرض وجهة نظر ، ولا أن يسوقهم على الرغم منهم إلى خطة ، فقال لهم مستشيراً ومثيراً :

إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول ، فما تقولون؟ العير أحب إليكم أم النفير ؟ [والعير يقصد بها القافلة ؛ والنفير هو القتال] .

ونهض المقداد بن عمرو ، فقال :

يارسول الله ، امض لما أمرك الله ، فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون ، ولكنا نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، ما دامت فينا عين تطرف ، فوالله الذى بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا إلى برك الغماد [بلد بالحبشة] لسرنا معك .

ولاح الرضا والسرور على وجه الرسول ﷺ من هذه الإجابة وتلك الحماسة ، ولكنه عاد يقول : أشيروا على أيها الناس !

لقد سمع كلمة المهاجرين . . سمعها صريحة جريئة مدوية ، ولكنه أراد أن يسمع كلمة الأنصار ، وكان حريصاً على سماعها ، لأن المعاهدة التى عقدها مع الأنصار فى بيعة العقبة قبيل الهجرة ، كانت تنص على أن يقوم الأنصار بحماية النبى إذا هوجم داخل المدينة ؛ فخاف النبى ﷺ أن يظن الأنصار أنه يسوقهم إلى حرب خارج بلدهم لم يتفقوا عليها ،ولذلك أراد أن يستوثق من موقفهم ،ويتأكد أنهم حين يخرجون إلى الغزوة يخرجون باختيارهم ورضاهم ، وبذلك تقوى عزيمتهم وتثبت أقدامهم فى المعركة .

وكأن الأنصار فهموا ما أراده الرسول ﷺ ، فوقف ممثلهم سعد ابن معاذ وقال : لعلك تريدنا معاشر الأنصار يارسول الله ؟

فقال النبي ﷺ : أجل .

فقال سعد : يا رسول الله ، قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ،وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ؛ على السمع والطاعة ، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها ألا ينصروك إلا فى ديارهم ، وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم : فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت . وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت : وما أخذت كان أحب إلينا أخذه مما تركت .

فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً .وإنا لصبر فى الحرب [جمع صبور] صدق فى اللقاء [جمع صدوق] لعل الله تعالى يريك ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله تعالى .

وزاد سرور الرسول ﷺ فقال : « سيروا وأبشروا ؛ فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين : العير أو النفير ، فوالله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » !

وهكذا يكون الإيمان بعون الله ونصره ، فالنبي ﷺ يحدثهم والمعركة لم تبدأ بعد ، فيقول لهم كأنه يرى الأماكن التى ستهوى إليها رءوس أولئك المشركين الجبارين ، بعد أن تلحقهم الهزيمة ، وتدور عليهم الدوائر ، جزاء بغيهم وطغيانهم .

وهكذا انطلق الجيش المؤمن القليل فى عدده ، الجليل فى إيمانه ويقينه ؛ بعد أن اجتمع على كلمة واحدة ، ووجهة واحدة ، وقائد واحد ، وهدف واحد ، هو إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، والانتصاف من البغاة الظالمين .

ونعود لنرى ماذا كان من شأن الكافرين .

لقد نجا أبو سفيان بالقافلة ؛ وأصبح فى مأمن ، فبعث رسولا ثانياً إلى قومه يخبرهم أنه لا داعى لخروجهم ، لأن القافلة قد سلمت ونجت .

ولكن ، أيرضى الغرور والكبرياء بذلك ؟ أيخرج الطغاة على نية القتال ويعودون دون أن يحققوا نيتهم ؟ إن الطغيان لا يقبل هذا المنطق ، ولذلك قال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نأتى بدراً ، فنقيم هناك ثلاث ليال ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ؛ ونسقى الخمر ، وتعزف لنا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً . وتغلبت صيحة الشيطان فمضوا فى طريق البهتان .

ولما دنوا من مكان المسلمين أرسلوا واحداً منهم يستطلع الأخبار ، وبعد قليل رجع إليهم يقول لهم عن المسلمين :

إنهم ثلثمائة ، يزيدون قليلا ، أو ينقصون قليلا ، لا كمين لهم ولا مورد ، ولكنهم قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم ؛ فلا يموت الرجل منهم قبل أن يقتل رجلا مثله .

ونزل الرسول ﷺ أول الأمر عند أول ماء قابلهم بقرب بئر بدر ، وكان بعد هذا الماء أماكن أخرى للماء تقع بين المسلمين والكافرين ، فجاء الحباب ابن المنذر الصحابى ، وسأل الرسول ﷺ عن المنزل الذى نزل فيه : أهذا بأمر الله ووحيه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

وأجابه الرسول ﷺ : بل هو الحرب والرأى والمكيدة .

فقال الحباب ، يارسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل . ثم أشار بأن يتقدموا حتى يجعلوا جميع أماكن الماء وراءهم ؛ ثم يجمعوها فى حوض واحد ، وبذلك تكون أماكن المياه وراء المسلمين ، وليس شيء منها أمام الكافرين .

ورأى النبي ﷺ أن هذا هو الرأى الرشيد ، فلم يكبر عليه أن يرجع إليه ، فأمر بتنفيذ ما أشار به الحباب .

وهكذا نرى أن المسلمين أدركوا قيمة « التموين » فى تسيير المعركة ، ولا شك أن الماء فى طليعة موارد التموين أهمية ، ولذلك حرصوا على أن يجعلوا مكان الماء كله وراءهم وفى حمايتهم .

* * *

وتراءى الجمعان . . . ولا بد — لكى تشتعل المعركة — من شرارة تشعلها ، فكيف جاءت هذه الشرارة ؟ تحرش المشركون بالمسلمين ؛ وأظهروا التحدى لهم ، فهجم أحد المشركين على صف المسلمين يحاول اختراقه ليبلغ الماء من خلفهم متحدياً لهم ، فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة قضت عليه .

وعقب هذا خرج ثلاثة من المشركين يطالبون بأن يخرج إليهم ثلاثة من المسلمين للمبارزة ، وخرج الثلاثة وبدأت المبارزة ، وكانت النتيجة أن انتصر المسلمون الثلاثة ، وقضوا على أعدائهم الثلاثة .

وهنا جاء الالتحام والقتال العام . . . وتحقق النصر فى النهاية لأبناء الإسلام

وكان ذلك صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان للسنة الثانية من الهجرة .

يوم الفتح فى رمضان

فى اليوم العشرين من شهر رمضان المبارك ، من السنة الثامنة للهجرة ؛ كان فتح مكة ، الذى عز به الإسلام ، وارتفعت كلمة الإيمان ، ونزل فيه قول القرآن : (إذا جاء نصر الله والفتح *ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً *فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) .

وإذا كان الرسول ﷺ قد أخذ يتهيأ لفتح مكة خلال الأيام الأولى من شهر رمضان المذكور ، وأخذت بوادر هذا التهيؤ تظهر فى اليوم الثامن منه ، وأخذت جنود الله تتحرك نحو هدفها فى اليوم العاشر ، فإن الفتح قد تحقق فى اليوم العشرين ، وتكاملت صورته فى اليوم الخامس والعشرين .

ولا ريب أن يوم فتح مكة من أيام الإسلام المشرقة الصفحات : الباهرة اللمحات العميقة العظات ، وهو اليوم المجيد المشهود ، الذى أراد فيه الله تبارك وتعالى أن يضع فيه حداً للضلال والبهتان ، وأن يمكن فيه لليقين والإيمان ، وأن يتم بفضله على دعوة الحق فتحاً مبيناً بلا قتال أو صدام .

فهذا رسول الله ﷺ يوقع قبيل الفتح عهد « الحديبية » مع قريش ، على الرغم مما فيه من شروط تبدو فى ظاهرها شديدة ، ولكن النبي ﷺ يقبلها لأمر يريد الله أن يبلغه : (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . ولأنه يريد حينئذ توطيد السلام ونشر الإسلام .

ومع ذلك نقض المشركون العهد وخانوا الميثاق ، واعتدوا على حلفاء المسلمين من قبيلة « خزاعة » وقتلوا منهم عشرين على حين غفلة ، كما يفعل المجرمون الأخساء الذين لا عهد لهم ، ولا هادى يهديهم من شرف أو وفاء .

وأرسلت خزاعة عمرو بن سالم ليستنجد لها برسول الله والمسلمين ، فقدم عمرو على الرسول ﷺ وأنشده أبياتاً فيها :

يارب إنى ناشــد محمـــداً حلف أبيـــه وأبينـــا الأتلدا
فانصر رسول الله نصراً أيدا وادع عباد الله يأتوا مــددا
فيهم رسول الله قــد تجردا إن سيم خسفاً وجهه تربدا
فى فيلق كالحرب يجرى مزبدا أن قريشا أخلفوك الموعــدا
ونقضــوا ميثــاقك المؤكدا وجعلوا لى فى كداء رصدة

فقال النبي مستجيباً للنداء : « نصرت يا عمرو بن سالم » !

* * *

وأحس المشركون بسوء ما فعلوا ، وقدروا تبعات ما اقترفوا ، وحاولوا أن يخادعوا المسلمين ، فجاء أبوسفيان بن حرب إلى المدينة ، عقيب ذلك العدوان . وقد كان زعيماً لهؤلاء يومئذ ، يحاول لقاء الرسول ﷺ ، ظاناً أنه لم يعلم بنقض العهد بعد ، ويريد أن يؤكد العهد أو يجدده ويزيد مدته : وهيهات

وكانت بنته أم حبيبة زوجة للرسول ﷺ ، فأراد أبوسفيان أن يستغل هذه العلاقة ، فدخل على ابنته يريد أن ينتفع بها فى مسعاه ، وخاب فأله ، فلقد أراد أن يجلس على فراش النبي ﷺ ؛ وهو لم يطهر بالإسلام ، فطوت السيدة أم حبيبة الفراش عنه ، فعجب منها وقال لها يا بنية ، ما أدرى ، أرغبت بى عن هذا الفراش [أى تكريماً لى عنه] أم رغبت به عنى [أى ارتفعت به على] ؟

فأجابته إجابة المؤمنة التى تنسى فى سبيل ربها ونبيها وعقيدتها كل صلة وكل قرابة .

قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ .

فدهش أبو سفيان لهذه المفاجأة ؛ وقال لها : والله لقد أصابك بعدى يا بنيّتى شراً .

وحاول أبو سفيان أن يحقق شيئاً مما جاء له ، فلم يفز بطائل ، وعاد إلى مكة بخفى حنين .

* * *

وانتهز الرسول ﷺ الفرصة ، ليضرب ضربته الصالحة المصلحة ، التى يزهق بها روح الفساد ، ويثبت لها دعائم الحق ؛ فجمع الجموع بسرعة ، فى كتمان وأسرار ، وخرج فى اليوم العاشر من شهر رمضان ، وحوله عشرة آلاف ، أو اثنا عشر ألفاً يريد فتح مكة سراً وفجأة وبلا معركة ، وأوعب معه الناس ، فلم يختلف عنه قادر من المهاجرين والأنصار ، وكان يريد بهذه الكثرة أن يجعل المشركين أمام الأمر الواقع ؛ فلا يطيقوا مقاومة هذا الجيش الضخم ، فيستسلموا ولا يكون هناك قتال ولا نزال .

ولذلك أخفى الرسول ﷺ مقصده ، وحث قومه على الجد والسرعة ، وجعل يدعو ربه قائلا : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نبغتها فى بلادها ، اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم ، فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعوا بنا إلاّ فجأة » .

وتلك هى طريقة الحرب الخاطفة ، سبق إليها محمد ﷺ قبل مئات ومئات من السنين ، ولكنه لم يستخدمها — كما يصنع طواغيت الحروب وجبابرة المعارك — للتدمير أو الاستعباد ، بل لنشر السلام ، وإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، وتحطيم الأغلال والأصفاد ، وتحرير العباد والبلاد .

وكان الرسول ﷺ فى أول الأمر صائماً ، والمسلمون كذلك ، ولكنه حينما بلغ موضعاً على الطريق يسمى « الكديد » أفطر ، وأصبح الناس منهم الصائم ومنهم المفطر : وأمرهم الرسول ﷺ بالإفطار جميعاً حين بلغ أقرب منزل يقدر أن يلتى فيه العدو : وحينما علم أن بعضهم ظلوا صائمين قال عنهم : أولئك العصاة .

وروى عبد الله بن عباس قال : خرج رسول الله ﷺ عام الفتح فى رمضان ؛ فصام وصام المسلمون معه ، حتى إذا كان بالكديد دعا بماء فى قعب ، وهو على راحلته ، فشرب والناس ينظرون ، يعلمهم أنه قد أفطر ، فأفطر المسلمون .

ولقد روى عن سعيد بن جبير أن عمر بن الخطاب جاء إلى قوم محاصرى حصن فأمرهم أن يفطروا ، وجاء ذلك فى كتاب « زوائد المسانيد الثمانية » . كما ذكر الطبرى فى تاريخه ، وابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » أن القائد الإسلامى الفاتح : المثنى بن حارثة الشيبانى أمر المجاهدين فى غزوة « البويب » وهو مكان بقرب الكوفة أن يفطروا ؛ فأفطروا عن آخرهم ليكون ذلك أقوى لهم .

* * *

وسعى ركب الرسول ﷺ الحاشد ؛ وخرج أبو سفيان يتحسس ويستطلع ، وفى ذهنه ما فيه من دهشة ، لتخاذل الكفر يوماً بعد يوم ، وسطوع الإيمان حيناً بعد حين ، وما هى إلا لحظات ، حتى يلتقى بالرسول ويسلم ، ويخضع للحق ، وما زال الركب على الطريق .

ويأمر النبى ﷺ عمه العباس أن يقف بأبى سفيان عند مضيق الوادى « حتى تمر به جنود الله فيراها » !

ولما رأى أبو سفيان مارأى من الجنود والحشود ، وخاصة عند المكان الضيق الذى جعل مسيرة الجيش المسلم تمتد وتطول ، حتى تستطيع أن تمر به تباعاً من هذا المضيق ؛ قال للعباس دهشاً : « والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً » .

فصحح له العباس فكرته قائلا : « ويحك يا أبا سفيان ، إنه ليس ملكاً ، ولكنها النبوة » .

فأذعن أبو سفيان وقال : فنعم إذن .

وبعد أن خرج أبو سفيان من مكة ، منذ قليل ، زعيماً للمشركين ، عاد إليها يتقدم الركب وهو أحد المسلمين ؛ ليبدأ بعد قليل فى تثبيط المشركين ، ودعوتهم إلى التسليم حيث لا فائدة من المقاومة ، ولينادى فيهم بعد قليل بإكرام الرسول ﷺ له الذى جمع فيه بين إرضاء فخره ، وتحقيق ما يريده من سلام ، وهو قوله : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » ! .

ويا له من صنع إلهى ؛ أن ينقلب المحرض القوى ضد الإسلام داعياً قوياً يمهد الطريق للإسلام والسلام ، والله يؤيد دينه بمن يشاء ، وسبحان من يأخذ بنواصى العباد إلى حيث أراد ! .

* * *

وينبغى أن نتذكر هنا أن النصر فى المعارك الفاصلة التى تنتهى بها الحروب العامة نشوة تغرى بالطغيان فى التشفى إذا كان المنتصر ظالماً . وبالانتصاف والتأديب إذا كان عادلا ، ولا يتيسر الصفح الجميل والعفو النبيل فى مثل هذه المواقف إلا لصفوة الله من خلقه .

ولعل السيئات التى تنجم عن سوء استغلال النصر قد تفوق أحياناً السيئات التى تنجم عن الاعتداء فى أول الصراع ، والرجل الحكيم هو الذى يحسب ليوم النصر حسابه ، ويعد له عدته ؛ فيوطن نفسه على كبح جماحها عند الغلبة ، وصد النشوة عن امتدادها كيلا تطغى ، وغاية السمو هنا أن تمتد يد المنتصر بالإصلاح ورأب الصدع ومداواة الجراح عند أعداء الأمس، قبل الانتصاف والاقتضاء ، وبهذا الإصلاح يسترق المنتصر هؤلاء الأعداء ، فطالما استعبد الإنسانَ إحسان .

وهذا ما فعله رسول الله ﷺ وهو فى أوج انتصاره يوم فتح مكة ، ويوم غلبته الشاملة على الذين عارضوه واضطهدوه وعذبوه ؛ وأخرجوه من داره بغير حق .

كانت راية رسول الله ﷺ يوم الفتح بيد سعد بن عبادة، فلما دنا الجيش العظيم من مكة هتف سعد معبراً عن الرغبة فى الانتقام من قريش والتأديب لها على عداوتها السابقة فقال : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً ؟ » !

فجاء بعض الصحابة إلى الرسول ﷺ وقالوا : يا رسول الله ، والله لا نأمن سعداً أن تكون منه فى قريش صولة !

وأنشد ضرار بن الخطاب القرشى شعراً طويلا يستعطف به الرسول منه قوله :

يا نبى الهدى إليك لجاجى ... قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم الأرض ... وعاداهم إلـــه السماء
إن سعداً يريد قاصمة الظهر ... بأهـــل الحجـــون والبطحاء

إذ ينادى بـــذل حى قريش وابن حـــرب بذا من الشهداء
فانهينه فإنه أسد الأســـــد لـــدى الغاب . والغ فى الدماء
إنه مطـــرق يدير لنا الأمر سكوتاً كالحيـــة الـــرقطاء

وجاء أبو سفيان زعيم قريش ، وكان حديث الإسلام كما عرفنا ، فقال يستعطف النبي :

يا رسول الله ، أأمرت بقتل قومك ؟ فإنه زعم سعد ومن معه ، حين مر بنا أنه قاتلنا ، أنشدك الله فى قومك ، فأنت أكبر الناس وأرحمهم وأوصلهم.

فأجابه الرسول ﷺ ضارباً أفضل المثل فى حب السلام : يا أبا سفيان ، اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله فيه قريشاً .

ثم عجل الرسول ﷺ حسما للنزاع ، وتطميناً للخواطر ؛ وتثبيتاً لشرعة السلام ، وتعويداً على كبح الجماح ، فأخذ الراية من يد سعد بن عبادة ، ولامه على ما قال ، ثم أراد الرسول ﷺ فى الوقت نفسه ألا يسرف فى الحملة على سعد ، إذ هو صاحب السبق والسوابق الرائعة فى الإسلام ، وهو صاحب الماضى المشرف المعروف ؛ فأعطى الراية لابنه : قيس بن سعد بن عبادة ، فكأنها لم تخرج من يد سعد ، إذ هو وابنه سواء .

* * *

وقسم الرسول ﷺ جيشه الضخم ، وأمر كل قسم بأن يدخل مكة من جهة ، لتتم المفاجأة والمباغتة ، فلا يجد الكفار أمامهم إلا التسليم بلا صدام ؛ ونهى النبي ﷺ أن يقاتل أحد ، أو يريق دماً إلا مضطراً ، وواصل الركب الفاتح مسيرته لدخول مكة ، وكان الرسول ﷺ يخفض رأسه وهو راكب على راحلته تواضعاً ، وخشية من ربه ، وخضوعاً لجلاله ؛ حتى يمس شاربه ظهر الدابة .

ودخلوا مكة فاتحين ، وعاد المهاجرون إلى وطنهم ، ورجع الغريب إلى داره ، ودخل محمد مكة التى أخرجته ، دخلها بعد غيابه عنها ثمانى سنوات ورأى مشاهد الوطن الحبيب ، ورأى المسالك والدروب التى سار فيها طفلا وشاباً ورجلا ورسولا ؛ وتطلع إلى الشعاب والجبال ، حيث أوذى وطورد وعذب ، وتطلع إلى غار حراء حيث تحنث وتعبد وتلقى الوحى ، وتطلع إلى الكعبة الحرام ، التى حيل بينه وبينها زمناً طويلا ، فترقرق الدمع فى عينيه من جلال الذكرى وروعة اللقاء ، ولعله تذكر قول ربه العظيم : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) .

وطاف الرسول ﷺ بالبيت العتيق ، وسارع بالتطهير الكامل ، فحطم الأصنام المحيطة بالكعبة ؛ وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، وأمر بلالا داعى السماء أن يؤذن ، فانطلق الأذان بكلمة التوحيد ، ودعوة الصلاة ، وهتاف الفلاح ، فى رحاب البلد الحرام ، ومن حمى الكعبة الحرام .

وفتح الرسول ﷺ بيت ربه ، وطهره مما فيه من بقايا الجاهلية ؛ مردداً قوله : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

وجاء موقف الجلال الرائع والنبيل العظيم ، حين تعلقت عيون المكيين الخائفين بوجه الرسول ﷺ الذى قال لهم وهم سكوت كأن على رءوسهم الطير : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟

فقالوا فى إجلال ورجاء : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

فقال الرسول السمح ، والنبى الفاتح ، والزعيم المتمكن ، قال لأعدى أعدائه فى الأرض ، بعد أن قهرهم وبهرهم : لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء !

وكأنما نشروا من القبور حين سمعوا ما سمعوا ؛ فقد كانوا ينتظرون الجزاء العادل تقتيلا وتشريداً ، فجاءهم عفواً كريماً وصفحاً حميداً ، فآمنوا بأن محمداً ﷺ هو رحمة الله المهداة ، وأنه رسول هذه الحياة ، الذى جاء ليطهر النفوس ويرفع الجباه !

وتم النصر المبين والفتح الجليل فى أواخر شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، وتحقق وعد الله الذى بشر به ولفت إليه : (إنا فتحنا فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً * هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) .

كما تنزل قول الحق جل جلاله : (إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) .

وأضيفت صفحة جديدة مجيدة ، مشرقة مونقة ، إلى سجل الذكريات الخالدة فى شهر رمضان المبارك العظيم .

أبو الشهداء الإمام على بن أبى طالب

فى اليوم السابع عشر من شهر رمضان المعظم ، من السنة الأربعين للهجرة نال نعمة الشهادة ، أمير المؤمنين الإمام على بن أبى طالب ، رضى الله عنه وأرضاه ؛ وكرم الله وجهه .

ومن خلال ذكرى هذا اليوم المشهود تبدو لنا صورة بطل قل مثيله بين الأبطال ، وفدائى عز نظيره بين أهل الفداء ، هو الشهيد أبو الشهداء : الإمام التقى الوفى : أمير المؤمنين على ، وهو كما يقول النووى : « أحد العلماء الربانيين والشجعان المشهورين ، والزهاد المذكورين ؛ وأحد السابقين إلى الإسلام » .

وهو أيضاً أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وابن عم النبى ﷺ ، وربيبه وتلميذه ، وصهره على ابنته البتول الطاهرة فاطمة الزهراء رضى الله عنها . وأم على هى فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهى أول هاشمية ولدت هاشمياً . وقد أسلمت وهاجرت وتوفيت فى حياة الرسول ﷺ ، فصلى عليها ؛ ونزل قبرها .

وكانت أم على قد اختارت له اسم « حيدرة » ، والحيدرة هو الأسد ، وسماه أبوه « عليا » ، وكان هذا قد كان إلهاماً من جانب القدر ، فالأسد على أبى فى رفعته وأنفته ، والعلى أسد شجاع فى قولته ووثبته ، فابن أبى طالب جدير بأن يسمى بحيدرة ؛ وأن يسمى بعلى .

ولقد كان أبو طالب رجلا فقيراً كثير العيال ، فأخذ النبى ﷺ منه ولده علياً ليكافه ويرعاه ، وكان هذا إسعاداً أى إسعاد من الله تبارك وتعالى لعلى ، فقد صار فرداً من بيت النبوة ، وأصبح قريباً من معدن الرسالة ، وأفاد

من ذلك الخير الكثير فى دينه وأخلاقه ، ومكانته عند رسول الله ﷺ ، حتى قال عنه : « على منى ؛ وأنا من على » . وقال له : « يا على ، أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبى بعدى » . وقال له : « أنت أخى وصاحبى فى الدنيا والآخرة » ، .

ولا عجب فى ذلك ولا غرابة ، فقد كان مولد على داخل الكعبة بيت الله الحرام .

وصانه رب العالمين عن السجود للأصنام ، وزاع ذلك عنه فاستحق أن يقال فيه : كرم الله وجهه ، وفتح عينيه حينما شب على نور الإسلام ؛ فكان أول الناس إسلاماً بعد خديجة رضوان الله تعالى عليها ، وكان ابن عشر سنين حين أسلم ، ونشأ صاحب فروسية ونخوة ، وتجلى ذلك أولا فى الموقف البطولى الفدائى الجليل ، حينما فدى بنفسه رسول الله ﷺ ، فنام ليلة الهجرة فى فراشه ، والمشركون يطلبون دم الرسول ﷺ ؛ وسيوف شبابهم فى أيديهم ، يحيطون ببيت النبوة ليرتكبوا جريمتهم الشنعاء ، ومع ذلك لم يخف على ولم يفزع .

ثم شهد مع الرسول ﷺ غزوات بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان وخيبر وفتح مكة وحنين والطائف وسائر المشاهد ، إلا غزوة تبوك ، فإن النبى ﷺ استخلفه على المدينة .

وكان له فى كل هذه الغزوات آثار مشهودة ، وكان بيده اللواء فى أغلب هذه الغزوات ، وفى موقعة خيبر قال النبى ﷺ : « لأعطين الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ؛ ويحبه الله ورسوله » وفى الغد تطلع الصحابة الكبار إلى أخذ الراية طمعاً فى حب الله ورسوله ، فنادى النبى ﷺ أين على بن أبى طالب ؟

فقالوا يا رسول الله هو يشتكى عينيه .

فدعاه إليه ، ومس عينيه بريقه ، ودعا له فبرئ ، وأعطاه الرسول ﷺ الراية فقال على : يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟

فقال : أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ؛ ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى . وقد فتح الله على يديه فتحاً مبيناً ، ونصر به نصراً عظيماً : (ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليماً) .

* * *

وكان بطل الفداء وأبو الشهداء على لا يهاب أحداً فى المنازلة كائناً من كان ، ولذلك لم يتردد فى منازلة الطاغية عمرو بن عبد ود : فارس الجزيرة العربية يومئذ ، والذى كانوا يعدلونه بألف رجل . فى غزوة الخندق خرج عمرو فى كامل عدته وسلاحه ينادى على جيش الإيمان قائلا : من يبارز ؟

فهتف على : أنا له يا نبى الله .

فأشفق عليه النبى ﷺ وقال : يا على ، إنه عمرو ؛ اجلس .

فعاد عمرو يقول للمسلمين هازئاً : أين جنتكم التى زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم ؟ أفلا تبرزون إلى رجلا ؟ !

فقام على أكثر من مرة وهو يقول : أنا له يا رسول الله .

وجعل الرسول يقول له : اجلس . إنه عمرو .

فقال متوثباً : وإن كان عمراً يا رسول الله .

وهنا أذن له الرسول ، فانطلق على نحو عمرو كالقدر العاجل . فقال له عمرو فى أنفة مستصغراً له : من أنت ؟ فأجاب : أنا على بن أبى طالب .

فقال عمرو مستخفاً : يا ابن أخى ، من أعمامك من هو أسن منك . وإنى أكره أن أريق دمك . فقال على : ولكنى والله لا أكره أن أريق دمك .

ثم عرض على عمرو أن يكف عن القتال ، فأنف وقال : إذن تتحدث العرب بفرارى .

فقال له : يا عمرو ، إنك كنت تعاهد قومك ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه إحداهما . قال : أجل . قال علىّ : فإنى أدعوك إلى الإسلام أو إلى النزال . فقال عمرو : ولم يا ابن أخى ، فوالله ما أحب أن أقتلك فقال علىّ : ولكنى أحب أن أقتلك – ما دمت على إصرارك .

وغضب عمرو وهجم على علىّ بضربة سيف توقاها الفارس الشاب بمهارة ، ثم كان النزال . وبعد قليل سدد على إليه ضربة قاتلة ، جعلته يسقط وينهض ، ثم يسقط وينهض ، ثم استقر صريعاً على الأرض وهتف علىّ صيحة الجهاد : الله أكبر ، الله أكبر .

وكانت أخت عمرو بن عبد ود تتحدث عن مصرع أخيها ، وعن بطولة على . فتقول على سبيل التأسى :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... بكيته أبداً ما دمت فى الأبد

لكن قاتله من لا نظير له ... وكان يدعى أبوه : بيضة البلد

* * *

وظل على رضى الله عنه يحيا حياة الشهداء ، وأعد نفسه ليلقى ربه لقاء الشهداء ، بعد أن دخل فى الإسلام صبياً مقداماً كما يدخل الشهداء ، وجاهد فى سبيل ربه كما يجاهد الشهداء ، وكان يتكلم كما يتكلم الشهداء الذين يؤثرون

ما عند الله ما على عند الناس ، فكان يقول : « والله ما أبالى أوقعت على الموت أم وقع الموت على » .

ويقول عن سيفه : « والذى فلق الحبة ، لطالما كشفت بسيفى الكرب عن وجه رسول الله ﷺ » .

ولقد قال لأبى ذر حين نفيه إلى بلدة الربذة : « يا أبا ذر ، إنك غضبت لله، فارج إلى من غضبت له. إن القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك، فاترك فى أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عما منعوك ، وستعلم من الرابح غداً والأكثر حسداً ، ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله ، لجعل له منهما مخرجاً ، لا يؤنسنك إلا الحق ، ولا يوحشنك إلا الباطل ،فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو قرضت منها لأمنوك » .

* * *

ولكن علياً لم يكن مندفعاً ولا متهوراً ، بل كان حكيماً عاقلا ، ولذلك قال لابنه : « لا تدعون إلى مبارزة ، فإن دعيت إليها فأجب ، فإن الداعى إليها باغ ، والباغى مصروع » ، وقال لابنه محمد وقد ولاه قيادة معركة : « يا بنى ، تزول الجبال ولا تزل ، عض على ناجذك ، أعر الله جمجمتك ، مد فى الأرض قدمك ، ارم ببصرك أقصى القوم ثم غض بصرك ، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه »[1] .

ولما خرج عليه الخوارج قال له بعض أصحابه : إنهم خارجون عليك ، فبادرهم قبل أن يبادروك .

فقال : لا أقاتلهم حتى يقاتلونى ، وسيفعلون .

* * *

---

(١) انظر كتاب « الفداء فى الإسلام » ففيه تحليل واف لهذه الوصية ، ص ٢١٦ — ٢٢٧ .

ومن مظاهر البطولة والحكمة فى حياة الإمام على أنه كان مصلحاً اجتماعياً إلى جوار بطولته فى الجهاد والنضال ، ولقد كان الإمام أبلغ الناس بعد رسول الله ﷺ ، وقد تجلت شواهد بلاغته ودلائل حكمته فى كتابه المشهور « نهج البلاغة » ، وفى هذا الكتاب نجد كلمة ناضرة منثورة ، يمكن أن نجمع شتاتها ، ونتعرف إليها فنجدها تدل على مسالك لإصلاح الفرد والجماعة .

فهذا هو الإمام على - أولا - يقول : « الطمع رق مؤبد » ، وهو يقصد بهذا أن الطامع يظل طيلة حياته أسيراً لطمعه ، عبداً لجشعه ، يجمع ولا يقنع ، ويأكل ولا يشبع ، وقد يحوز ولا يتمتع ، بل قد يؤدى بنفسه - - عن طريق طمعه - إلى الخسران والبوار والهلاك .

ولذلك يعود الإمام فيقول : « أكثر مصارع العقول تحت بروق الطمع » وهذا حق ، فكم من شهوات منحرفة جامحة سيطرت على صاحبها ، واستنام لها ، فجعلته يطمع فيما لا يستحقه ، أو فيما يتعذر عليه أن يناله ، فقادته إلى شر المهالك والمعاطب ، بل ربما تجاوز الإنسان حد الاعتدال فى وقت من الأوقات فحرمه ذلك أن يتمتع بما كان ينبغى أن يتمتع به ، ولذلك قال الإمام على : « كم من أكلة منعت أكلات » ، لأن الإنسان زاد عن الطاقة المحتملة المعقولة فى الأكلة الأولى ، فأفسدت عليه أمره فأمرضته ، وجعلته غير صالح لأكلات كثيرة بعدها .

وليس معنى هذا أن الإمام علياً كان يكره الغنى واليسار ، أو يحبب فى الفقر والحرمان ، فالواقع أنه كان يبغض الفقر ويشوه منظره ، فيقول : « الفقر الموت الأكبر » . ويقول : « لو كان الفقر رجلا لقتلته » . ولكنه فى الوقت نفسه يخبر الإنسان بأن حيازة الثروة وحدها ليست هى كل شىء ، فقد يكون هناك ما هو خير منها ، مثل صحة البدن وسلامة القلب ، فيقول :

« ألا وإن من البلاء الفاقه [أى الفقر] وأشد من الفاقة مرض البدن ، وأشد من مرض البدن مرض القلب . ألا وإن من النعم سعة المال ، وأفضل من سعة المال صحة البدن ، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب » . والحديث الشريف يقول : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس »

والإمام على يدعو المؤمن إلى أن يشارك غيره وجدانياً ومادياً على قدر طاقته ، وأن يحذر الجشع والاستئثار بالنعمة دون سواه ، فإن ذلك ربما كان مآله الحرمان والضياع ، وربما تعب الإنسان الجشع فى حفظ ماله اليوم ، ثم صار المال إلى سواه غداً على الرغم منه ، ولذلك يقول الإمام على : يا ابن آدم ، ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك » .

ولهذا يدعو إلى التكافل الإسلامى الوثيق بين الأغنياء والفقراء ، لأن القادر مسئول عن تضييع أخيه العاجز ، والقوى محاسب على إهمال الضعيف ، فيقول : « إن الله سبحانه فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما متع به غنى ، والله تعالى سائل الأغنياء عن ذلك » .

ويحث الإمام هؤلاء الأغنياء على قضاء ضرورات العاجزين الفقراء ، حتى يحفظ الله على المالكين القادرين نعمته وفضله ، وإن لم يستجيبوا لذلك نزع الله بعد قليل ما بأيديهم ، وصرفه إلى سواهم ، وفى هذا يقول الإمام : « إن لله عباداً يختصهم الله بالنعم لمنافع العباد ، فيقرها فى أيديهم ما بذلوها [أى ما داموا يبذلون منها للمحتاجين] فإذا منعوها نزعها الله منهم ، ثم حولها إلى غيرهم » .

ويلفت الإمام نظر الإنسان وتفكيره إلى أنه ينبغى له أن يحسن التصرف فى ماله ، وأن يستخدمه فى الطيبات والأعمال النافعة له ولغيره ، وأن يحذر تكديسه بلا استعمال ، حتى لا تفاجئه الأقدار بأحداث الحياة فتطيح بالمال

دون انتفاع منه ، أو تفجأه بالموت فينتقل المال إلى وارث جديد ، فيقول الإمام : « لكل امرئ فى ماله شريكان : الوارث والحوادث » .

ولكن الإمام فى الوقت نفسه يحث الناس على سلوك الطريق القويم المعتدل من ناحية الضيق أو السعة فى المال ، فيحث من كان قليل المال على أن يتجمل بالرفعة والتماسك والاحتمال ، والبعد عن الذلة والهوان ، ويحث من كان كثير المال على شكر الله بالبذل منه فى وجوه الخير ، والإسهام به فى مصالح العباد ، فيقول : « العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة الغنى » .

ويقرب من هذا قوله : « ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله ، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله » .

فهو بذلك يعلم الغنى أن يعاون المحتاج ، ولكنه فى الوقت نفسه يعلم الفقير أن يترفع عن المذلة والخضوع للأغنياء ، بل عليه أن يتكل على ربه ، ويعتمد على فضله ، ويسعى بجهده ، فينال ما يحتاج إليه ، ويحتفظ لنفسه بما يصونها من شرف وكرامة : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدراً) .

والإمام على حريص على أن يدفع بالمؤمن إلى استخدام ما يملكه فيما يرضى ربه ، بعد أن يناله بطريق يرضى ربه أيضاً ، وإلا انقلب عليه ماله حسرات ، فيقول الإمام : « إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالا فى غير طاعة الله ، فورثه رجل فأنفقه فى طاعة الله سبحانه ، فدخل الجنة ودخل الأول به النار » .

ويقول : « إن أخسر الناس صفقة ، وأخيبهم سعياً ، رجل أخلق بدنه [أى أتعبه] فى طلب ماله ولم تساعده المقادير على إرادته ، فخرج من الدنيا بحسرته ، وقدم على الآخرة بتبعته » ؟ !

وهكذا نرى من هذا القبس الذى قبسناه من حكمة البطل الإمام على أنه الذى ورث عن رسول الله ﷺ البصر بدقائق الإيمان واليقين ، وهو قبس يعلمنا كيف نسعى فى الحياة سعى الأقوياء . ونكسب كسب الشرفاء ، وننفق إنفاق الكرماء ،ونعاون معاونة الأوفياء ،ونعبد الله عبادة الخلصاء، ونتصرف تصرف الحكماء،حتى نكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشى ربه.

* * *

وهناك ناحية أخرى فى حياة الإمام البطل شهيد رمضان رضوان الله عليه، تلك هى ناحية الإصلاح الاجتماعى الدال على الخبرة بما يتطلبه المجتمع من ضوابط الصيانة والرعاية ،ولعل نظرة نلقيها على العهد لدى وجهه الإمام على إلى مالك بن الحارث الأشتر النخعى حين ولاه مصر ، لجباية خراجها ، وجهاد عدوها وإصلاح أهلها ، وعمارة بلادها ، تكفى التعرف إلى هذه الناحية الجليلة فى شخصية الإمام .

ها هو ذا يوصى الأشتر مثلا بأن يكون « القاضى » عزيزاً مكفى الحاجة ، صبوراً حكيماً ، دقيقاً فطناً ، مترفعاً عن الشبهة ، بعيداً عن الظنة ، لا تقبل فيه سعاية ولا وشاية ، حتى يتحقق ما نعبر عنه فى عصرنا بقولنا « استقلال القضاء » فيقول الإمام على للأشتر النخعى :

« ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسه ، ممن لا تضيق به الأمور ، ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى فى الزلة ، ولا يحصر عن الفىء إلى

الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، وأوقفهم فى الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأصرمهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه إطراء ، ولا يستمليه إغراء ، وأولئك قليل . . .

... ثم أكثر تعاهد قضائه ، وأفسح له فى البذل ما يزيل علته ، وتقل معه حاجته إلى الناس . وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، لتأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ، فانظر فى ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً فى أيدى الأشرار ، يعمل فيه بالهوى ، وتطلب به الدنيا .

هذا هو استقلال القضاء مع حصانته يقول به رجل عربى من أسلافنا ، لم يدرس فى جامعة ، ولم يقرأ القانون فى « موسوعة » ، ولكنه تخرج فى مدرسة محمد ﷺ ، وهى التى أخرجت خير أمة للناس .

• • •

وفى السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين للهجرة لقى الإمام البطل نعمة الشهادة ، حيث طعنه الشقى عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، حينما خرج الإمام إلى صلاة الفجر وهو صائم .

وحينما أحس بالطعنة قال : فزت ورب الكعبة ، وكان عمره على الصحيح ثلاثة وستين عاماً ، وفى ليلة الأحد التاسع عشر من شهر رمضان صعدت روح الإمام إلى بارئها ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

ولقد رثاه بكر بن حسان الباهرى فقال :

قل لابن ملجم والأقدار غالبة : هدمت للدين والإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشى على قدم وأعظم الناس إسلاماً وإيمانا
وأعلم الناس بالقرآن ، ثم بما سن الرسول لنا شرعاً وتبيانا
صهر النبي ومولاه وناصره أضحت مناقبه نوراً وبرهانا
وكان منه على رغم الحسود له مكان هارون من موسى بن عمرانا

وولد الحسن بن على فى نصف رمضان سنة ٣ هـ .

فتح الأندلس فى رمضان

فى شهر رمضان المبارك سنة إحدى وتسعين للهجرة بدأ فتح الإسلام بلاد الأندلس [الفردوس الإسلامى المفقود] .

ويروى التاريخ أن أول من دخل جزيرة الأندلس من المسلمين لفتحها والجهاد فيها هو « طريف البربرى » التابع للبطل الفاتح موسى بن نصير ، وكان طريف مع سرية مجاهدة قوامها مائة فارس ، وأربعمائة راجل ، وكان دخوله فى شهر رمضان المعظم فى السنة الحادية والتسعين بعد الهجرة النبوية ، وقد نقل هذه السرية فى أربع مراكب من شمال أفريقيا إلى أرض إسبانيا .

واستعان طريف فى غزوته تلك بالكونت يوليان ، الذى كان نائباً للإمبراطور البوزنطى فى مدينة سبتة ، حيث سهل هذا النائب للمسلمين طريق النزول لأول مرة فى أرض الأندلس ، حيث كانت هناك أحقاد بين يوليان ولذريق صاحب الأندلس [١] .

---

(١) يروى أن سبب ذلك أن لذريق اعتدى على عرض ابنة يوليان بعد أن استأمنه عليها . (المعجب ، ص ٣٣) .

وكان موسى بن نصير بطل شمال أفريقية قد استأذن من أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، فى أن يوسع دائرة الغزو والفتح فى بلاد الأندلس ، لتمكين كلمة الإسلام فيها ، وتحرير أهلها من نير الطاغين الطارئين عليها من القوط الغربيين ، فكتب إليه الوليد يقول له : خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال .

ورد عليه موسى يبين له أنه ليس ببحر زخار ، وإنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه .

فكتب إليه الوليد يقول إنه لابد من اختبار هذا البحر بالسرايا قبل اقتحامه .

فبعث موسى تابعه طريفاً كما ذكرنا ، وعاد طريف بعد توفيقه فى غزوته يثنى على البلاد وبنوه بها ، فبعث موسى إلى الأندلس بالبطل الفاتح « طارق بن زياد » ، فتخطى البحر فبلغ جبل طارق المنسوب إليه حتى اليوم ، فى شعبان سنة ثنتين وتسعين للهجرة .

ويروى أن طارق بن زياد حينما وصل اليابسة من بلاد الأندلس ، أحرق السفن التى عبروا البحر فوقها ، لكى يقطع طريق العودة على جنوده ، فيجعلوا كل همهم فى النضال والكفاح ، وخطبهم خطبته الرائعة التى قال فيها : بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وحث المسلمين على الجهاد ورغبهم فيه :

« أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم .

وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية [يقصد لذريق] فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة . وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن ، إن سمحتم لأنفسكم بالموت .

وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا ، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى » .

ثم قال : « وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولى أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين .

واعلموا أننى أول مجيب لما دعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق ، فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه . واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون »[1] .

---

(١) هناك من يشكك فى هذه الخطبة ، وتراجع تفاصيل ذلك والرد عليه فى كتاب « ملامح أدبية » ص ١٧٤ وما بعدها .

وهنا انشرحت صدور هؤلاء الجنود ، وهبت رياح النصر عليهم وأحسنوا الظن بربهم كأنهم يرون بأعينهم ما سيهيئه لهم من نجاح وفلاح وقالوا لقائدهم طارق : قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه ، فاحضر إلى الطاغية لذريق فإننا معك وبين يديك .

ثم وقعت المعركة الحاسمة بين قوة المسلمين وجيوش ملك القوط المسيطرين على بلاد الأندلس يوم ٢٨ رمضان من السنة الثانية والتسعين للهجرة (١٩ يوليو سنة ٧١١ م)[1] ، وانتهت باندحار القوط وانتصار المسلمين .

ويروى التاريخ أن طارق بن زياد حينما رأى لذريق قال : هذا طاغية القوم . وأقبل طارق عليه حتى خلص إليه ، وضربه بالسيف على رأسه ، فقتله وهو على سريره ، فلما رأى أصحابه مصرع صاحبهم اقتحم الجيشان ، وكان النصر للمسلمين ، ولم تقف هزيمة العدو عند موضع ، بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومعقلا معقلا .

وجاء موسى بن نصير بعد طارق فتوسع فى الفتح ، وأوغل فى البلاد ، وكان دخول موسى الأندلس لتتويج النصر وتوسيع الفتح فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين (يونيو ٧١٢ م) .

ويروى أن طارق بن زياد قد أنشأ فى فتح الأندلس قصيدة منها هذه الأبيات :

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا ... عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوسا وأموالا وأهلا بجنة ... إذا ما اشتهينا الشىء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا ... إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٥ ص ٣٣ .

وهو يشير بذلك إلى قول الله تبارك وتعالى فى سورة التوبة :

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) .

وهكذا يضاف إلى رصيد رمضان العظيم المبارك من الذكريات الخالدة الماجدة ، حصيلة جديدة :

فى شهر رمضان سنة إحدى وتسعين للهجرة بدأ فتح الإسلام للأندلس بسرية طريف البربرى .

وفى شهر رمضان سنة ثنتين وتسعين للهجرة كانت حملة طارق بن زياد لتحقيق الفتح .

وفى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين للهجرة كانت حملة موسى بن نصير لتوسيع الفتح .

كأن رمضان قد كان على ميعاد مع مفاخر الإسلام فى الأندلس : ذلك الفردوس المفقود !

• • •

نعم إنه الفردوس الذى أضاعه التفرق والتمزق ، وأفقده التنكر للوحدة والأخوة . ومن وراء ذلك كان الذل والهوان ، حتى صور جانباً من ذلك الشاعر الفقيه أبو البقاء صالح بن شريف الرندى فى رثائه لهذا الفردوس

المفقود ، فكان مما قاله هذه الأبيات يستنهض بها همم أبناء الإسلام فى كل مكان ، للذود عن الحمى ، والدفاع عن الحرمات :

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها فى مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها فى ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر فى دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون ، وهم ... قتلى وأسرى ، فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان ؟
ألا نفوس أبيات لها همم ؟ ... أما على الخير أنصار وأعوان ؟
يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً فى منازلهم ... واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر ، واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان فى القلب إسلام وإيمان !.

• • •

ألا ما أشد احتياج المسلمين اليوم إلى أن يتدبروا هذه الصرخات ويتأثروا بها ، فما أشبه الليلة بالبارحة ، وما أثقل التبعات التى تبهظ كاهل المسلمين أمام ما يطالبهم به ربهم وإيمانهم وكرامتهم ، من تحرير الديار ، والأخذ بالثأر ، ومحو العار ، (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) .

أم المؤمنين عائشة

فى ليلة الثلاثاء ، السابع عشر من شهر رمضان العظيم ، سنة ثمان وخمسين من هجرة الرسول ﷺ ، لقيت ربها الصديقة بنت الصديق ، أم المؤمنين ، أم عبد الله : السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وأمها هى أم رومان بنت عمير ، التى أسلمت وهاجرت واحتملت ، وقال فيها الرسول ﷺ : « من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان » !

والسيدة عائشة هى كريمة أبى بكر صاحب الفضل الكبير فى خدمة الإسلام ، وصاحب الجهد الكبير فى خدمة رسول الإسلام والدفاع عنه ، وهى زوجة الرسول ، والبكر الوحيدة التى تزوجها ، وأحب زوجاته إليه بعد خديجة ، وهى التى لم ينزل الوحى على الرسول ﷺ فى لحاف زوجة له سواها ، وهى المبرأة من فوق سبع سموات فى قرآن يتلى إلى آخر الدهر ، وهى أخت البطلة الخالدة الماجدة ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر .

وهى التى قال فيها الصادق المصدوق ﷺ : « فضل عائشة كفضل الثريد على سائر الطعام » وأبلغها النبى أن جبريل يقرئها السلام ، كما أخبرها بأنها زوجة النبى فى الدنيا والآخرة .

ولقد سأل عمرو بن العاص رسول الله ﷺ قائلا : من أحب الناس إليك يا رسول الله ؟ .

فأجاب النبى ﷺ قائلا : عائشة .

فعاد عمرو يقول : إنما أريد من الرجال . .

فعاد النبى ﷺ يجيب بقوله : أبوها !

وحدثت عائشة عن نفسها – فيما يرويه ابن سعد فى الطبقات فقالت : فضلت على نساء النبى ﷺ بعشر . . قيل : وما هن يا أم المؤمنين ؟ فقالت : لم ينكح بكراً غيرى ، ولم ينكح امرأة أبواها مهاجران غيرى ، وأنزل الله عز وجل براءتى من السماء ، وجاءه جبريل بصورتى من السماء فى حريرة ، وقال : تزوجها فإنها امرأتك ، وكنت أغتسل أنا وهو من إناء واحد ، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه ، ولم يكن يفعل ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان ينزل عليه الوحى وهو معى ، ولم يكن ينزل عليه وهو مع أحد من نسائه غيرى ، وقبض الله نفسه وهو بين سحرى ونحرى ، ومات فى الليلة التى كان يدور علىّ فيها ، ودفن فى بيتى !

• • •

وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها تفضل رضا الله ورضا رسوله على متاع الحياة وزخرف الدنيا ، ويروى فى ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوماً وقال لها : إنى سأعرض عليك أمراً ، فلا عليك ألا تعجلى به حتى تشاورى أبويك . .

فقالت : وما هذا الأمر ؟

فتلا عليها النبى قول ربه تبارك وتعالى فى سورة الأحزاب : (يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ۝ وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما) .

فأجابت السيدة عائشة : فى أى ذلك تأمرنى أن أشاور أبوى ؟ بل أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

فسر النبي ﷺ بذلك وأعجبه[1] .

ولقد جاء فى كتاب « الصديقة بنت الصديق » للعقاد أن السيدة عائشة كانت تشارك والدها أبا بكر الصديق فى أكثر من صفة من صفات الخير والبر والمجد ، فيقول :

« وقد كانت بنت أبيها فى أكثر من خصلة واحدة من هذه الخصال النادرة بين الرجال والنساء ، ولكنها كانت أشبه ما تكون به فى خصلة الصدق التى اشتهر بها ، ومن أجلها نعت بالصديق ، وغلب هذا النعت عليه حتى أوشك أن ينسى الناس اسمه الذى دعاه به أبواه .

وقد امتحن صدقها فى مآزق عسيرة البلاء للنفوس ، فتمحصت عن معدن كريم وعرق سليم ، ودلت على أصالة هذا الميراث النفيس من أبيها العظيم ، ففى الغاشية التى أطبقت على العالم الإسلامى من جراء الخلاف على الخلافة ، تطايرت الأحاديث الموضوعة من هنا وهناك ، وتعمد أناس أن يصوغوا من عندهم حديثاً لكل حزب ينصره ويرضيه ، ويكبت خصمه ويخزيه ، وافتن الوضاع فى محاكاة الأحاديث النبوية ، ذلك الافتنان الذى شقى به المحققون للروايات بعد ذلك بسنين .

وكانت السيدة عائشة تشترك فى خصومات المتخاصمين على الخلافة باختيارها ، أو تساق إلى المشاركة فيها على كره منها ، وكانت هى أولى من يسمع له إذا روت حديثاً يدمغ خصومها ويعزز أنصارها ، ولكنها لم تنقل قط فى كل ما ثبتت نسبته إليها حديثاً واحداً تمسه الشبهات من قريب أو بعيد ، ولا تؤيده الأسانيد الأخرى ، ولم تحرف كلمة واحدة إلى غير موقعها

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٨ ص ٤٧ . وتهذيب الأسماء للنووى ج ٢ ص ٣٥١ .

طواعية لإغراء تلك النوازع النفسية التى تطيش بالألسنة أو تضلل العقول ، وهو امتحان ليس أعسر منه امتحان فى هذا الباب ، ولهذا كانوا يروون عنها الأحاديث فيقولون : « حدثتنا الصديقة بنت الصديق » .

ومن الصفات التى شابهت فيها أباها الذكاء المتوقد والبديهة الواعية ، ولم تقصر فيها عن شأوه ، بل لا نحسبها قصرت عن شأو واحد من معاصريها بين الرجال والنساء على السواء ، فى سرعة الفهم وقدرة التحصيل والإحاطة بكل ما يقع فى متناول ذهنها . قال أبو الزناد : ما رأيت أحداً أروى لشعر من عروة بن الزبير ، فقيل له : ما أرواك [أى ما أكثر روايتك للشعر] . فقال : وما روايتى فى رواية عائشة ، ما كان ينزل بها شىء إلا أنشدت فيه شعراً .

وقد كان عروة بن الزبير أشد الناس حباً لخالته السيدة عائشة[1] وإعظاماً لها وتوقيراً لسيرتها ، ولكن الذى روى عنها من الشواهد الشعرية فى أخبارها التى نقلت إلينا يدل على صدق ما وصفها به من غزارة الحفظ وحسن الاستشهاد .

وإذا تذكرنا أن السيدة عائشة روت عن النبى ﷺ ألفين ومائتين وعشرة أحاديث فى مختلف الموضوعات والأحكام أدركنا الزاد العلمى الفقهى الضخم الذى وعته وفهمته وتثقفت به ، وحق لأبى موسى الأشعرى أن يقول : ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علماً فيه . ولعطاء بن أبى رباح أن يقول : كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً فى العامة . وكان نستفتونها ويسألونها فى الفرائض .

* * *

(١) لأنها أخت أم عروة : السيدة أسماء .

وبعد ستة وستين عاماً قضتها الصديقة بنت الصديق فى هذه الحياة ، لبت نداء ربها ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة[1] مضت من شهر رمضان المعظم سنة ثمان وخمسين للهجرة ، ودفنت من ليلتها بعد صلاة الوتر ، فى مقبرة البقيع ، كما أوصت بذلك ، واجتمع على جنازتها أهل المدينة ، وأهل العوالى ، وقالوا : لم نر ليلة أكثر ناساً منها . وصلى عليها أبو هريرة .

رضوان الله تبارك وتعالى عليها .

* * *

معركة الزَّلَّاقة فى رمضان

فى أول جمعة من شهر رمضان المبارك ، سنة تسع وسبعين وأربعمائة للهجرة [2] كانت وقعة « الزلاقة » ، والزلاقة أرض بالأندلس [الفردوس الإسلامى المفقود] قرب مدينة قرطبة ، كانت عندها الموقعة المشهورة باسمها بين مسلمى الأندلس والإفرنج ، وقيل فى تفسير الزلاقة إنها بطحاء الزلاقة ، من إقليم بطليموس من غرب الأندلس .

وفى هذه الموقعة كانت الهزيمة المنكرة لأعداء المسلمين ، ونصر الله تعالى الإسلام وأهله نصراً لا نظير له ، وصار يضرب بوقعة الزلاقة المثل .

وسببها أن ملك الإفرنج الذى يسمى «الأذفونش» وهو ألفونس السادس ملك قشتالة ، تطاول على المعتمد بن عباد سلطان المسلمين فى الأندلس ، وهدده بأنه سينتزع مدينة « قرطبة » من أيدى المسلمين .

---

(١) فى رواية : لتسع عشرة ليلة (انظر الطبقات لابن سعد ج ٨ ص ٥٥) .

(٢) قيل : كانت فى أوائل رمضان ، وقيل كانت فى أول جمعة من رمضان ، وقيل كانت فى الثالث عشر من رمضان ، وقيل غير ذلك ، ولكن المشهور أنها كانت فى رمضان من ذلك العام ، وقيل إنها كانت سنة ٤٧٥ .

وجهز الأذفونش لذلك جيشين سيرهما لمحاربة المسلمين بقيادة اثنين من رجاله ، ثم سار هو على رأس جيش ثالث لمهاجمة المعتمد[1] ، وأرسل رسالة ساخرة إلى المعتمد يقول له فيها :

« كثر – بطول مقامى – فى مجلسى الذباب ، واشتد علىّ الحر ، فأتحفنى من قصرك بمروحة أروح بها على نفسى ، وأطرد بها الذباب عن وجهى » .

ومع أن المعتمد كان أقل من ملك الإفرنج عدة وعدداً ، فقد تناول رسالته ، وكتب على ظهرها ما يلى : « قرأت كتابك ، وفهمت خيلاءك وإعجابك ، وسأنظر لك فى مراوح من الجلود اللمطية ، تروح منك ، لا تروح عليك ، إن شاء الله تعالى » . فأخذته الدهشة حين جاءه هذا الرد .

وقرر المعتمد أن يستعين بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين سلطان المغرب ، وأرسل إليه فى ذلك ، فقال يوسف : « أنا أول منتدب [أى مستجيب] لنصرة هذا الدين » .

وجاء بعض رجال المعتمد يخوفونه من استعانته بابن تاشفين ، وقالوا له إن ذلك سيجعله يتطلع إلى ملك الأندلس ، فينتزعه منك ، ولما ألحوا فى ذلك ، وأبدعوا وأعادوا فى قولهم : « الملك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان فى غمد واحد » أجابهم بكلمته المشهورة : « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » . وهو يقصد أنه إذا أصبح مأكولا ليوسف بن تاشفين السلطان الملك ، وصار أسيراً عنده يرعى له الجمال فى الصحراء . فذلك خير من أن يكون مأكولا لملك الإفرنج ، ويصير عنده أسيراً يرعى له الخنازير فى قشتالة ! .

---

(١) يقول المراكشى : وكان الأذفونش لعنه الله قد استنفر الصغير والكبير ، ولم يدع من أقاصى مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه (المعجب ، ص ١٩٣) .

ولما زاد إلحاحهم عليه فى المراجعة والنقد قال لهم: «يا قوم، إنى من أمرى على حالتين : حالة يقين وحالة شك ، ولابد لى من إحداهما . أما حالة الشك فإنى إن استندت إلى ابن تاشفين ، أو إلى الأذفونش ، فنى الممكن أن يفى لى ، ويبقى على وفائه ، ويمكن ألا يفعل ، فهذه حالة شك .

وأما حالة اليقين فإنى إن استندت إلى ابن تاشفين ، فأنا أرضى الله ، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى ، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة ، فلأى شىء أدع ما يرضى الله وآتى ما يسخطه » ؟ فأسكتهم بهذا الجواب .

وسارع ابن تاشفين بالاستجابة ، وعبر البحر بجيشه إلى الأندلس ، ليشارك فى رد العدوان عن المسلمين . ولما علم ملك الإفرنج الأذفونش بمسيرة ابن تاشفين كتب إليه يهدده ويتوعده ، فكتب ابن تاشفين الرد على ظهر الرسالة ، ولم يزد الرد على قوله : « الذى يكون ستراه » فارتاع الأذفونش من هذا الرد .

* * *

وتلاقى المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين ، وتعانقا ، وتعاهدا على التعاون ، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والمحبة ، وشكرا نعم الله تعالى ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر ، وتضرعا إلى الله تعالى فى أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه مقربا إليه .

وأهدى المعتمد إلى ابن تاشفين جملة هدايا فاخرة ، وعند تباشير الصباح صلوا الصبح ، ثم اتفقوا على التقدم نحو إشبيلية ، وشارك ملوك الطوائف بالأندلس فى إمداد الحملة ، لأن ملك الإفرنج استوعب الناس فى جيشه . وبذل كل ما يستطيعه فى توسيعه وتضخيمه .

وجعل المعتمد بن عباد وهو يسير فى الحملة يردد هذه الأبيات :

لابد من فرج قريب ... يأتيك بالعجب العجيب

غزو عليـــك مبارك ... سيعود بالفتح القريب

لابد من يوم يكون ... له أخاً يوم القليب[1]

ويروى التاريخ أن الأذفونش أراد أن يخادع المعتمد وابن تاشفين ، فأرسل إلى الأول يقول له فى يوم خميس : « غداً يوم الجمعة وهو عيدكم والأحد عيدنا . فليكن لقاؤنا [للحرب] بينهما ، وهو يوم السبت » .

فأدرك المعتمد أنها حيلة وخديعة ، وفهم أن الأذفونش يحاول بذلك أن يسكن المسلمون إلى الأمان يوم الجمعة ، فلا يأخذوا عدتهم وأهبتهم فيه ، بناء على تلك المخادعة ، ثم يهجم عليهم الأذفونش ورجاله فى يوم الجمعة نفسه ، ليصيبوا من المسلمين غرة[2] .

والقرآن الكريم قد قال : (يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقال : (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) .

وذهب المعتمد إلى ابن تاشفين وأعلمه بحيلة الأذفونش ، ودعا المعتمد إلى أن يكون الناس على أتم الاستعداد يوم الجمعة ، واستجابوا لذلك ، وباتوا ليلتهم على أهبة واحتراس ، وبعد مضى جزء من الليل انتبه من النوم الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي فرحاً مسروراً . وكان فى محـــلة المعتمد ، وذكر الفقيه أنه رأى النبي ﷺ تلك الليلة فى النوم ،

---

(١) يقصد بيوم القليب ، يوم غزوة بدر ، حيث انتصر المسلمون فيها انتصاراً باهراً .

(٢) كأن التاريخ يعيد نفسه ، فما أشبه الحاضر بالماضى !

فبشره النبي ﷺ بالفتح والموت على الشهادة فى صبيحة تلك الليلة ، ففهم الفقيه الناسك أن الأعداء سيهجمون يوما لجمعة ، فتأهب ودعا وتضرع ، ودهن رأسه وتطيب ، وكأنه يستعد للقاء الله تبارك وتعالى .

وبلغ الخبر مسمع المعتمد بسرعة ، فأعلم به يوسف بن تاشفين .

وفى أثناء ليلة الجمعة جاء فارسان من فرسان الاستطلاع فى جيش المعتمد ، وأخبراه بأن هناك تحركات غير عادية فى جيش الأذفونش . وجاء غيرهما كثير يؤكدون ذلك ، ثم جاء بعض المتسللين من المسلمين وأبلغوا المعتمد أنهم سمعوا الأذفونش يقول لجنوده[1] : « إن ابن عبادة مسعر هذه الحروب . وهؤلاء الصحراويون . وإن كانوا أهل حفاظ . وذوى بصائر فى الحروب ، فهم غير عارفين بهذه البلاد ، وإنما قادهم ابن عباد ، فاقصدوه واهجموا عليه ، واصبروا ، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة » .

وأقبلت الخديعة بشراسها ، فانقض جيش الفرنجة على المسلمين فجأة ، وهاجت الحرب ، وحمى الوطيس ، واشتد القتال ، وصعب الأمر على المسلمين أول الأمر ، وصبر ابن عباد صبراً لم يعهد مثله لأحد ، كما يقول المقرى المؤرخ ، وتقهقر بعض جنود المعتمد وفيهم ابنه عبد الله ، وأثخن المعتمد بالجراح ، ونالته ضربة على رأسه فلقت هامته من جانبها ، حتى بلغت صدغه ، وجرحت يده اليمنى ، وطعن فى أحد جانبيه ، وهلك تحته ثلاثة أفراس ، كلما هلك جواد قدموا له غيره ، وهو يقابل حياض الموت ، ويضرب يمينا وشمالا .

---

(١) فلنتدبر طويلا فى عمق هذه الاستطلاعات ودقة هذه المتابعة لأحوال الأعداء !

ويقال إنه تذكر يومئذ ابنا له صغيراً ، كان يحبه حباً شديداً ، وقد تركه عليلا ، وكنيته أبو هاشم ، فقال المعتمد :

أبا هاشم ، هشمتنى الشفار فلله صبرى لذاك الأوار
ذكرت شخصك تحت العجاج فلم يثننى ذكره للفـــرار

وأبطأ ابن تاشفين فى اشتراكه بجنوده فى المعركة ، ولعله استبعد أن يجرؤ الأذفونش على هذه الغدرة ، ولكن طلائع جنوده ظهرت فى أرض المعركة ، وعلى رأسها أحد قواده وهو « داود بن عائشة » وكان بطلا شهما شجاعاً ، ثم أقبل بن تاشفين وطبوله تصعد أصواتها إلى الجو ، يقول التاريخ [1] : « فلمـــا أبصره الأذفونش وجه حملته إليه ، وقصده بمعظم جنوده ، فبادر إليهم السلطان يوسف ، وصدمهم بجمعه ، فردهم إلى مركزهم ، وانتظم به شمل ابن عباد ، واستنشق ريح الظفر ، وتباشر بالنصر .

وعند وقت الزوال هبت رياح النصر — كما يعبر التاريخ — فأنزل الله سكينته على المسلمين ، ونصر دينه القويم ، وصدق المسلمون الحملة على ملك الأعداء وأصحابه ، فأخرجوهم عن محلتهم ، فولوا ظهورهم ، وأعطوا أعناقهم ، والسيوف تصفعهم ، والرماح تطعنهم ، إلى أن أدركوا ربوة لجأوا إليها واعتصموا بها ، ولما أظلم الليل أطلقوا سيقانهم للرياح منهزمين هاربين ، واستولى المسلمون على ما كان فى محلتهم من الآلات والسلاح والمضارب والأوانى وغير ذلك .

---

(١) نفح الطيب للمقرى .

وهزم الله العدو ، وأتبعهم المسلمون يقتلونهم فى كل وجه ، ونجا الأذفونش – لعنه الله – فى تسعة من أصحابه [1] ، فكان هـذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس ، أعز الله فيه دينه ، وأعلى كلمته ، وقطع طمع الأذفونش – لعنه الله – عن الجزيرة ، بعد أن كان يقدر أنها فى ملكه ، وأن رءوسها خدم له ، وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين .

وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزلاقة ، وكان لقاء المسلمين عدوهم – كما ذكرنا – فى يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن فى سنة ٤٨٠ [2] . ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين ، مفتوحاً لهم وبهم ، فسر بهم أهل الأندلس ، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به ، وكثر الدعاء له فى المساجد وعلى المنابر ، وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس ما زاده طمعا فيها ، وذلك أن الأندلس كانت قبله بصدد التلف ، من استيلاء النصارى عليها ، وأخذهم الإتاوة من ملوكها قاطبة ، فلما قهر الله العدو وهزمه ، على يد أمير المسلمين ، أظهر الناس إعظامه ، ونشأ له الود فى الصدور .

وهكذا شهد شهر رمضان المبارك من سنة تسع وسبعين وأربعمائة نصراً مبيناً وفتحاً عظيما ، عزت به دولة الإسلام ، وعلت به كلمة المسلمين ، وزادت به ذكريات رمضان فى تاريخ الإسلام ثراء وسناء .

---

(١) هناك خلاف بين المؤرخين فى عدد من هرب من الأذفونش ، ولكن الإجماع معقود بينهم على أن جيشه قد هلك قادة وجنوداً إلا القليل .

(٢) هكذا فى الأصل ، ولعله تحريف ، لأن المشهور أن وقعة الزلاقة كانت سنة ٤٧٩ هـ .

من أبطال رمضان

الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك

فى شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة ، لقى ربه الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك ، ، فما حديث ذلك الإمام ؟

إنه أحد تابعى التابعين الفضلاء : أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك ابن واضح المروزى ؛ ويذكر عنه الإمام النووى أنه المجمع على إمامته وجلالته فى كل شىء ، ويصفه أبو نعيم فى كتابه « حلية الأولياء » بأنه « أليف القرآن والحج والجهاد » .

وقد ولد ابن المبارك سنة ثمانى عشرة ومائة ، ونشأ نشأة إسلامية مباركة ، وتربى تربية محمدية سامية ، وسارت له شهرة عمت الآفاق وشملت جوانب العالم الإسلامى ، بأقواله وأعماله ، وخصاله ونضاله ، فقد كان عالماً ذكياً ، وزاهداً نقياً ، وشجاعاً أبياً ، وكريماً سخياً .

ورحل فى طلب العلم إلى بلاد كثيرة فى آسيا وأفريقيا ، وقيد كل ما سمعه ، ولما قيل له : لماذا تكتب كل ما تسمع ؟ أجاب : لعل الكلمة التى تنفعنى لم أكتبها بعد .

وكان العلماء بعد ذلك إذا اختلفوا فى حديث من الأحاديث النبوية قال بعضهم لبعض : مروا بنا على هذا الطبيب حتى نسأله [يعنون عبدالله بن مبارك]

واجتمعت طائفة من أصحاب ابن المبارك فقالوا : تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير .

فقالوا : جمع العلم والفقه والأدب ، واللغة والشعر والفصاحة والنحو ، والزهد والورع والإنصاف ، وقيام الليل والعبادة ، والشدة فى رأيه ، وقلة الكلام فيما لا يعنيه ؛ وقلة الخلاف على أصحابه .

ولقد ورث ابن المبارك مهنة التجارة من بعض أساتذته ، وكانت تجارته واسعة رابحة ، قيل إنه كان يتاجر فى رأس مال قدره أربعمائة ألف ، يطوف بها فى البلاد ، ويبلغ كسبه منها سنوياً مائة ألف .

ولم تشغله التجارة عن الفقه والعبادة ، ولم يتعلل بالعبادة أو طلب العلم لتعطيل الكسب والسعى . بل كان يرى أن التجارة الطاهرة المثمرة هى جزء من العبادة ، ولذلك قيل له : أنت تأمرنا بالزهد ، ونراك تأتى بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام ؛ فكيف هذا ؟

فقال : إنما أفعل هذا لأصون به وجهى ، وأكرم به عرضى ، وأستعين به على طاعة ربى ، لا أرى حقاً إلا سارعت إليه .

وهكذا كان ابن المبارك يجمع فى رحلاته بين الفائدة الدينية والروحية عن طريق الدراسة والتأمل وطلب المزيد من العلم ، والفائدة المادية عن طريق التجارة والاكتساب ، حتى صار فى العلم إماماً يرجع إليه الناس ، ويستفتيه العلماء ، وصار فى حرفة الحياة علماً يشار إليه بالبنان ؛ ثم صار بعد هذا وذاك مجاهداً صاحب بطولة فى الميدان .

وكان يجاهد بعلمه وماله وسلاحه . وشارك فى جملة غزوات ، وكان أروع ما فيه من ناحية الجهاد أنه أراد بقتاله ونضاله وجه الله لامراءاة الناس ، ولذلك كان يتخفى أحياناً ويتلثم وهو يقاتل ، حتى لا يعرفه الناس ، ويظل عمله خالصاً لربه . ليثيبه عليه أعظم الثواب .

ويروى تاريخه المجيد أنه حينما خرج إلى الجهاد والمرابطة لأول مرة فى بلاد الشام ، ورأى ما يقوم به المجاهدون من بطولة ؛ التفت إلى صاحب له ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا حسرة على أعمار أفنيناها ، وليال قطعناها فى علم الشعر ، وتركنا هنا أبواب الجنة مفتحة .

ولعل هذا الموقف كان من الأسباب التى دعت ابن المبارك إلى تأليف كتاب فى فضل الجهاد والحث عليه ، وهذا الكتاب يعد أول الكتب فى موضوعه .

ولقد قال ابن المبارك شعراً كثيراً فى الدعوة إلى الخير ومكارم الأخلاق، ومن شعره قوله فى الدعوة إلى حفظ اللسان من كثرة الكلام بلا موجب :

تعاهد لسانك إن اللسان ... سريع إلى المـــرء فى قتله

وهـــذا اللسان بريد الفؤاد ... يدل الرجال على عقـــــله

ويقول فى تصحيح الحب لله تعالى :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى الفعال بديع[1]

لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع !

ويروى أن عبد الله بن المبارك كان فى الميدان يجاهد ؛ وعلم أن صديقه الزاهد الفضيل بن عياض يقيم متعبداً بجوار الحرم ، ولا يشارك فى الجهاد ، فتألم ابن المبارك ، وكتب إلى الفضيل رسالة يدعوه فيها إلى ترك العبادة فى جوار الحرم ، والإقبال على الجهاد ، ويقول له فيها :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك فى العبادة تلعب

---

(١) أى مبتدع غريب .

من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب

أو كان يتعب خيله فى باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب[1]

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا رهج السنابك والغبار الأسيب[2]

ولقد أتانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب :

لايستوى غبار خيل الله فى أنف امرئ : ودخان نار تلهب

هذا كتاب الله ينطق بيننا : ليس الشهيد بميت ، لا يكذب

فلما قرأ الفضيل الرسالة وهو فى المسجد الحرام بكى وقال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح .

ومضت الأيام والأعوام بعد ذلك ، ومات ابن المبارك قبل الفضيل ، ورآه الفضيل فى النوم ، فسأله : أى الأعمال وجدت أفضل ؟

فأجابه ابن المبارك قائلا :

الأمر الذى كنت فيه [وهو الجهاد والرباط] .

فقال الفضيل : وأى شىء صنع الله بك ؟

فأجاب ابن المبارك : غفر لى مغفرة ما بعدها مغفرة !

* * *

وظل ابن المبارك مجاهداً مناضلا : يهدى إلى سبيل ربه تبارك وتعالى بالقول والعمل والقدوة والسلوك . فوق سعة العلم وعمق الفهم ، وفى شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة (٧٩٧ م) انصرف من إحدى المعارك التى

---

(١) يوم المعركة .

(٢) الرهج : الغبار . والسنابك : أطراف حوافر الخيل .

شارك فيها فى بلاد الروم ، فأدركت الموت فى بلدة « هيت » ، وهى مدينة معروفة على شاطئ الفرات فوق الأنبار ، فى بلاد العراق .

وكان له من العمر ثلاث وستون سنة .

وشاء ربك للزاهد المجاهد ، الذى رام الشهادة فى سبيل الله مرات ؛ أن يلقى الموت هادئاً ، دون أن يحرمه ربه ثواب المجاهدين الأبرار ، وكأنه فى هذا يذكرنا بكلمة سيف الله المسلول خالد بن الوليد ، وهو على فراش موته ، حيث يقول :

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » !

* * *

ولقد كان ابن المبارك بليغ العبارة عميق العظة .

قيل له مثلا ما التواضع ؟

فأجاب : التكبر على الأغنياء .

ومن كلامه : المؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب العثرات !

ووقف ذات يوم بين مقبرة ومزبلة . فقيل له : ما وقفك ؟

فأجاب : أنا بين كنزين من كنوز الدنيا فيهما عبرة ، هذا كنز الرجال [وأشار إلى المقبرة] وهذا كنز الأموال [وأشار إلى المزبلة] .

وقيل لابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء . قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين .

وقال ابن المبارك : عجبت لمن لم يطلب العلم ، كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة ؟ !

سلام على زاهد الفقهاء ، ومجاهد العلماء : عبد الله بن المبارك .

معركة عين جالوت

فى اليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان المعظم ؛ سنة ٦٥٨[1] كانت معركة « عين جالوت » التى انتصر فيها المسلمون انتصاراً عظيماً على « التتار » المخربين المدمرين ، الذين اجتاحوا بلاد الإسلام ، وفعلوا المآثم والمظالم ما تقشعر منه الأبدان . و « عين جالوت » بلدة من أعمال فلسطين المغتصبة — — ردها الله على العرب والمسلمين — وهى بلدة بين بيسان ونابلس .

وبطل هذه المعركة الجليلة هو السلطان المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزى ، الذى تولى الحكم فى مصر يوم السبت ١٧ من ذى القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة ، وذلك حين جاءت الأخبار المؤلمة من جهة الشام بتحرك التتار إليها ، بعد أن قطعوا نهر الفرات ، وهجموا بغارات شديدة على حلب وما حولها .

وكان الملك الناصر صلاح الدين يوسف قد أرسل إلى « قطز » يطلب منه النجدة والمعاونة على حرب التتار .

وكان رسول صلاح الدين فى هذه المهمة أحد العلماء الفقهاء الكبار وهو الشيخ كمال الدين عمر بن العديم ، فسارع قطز بجمع القضاة والفقهاء وكبار القوم ، لمشاورتهم فى خطة المعركة ، وفى تهيئة ما يلزمها من مال وعتاد وسلاح ، ومدى ما يسهم به الناس فى هذا المجال ، وكان بين الحاضرين الشيخ الفقيه المجاهد : عز الدين بن عبد السلام ، فقال فى ذلك الاجتماع ما خلاصته موجهاً الكلام إلى السلطان :

---

(١) وقيل فى اليوم الخامس عشر من رمضان سنة ٦٥٩ .

« إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب علي العالم قتالهم ، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم ، بشرط ألا يبقى فى بيت المال شيء ، وتبيعوا ما لكم من الحوائص [الأحزمة] المذهبة والآلات النفيسة ، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ، ويتساووا هم والعامة ، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا فى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا »[1] .

ومضى حين من الزمان استعد فيه قطز للمعركة ، وكان بغى التتار قد امتد وزاد حتى احتلوا بلدة « الخليل » وبلدة « غزة » من أرض فلسطين ، وقتلوا الرجال ، وسبوا النساء والصبيان ، واستاقوا من الأسرى عدداً كبيراً .

وصمم الملك المظفر — رحمه الله — على لقاء التتار ، وخرج من مصر فى الجحافل الشامية والمصرية فى شهر رمضان .

وأمر السلطان الولاة بالتخفف والتقشف فى شهر المعركة ، وهو شهر رمضان ، وأمرهم ألا يقيموا موائد إفطار ، بل كل واحد يفطر على قطعة لحم فحسب .

ورحل السلطان قطز بعساكره ونزل الغور بعين جالوت فى فلسطين ، وكانت جموع التتار هناك ، وفى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان قامت معركة عنيفة بين الفريقين ؛ وتقاتلوا قتالا شديداً لم ير الناس مثله ، واشتد الأمر فى بدء المعركة على المسلمين ، فاقتحم قطز ميدان المعركة ، وباشر القتال بنفسه ، وأبلى فى ذلك اليوم بلاء حسناً .

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٧٢ .

وحاول أمير العساكر التتارية أن يقلد السلطان المظفر فى قتاله بنفسه ، فأخزى الله هذا التترى الباغى ، ولقى مصرعه على يد جمال الدين الشمسى رحمه الله تعالى ، وانهزم التتار لا يلوون على شىء ، واعتصم بقية منهم فى التل المجاور لمكان المعركة ، فأحدقت بهم كتائب المجاهدين ، وصابروهم على القتال حتى قضوا عليهم .

ولقد جاء فى كتاب « الدين والميثاق » أن وباء التتار اجتاح أجزاء الدولة العباسية وجعلها قاعاً صفصفاً من التخريب والتدمير ؛ واحتلوا بقيادة زعيمهم « هولاكو » بغداد سنة ست وخمسين وستمائة ، وأزهقوا روح الخلافة العباسية ، ثم احتلوا الشام ، وقاربوا حدود مصر .

وأرسل هولاكو إلى السلطان قطز كتاباً يتهدد فيه ويتوعد ، ويطلب منه المبادرة إلى التسليم والمسارعة بالخضوع ، وهنا ثار الملك المظفر ، وأبى له دينه وإيمانه وحريته أن يقبل ذلك التهديد ؛ وأعلن السلطان الجهاد ، وقاد الجيش بنفسه ، ومعه الأمير « بيبرس » .

وهذا هو المقريزى المؤرخ المشهور يقول عن المعركة العصيبة :

« فلما كان يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان التقى الجمعان ، وفى قلوب المصريين هم عظيم من التتار ، وذلك بعد طلوع الشمس ، وقد امتلأ الوادى ، وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء ، فتحيز التتار إلى الجبل .

وعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح السلطان ، وانتقض طرف منه ، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته على الأرض ، وصرخ بأعلى صوته : وا إسلاماه !

وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة ، فأيده الله بنصره ، وقتل « كتبغا » مقدم التتار ، وانهزم باقيهم ، وأبلى الأمير بيبرس أيضاً بلاء حسناً بين يدى

السلطان ، ومر العسكر فى أثر التتار إلى قرب بيسان ، فرجع التتار ؛ وصافوه مصافاً ثانياً أعظم من الأول [1] ، فهزمهم الله ، وقتل أكابرهم وعدة منهم .

وكان قد زلزل المسلمون زلزالا شديداً ، فصرخ السلطان صرخة عظيمة : سمعها معظم العسكر وهو يقول : « وا إسلاماه » ثلاث مرات . ثم هتف : « يا الله ، انصر عبدك قطز على التتار » .

فلما انكسر التتار الكسرة الثانية ؛ نزل السلطان عن فرسه ، ومرغ وجهه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ، ثم ركب فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم » [2] .

ومضى قطز إلى دمشق فدخلها فاتحاً منتصراً ، واستقبله أهلها خير استقبال ، وأعاد فيها إلى الإسلام عزته ، وقضى على بعض الخونة ، ورتب أمور البلاد ، ومع أن السلطان المظفر كان شجاعاً مقداماً ، وقائداً حكيماً ، وبطلا فاتحاً ، وحاكماً مدبراً ، كان يفخر بنعمة الإسلام كل الفخر ، ويقول : ما أنا إلا مسلم ابن مسلم !

« كان بطلا شجاعاً مقداماً ، حازماً حسن التدبير ، يرجع إلى دين وإسلام وخير ، وله اليد البيضاء فى جهاد التتار ، فعوض الله شبابه بالجنة ، ورضى عنه » .

وكان قبره مقصوداً من الناس للزيارة والترحم دائماً ، وكان استشهاده يوم السبت السادس عشر من شهر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة ؛ رحمه الله تعالى ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

* * *

وهكذا شهد شهر رمضان المبارك فى سنة ٦٥٨ معركة فتح ونصر كبرى ، هى معركة « عين جالوت » فى أرض فلسطين ، ردها الله على العرب والمسلمين .

---

(١) أى جمعوا جموعاً أكبر ونظموها .
(٢) كتاب « الدين والميثاق » ص ٢١ .

وحدث أيضاً فى رمضان

وهذه إشارات سريعة إلى جزء صغير من أجزاء كثيرة وفيرة ، مما « حدث فى رمضان » . وهذا الجزء يحتاج – مع بقية الأجزاء إلى حديث طويل مفصل ، استوعب فيه عرض كل ما جمعته من أحداث رمضان خلال التاريخ ، والأمل ، معقود بفضل الله الذى يتحقق بعونه ذلك العمل فى يوم قريب .

١ – فى رمضان ؛ بعد هجرة النبى ﷺ بسبعة أشهر ، كانت سرية سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب إلى ساحل البحر للجهاد فى سبيل الله .

٢ – فى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة فرضت زكاة الفطر قبل عيد الفطر بيومين .

٣ – فى شهر رمضان ، من السنة الرابعة للهجرة ، تزوج الرسول الله ﷺ بأم المؤمنين السيدة زينب بنت خزيمة بن الحارث ، التى كانت تلقب « أم المساكين » رضى الله عنها .

٤ – فى شهر رمضان ، من السنة السادسة للهجرة ، أصيب الناس بقحط فاستسقى لهم رسول الله ﷺ ، فسقاهم الله تبارك وتعالى .

٥ – فى الخامس والعشرين من شهر رمضان ؛ من السنة الثامنة للهجرة ، قام سيف الله المسلول خالد بن الوليد ، رضى الله عنه ، بهدم صنم العزى ، بتوجيه من الرسول ﷺ .

٦ – فى شهر رمضان ، من السنة التاسعة للهجرة ، قدم رسول الله ﷺ من غزوة « تبوك » بعد أن أيده الله فيها تأييداً كبيراً .

٧ – فى شهر ر مضان ، من السنة التاسعة للهجرة ، جاء وفد ثقيف إلى الرسول ﷺ ؛ وأعلنوا دخولهم فى الإسلام .

٨ – فى شهر رمضان ، من السنة الأربعين ، تولى الخلافة الحسن بن على رضوان الله عليهما ، بعد استشهاد أبيه فى اليوم السابع عشر من الشهر نفسه .

٩ – فى رمضان ، من السنة الثامنة بعد المائتين للهجرة ، توفيت السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب ، رضوان الله عليهم ، وهى صاحبة المشهد المعروف بالقاهرة .

١٠ – فى رمضان ؛ من السنة السادسة عشرة بعد الثلثمائة توفى الزاهد العابد ، شيخ مصر : أبو الحسن بنان الحمال الواسطى ، الذى كانوا يضربون بعبادته المثل .

١١ – فى يوم الاثنين الحادى عشر من شهر رمضان ، سنة تسع عشرة وثلثمائة ، ولد المعز لدين الله الفاطمى الذى تنسب إليه القاهرة المعزية .

١٢ – فى نصف شهر رمضان ، سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، دخل جوهر الصقلى مصر ، وهو قائد المعز لدين الله ؛ وصعد يوم الجمعة وخطب الناس .

١٣ – فى شهر رمضان ، سنة إحدى وستين وثلثمائة انتهى جوهر الصقلى من بناء الجامع الأزهر الشريف فى القاهرة .

١٤ – فى يوم الجمعة الثامن من شهر رمضان ، سنة ثنتين وستين وثلثمائة دخل المعز لدين الله الفاطمى مصر .

١٥ – فى شهر رمضان ، سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، لحق بربه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سلطان المغرب ، والذى قام بجهد كبير فى معركة الزلاقة .

١٦ – فى الخامس والعشرين من شهر رمضان؛ سنة أربع وأربعين وخمسمائة ولد العالم الجليل، الفيلسوف الإسلامى، المفسر المشهور فخر الدين الرازى.

١٧ – فى الثالث عشر، من شهر رمضان، سنة سبع وتسعين وخمسمائة، توفى الحافظ الكبير، صاحب المؤلفات الكثيرة المشهورة: أبو الفرج ابن الجوزى.

١٨ – فى شهر رمضان، سنة ثنتين وستين للهجرة، تولى حكم مصر: سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدى، وهو من أهل فلسطين، ردها الله على العرب والمسلمين.

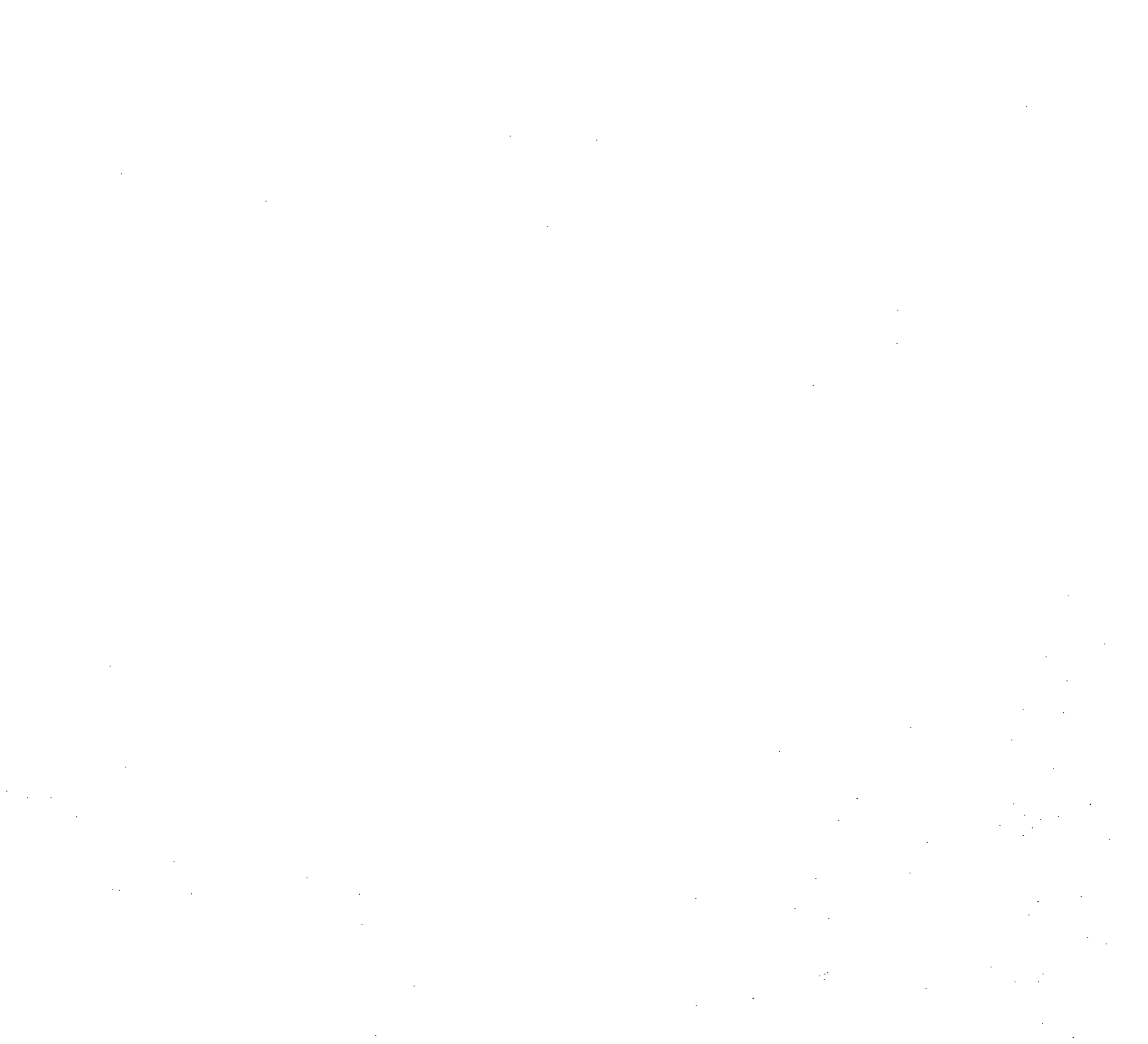
١٩ – فى شهر رمضان، سنة ألف وثمان وثلاثين للهجرة، وفى ليلة القدر، أتم المؤرخ الإسلامى الكبير: أحمد بن محمد المقرى التلمسانى، تأليف كتابه الجليل: «نفح الطيب».

٢٠ – فى الرابع من شهر رمضان؛ سنة ثمان وستمائة، توفى الشاعر المصرى المشهور ابن سناء الملك بالقاهرة.

• • •



شاعر الإسلام



شاعر الإسلام أحمد محرم والشباب

السؤال :

ماذا كان موقف الشاعر الإسلامى أحمد محرم من الشباب ؟

الجواب :

« الخير كله فى الشباب » هكذا قال حبر الأمة المؤمنة عبد الله بن عباس .

« روائع الجنة فى الشباب » هكذا قال الشاعر العلم أبو العتاهية . ولقد أدركنا الشاعر على الجارم وهو يهتف :

هات عهد الشباب إن غاص فى الما ء وإن غاب فى السماء فهاته
همسات الشباب فى النفس أحلى من حديث الهوى ومن همساته
ناره تطـــرد الهموم فتمسى خافقات الجنان من جمراته
ناره تصهر العزيمـــة سيفـــا تتوقى السيوف لمع شباتـــه
الشباب الشباب نور من الله وريـــح تهبُّ من جناتـــه !

هذا بعض ما قيل عن الشباب على ألسنة السلف والخلف ، فلا عجب إذا خصصنا الشباب فى شعر أحمد محرم بحديث فى هذا المجال ، ومن ذا الذى لا يحب الحديث عن الشبيبة والشباب ؟

لقد عاش محرم قرابة سبعين عاماً ، ولكن شبيبة قلبه لم تكن تقاس بالأعوام ، فقد كان من قوم تشيب نواصيهم ولا تشيب قلوبهم ، ولذلك كان يمثل — حتى فى أثناء شيخوخته — قوة الشباب فى الذهن ، وتوثب الفتوة فى العزم . وكان يعنى بالشباب ، ويحدو لهم ، ويرسم أمامهم مناهج

العزة والكرامة ، وحسبنا أن الفكرة الأساسية التى دفعت بمحرم إلى إنشاء ديوانه « مجد الإسلام » هى نظم مفاخر التاريخ الإسلامى فى مقطوعات خالدة ، ليطالعها شباب الإسلام ، فتتوثق رابطتهم بماضيهم المزهر المجيد ، فأخذ محرم فى هـــذه المقطوعات يلفت هؤلاء الشباب إلى مفاخر تاريخهم وعظمة آبائهم ، ويدفع عنهم عقدة النقص التى تجعلهم ينظرون إلى الأمم الأخرى نظرة الأقزام إلى العمالقة .

* * *

ونتناول ديوان « مجد الإسلام » فإذا فيه للشباب أخبار وآثار ، ومواقف ولطائف ، وها نحن أولاء مثلا أمام الحديث عن غزوة بدر ، حيث نرى فتياناً دون الخامسة عشرة من أعمارهم ، وكل منهم حريص على أن يشهد المعركة ويسهم فيها ، ولكن الرسول يترفق بهم ، فيردهم لصغر أسنانهم ، ويستثنى منهم رافع بن خديج ، فقد قيل له إنه يحسن الرماية ، فغضب من ذلك زميله سمرة بن جندب ، وقال محتجاً : أيقبل رافع وأرد ، وأنا أصرعه ؟ فبلغت مقالته رسول الله ﷺ ، فجعلهما يتصارعان ، فتغلب سمرة على صاحبه ، فقبلهما النبي ﷺ معاً ، وصور شاعرنا هذا الموقف فقال :

وفى الأبطال فتيان رقاق ... بأنفسهم إلى الهيجا اشتياق
لهم فى الناهضين لها انطلاق ... دعا داعى الجهاد فما أطاقوا
بدار السلم مثوى أو مقيلا [1]

أعادهم النبي إلى العرين ... شبولا سوف تصلب بعد لين
يضن بهـــا إلى أجل وحين ... رعاك الله من سمح ، ضنين
يسوس الأمر يكره أن يعولا [2]

---

(١) المثوى والمقيل : يراد بهما المقام .
(٢) يعول : أى يجور ويميل . وعاله الأمر : شق عليه .

وقيل لرافع : نعم الغــلام إذا انطلقت لغايتها السهام
تقدم أيها الرامى الهمــام إذا الهيجاء شب لها ضرام
فأمطرها سهامك والنصولا (١)

ونادى سمرة : أيرد مثلى ؟ ويقبل صاحبى وأنا المجلى ؟ !
أصارعه ، فإن أغلب فسؤلى وكيف أذاد عن حق وعدل ؟
وأمنع أن أصول وأن أجولا

وصارعه فكان أشد أسراً وأكثر فى المجال الضنك صبرا
وقيل له: صدقت فأنت أحرى بأن ترد الوغى فتنال نصرا
ألا أقبل فقد نلت القبولا (٢) !

* * *

وننتقل إلى موقف آخر :

عقب غزوة « بنى المصطلق » تزاحم اثنان من عامة المسلمين على الماء فتنازعا وصاح الأنصارى منهما : يا للأنصار ، وصاح المهاجرى : يا للمهاجرين ، وكادت تقع فتنة لولا حكمة الرسول ﷺ ، وكان بين المسلمين أحد المنافقين ، يقال له عبد الله بن أبى بن سلول ، فأراد أن يثيرها فتنة ، فقال لمن معه : لقد كاثرنا هؤلاء المهاجرون فى ديارنا ، والله ما أعدنا وإياهم إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، يعنى بالأعز نفسه لعنه الله ، وبالأذل رسول الله ﷺ .

(١) النصول : جمع نصل ، وهو حديدة السهم .
(٢) ديوان مجد الإسلام ، ص ٧٢ .

وكان لهذا المنافق ولد اسمه « عبد الله » وكان صادق الإيمان شديد الحب لرسول الله ﷺ ، فلما بلغه عن أبيه المنافق ما قال غضب لدينه ونبيه ﷺ ، وسارع فوقف فى وجه أبيه على أبواب المدينة قائلا له : والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، لتعلم الأعز من الأذل .

فجعل ابن أبى المنافق يقول خوفاً وجبناً : أنا أذل من الصبيان ، أنا أذل من النساء .

وجاء النبي ﷺ إلى عبد الله المؤمن وقال له : خل عن أبيك . فخلى عنه . تناول محرم هذا الموقف الرائع فصوره بشعره فقال :

هـــذا ابنه جاءه غضبان يمسكه ... دون المدينة للمختار ينتصر
يقول : تلك ديار لست تدخلها ... حتى تنوء وحتى يعلم الخبر
أنت الأذل فقلها غير كاذبـــة ... إن كنت حراً فبئس الكاذب الأشر
فقالها مرة حرى وأرسلها ... كأنها روحه من فيه تنحدر
مشى أعز بنى الدنيا وأشرفهم ... قدراً وأرفعهم ذكراً إذا ذكروا
حل المدينة منه ليث ملحمة ... لا النصر يخطئه فيها ولا الظفر
فليعرف الحق قوم ضل رائدهم ... وارتد قائدهم خزيان يعتذر !

وهكذا عرض علينا محرم هذا الموقف الذى رأينا فيه كيف يقدم الشاب المؤمن عقيدته على كل شيء ، وكيف ينتصر للحق أينما كان !

* * *

وهذا أسامة بن زيد – حبيب رسول الله ﷺ وابن حبيبه – يتولى قيادة الجيش الإسلامى فى أخريات أيام الرسول ﷺ ، وهو شاب صغير السن ، وفى الجيش كهول وشيوخ ، ولكن الرسول أراد أن يكرم ذكرى

« زيد » الشهيد ، فنصب ابنه قائداً ، وقبل أن يتحرك القائد الشاب بجيشه ، لحق الرسول ﷺ بربه ، وتولى أبو بكر الخلافة ، وأراد بعض المسلمين تغيير القائد الشاب ، وتعيين قائد من أصحاب الأعمار الكبيرة ، ولكن الخليفة أبى ، وأقسم أنه لو تخطفته الطير من كل مكان ما حبس جيشاً أعده رسول الله ﷺ ، ولا عزل قائداً عينه ! . . .

وخرج الجيش فى طليعته قائده فوق جواده ، وخرج الخليفة يودعه ماشياً على قدميه ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ﷺ ، إما أن تركب ، وإما أن أنزل ، فأجاب أبو بكر : والله لا تنزل ولا أركب ، وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ! . . .

وأحس الشاعر محرم ما فى قصة أسامة من تقدير للشباب وتكريم لبطولته ، فقصها علينا شعراً ، وفيها يقول :

سار ابن زيد بالكتائب ما لوى ... من عزمه الحدث الجليل العازم
يمشى الخليفة لائذاً بركابــه ... وكأنما هو سائق أو خـــادم
وأبى الأمير فقال : دونك مركبى ... لا تمش إنى إن فعلت لغانم
ولئن أبيت لأنزلن كرامــة ... لك فاقض أمرك لا نبا لك صارم
قال الخليفة : ما أراك بمنصفى ... دعنى فللإسلام حق لازم
أنا من جنودك لو ملكت رأيتنى ... تحت اللواء فهالك أو سالم !

• • •

وندع ديوان « مجد الإسلام » إلى حين ، وننتقل إلى « ديوان محرم » لنجد فيه للشباب مكانة ملحوظة وعناية بادية . فها هو ذا يتحدث عن الشباب

واصفاً لهم بأنهم مناط الأمل ومعقد الرجاء ، وأنهم فى مختلف أحوالهم فلذات الأكباد ومهج الصدور ، فيقول :

ألا إنهم لأمانى البـلاد ترف عليها بقلب صـد
وإنهم المهج الغاليـات على الجـد من أمرهم والدد[1]

ثم يشير إلى صنف من الشباب مائع خانع ، تستحى منه الفضيلة ، ويطول من آثامه الخجل ، فلا فتوة ولا رجولية ، بل خلاعة وميوعة ، فشية متخاذلة ، وألفاظ نابية ، وتشبه بذوات الحجال ، ومحرم يؤمن بأن الفتى إذا كان على مثل هذا فلا خير فيه ولا نفع منه ، ولذلك يصرخ الشاعر قائلا عنه :

لبئس الفتى حين تمسى الديار من الحادثات على موعـد
وبئس الفتى يوم تهفو بهـا ظماء الأمانى إلى المـورد
ولا نعمت نفسه إذ يـروح لغير المعالى وإذ يغتـدى
وإذ يرتدى من مخازى الفعال وسوء الأحاديث ما يرتـدى
حيـاة من العار لا تنتهى بغير الهوان ولا تبتـدى
ونفس ترامى بها القاذفات فتهوى إلى الدرك الأبعـد !

* * *

ويمضى شاعرنا فى تصوير الواقع الأليم على عهده لطوائف من شباب مجتمعه ، ضلوا الطريق فخابوا وخيبوا الآمال فيهم ، وجهلوا الإيمان والهدى ، فلا فضيلة عندهم ولا تقوى ، وأمامهم هدى الله العلى الأكبر ممثلا فى كتابه

---

(1) الدد : اللعب .

الأمجد ، وهدى نبيه محمد ﷺ ، ولكنهم يعرضون عن النور إلى الظلمات ، وعن الهدى إلى الضلال ، وعن الصراط إلى الهاوية ، ولا نجاة لهؤلاء ولا لقومهم إلا إذا استضاءوا بنور ربهم ، واغترفوا من منهل رسولهم ، وحفظوا العهد ، وصانوا الوعد ، ومضوا على طريق الإيمان صالحين مصلحين .

يقول محرم عن هؤلاء الضالين المعرضين :

أيأمرهم بتقوى الله قـــوم ... وما عرفوا الإله فيتقـــوه

شباب العار ما تركوا رجـــاء ... لنا فى مصر إلا خيبـــوه!

أناس ريعت الغبراء منهم ... وضج العرش مما أحدثـــوه

أتى (التنزيل) بالمثلات تترى ... وبالحق المبين فكذبـــوه

ألا لا يطلب الإصلاح قومى ... ولا الإنصاف حتى ينصفـــوه

فيا أسفى لعهد الله فيهـــم ... وعهد محمد إذ ضيعـــوه

عسى أن تذهب الغمرات عنا ... فيصلح قومنا ما أفســـدوه!

* * *

ويتطلع محرم إلى الشباب الناشئين من حوله ، فيلمح فيهم ظاهرة خبيثة خطيرة ، هى ظاهرة الانتحار بين الطلاب ، بسبب الفشل فى الامتحانات ، وعدم الحصول على الشهادات ، وهى جريمة تدل على ضعف النفس وخور العزيمة ، والفرار من تبعات الحياة ، وعدم الرضا بقضاء الله ، ولذلك يذوب قلب محرم ويتفطر ، ويعد هذه المظاهرة سبة كبرى فى جبين المدارس وأبنائها ، ويطلق على التلميذ المنتحر لقب « شهيد الشهادة » ، وكأنه يقصد شهيد الفشل فى نيل الشهادة . فلنستمع إليه يقول .

أفى كل عام للمدارس حـــادث | تذوب له الأكباد أو تتفطر
نعيد الذى نبدى من اللوم عنده | ونعلن ما تخفى القلوب وتضمر !
كفى سبة أن المدارس أصبحت | تموت بها آمال مصر وتقـــبر
فكم طاح فيها من شهيد (شهادة) | رأى الموت فى العيش الذى يتصور
فأغمض جفنيه وآثر ميتـــة | لأمثالها من يبغض العيش يؤثر !

* * *

وإذا كان محرم فيما مضى من شواهد قد عنى بتصوير السيئات والمآثم التى يرتكبها الشباب ، فإنه فى مواطن أخرى يمزج بين النقد والتوجيه ، وبين المحاسبة والتحريض ، فهو يذكر جوانب من العيوب ، ويقابلها بوجوه من النصح والإرشاد ، وهاهوذا مثلا يتحدث إلى شباب النيل ، فيحمل على الحكم الفاسد القائم فى عهده ، ويعرض بجهل الحاكمين والمالكين تعريضا موجعاً ، ثم يأخذ على قومه اتباعهم للهوى الضال المضل ، ومع هذا يدعو الشباب إلى النهوض والوثوب ، وإلى طلب الحرية والعلم ، وإلى انتهاج طريق الجد والنضال ، حتى تزول الغمرة ، وتتحقق الثمرة .

ويؤكد لهم أن طريق الجد والنضال هو سبيل العزة والكرامة ، ولذلك يؤكد لهم تحقق النصر الذى يبغونه إذا سمعوا كلامه ، واتبعوا نصيحته ؛ ويعطى على نفسه عهداً بضمان النتيجة ، ولذلك يذكرهم بكلمة عتبة بن ربيعة سيد قريش ، وكبيرها المطاع فى الجاهلية ، حين نهى قومه عن محاربة النبى ﷺ فى غزوة بدر ، وقال لهم : يا قوم ، اعصبوها اليوم برأسى ! أى اسمعوا كلامى ، واتبعوا نصيحتى ، واجعلوا تبعة الأمر على عاتقى .

فلنصغ إلى شاعرنا حين يصرخ فى شباب النيل لينهضوا إلى واجباتهم نحو بلادهم ، فيقول :

يا بنى النيل ما عسى أن تريدوا ... صدع الدهر ملككم فاضمحلا
أكثر الناس بالممالك جهلا ... من يرى الجاهلين للملك أهلا
وأحق الشعوب بالمجد شعب ... عاش حراً فى أرضه مستقلا
املأوا الأرض ـ يا بنى النيل ـ سعياً ... واغمروا العالمين علماً وفضلا
تجعلون الهوى المضلل ديناً ... وتعدون باطل الأمر شغلا !
أحسبتم حرب الليالى سلاماً ... وظننتم ظلم الحوادث عدلا ؟
اتبعوا الجد ، واعصبوها برأسى ... حسبكم ما مضى من الدهر هزلا
إن بالنيل غمرة تتمادى ... وأرى كل غمرة تتجلى !

• • •

وبعد أن يستوفى محرم حظ النقد والمحاسبة للشباب على أخطائهم وعيوبهم ، ينتقل إلى تصوير الشباب الطاهرين المؤمنين العاملين ، الذين تفخر بهم بلادهم وأقوامهم ، لأنهم يعرفون أنفسهم ، ويدركون واجبهم ، ويفقهون تاريخهم ، ويتوجون ذلك كله بالإيمان بربهم ، والاعتزاز بدينهم ، والوفاء لعقائدهم ومبادئهم ، ولذلك نراه حينما يضع نشيداً للشباب يعنى فيه بتقديم صورة كريمة لهؤلاء الشباب ، فيقول فيما يقول :

نحن للنيل الشباب المجتبى ... ننصر الله ونأبى ما أبى
ولنا بين العوالى والظبا ... نسب فى الناس وضاح الأثر

• • •

همة النسر إذا ما نهضا   من سحايا قومنا فيما مضى
زلزلوا الدنيا فريعت وانقضى   صلف الدهر وطغيان الغير

* * *

أرأيت القوم مما غلبوا   عندهم من كل عصر سبب
ولهم فى كل جيل أدب   عبقرى الذكر رنان الخبر

* * *

طلع الإسلام نوراً وهدى   وقضى الأمر حياة وردى
إن فى السيف وإن جل الفدى   لحياة تنتضى[1] أو تدخر !

* * *

وإذا كان محرم يعطي « الإسلام » هذه المكانة السامية ، لأنه الدين الإلهى الدافع إلى حسن المعاملة ، ومكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، والمحرض على الحرية والعزة والكرامة والعدالة والأخوة ، فإن الشاعر لا ينسى أن يعطى « العروبة » حقها من الرعاية والعناية ، ولا عجب فبين العروبة والإسلام من الوشائج ما وثقته يد الخالق البارئ المصور ، والعروبة وعاء الإسلام ، والإسلام روح العروبة !

أقيم حفل ضم طلاب العلم فى مصر من أبناء الأقطار العربية ، ودعى محرم ليقول كلمة الشعر فى هذا الحفل ، فانتهزها فرصة ليذكر هؤلاء الشباب الطلاب بأنهم رسل العروبة وجنود لغة القرآن ، وأن واجبهم يقتضيهم أن يبذلوا جهودهم فى سبيل العلم والتحصيل ، وأن يصلوا صباحهم

---

(١) تنتضى : تستل .

بمصباحهم فى طلب الثقافة والمعرفة ، ثم يتحدث محرم عن رابطة العروبة ووشيجة القومية ، فيقول لهؤلاء الشباب من مختلف بلاد العروبة : إن مصر بلدكم ، وإن أهلها أهلكم وقومكم ، ومن واجبكم أن تصونوا دماء العروبة زكية علية ، بأداء رسالتها وقضاء لبانتها ، وأن تعيدوا سير أسلافكم ، وتحيوا أمجاد آبائكم وأجدادكم ، لا بعريض الادعاء وطويل الافتخار ، بل بالعمل الموصول والجهد المبذول ، فيقول :

بنى العروبة أنتم ها هنا رسل ... تقضون للضاد أوطاراً وآمالا

ردوا المناهل من علم ومن أدب ... يجرى الهدى فيها والحب سلسالا

هى الكنانة والأعراق واشجة ... لن تعدموا وطناً فيها ولا آلا

أنتم لها أمل ترعاه ساهرة ... فما تنام ولا تألوه إقبالا

أدوا رسالتها واقضوا لبانتها ... وامض واسراعا إلى الغايات أرسالا

دم العروبة فى الآفاق ما برحت ... تجرى شآبيبه سحًّا وتهطالا

هو الحياة فصونوه على يدكم ... من أن يسيل كفاكم منه ماسالا

من لى بها هِمما إن هجتها بعثت ... من قومنا أمما مرت وأجيالا !

* * *

ويتخيل محرم نموذجاً للشاب المؤمن الذى يعجب به قومه ، وتعز به دياره ، فإذا هذا الشاب فى خيال محرم مترفع عن الدنايا ، مولع بجلائل الأعمال ومحامد الفعال ، وإذا هو يسبق الأقران ويبز الأنداد ، وإذا هو لا يرتضى بالطليعة أو الصدر بديلا ، وإذا ما اكفهرت الخطوب وادلهمت الحوادث كان المنقذ المقدام .

يقول شاعرنا :

فهل للفتى فى اتباع النصيح | وطاعة ذى النهية المرشـد
وشأو من الجد من يبغـه | ينل غاية المجد أو يحمـد
أحب الفتى يتحامى الصغـار | ويولع بالشرف الأقود[1] !
ويغشى الندى فيزهى الحلوم | بمشهد ذى خطر سيـد
تمتّ المعالى بأسبابهـا | فيأخذ بالسبب المحصـد[2]
ويندب للحادث المكفهـر | فيصدع من وجهه الأربـد
هو المرء أدرك معنى الحيـاة | فلم يله عنها ولم يقعـد
بأمثاله تستعز الديـار | وتأمن بادرة المعتـدى !

* * *

ولا يكتفى محرم بنموذج واحد يتخيله للشباب كما يريده ويهواه ، بل يعاود التخيل والتصور ، ويتمنى لو فتح عينيه فوجد أمامها هذا الفتى المأمول والشاب المرجو ، الذى يخلو من النقائص والرذائل ، وتحلو فيه الأخلاق والفضائل ، فيقول :

من أين لى بفتى إذا علمته | لم ألفه عند التجارب ناسيا
من لى به حر البراع أبيـه | عف النوازع والمطامع عاليـا
يستصغر الدنيا أمام يقينـه | فيصد عنها مشمئزاً زاريـا
يأبى النعيم ملطخاً بمذلـة | ويرى مقام السوء عاراً باقيا

* * *

(١) الأقود : العالى .
(٢) تمت : تمد . المحصد : المحكم القوى .

وحين يتحدث محرم عن الشباب لا يقصر حديثه على الذكور دون الإناث ، أو على الفتيان دون الفتيات ، بل هو يقصد الشباب والشواب ، وهو يعطى الفتاة مكانة جليلة خطيرة فى مجتمعها ، ولذلك يطالب بتعليم الفتاة فى عهده الذى كان ينظر أهلوه إلى تعليم البنت كأنه جريمة أو فضيحة ، وحينما يجد بعض قومه يأخذ الأسباب لفتح مدرسة لتعليم البنات ، يفرح بذلك ويسر له ، ويمجد هؤلاء الذين اتبعوا خطة الرشد والجد ، ويقرر أن البنت هى عنوان شعبها ، وإذا كانت مثقفة مهذبة ربت الرجال وخرجت الأبطال ، يقول :

أتعرف شعباً لم تلده عليمة مهذبة فاسّن سنة سؤدد ؟

إذا نحن علمنا البنات سمت بنا إلى سورة من يفترعها يمجد [1]

رعى الله قوماً آثروا الحزم خطة وأموا بنا قصد السبيل المعبد [2]

• • •

ويعود محرم ليتحدث عن مدرسة للبنات ، فيعتبرها كالمعبد الذى يستحق الطواف بساحته ، ويقرر أن العلم هو مشكلة الحياة ومصباحها ، وأن معاهد العلم هى أكرم وأعظم ما يبنى البناة ، فيقول هذه الأبيات المختارة من قصيدة له بعنوان « مدرسة للبنات » :

دار لو أن البيت طاف بمعهد لسعى يطوف بساحها ويدين

هى أمة كبرى أعد أساسها لغد وشعب فى الحياة مكين

العلم مشكلة الحياة يضيئها للسالكين ونهجها المسنون

(١) السورة : الشرف والمنزلة . ويفترعها : ينالها .

(٢) قصد السبيل : ما استقام منه . والمعبد : المذلل .

بوركت من دار أقام عمادها عزم تدين له الصعاب متين
وأجل ما رفع البناة معاهد تحمى الشعوب من الردى وتصون!

* * *

ونعود مرة أخرى إلى ديوان « مجد الإسلام » :

إذا كان شاعرنا قد عطر صفحات هذا الديوان بذكر مواقف مليئة بالبطولة والإقدام للسابقين من شباب الإسلام ، فإنه لم ينس أن يخصص من هذه الصفحات جانباً لفتيات الإسلام ، وها هو ذا مثلا — وهو يعرض قصة الهجرة النبوية — يذكر نصيب الفتاة المسلمة فيها ، ويشير إلى ما بذلته الشابة المؤمنة أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما ، فقد روت السيرة أنه عقب خروج الرسول ﷺ مع الصديق من مكة جاء أبو جهل دار أبي بكر ، فوجد عندها أسماء ، فقال لها فى غلظة : أين أبوك ؟ فأجابت وهى صادقة : الله يعلم أين هو . فلطمها أبو جهل لطمة أطارت قرطها من أذنها ، ومع ذلك احتملت أسماء ، وشاركت فى إتمام الهجرة بخطواتها ، وحملها الزاد إلى صاحبي الغار ، وشق نطاقها نصفين لربط زاد المهاجرين ، حتى سميت « ذات النطاقين » .

يصور شاعرنا موقف أسماء مع أبي جهل بقوله :

ويح أسماء إذ يجيء أبو جهـ ـل على خدرها المصون مغـيرا
صاح : أسماء أين غاب أبو بكـ ـر ؟ أجيبي فقد سألنا الخبيرا
قالت : العلم عنده ما عهدنا أجم الأسد تستشير الخدورا [1]

(١) الأجم : جمع أجمة ، وهى بيت الأسد .

فرماها بلطمة تعرض الأجيــا ل عن ذكرها صوادف صورا [1]

قذفت قرطها بعيداً ورضت من وجوه النبي وجهاً نضيرا [2]

* * *

ويتحدث محرم عن فرحة « المدينة » بلقاء الرسول ﷺ يوم الهجرة فقد خرجت المدينة عن بكرة أبيها تستقبل النبي ﷺ المهاجر فى سبيل الله ، والرسول الفاتح للقلوب والعقول ، وفى مقدمة من خرج فتيات كالزهرات من بنى النجار ، يحيين نبى الرحمة بالغناء والنشيد ، ويقلن فيما يقلن :

نحن جوار من بنى النجــار يا حبذا محمد من جــار ؟

ويثير هذا اللقاء شاعرية محرم فيقول :

ما للديار تهزها نشواتها ؟ أهى الأناشيد الحسان ترتل ؟

رقت نضارتها وطاب أريجها وترددت أنفاسها تتسلسل

فكأنما فى كل مغنى روضة وكأنما فى كل واد بلبــل

هن العذارى المؤمنات أقمنه عيداً تحييه المــلائك من عل

فى موكب لله أشرق نــوره فيه وقام جلاله يتمثــل

جمع النبيين الكرام فآخذ بيد الإمام وعائذ يتوســل

يمشى به الروح الأمين مسلماً وجبينه بفم النبي مقبــل

إيه بنى النجار إن محمــداً لأشد حباً للتى هى أجمل [3]

* * *

(١) الصدوف والصور : الميل والإعراض .

(٢) رضت : دقت أو كسرت . انظر ديوان مجد الإسلام ، ج ٢ ص ١٠ .

(٣) ديوان مجد ، ص ١٧ و ١٨ .

ومحرم يرى أن الحياة تتلخص فى أمرين : البيت والولد ، وأن إعداد الأبناء هو الوسيلة لإصلاح البلاد ، فيقول :

أعملت رأيى فى معنى الحياة لمن ... يبغى الحياة فكان البيت والولدا
هذا يصان بتدبير ومعرفـة ... وذا يعد لإصلاح البلاد غدا !

وهو يؤمن بأن تربية الشباب أفضل من اقتناء المال ، ولذلك يوجب إنشاء المدارس لتعليمهم دون مبالاة بما ننفق من مال فى هذه السبيل ، فيقول :

نبنى المدارس للطلاب تعورها ... وما نبالى أقام المال أم نفدا

ويطالب محرم بأخذ الشباب بالحزم ، حتى لا تضعف هممهم ، ولا تخور عزائمهم ، ولذلك ينعى على أولئك الذين يدللون أولادهم ، فيسيئون إليهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، ثم يدعو ربه أن يهيئ الرشاد لولده « سليمان » حتى يكون ذخيرة مباركة لغده المأمول ، فيقول :

أوص البنين بما يعظم شأنهـم ... من خلة شرف وصنع سؤدد
لا تؤذهم بالبر تجهل حكمـه ... فترى بمنزلة العدو المفسـد
كم والد جمح التدلل بابنـه ... حتى تمنى أنه لم يولـد
رب ادخر لى فى (سليمان) الرضا ... واجعله من خير الذخائر للغد !

ومحرم يؤمن بأن واجب الأب يقتضيه أن يكون قدوة صالحة لأبنائه ، بالقول والعمل ، والإرشاد والمعاونة ، حتى ينشئوا شباباً صالحين ، تساعدهم البيئة بما فيها من حوافز الخير ودوافع الاستقامة على تحصين نفوسهم وتطهير قلوبهم ، فيخاطب الأب قائلا :

عود بنيك الخير إن نفوسهم ... صحف بما شاءت يمينك تكتب

ما للبنين من الخلال سوى الذى سنت لهم أم وأورثهم أب
للمرء من شرف العشيرة زاجر ومن الخلال الصالحات مؤدب

* * *

وبمناسبة الحديث عن ابن الشاعر نلاحظ حرص محرم على إعداد أبنائه شباباً مؤمنين عاملين لأوطانهم وبلادهم ، فهو يخبرنا بأنه وما ملكت يداه لقومه ووطنه . وأنه قد علم أولاده حب بلادهم منذ نعومة أظفارهم ، بل منذ كانوا أجنة وذوى تمائم ، ويتمنى أن يكون ابنه وفياً لبلاده ، وأن تكون ابنته حريصة على حرمتها وكرامتها ، ويوصى ابنه بأن يضحى بالغالى والنفيس من أجل الوطن . فيقول :

نفسى وما ملكت يداى لأمتى وسراة آبائى ومن أنا منجب
علمتهم حب البلاد أجنة وذوى تمائم : ينصتون وأخطب
يقضى (سليمان) المبارك حقها وتصون حرمتها الرضية (زينب)
أبنى إنك للبلاد وإنها لك بعد والدك التراث الطيب
شمر إزارك إن ندبت لنصرها إن الكريم لمثل ذلك يُندب
وإذا بليت بجاهل يستامها فقل : المنية دون ذلك مركب
مهلا فما وطنى الأعز بضاعة تُزجى ولا قومى متاع يجلب
أمسك يديك فإنما هى صفقة سوأى يُسب بها الكريم ويثلب
ما شق مكروه الأمور على امرئ إلا وتلك أشق منه وأصعب
ولقد رأيت من العجائب ما كفى فإذا الذى منيت نفسك أعجب
أأبيع عظم أبى ولحم عشيرتى ؟ المجد يغضب والمروءة تعتب

وإذا الفتى المغرور باع بلاده | فالمال من أعدائه والمنصب
ما المرء إلا قومه وبلاده | فانظر إلى أى المواطن تنسب
واستفت أصداء القبور فإنها | لتبين عن معنى الحياة وتعرب
إن الرفات لتستعز بأرضها | وثرى البلاد إلى النفوس محبب
ليس التعصب للرجال معرة | إن الكريم لقومه يتعصب ! [1]

* * *

ولأحمد محرم وصاة رائعة ، وجهها إلى ابنه « سليمان » ، وهى وصاة تصلح نبراساً لكل شاب يريد أن يكون ماجداً فى حياته ، وحينما نظرت فى هذه الوصية البليغة استطعت أن أقسمها إلى خمسة أقسام ، كل قسم منها يدور حول أمر له قيمته ومكانته ، فالقسم الأول من الوصية فيه تذكير بحق الوطن العظيم ، مع ضرب المثل على إعزاز هذا الوطن من حياة الشاعر نفسه ، ومن أعماله وجهوده ، والقسم الثانى منها فيه حث على مجموعة من الفضائل ، مع التحريض على الاستمساك بالدين وعصمة اليقين ، والقسم الثالث فيه تحذير من طائفة من الرذائل وقبائح الأعمال ، والقسم الرابع فيه وصية بالصبر والاحتمال ، مع فسحة الرجاء ، وسعة الآمال ، وفى القسم الخامس والأخير من الوصية يعود الشاعر إلى حث ابنه على الاستمساك بالدين ، لأنه عماد الأمر وملاك الحياة .

إن الشاعر فى القسم الأول من وصيته يذكر ابنه بحق الوطن ، ويحذره أن ينساه ، فإنه أمانة فى عنقه دونها الأمانات الأخر ، وإنه الجدير بأن يذهب فداء له الشيب والشباب ، ويقرر الشاعر أنه عاش وفياً لوطنه ، لم يخن ولم

---

(١) ديوان محرم ، ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠ .

ينحرف ، ورأس ماله فى حياته حب لأمته وبلاده ، ومن أجل هذا الوطن أعد كل شيء : أعد المال والأولاد والروح ، وظل على وفائه من صباه الناضر إلى شيخوخته التى وهن لها العظم ، واشتعل فيها الرأس شيباً .

يقول مخاطباً ابنه

سليمان لا تنس حق الوطن ... فأنت على عهده مؤتمن

شباب البنين لمصر الفـــداء ... وشيب الرجال لمصر الثمن

رأت من أبيك فتى ماجـــداً ... عفيف المذاهب حر السنن

يرى حبها من معالى الأمـــور ... ويعتدها من غوالى المنن

أعد لها ماله والبنـــين ... وملكها روحه والبـــدن

رعت عهدها نضرات الصبى ... وبربها العظم لما وهـــن !

فهذا سبيلى ، فلا تعـــده ... عدتك بنى عوادى الزمن ! [1]

والوفاء للوطن والقيام بحقه يحتاجان إلى نفس كريمة عظيمة ، تستعصم بالقيم والمبادئ ، وتستعلى على الآفات والشهوات ، ولذلك ينتقل الشاعر فى القسم الثانى من وصاته إلى مطالبة ابنه — ومطالبة كل ابن مثل ابنه — بتطهير نفسه من الفواحش والرذائل ، وألا يخدعه عن استقامته من زل أو انحرف ، وأن يصون عرضه وكرامته ، وألا يقبل الضيم أو الإذلال من إنسان ، وأن يحفظ دينه ويلوذ بتعاليمه ، وأن يتحصن باليقين إذا هاجمته الخطوب أو عادته المحن .

---

(١) ديوان محرم ، ج ٢ ص ١٦٧ .

يقول :

ونفسك صنها عن الفاحشات ولا يستخفنك من لم يصن
وعرضك لا تمتهنه الرجـــال فإن البلية أن يمتهـــن
وضن بدينك واستبقـــه ولا تتخطفك أيدى الفتن
وإما رمتك خطوب الزمـــان ونابتك أرزاؤه والمحـــن
فلذ باليقين فإن اليقـــين أجل الدروع وأقوى الجنن ![1]

* * *

وينتقل الشاعر فى القسم الثالث من وصيته إلى تحذير فتاه من طائفة من الرذائل وأخلاق السوء ، ومن البديهى أن التنفير من الرذائل يتضمن الحث على مقابلها من الفضائل ، ويذكره فى بداية هذا القسم بأن الأصيل الكريم لابد أن يكون محسناً ، وأن يكره القبيح ويحب الحسن ، ثم ينهاه عن الظلم فإنه من سيئات الشيم ، وعن الاستجابة للسفيه فى استفزازه ، فإن مجاوبته تريحه ، والإعراض عنه يقتله ، وعن العقوق فإنه يشين كل مخلوق ، وعن الغضب المؤدى إلى الجهالة والنزق ، ويوصيه مع هذا ببعض المكارم ، فيقـــول :

وأحسن إلى الناس إن الكريم يعاف القبيح ويرضى الحسن
وإياك والظلم لا تأتـــه ومهما يقل قائل فاستـــبن
ولا يستفزك قول السفيـــه فليس يضيرك مهما يكـــن
وإن آثر الناس دين العقوق فوال الجميل ولا تندمن

---

(١) الجنن : جمع جنة ، وهى الوقاية .

وبالرفق فى كل ما تبتغى — إذا كنت ذا إربة — فاستعن[1]
خذ الأمر بالحزم إن الأمور لذى الحزم مأخوذة بالرسن[2]
وعود لسانك قول الجميل وإما غضبت فلا تجهلن
وهون عليك إذا ما غبنت فلست بأول حر غبن !

* * *

وفى القسم الرابع من الوصية نجد الشاعر يوصى ابنه بالصبر والاحتمال ، وإذا عرضت له على الطريق ظلمات ، أو صادفته عقبات ، فلا يركن إلى اليأس والقنوط ، بل ينتظر الشمس بعد ظلام الليل البهيم ، والفجر بعد الدياجى المنتشرة . ثم يضرب المثل نفسه ، فقد مرت عليه تجارب فى الحياة ، وذاق مرارة الفشل ولذعة الحرمان ، ولكنه صابر وثابر ، حتى مرت الصعاب وبقى إيمانه سليماً ورجاؤه عميقاً ، والرجل اللبيب الفطن يستطيع أن يقهر المتاعب والمصاعب بأخلاقه الثابتة ونفسه المطمئنة ، وإيمانه بأن مع العسر يسراً ، وأن مع الشدة ليناً ، وأن مع الضيق فرجاً ومتسعاً .

يقول الشاعر :

ورجِّ العواقب إن أخلفتك مبادى الأمور ولا تيأسن
لقد رضت قبلك هذا الزمان رياضة مصطبر مطمئن
إذا غضب الخطب أبدى الرضا وإن عصف الشر يوماً سكن
يثوب له خُلق لين إذا ثاب للدهر خلق خشن[3]

(١) الإربة : الدهاء والاحتيال .
(٢) الرسن : الحبل .
(٣) يثوب : يرجع .

ويشتد حيناً فيلوى بــه ويهوى بركنيه إن لم يلــن

وما إن يصيب أذى الحادثات أخا اللب بين الرجال الفطن

بأخلاقه يتوقى اللبيــب فنعم السلاح له والمجن !

* * *

ويبلغ الشاعر القسم الخامس والأخير من وصاته ، فإذا هو يعود إلى نصح ابنه بالإيمان والاعتزاز بالله تعالى وطاعته والاعتماد عليه ، ويؤكد الشاعر الوصاة فى هذا تأكيداً بليغاً واضحاً ، لأنه مفتتح الأمر وختامه ، فيقول :

إلى الله فاسكن ودع من ترى فما لامرئ دونه من سكــن

دع الكل وأنس به تسترح فكل عناء وكل حــزن

وما ينه عنه فلا تأتــه وما يرض من صالح فاعملن

فتقواه أفضل ما يقتــنى ومرضاته خير ما يختزن

حملنا الأمانة من ربنــا فطوبى لنفس امرئ لم يخن !

* * *

وهكذا عنى شاعرنا محرم بالشباب ، وحذرهم معاطب الطريق ، ورسم أمامهم معالم السبيل ، وحاسبهم على الهفوات ، وحذرهم من السيئات ، وحرضهم على الفضائل ، وأغراهم بمكارم الأخلاق ؛ لعلمه أن الشباب معقد الأمل ومناط الرجاء ، فعليه سلام ربه فى الخالدين من الشعراء .

أساتذتي



أساتذتي

السؤال :

نريد أن نسأل أستاذنا عن أساتذته ومن تتلمذ عليهم فهل نطمع فى هذا ؟

الجواب :

إن أستاذى الأول والأعلى هو القرآن الكريم .

كان القرآن أول كتاب فى الوجود فتق لسانى ، وعلمه كيف ينطق الحرف الصحيح من مخرجه مضبوطاً ، والكلمة الفصيحة محكمة ، والبيان العربى فى أبهى حلته . وكنت فى أول الأمر أتعلم القرآن على طريقة كتابته فى لوح خشبى مطلى بطلاء أملس أبيض . فكان ذلك إتقاناً للخط ، وإحكاما للكتابة فى الوقت نفسه .

وعلمنى القرآن كذلك الطريقة إلى الحفظ ، فقد كان مطلوباً منى أن أحفظ القدر الذى كتبته ثم أمحوه من اللوح بعد أن كتبته بالمداد بقلم مأخوذ من القصب الذى كنا نسميه « الغاب » ثم أكتب قسماً ثانياً وهكذا ، ثم شغلت بالقرآن بعد ذلك طيلة حياتى . فهو يغادينى ويراوحنى بلا انقطاع .

وحفظته وأنا فتى صغير . ثم أجهدنى استبقاؤه فى صدرى بعض الشىء ، ثم طالعتنى أنواره فى شواهد النحو والصرف والبلاغة والأدب ، وفى موضوعات الفقه وغير ذلك من العلوم التى أخذت أتعلمها فى معاهد الأزهر وكلياته . ولما عرضت باب التفسير انفتحت أمامى أبواب واسعة للارتباط بالقرآن فى معانيه ومغازيه . وظلت صحبتى للقرآن . أو صحبته لى تضىء مسالك الحياة أمامى .

ولقد مرت عليّ أوقات لزمت فيها الفراش مريضاً ، وحالفته مدداً طويلة ، أو قصيرة ، وكنت أجد نعم العزاء فى الاستماع إلى المصحف المرتل لبضع ساعات ، وأنا أشعر بلذة عجيبة فى أن أصغى إلى النص الحكيم المجيد ، وقد سبق لى مرات ومرات أن قرأت من تفاسيره ، وتدبرت من معانيه بمقدار كبير ، ومن عجب أنى لا أعدل بقراءة الترتيل المجردة من التغنى والتلحين أى طريقة أخرى .

وكثيراً ما كنت ألفت أنظار طلابى إلى أن القرآن معجم ثرار يفيد الإنسان كثيراً فى ضبط الكلمات التى تشتبه عليه ، وما زلت أذكر وأنا فى طلبى للعلم أننى كنت أشتبه فى الفعل الماضى « عمل » هل هو بفتح الميم أو بكسرها ، ثم أتذكر قوله تعالى : (من عمل صالحاً فلنفسه) فأتأكد أنها بكسر الميم كما حفظت ، وهكذا .

ومن الغريب أنك قد تتردد فى ضبط الكلمة من الكلمات ، فإذا تلوتها فى النص القرآنى الذى تحفظه ، زال عنك التردد وجئت بها على وجهها الصحيح .

* * *

وقد أستطيع الجرأة فأقول إن على قمة أساتذتى رسول الله ﷺ ، وهو المثل الأعلى للإنسانية ، ورحمة الله للعالمين ، ونبراس الهداية للناس أجمعين .

إن شخصية الرسول الأعظم ﷺ تأتى آثارها بعد آثار القرآن الكريم وهو فيض الله العلى الكبير وقد استحوذت على قلبى شخصية رسول الله ﷺ ، منذ يفاعتى ، فقد رأيت فى شخصه التطبيق العملى للإسلام ، والتفسير الحي للقرآن ، فشغلتنى سيرته كما شغلنى أثره فى أصحابه ، وأنوار

أخلاقه وسنته وهديه ، وظهرت ثمار ذلك فى كثير مما كتبته وألفته وقلته ..
ولا يمر على يوم فى حياتى دون أن أرى أمامى أضواء من هذا النور المحمدى المبين .

وعلى الرغم من أنى أحس بضآلتى أمام هذه الشخصية العظيمة ، فإنى فى الوقت نفسه أشعر بمتعة واعتزاز حين أربط سببى بأسباب هذا المثل الأعلى المتجلى فى سيدنا رسول الله ﷺ ، خصوصاً وأن رسول الله ﷺ هو الشخص الوحيد الذى حفظ لنا التاريخ الأمين كل صغيرة وكبيرة ، وكل شاردة وواردة من أحداث حياته ، وشعاب سلوكه ، وفنون أقواله ، وكل ما يتعلق بحياته وذاته وفيها نعم القدوة والأسوة كما قال رب العالمين : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) .

* * *

وأكاد أقول إن عريفى الذى حفظنى القرآن فى طليعة أساتذتى ، والواقع أن هناك شخصين قاما بهذا العمل . أحدهما — ولا داعى لذكر اسمه — كان قاسياً . وطالما لقيت قدماى من عصاه الغليظة —أو بالأصح جريدته الغليظة — ألواناً من الضربات . ورآنى أبى رحمه الله وأنا أتلقى هذه الضربات ذات مرة . فما كان منه إلا أن قال للعريف : « اضرب واكسر وأنا أداوى » . وكان أبى من غير شك يقول هذه الكلمات باسماً فى الظاهر . وهو يكاتم مرارة قاسية فى صدره . وهو يرى ابنه يتلقى هذه الضربات الأثمة . ومن سوء الحظ أن هذا العريف أساء استغلال هذه التجرئة من أبى . فزاد فى العقاب والضرب .

ولذلك عشت بين يدى هذا العريف وأنا أخافه وأرتعد منه ، وخاصة إذا حرك جريدته بيده فأتوقع أن يكون جسدى فريسة لهذا الثعبان المارد فى يده ، وكان رجلا عملاقاً مفتول العضلات يرتعد منه حتى أولاده لصلبه .

وأما العريف الآخر – واسمه الشيخ دسوقى درة – فقد كان رجلا كفيف البصر ، نحيل الجسم هادئ الطبع ، لا يغضب إلا عند ذكر الموت ، فقد كان يخافه خوفاً شديداً ، ويهرب من مواقفه ما استطاع إليه سبيلا ، وقد حببنى هذا الرجل فى القرآن ، وهون على متاعب حفظه ، ولا زلت أذكر أن الواحد منا إذا جلس بين يديه ، ليتلو عليه ما حفظ ، كان يربت على كتفه ، ويثنى على أبيه وأسرته ، ويشجعه بكلمات مبتسمة ، ويعطيه « حبة كرملة » ليستأنس به ، وفى بعض الأحيان يدخن لفافة ولكنه يخشى أن يتضايق أحدنا وهو بين يديه من نفث الدخان فى وجهه ، فكان العريف الكفيف إذا أراد أن ينفث الدخان من فمه ، لوى وجهه يميناً أو شمالا ، ووضع راحة يده الأخرى أمام فمه ، ونفث الدخان جانباً ، حتى لا يتضايق الفتى منه .

ومع ذلك يريد العريف الكفيف أن يطمئن إلى أن الفتى لم يتضايق ، فيسأله هل يصل الدخان إليه ، ويؤكد الفتى أنه غير متضايق ، ومع ذلك يكرر سؤاله مرة أخرى .

وكان هذا العريف رجلا صبوراً ، لا تكل يداه عن ضفر الخوص الأخضر ليصنع منه « المقاطف والقفف » ليستعين بذلك على حياته .

وكان بيننا بعض المشاغبين ، أتصورهم الآن بعد هذا الدهر الطويل ، وكانوا يستغلون فى الشيخ الكفيف نقطة ضعف فيه ، وهى خوفه من الثعابين ،

وبينما نكون منهمكين فى الحفظ والترتيل يصيح أحدهم قائلا : « ثعبان ياعريف . . . ثعبان كبير جداً ياسيدنا » .

وفى حركة لا إرادية أو لا شعورية يقفز الشيخ الكفيف بكل عزيمته ، فإذا هو خارج غرفة المكتب الملحقة بأحد المساجد ، ثم يسترد وعيه الأبوى ، فيرجع نحو الغرفة وهو خائف يرتعش ، وينادى على كبار الفتيان ويطالبهم بأن يجمعوا الصغار أولا ، ويخرجوا جميعاً بسرعة ، ويضيع اليوم علينا لكى نكنس الغرفة جيداً ، ونصلح شأنها ونرمم جوانبها بالطين من الترعة القريبة .

* * *

ومن أساتذتى – إن صح التعبير هنا – الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه ففوق شخصيته العظيمة التى بهرتنى وأسرتنى فى أكثر من مجال ، كان هناك كتابه العظيم « نهج البلاغة » الذى أعده من أساتذتى ، وإن كانت صلتى بهذا الأستاذ قد بدأت متعبة مرهقة فى بداية الثلاثينيات كان هذا الكتاب مقرراً على فى مادة المطالعة ، وأنا فتى فى السنة الثانية الابتدائية بمعهد دمياط الدينى ، وعمرى نحو الثالثة عشرة .

وكنا حينئذ لا نعى من نصوص الكتاب شيئاً ذا بال لصغر أعمارنا ، وضيق مداركنا ، وقلة بضاعتنا اللغوية ، ومع هذا ظل الكتاب – بتعليق الإمام محمد عبده – أمام ناظرى خلال سنوات الدراسة ، وكنت آخذ عنه مقاطع أنتفع بها فى الوعظ والخطابة الدينية ، وإن كنت فى الوقت نفسه أضيق كل الضيق بأشياء فى الكتاب أرتاب فى نسبتها للإمام العظيم ، وأستبعد صدورها عنه .

وأخذت أدرك دسامة الكتاب وفحولته شيئاً فشيئاً ، وتتضح لى خطورته مرحلة بعد مرحلة ولما اتسع اشتغالى بأمور الفكر والكتابة والخطابة والتأليف عكفت على شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ، فاطلعت عن طريقه على آفاق واسعة فتحت لى مغاليق هنا وهناك ، فتضاعف اغترافى منه ، وارتشافى من رحيقه ، بما له وما عليه ، وكان الكتاب من بين المراجع التى أخذت عليها وأنا أصدر سلسلة « موسوعة الفداء » بحلقاتها التى أخذت تتوالى وما زالت ، ومنها : « الفداء فى الإسلام » و « فدائيون فى تاريخ الإسلام » و « أبطال عقيدة وجهـــاد » و « بين الوفاء والفداء » و « رجال صدقوا » ... إلخ .

وأدركت قيمة العبارة التى تغنى فيها الإمام محمد عبده بقيمة نهج البلاغة وفيها يقول ضمن ما يقول : « وأحياناً كنت أشهد أن عقلا نورانياً ، لا يشبه خلقاً جسدانياً ، فصل عن الموكب الإلهى واتصل بالروح الإنسانى ، فخلعه عن غاشيات الطبيعة ، وسما به إلى الملكوت الأعلى ، وغابه إلى مشهد النور الأجلى ، وسكن به إلى عمار التقديس ، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس .

وآنات كأنى أسمع خطيب الحكمة ينادى بأعلياء الكلمة ، وأولياء أمر الأمة ، يعرفهم مواقع الصواب ، ويبصرهم مواضع الارتياب ، ويحذرهم مزالق الاضطراب ، ويرشدهم إلى دقائق السياسة ويهديهم طرق الكياسة ، ويرتفع بهم إلى منصات الرياسة ، ويصعدهم شرف التدبير ، ويشرف بهم على حسن المصير » .

• • •

ولو أردت أن أحصى الأساتذة الذين تعلمت منهم ، أو تلقيت عنهم ، أو جلست إليهم ، لأعيانى الحصر ، وأذكر منهم على سبيل المثال الشيخ أحمد على والشيخ محمود خليفة والشيخ محمود المحمودى والشيخ أحمد نصر والأستاذ عبد العزيز عبد الحق،والشيخ أحمد شفيع السيد ، والشيخ أحمد عمارة والشيخ كامل حسن،والشيخ حامد مصطفى،والأستاذ أحمد يوسف نجاتى . . . إلخ . . .

لقد تلقيت العلم عن عشرات وعشرات فى مراحل التعليم المختلفة ، ابتداء من مكتب حفظ القرآن بقريتى « البجلات » إلى المدرسة الإلزامية بها ، إلى معهد دمياط الدينى ، إلى معهد الزقازيق الثانوى ، إلى كلية اللغة العربية .

ومع كثرة الأساتذة الذين درسوا للإنسان ، فإن الأثر الباقى مقصور على قلة منهم ، وإن كنت أطوى صدرى على شيمة الوفاء لكل من علمنى ، فما زلت أنقش فى ذهنى العبارة التى علمها لى بيتى الريفى ، وهى : « من علمنى حرفاً صرت له عبداً » .

ومن الأساتذة الذين أكثرهم بالثناء والخير الشيخ محمود خليفة ، الذى لقى ربه وهو أستاذ فى كلية الشريعة ، وقد عرفته وأنا طالب فى معهد الزقازيق الدينى فى آخر الثلاثينيات ، وعندما رأيته لأول مرة شاهدت رجلا باسماً ، أنيق المظهر ، حلو الحديث ، متواضعاً ، وشدنى من أول درس سمعته منه ، وكان يدرس لنا النصوص والإنشاء ، وبعد أسبوعين عرف عنى ميلى إلى الأدب والكتابة فى المجلات ، فطلب منى أن أطلعه على بعض مقالاتى التى لم أنشرها ، فاستجبت له ، وبعد أسبوع وجدت إحدى هذه المقالات منشورة فى مجلة « الإسلام » الأسبوعية التى كان يدير دفتها آل خليفة : عبد الرحمن خليفة وعبد الفتاح خليفة ومحمود خليفة .

واستغرقت المقالة نحو أربع صفحات ، فطرت بذلك فرحاً ، وسعيت إليه أبالغ فى شكره ، فأخذ يبالغ فى تواضعه ، ويؤكد لى أن مستقبلى فى الكتابة الدينية سيكون طيباً بمشيئة الله تعالى ، وأخذ بعد ذلك ينشر لى مقالاتى ويوجهنى ، ومضت الأيام ، وانتقل الشيخ أستاذاً إلى كلية الشريعة ، وانتقلت طالباً إلى كلية اللغة ، وكان الشيخ يخطب الجمعة باستمرار فى مسجد الشامية أمام وزارة الداخلية بالقاهرة ، وكنت أسعى لسماعه ، وكانت خطبه تنشر أسبوعياً فى مجلة الإسلام ، وكانت خطباً طويلة النفس ، وكان يتناول فيها موضوعات الساعة وأحداث المجتمع ، فكنت أطالعها بعد سماعها ، وعن طريقها أخذ الملامح التى ينبغى لخطيب الجمعة أن يلاحظها ، ومن وراء ذلك المجهود المتواصل انتفعت فى خطابتى بمسجد المنيرة ، والجامع الأزهر ، ومسجد الرفاعى ، وغيره .

وكان الشيخ ينيبنى عنه فى الخطابة إذا سافر إلى السودان أو الصومال ، ولا زلت أذكر بالخير تلك الجمع التى سعدت فيها باعتلاء المنبر فى مسجد الشامية فكان شيخى وأستاذى.

* * *

ومن أساتذتى فى المرحلة الابتدائية بدمياط « الشيخ جبر » عليه رحمة الله ، وكان يعلمنا التجويد ، ويثبت لنا حفظ القرآن ، وكان رجلا فضفاض الثياب ، كث اللحية ، فيه هيبة تخيف وبيده هراوة غليظة طويلة .

وكان يدعونا طالباً بعد آخر ، ليجلس بين يديه ويسمعه ما يحفظ ، وجاء دورى ، وكانت العادة ، أن يسألنا عن أوائل الأرباع ، وكانت الآية من كل ربع واضحة فى أذهاننا ، نتأكد منها دائماً ، وهناك ربع فى سورة

آل عمران يبدأ على حسب التقسيم الاصطلاحي هكذا : (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة . .) .

ولكن الشيخ قال لى فى غلظة : اقرأ : (من أهل الكتاب . .) وأفتش فى ذهنى عن ربع يبدأ بعبارة : (من أهل الكتاب) فلا أجد ، لأننى حفظت الربع مبتدئاً بعبارة : (ليسوا سواء من أهل الكتاب) .

ومضت لحظة خلتها دهراً ، والشيخ يحملق فى قسوة ، والعرق يتصبب منى بغزارة ، ولم أشعر إلا بهراوة الشيخ الغليظة تهوى على ذراعى ، وهو يقول : اقرأ ياجاهل : (ليسوا سواء من أهل الكتاب) وبمجرد أن أعطانى مفتاح الربع انطلقت أتلو الآيات فى سرعة وخوف وألم ..

إننى أكتب هذه السطور وقد مضى على هذا الحادث أكثر من خمسة وأربعين عاماً ، ولكنه لم يبرح ذهنى . . لقد ملأنى الشيخ بهذه المعاملة خوفاً ورعباً من تسميع القرآن والامتحان فيه ، فيامقرئى القرآن احذروا هذه الطريقة ولا تنفروا الناشئة من روضة القرآن الكريم .

* * *

ومن شيوخى فى هذه المرحلة أيضاً شيخ كان من دمياط . واسمه « الشيخ مطاوع » وكان يدرس لنا الفقه الحنفى . وكان الكتاب المقرر علينا اسمه فيما أتذكر : « مراقى الفلاح » وكان الشيخ مغرماً . بأن يملى علينا ملخصاً للكتاب من صنعه . وكان يفرض علينا أن نسمعه يومياً عند الصباح صفحتين من كراسة الملخص . وكنت أضيق بهذا وأعجز عن تحقيقه . فقد كانت تشغلنى قراءة الكتب والمجلات . وكان نصيبى على عدم الحفظ لكمات يصبها الشيخ على عجزى ، بعد أن يلوى ذراعى بقسوة . وكان رحمه الله مفتول العضلات . وكان كثيرون غيرى يلقون هذا الجزاء أيضاً . وهأنذا أقرر

مع عميق الأسى أن طريقة الشيخ هذه حملتنى أكثر من مرة على الهروب من الدراسة ، وكنت أشغل نفسى عند الهروب من الدراسة بشهود جلسات المحاكمة فى محكمة دمياط التى كانت قريبة من المعهد ، وكان هذا طبعاً على حساب دروسى التى أفر منها خوفاً من اللكمات الأليمة التى يصبها الشيخ على ظهورنا .

* * *

ومن أساتذتى الذين أعتقد أنهم نفعونى على غير قصد منهم ، أستاذ كان يدرس لنا « المنطق » ونحن فى الكلية ، وكانت طريقته فى التدريس لا تلقى منا ارتياحاً ولا تفهماً . ولكن الطلاب كانوا يهابون إظهار ذلك ، وكانت العادة الجارية فى الأزهر حينئذ بأنه إذا انتهى الأستاذ من شرح عنصر من عناصر الدرس سأل الطلاب قائلا : « مفهوم ؟ » فيسكت الطلاب ، ولكنى أقول فى تردد واستحياء « أنا لم أفهم » .

فيظهر بعض الضيق على وجه الشيخ ، ويخصنى لسانه الكريم ببعض الصفات . فأصبر عليها ، ويعود وهو يزمجر إلى إعادة الشرح ، فلا يفهم الطلاب وأنا منهم ، ويعود الشيخ ليسأل : « مفهوم ؟ » وكأنه ينتزع منا موافقة على الفهم بالقوة ، ولكن الفتى الغبى — الذى هو أنا — يعود ليقول فى تردد واستحياء : « أنا لم أفهم » . ويعاود الشيخ صب الصفات السيئة على تلميذه ، ويعود إلى الشرح مرة ثالثة إلى الشرح بطريقته ، وكأنه ينذر بأن هذه آخر مرة ، وبعدها إلى جهنم وبئس المصير .

وأيضاً لا يفهم الطلاب ، ويخشى الفتى أن يخاطبه شيخه هذه المرة بيده ، أو ببعض الأدوات أمامه فما يكاد يقول للمرة الثالثة : « مفهوم ؟ » حتى يقول الفتى بلسانه فقط : « نعم مفهوم » .

فيتشهد الشيخ ويحمد ربه ويبلع أنفاسه ، ويقول : « الحمد لله . . . أخيراً فهم الغبى » .

ولم يفهم الغبى ولا غيره من الطلاب . . . ولكنهم آثروا السلامة ، ولهم فى موقفى عبرة . . .

دفعتنى هذه الطريقة من الشيخ إلى الاعتماد على الله ، ثم على النفس فى قراءة كتاب المادة وموضوعاتها ، ومن وراء هذا الاستقلال فى الدراسة استطعت أن أهضم المادة ، وأن آخذ فى الامتحان درجة عالية ، ولما علم الشيخ بذلك السبق جعل يردد : « طبعاً هو تلميذى وتربيتى » . . .

وهكذا نفع الشيخ دون قصد منه ، يرحمه الله .

* * *

ومن أساتذتى الذين نفعونى على غير قصد شيخ غزير العلم دفاق المعلومات ، ولكن عيبه أنه يسوق ما عنده إلى طلابه « سبهللا » بلا ترتيب وبلا نظام ، وكان يدرس لنا فى السنة النهائية بالكلية كتابى « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » للإمام عبد القاهر ، فكان يرغى ويزبد وهو يتكلم فى سرعة عجيبة ، وكنت أتعمد أن أجلس أمامه ، وأحسن الإنصات إليه ، ولكن الفائدة التى أرتجيها تنفر منى وأخيراً قررت أن أقرأ الموضوع الذى سيشرحه الأستاذ فى الصباح ، قبل الدخول إلى الدرس ، فأفهم أجزاء من الموضوع بنفسى .

فإذا جلست بين يديه تفرقت هذه الأجزاء أيدى سبأ ، وألقت بى طريقته فى الطوفان ، فرجعت إلى طريقتى التى جربتها ، وهى الاعتماد على الله ثم على النفس ، فكنت أتناسى ما سمعت فى الدرس ، وأعود إلى مسامرة

الكتاب ، وشيئاً فشيئاً حصلت من المادة ما أريد ، وليس فخراً حين أقرر أن أكبر درجة حصلت عليها فى هذه السنة كانت فى علم البلاغة .

* * *

وهناك نوع من الأساتذة أعجبونى فى بعض النواحى ، وأغضبونى فى بعضها الآخر ، وأذكر منهم نموذجاً ، هو المرحوم العلامة الشيخ إبراهيم الجبالى ، كنت معجباً بقلمه وكتابته فى التفسير وتابعت بشغف مقالاته فى مجلة الأزهر التى كانت تسمى أولا مجلة نور الإسلام . . . لقد كان بحراً فى العلم .

ولكن موقفاً منه أغضبنى . . . ومن له الحسنى فقط ؟ . .

فى سنة ١٩٤٥ تخرجت فى الأزهر ، وكنت الأول بين الحاصلين على شهادة العالمية والتخصص فى تلك السنة . ودعيت إلى الحفل الذى كان يقيمه الملك السابق فاروق لأوائل الخريجين . وكان الحفل فى قصر رأس التين بالإسكندرية ، وكان المدعوون من الأزهر خمسة أوائل كنت طليعتهم ، وكان الذى سيتولى تقديمنا للملك هو الشيخ الجبالى ، لأنه حينئذ عميد كلية اللغة العربية التى تخرجت فيها ، ولما كان الأزهر أقدم الجامعات كان أوائله الخمسة فى طليعة الأوائل ، ومعنى هذا أننى سأكون أول من يصافح الملك .

ووقفنا نحن الأوائل فى طابور طويل ، ووقف بجانبى الشيخ الجبالى ليتولى التقديم .

وسألنى : هل تعرف طريقة السلام على الملك ؟

وأجبت بدهشة : طريقة السلام ؟ . . وهل هناك طريقة خاصة ؟ . . سأسلم عليه طبعاً بيدى .

وذهل الشيخ وهتف فى صوت مغيظ مكبوت : ياخبر اسود . . يجب أن تقبل يده . . وكرر العبارة .

فقلت له : لكنى صرت أحد العلماء أصحاب الفضيلة ، فكيف أقبل يد إنسان ؟ . .

وقال الشيخ فى غيظ يغالبه : لا داعى للفلسفة ؟ . .

وقدرت أن النقاش قد يمتد ويمتد ، فقلت له : لا تخف ياسيدى الشيخ .. وأظهرت موافقته .

وهدأ قليلا ، ولكنه عاد يقول : لا تنس تقبيل يد مولانا .

وعدت أقول : اطمئن يافضيلة الشيخ .

وكان الواقف خلفى فى طابور الأوائل هو الزميل الأستاذ « محمد السيد بكر » وانتهز الزميل غفلة من الشيخ وهمس لى من خلفى : ماذا ستصنع ؟ .

فهمست إليه : لن أقبل يد أحد ، وعليك أن تتابعنى فيما أصنع .

وعاد الشيخ يقول لى : لا تنس تقبيل يد مولانا .

وجاءت الإشارة بالتقدم إلى مصافحة الملك الذى كان يقف على مرتفع خشبى وإلى جانبه الشيخ المراغى ، وتقدم الشيخ الجبالى وثيابه الفضفاضة ، ونطق باسمى ودرجتى العلمية .

وببساطة تقدمت مرفوع الرأس ، وسلمت على الملك يداً بيد ، وقد غرق الشيخ فى ذهوله . .

وفى ختام الحفل لقيت الشيخ المراغى ، فلم يفته أن ينوه بطريقة المصافحة الكريمة وقال لى : أرجو أن تكون عالماً عزيزاً كما كنت طالباً موفقاً .

رحم الله الشيخ المراغى ، ورحمة الله على الشيخ الجبالى .

* * *

ومن أساتذتى أعدائى ، لأنهم أيضاً نفعونى دون قصد منهم ، فهم الذين تابعوا بعداوتهم وحقدهم وانتقاداتهم المحقة أو المجحفة ، فكانوا بذلك يوجهوننى – دون قصد منهم – إلى عيوبى ، ويرشدوننى إلى مواطن الضعف عندى ، فكنت أحذرها قدر استطاعتى .

ولا زلت أذكر أن كلمة استهزاء من زميل لى استخف بى فيها كانت سبباً فى تأكيد ذاتى ، وإلحاحى فى السبق والتقدم عليه ، وأغلب الظن أنه لو عرف نتيجة ذلك لما قال تلك العبارة ، فقد كان يلح فى عداوتى ومحاولة قطع الطريق أمامى . .

* * *

ومن أساتذتى « الحياة » التى تفيض وتمتد حولى ، وقديماً قيل : « من لم يؤدبه والداه أدبه الليل والنهار » وطالما رددت قولى : الحياة أقوى من الأحياء ، والحياة هى تلك المدرسة الواسعة بدروسها وتجاربها ، وطعومها ، وألوانها ، وعظاتها وعبرها .

ومنذ عهد بعيد وأنا أقول : الزمن خير حلال للمشكلات ، وكنت أردد هذه العبارة وأنا أتذكر جيداً أن مواقف كثيرة مرت بى ، وانسدت المسالك إلى حلها أمامى ، ولكن الحياة بتجاربها ودروسها وتصرف الخالق فيها ، جاءت ومعها إرادة الله فأظهرت المنفذ ، وأبرزت الحل .

والحياة لم تعلمنى ولم تفدنى بخيرها وثمرها فقط ، بل أفادتنى كذلك بمتاعبها وصعابها ، وما زلت أذكر قول الحكيم :

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وأنا قوى الشعور بالحياة ، وقد شغلنى طويلا ربط الدين بالحياة ، أو ربط الحياة بالدين ولعل من أثر هذا الشعور أننى أصدرت أكثر من كتاب فى هذا المجال مثل : « الدين والحياة » و « بين الدين والدنيا » و « يسألونك فى الدين والحياة » و « توجيهات الرسول للحياة والأحياء » . . . . إلخ . .

الحياة . . . الحياة . . . الحياة . . . إنها تستحق الكثير من العناية والاهتمام .

* * *

ولا أستطيع أن أنسى بين أساتذتى أستاذاً له مكانته وأثره ، ذلك هو : منبر الجمعة .

وإنه لتراودنى على الدوام بكلمة عبد الملك بن مروان : شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن .

والمنبر شيبنى وعلمنى وأدبنى .

بدأت الخطابة المنبرية سنة ١٩٣٠ فى الجامع الصغير بقريتى « البجلات » وخطبت فى شتى أنحاء مصر ، وفى فلسطين ولبنان وسوريه وليبيا والجزائر والكويت ، وغيرها . . . وخطبت فى مساجد البجلات ، والمنيرة ،

والأزهر ، والرفاعى ، والكخيا ، والصباح ، وغيرها ، وما زلت إلى اليوم أخطب .

وعلمنى منبر الجمعة أن أعرض على الناس عقلى كل أسبوع ، ومع أننى قضيت فى الخطابة ما يدنو من نصف قرن ، ظللت أحس برهبة المنبر وجلال موقفه .

وقد كان المنبر معواناً لى على توسيع معلوماتى الدينية ، وثقافتى اللغوية ، وصلاتى الجماهيرية وقد هيأ لى أستاذى المنبر فرصة التفكير فى كثير من الأيام بدأت محدودة ثم اتسعت مع الأيام .

ترى هل قلت ما أريد عن أساتذتى ؟ . . هيهـــات .

مَذهَبُ الإمَام مَالك



مذهب الإمام مالك

السؤال :

نريد لمحة كافية عن مذهب الإمام مالك .

الجواب :

نسبة المذهب :

المذهب المالكى هو أحد المذاهب الفقهية الإسلامية الأربعة التى ذاعت وشاعت بين المسلمين منذ القرنين الثانى والثالث الهجريين ؛ وهى : المذهب الحنفى ، والمذهب المالكى ، والمذهب الشافعى ، والمذهب الحنبلى ، رضوان الله تعالى على أصحابها أجمعين .

والمذهب المالكى ينسب إلى الإمام الجليل مالك بن أنس رضى الله عنه ، وهو إمام دار الهجرة : مدينة الرسول ﷺ ، وإمام أهل الحجاز ، والذى انتهى إليه فقه المدينة ، وفقه الفقهاء السبعة أصحاب الرأى الذين عليهم المدار ، وهو أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ،وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان ابن يسار ، وخارجة بن زيد ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، رضى الله عن الجميع .

عصر الإمام مالك :

ولد الإمام مالك قبل انتهاء القرن الأول الهجرى بسنوات تعد على أصابع اليد ، ومات قبل انتهاء القرن الثانى بنحو عشرين عاماً ، بعد أن شهد من صفحات هذه الحياة ما يزيد عن خمس وثمانين سنة ، وكان نصف عمره تقريباً فى عهد بنى أمية ، والنصف الآخر فى عهد بنى العباس .

ولو نظرنا فى العصر الذى شهده الإمام لوجدناه يمتاز بكثرة الاتجاهات الدنيوية والدينية ، والحركات الفكرية والسياسية ، ففيه حول الأمويون الخلافة الراشدة إلى ملك دنيوى ، ومن وراء ذلك حدثت فتن واضطرابات ، وظهرت النزعة العربية القومية الواضحة فى العهد الأموى ، وبدرت بوادر من التعصب على غير العرب ، واشتدت الوطأه حيناً على الموالى ، وتهيأ المجتمع لألوان من المؤامرات والدسائس ، وظهر الاضطهاد لبيت الرسول ﷺ .

ثم جاء العصر العباسى بعد أن قضى أهلوه أو معاونوه على العصر الأموى سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، فإذا الصراع يشتد بين العباسيين والعلويين ، مع أنهم أبناء عمومة ، وإذا النزعة الأعجمية تظهر وكأنها « رد فعل » على النزعة العربية القومية السابقة ، وإذا النحل والمذاهب تتكاثر ، واتسع الاتصال بالفلسفة اليونانية ، وبالفكر الفارسى والفكر الهندى ، عن طريق الترجمة .

وأخذت الحياة المادية والاجتماعية تتسع وتنفسح ، بعد أن فتح الله تعالى على العرب والمسلمين ما فتح من أقطار ، وهيأ لهم ما هيأ من خيرات ، وكانت هناك محاولات للتوفيق بين حياة المجتمع والنصوص الدينية ، فكثرت الأقوال فى الفقه الإسلامى ، وظهرت الآراء والمذاهب ، وبرز فى الحياة العلمية والدينية مذهبان أو منهجان :

المنهج الأول : منهج النقل ، أو مذهب أهل الحديث ، أو مذهب أهل الأثر ، وهو المنهج الاتباعى ، أو المنهج المتقيد بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ؛ وكان من الطبيعى أن يوجد لهذا المنهج أنصار كثيرون ، إذ كان هناك حرص شديد من المسلمين على الاهتداء بنور الكتاب المجيد ، وعلى تتبع أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته .

والمنهج الثانى : هو منهج العقل ، أو مذهب أهل الرأى ، وهو المنهج الذى يضيف إلى تقبل النص واحترامه ، إعمالا للفكر ، واستنباطاً للحكم ، واجتهاداً فى تفسير النص أو تأويله .

وقد عاون على تأييد هذا المذهب واتساعه – إلى حد ما – نحو المجتمع واتساعه ، مع ما كان من تأثر بالتفكير اليونانى الذى أخذ طريقه بشكل ما إلى المجتمع الإسلامى ، فأعطى العقل إرادة قوية فى البحث عن علل الأحكام وحكمة التشريع .

وتغلب المنهج العقلى على بيئة العراق ، لأنها كانت يومئذ أقوى البيئات العلمية الإسلامية ، وكان لها ماض عريق فى هذه الناحية العلمية ، وكان فى أهلها استعداد للبحث والتفكير ، وكان لها صلة شبه مباشرة بالبيئة الفارسية التى كثرت فيها الاتجاهات .

وتغلب المنهج النقلى ، أو منهج أهل الحديث والنقل على بيئة الحجاز عامة ، وبيئة « المدينة المنورة » خاصة ، لأن المدينة ظلت ردحاً طويلا من الزمن تمثل صخرة المقاومة أمام التيارات الاجتماعية والمادية الوافدة مع توالى الفتوح وتعدد الأجناس ، لسذاجة الحياة فيها بالنسبة إلى غيرها ، وتوثيق صلتها بسنة الرسول ﷺ ، حيث هاجر إليها ، واستقر فيها ، وفيها استقر جسده ومثواه ، وإلى جوار قبره أقام الكثيرون من أهل الصدر الأول ، يستمسكون بالذى هداهم إليه الرسول ﷺ من سنة أو أثر ؛ والإمام مالك رضى الله تعالى عنه قد قضى حياته فى « المدينة » وتأثر بما فيها ومن فيها .

ولقد ولد الإمام مالك عليه رضوان الله فى عهد الوليد بن عبد الملك الأموى ، وتوفى فى عهد هارون الرشيد العباسى ، وشهد ما شهد من دولتى

الأمويين والعباسيين ، وما كان بينهما من صراع ونضال ، وما ثار فى المجتمع من ثقافات إسلامية وعربية ، وهندية وفارسية ، وغيرها .

ومر عليه فى حياته الممتدة الكثير ، فرأى الصراع بين العباسيين والعلويين ، ورأى حركة الخوارج بما فيها من عنف ، وشهد الجدال بين الشيعة وأهل السنة ، وبين الخوارج وغيرهم .

ولابد أن يكون لكل هذا أثر فى تفكير الإمام مالك وتراثه .

مولد الإمام مالك :

ولد الإمام مالك سنة ثلاث وتسعين للهجرة[1] ، فى مكان اسمه « ذو المروة » ، وهو مكان كالواحة فى الصحراء شمالى المدينة المنورة ، ويقال إن أمه حملت به سنتين ، وقيل ثلاث سنوات .

ثم نزل « العقيق » وهو واد من ضواحى المدينة ، ثم استقر فى المدينة ، ونسبه هو : مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن غيمان بن خثيل ابن عمرو بن الحارث ؛ وهو من حلفاء بنى تيم بن مرة .

وكان جده الثانى « أبو عامر بن عمرو » من صحابة رسول الله ﷺ وشهد معه الغزوات كلها إلا غزوة بدر . وكان جده الأول « مالك بن أبى عامر» من كبار التابعين، وكنيته أبو أنس، وقد روى عن عمر وطلحة وعائشة وأبى هريرة وحسان بن ثابت ، رضى الله عنهم ، وهو أحد الأربعة الذين حملوا عثمان رضى الله عنه إلى قبره ليلا ، بعد أن غسلوه وكفنوه . وروى أن عثمان أغزاه أفريقية ففتحها ، وكان ممن يكتب المصاحف حين

---

(١) هناك روايات أخرى فى تحديد سنة وفاته ، ولكن هذا هو المشهور .

جمع عثمان رضى الله عنه المصاحف ، وكان خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز يستشيره .

وأما « أنس » والد الإمام مالك فلم يشف لنا التاريخ غليلا فيما يتعلق به ، وكل ما جاد علينا به هو أنه عاش فى « ذى المروة » ولم يكن لهذا الأب اشتغال ظاهر بالعلم ، وإن كانت لديه رغبة طيبة فيه ، ولعله عرف بعض الأحاديث ، وكان رجلا مقعداً ، يمارس صناعة النبال ليكسب نفقة بيته .

ووالدة مالك هى « الغالية بنت شريك الأزدية » . وقيل إن اسمها « طلحة » ، ولكن القول الأول أصح وأظهر . وكانت أسرة مالك تشتغل بالحديث والفتيا .

نشأة الإمام مالك وتعلمه :

حينما شب الإمام مالك ، وبلغ مبلغ الصبيان ، بدأ بحفظ القرآن الكريم ، ثم انتقل منه إلى حفظ الأحاديث النبوية الشريفة ، وتعلم فتاوى الصحابة ، وفقه الرأى ، والرد على أهل الأهواء ، وكان بارعاً فى تلقى العلم وتحصيله ، فقد آتاه الله ذاكرة قوية ، وقدرة واضحة على الحفظ . وكان قليل المال فقيراً فى أول أمره ، ثم أوسع الله له فى الرزق بعد ذلك .

ويذكر التاريخ أن أم مالك قالت له وهو مازال ناشئاً صغيراً : « اذهب إلى ربيعة فتعلم من علمه قبل أدبه » . فذهب إليه مالك وأخذ منه فقه الرأى ؛ وربيعة هذا هو التابعى الجليل الحافظ أبو عثمان ربيعة بن أبى عبد الرحمن فروخ القرشى ، وكان يقال له « ربيعة الرأى » . لأنه كان مشهوراً بالرأى والقياس ، وكان صاحب معضلات أهل المدينة ، ورئيسهم فى الإفتاء . واتفق العلماء على توثيقه وجلالته وعظم مرتبته فى العلم والفهم . وقال عنه

يحيى بن سعيد : ما رأيت أعقل من ربيعة ؛ وقال عنه الإمام مالك : « ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة » . وقد توفى ربيعة الرأى فى المدينة — وقيل فى مدينة الهاشمية بالأنبار فى العراق — سنة ست وثلاثين ومائة .

وتلقى الإمام مالك بعد ذلك العلم عن شيوخ كثر عددهم ، حتى قال النووى إنه أخذ العلم عن تسعمائة شيخ ، منهم ثلثمائة من التابعين ، وستمائة من تابعى التابعين ؛ ومن أبرز شيوخه عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، ولقد تحدث مالك عن طلبه العلم على ابن هرمز فقال :

« كان لى أخ فى سن ابن شهاب ، فألقى أبى يوماً علينا مسألة ، فأصاب أخى وأخطأت ، فقال لى أبى : ألهتك الحمام عن طلب العلم ، فغضبت ، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين ، لم أخلطه بغيره ، وكنت أجعل فى كمى تمراً ، وأناوله صبيان ابن هرمز ، وأقول لهم : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا : مشغول » .

ولقد قال ابن هرمز يوماً لجاريته : من بالباب ؟ فذهبت فتطلعت وعادت تقول : ما هناك إلا ذاك الأشقر (تعنى مالكاً) فقال لها : ادعيه فذلك عالم الناس . ومعنى هذا أن الشيخ لمح فى وقت مبكر ملامح النبوغ على تلميذه الذكى ، فوصفه بذلك الوصف البليغ .

ومن شيوخ مالك أيضاً : نافع مولى عبد الله بن عمر ، وهو التابعى الجليل ، الثقة الكثير الحديث ، الذى سمع الكثير من الصحابة ، وروى عنه جماعة كبيرة ؛ وجعفر بن محمد الباقر المتفق على إمامته وجلالته وسيادته ؛ ومحمد بن مسلم الزهرى التابعى الذى كان جامعاً لكثير العلم ، وكان قوى الحفظ ؛ ويحى بن سعيد الأنصارى قاضى المدينة ، التابعى الثقة ، وكان

إماماً حافظاً ، فقيهاً صالحاً ، حجة ثبتاً ، كثير الحديث ؛ وسلمة بن دينار أبو حازم الصوفى ، المشهور بعظاته وكلماته البليغة ؛ وعبد الله بن دينار التابعى الثقة ؛ وغير هؤلاء كثير .

مالك المدرس الأستاذ :

جلس الإمام مالك رضى الله عنه للتدريس والتعليم وهو شاب يافع ، حتى قيل إنه بدأ التدريس وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وإن كان المعقول أنه جلس للتدريس بعد تلك السن بسنوات ؛ وقد اختار للتدريس مسجد الرسول ﷺ فى المدينة ، واختار من المسجد المكان الذى كان يجلس فيه الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو المكان الذى كان يجلس فيه النبى ﷺ ، ولم ينقل مالك درسه إلى منزله إلا بعد أن أصابه المرض .

وقد أظهر الإمام فى دروسه علماً وفقهاً . وبراعة وروعة ، حتى تزاحم عليه الدارسون والطالبون للعلم ، وحتى سمت مكانته وعلت عند مختلف الناس ، وأصبح له فى مجتمعه شأن وأى شأن ، حتى يقول أبو مصعب أحد تلاميذه : « كانوا يزدحمون على باب مالك بن أنس ، فيقتتلون على الباب من الزحام ، وكنا نكون عند مالك فلا يكلم هذا هذا ، ولا يلتفت ذا إلى ذا ، والناس قائلون برءوسهم هكذا [أى يمدونها للمبالغة فى الإنصات] وكانت السلاطين تهابه وهم قائلون ومستمعون . وكان يقول فى المسألة : لا أو نعم ، فلا يقال له : من أين قلت هذا ؟ » .

وكان من طريقة الإمام مالك فى فقهه وأخذه الأحكام يقدم القرآن الكريم أولا . ويجعله قبل كل شىء . ثم يستعين على فهمه بالحديث والسنة ، ولكنه كان يدقق فى رواية الحديث . حتى لا يختلط عليه حديث صحيح بحديث

غير صحيح ، وكان يعد عمل أهل المدينة حجة ومصدراً من مصادر الفقه ، وكان يلتزم السنة فى إفتائه ، ويردد كثيراً البيت التالى :

وخير أمور الدين ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع

والمراد بالبدائع هنا جمع البدعة ، وهى الأمر المستحدث الذى لا أصل له فى الدين ، وكأن هذا يشير إلى الحديث القائل : « إن شر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .

وكان يطيل التفكير فى المسألة قبل أن يفتى فيها ، ويقول : « ربما وردت علىّ المسألة فأسهر فيها عامة ليلتى » أى يسهر فيها الليلة كلها . وإذا جاء السائل يسأله ، يقول له : « انصرف حتى أنظر » . ثم يعود السائل بعد حين ليسمع منه الجواب ، ومعنى هذا أنه كان لا يتهجم على الجواب ، ولا يفتى بغير تثبت ؛ ولقد حدثه بعض الناس فى ذلك الأمر ، فبكى مالك وقال : « إنى أخاف أن يكون لى من هذه المسائل يوم وأى يوم » ولعله يقصد بذلك يوم القيامة . ومن هذا نفهم أن الإمام كان يقدر تبعة الفتوى تصدر من فم صاحبها وهو مسئول عنها بين يدى الله عز وجل .

وجاءه ذات يوم بعض الناس وسأله سؤالا ، فاستمهله الإمام حتى يفكر فى الجواب ، فقال له السائل : هذه مسألة خفيفة ؛ أى لا تحتاج إلى تفكير أو تأجيل ، فغضب الإمام من ذلك ، وقال للسائل مستنكراً : « مسألة خفيفة سهلة ! ! . . . ليس فى العلم شىء خفيف ، أما سمعت قول الله تعالى : (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) ؟ فالعلم كله ثقيل ، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة » !

ويؤكد مالك هذا الخوف من تبعة الفتوى فيقول : « ما من شيء أشد علىّ من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام ، لأن هذا هو القطع فى دين الله تعالى » .

ولذلك نرى الإمام يصدر فتواه بعد بحث واجتهاد ، ثم لا يقطع مع هذا بأن قوله هو عين الصواب ، بل يحذر من الاستسلام المطلق لرأيه ، ويقول : (إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين) .

بل حدث أن الإمام مالكاً تحير فى بعض المسائل الغامضة ، أو المبهمة ، أو المترددة بين وجهتين ، وظل يطيل فيها النظر زمناً بعد زمن ، وهو لا يقطع فيها برأى ، ولا يخجل أن يصرح بهذا فيقول : « إنى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشرة سنة ما اتفق لى فيها رأى إلى الآن » .

والعلم بحر لا ساحل له ، ومحيط بعيد الأعماق ، وإذا عرف المرء فيه أشياء فقد غابت عنه أشياء ، وجل الله العليم بكل شيء ؛ ولذلك كان من أدب الفقهاء والعلماء ألا يتجاروا على الفتوى بغير علم أو برهان ؛ وهذا هو الإمام مالك رضى الله عنه يضرب لنا فى ذلك قدوة طيبة ومثلا كريماً ، فقد سئل ذات حين عن ثمان وأربعين مسألة ، فأجاب عن اثنتين وثلاثين منها — أى عن ثلثيها — بقوله : « لا أدرى » .

وجاءه رجل من مكان بعيد ، وقال له : حملنى أهل بلدى مسألة أسألك عنها . قال مالك : فسل . فذكر السائل مسألة لا يعرفها الإمام . فقال : لا أحسن . فدهش الرجل وقال للإمام : وأى شيء أقوله لأهل بلدى إذا رجعت إليهم ؟ فأجابه مالك قائلا : قل لهم : قال لى مالك بن أنس : لا أحسن !

وجاءه آخر فسأله عن مسألة ، فأجاب مالك بقوله : لا أدرى . فقال السائل مستغرباً : أأذكر عنك أنك لا تدرى ؟ فرد مالك بقوله : نعم ، احك عنى أنى لا أدرى .

ولم يكتف مالك بهذا ، بل وضع دستوراً ، قال فيه : « ينبغى أن يورث العالم جلساءه قول : لا أدرى ، حتى يكون ذلك أصلا فى أيديهم يفزعون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى » .

وكان مالك يلتزم الإجابة عن الأمور التى وقعت ، ولا يحب البحث فى الأمور الفرضية ، أو القضايا المتخيلة ، ويرى أن هذا لون من ألوان التصنع والتكلف والتعرض لغير المهم ، ولذلك نراه حينما سأله بعض الناس عن مسألة لم تقع يقول له : سل عما يكون ، ودع مالم يكن .

وسأله آخر سؤالا من هذا الطراز ، فلم يجبه ، فقال له السائل : لم لا تجيبنى ؟ فرد عليه الإمام قائلا : لو سألت عما ينتفع به لأجبتك .

مبادئ فى المذهب المالكى :

قد يحسب بعض الناس أن الإمام مالكا قد ضيق واسعاً من أمره أو أمر مذهبه الفقهى حين أعلن تقيده بالحديث ، وعدم خروجه عليه فى الإفتاء ، وقد يظن ظان أن الإمام جعل هذا التقيد هو كل ما يرجع إليه من مصادر الفقه الإسلامى ، وهذا الظن يقع فى غير موضعه ، لأن الإمام مالكاً يأخذ فى اعتباره مصادر كثيرة لفقهه ، فهو كما سبق يجعل القرآن الكريم فى الطليعة ، ويقدم الاستدلال به والاستمداد منه والأخذ عنه على كل دليل آخر ، وهو يشترط فى مفسر القرآن الكريم أن يكون عليماً بلغة العرب ، ولذلك قال : « لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلا

جعلته نكالا » أى عذبته وعاقبته ، وكان لا يقبل الأخذ بما دخل على تفسير القرآن الكريم من إسرائيليات .

وإنما جعل مالك كتاب ربه أول مصدر للتشريع والفقه ، لأنه أساس الدين ، ودستور الإسلام ، ووحى الله ، « ومن أصدق من الله قيلا » ، ولقد صور إجلال الإمام مالك لكتاب الله تعالى أحد أتباع مذهبه الأعلام، وهو العلامة إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الغرناطى الشاطبي المالكى، المتوفى سنة ٧٩٠هـ، فقال فى كتابه المسمى : « الموافقات » ما يلى :

« إن الكتاب — يعنى القرآن — قد تقرر أنه كلى الشريعة ، وعمدة الملة ، وينبوع الحكمة ، وأنه الرسالة ، ونور الأبصار والبصائر ، وأنه لا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة بغيره ، ولا تمسك بشىء يخالفه ، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير أو استدلال عليه ، لأنه معلوم من دين الأمة ، وإذا كان كذلك لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة ، وطمع فى إدراك مقاصدها ، واللحاق بأهلها ، أن يتخذه سميره وأنيسه ، وأن يجعله جليسه ، على مر الأيام والليالى ، نظراً وعملا ، لا اقتصاراً على أحدهما ، فيوشك أن يفوز بالبغية ، وأن يظفر بالطلبة ، ويجد نفسه من السابقين ، وفى الرعيل الأول .

فإن كان قادراً على ذلك ، ولا يقدر عليه إلا من زاول ما يعينه على ذلك من السنة المبينة للكتاب ، وإلا فكلام الأئمة السابقين ، والسلف المتقدمين ، أخذ بيده فى هذا المقصد الشريف والمرتبة المنيفة » .

وإذا كان الإمام الشاطبي يقول إن الاقتدار على أخذ الأحكام لا يكون إلا إذا اتخذ الباحث سنة الرسول ﷺ رائداً إلى ذلك ودليلا عليه ، فإنه لا

غرابة إذا رأينا الإمام مالكاً يعد السنة النبوية المصدر الثانى فى التشريع ، لأنها لأنها مفسرة للقرآن الكريم ، ومبينة له ، والله جل جلاله يقول فى شأن رسوله وشأن سنته هذه الآيات البينات :

(وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) .

(من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) .

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا) .

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه » . ويقول : « إن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » .

ثم يأخذ الإمام مالك بفتوى الصحابة ، وكان يرى أن عمل الصحابة من السنة ، ولذلك أعجبته كلمة خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وهى التى يقول فيها : « سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سنناً ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستكمال لطاعته ، وقوة على دينه ، ليس لأحد تغييرها ، ولا تبديلها ، ولا النظر فى رأى من خالفها ، ممن اقتدى بما سنوا فقد اهتدى ، ومن استنصر بها منصور ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا » .

ولنلاحظ أن خامس الراشدين قد قال فى كلمته الحكيمة السابقة : « وولاة الأمر من بعده » وهو يقصد بذلك الخلفاء الراشدين ، وهم فى طليعة الصحابة ؛ وكذلك قال : « فمن اقتدوا بما سنوا فقد اهتدى » والصحابة داخلون فى هذا التعبير .

وحين ننظر فى كتاب « الموطأ » وهو وأكبر أثر للإمام مالك ، نجد أنه قد ضم فتاوى الصحابة إلى جانب أحاديث النبي ﷺ ، وهذه الفتاوى كثيرة فى هذا الكتاب ، ومنها ما نقله عن عمر بن الخطاب فى الرجل يسلف رجلا طعاماً ، على أن يعطيه إياه فى بدل آخر ، فعمر رضى الله عنه قد كره ذلك ، وقال : فأين الحمل ؟ يعنى أجرة حمله . وعلى هذه الفتوى العمرية منع مالك مثل هذا التعامل ، إذ عده من القرض الذى جر نفعاً ، فيكون رباً .

ومن هذه الفتاوى ما نقله عن عبد الله بن عمر ، إذ جاءه رجل فقال له : يا أبا عبد الرحمن ، إنى أسلفت رجلا سلفاً ، واشترطت عليه أفضل مما أسلفته . فقال ابن عمر : فذلك هو الربا .

فقال الرجل : فما تأمرنى يا أبا عبد الرحمن ؟

فقال ابن عمر : السلف على ثلاثة أوجه : سلف تسلفه تريد به وجه الله ، فلك وجه الله ، وسلف تسلفه تريد به وجه صاحبك ، وسلف تسلفه لتأخذ طيباً بخبيث ،فذلك الربا .

قال الرجل : فكيف تأمرنى يا أبا عبد الرحمن ؟

قال ابن عمر : أرى أن تشق الصحيفة [يعنى الورقة التى كتب فيها السلف] فإن أعطاك مثل الذى أسلفته قبلته ، وإن أعطاك دون الذى أسلفته فأخذته أجرت [أى كان لك الثواب والأجر] وإن أعطاك أفضل مما أسلفته طيبة به نفسه ، فذلك شكر شكره لك ، ولك أجر ما أنظرته » أى ثواب الانتظار عليه حتى استطاع رده إليك .

ولقد لاحظ الشاطبي — وهو من أعلام المذهب المالكى — أن الإمام مالكاً قد أكثر من الأخذ بفتاوى الصحابة إلى جوار سنة الرسول ﷺ ،

ولهذا السبب استحق أن يلقب « إمام السنة » ، ولذلك يقول الشاطبي فى كتابه « الموافقات » :

« لمابالغ مالك فى هذا المعنى بالنسبة للصحابة ، أو من اهتدى بهديهم ، أو استن بسنتهم ، جعله الله تعالى قدوة لغيره ، فقد كان المعاصرون لمالك يتبعون آثاره ، ويقتدون بأفعاله ؛ ببركة اتباعه لمن أثنى الله ورسوله عليهم ، وجعلهم أو من اتبعهم – رضى الله عنهم ورضوا عنه – حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

ولعل الشاطبي يشير هنا إلى قول الله تبارك وتعالى فى سورة الفتح : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما) ، وإلى قوله فى سورة التوبة : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) .

وكان مالك يأخذ بقول الصحابى على أنه حجة ، وعلى أنه شعبة من شعب السنة ، لأن الصحابى إما أن يكون قد نقل ما أفتى به عن الرسول . وإما أن يكون قد اجتهد فى فتواه ، وهو فى هذا الاجتهاد يتبع خطوات الرسول ﷺ ، فيكون اجتهاده أيضاً ملحقاً بالسنة وتابعاً لها .

وإلى جوار هذا كان الإمام مالك يأخذ بأقوال بعض التابعين للصحابة ، إذ وثق بهم ، وعرف عراقتهم فى الفقه ، وحرصهم على الصدق ، وسبهقم

فى المكانة والفضل ، ومن هذا البعض عمر بن عبد العزيز ، وسعيد بن المسيب ، وابن شهاب الزهرى ، ونافع مولى عبد الله بن عمر .

* * *

وكان الإمام مالك يأخذ بالإجماع ، وهو كما يقول بعض الباحثين فى الفقه الإسلامى — اتفاق أهل الحل والعقد من هذه الأمة فى أمر من الأمور ، والمراد بالاتفاق الاشتراك فى القول ، أو فى العمل ، أو فى الاعتقاد ، والمراد بأهل الحل والعقد هم المجتهدون فى الأحكام الشرعية .

ومما يدل بوضوح على جعل الإمام مالك « الإجماع » مصدراً من مصادر فقهه أننا نراه فى كثير من المواضع يقول : « الأمر المجتمع عليه عندنا » ، وقد فسر مالك نفسه ما يريده بكلمة « المجتمع عليه عندنا » فقال إنه « ما اجتمع عليه قول أهل الفقه والعلم ، لم يختلفوا فيه » .

ويبدو أن الإمام كان يقصد بكلمة « أهل الفقه والعلم » علماء المدينة وفقهاءها ، ولذلك جاء تعبيره بكلمة «عندنا» فى قوله : « والمجتمع عليه عندنا » ، وهو كما عرفنا كان يعيش فى المدينة ، ومن هنا قال بعض الباحثين إن « الإجماع » عند مالك هو « عمل أهل المدينة » ، وقد كان مالك يعد عملهم مصدراً من مصادر فقهه ، لأن الناس تبع لأهل المدينة الأوائل ، فالمدينة هى التى كانت إليها هجرة الرسول ﷺ ، وفيها نزل معظم القرآن الكريم ؛ وفقهاؤها أدرى بالوحى والسنة ، ولذلك عاب مالك على الليث ابن سعد أنه خالف جماعة الناس بها ، مع أن الناس تبع لأهل المدينة التى نزل فيها القرآن ، وفيها كان بيان الحلال والحرام ، وكان أهلها يحضرون الوحى والتنزيل إلى جوار رسول الله ﷺ ، وكان النبى يأمرهم فيطيعون ، ويسن لهم فيتبعون ؛ ولذلك كان الإمام مالك يقدم إجماع أهل المدينة على

« خبر الآحاد » فى بعض الأحيان ، فإن إجماع أهلها على أمر أقوى بطبيعة الحال من رواية ينقلها فرد عن فرد .

ولقد قال القرافى فيما قال عن عمل أهل المدينة : « وإجماع أهل المدينة عند مالك فيما طريقه التوقف حجة خلافا للجميع ، لنا قوله عليه الصلاة والسلام : (إن المدينة لتنفى خبثها ، كما ينفى الكير خبث الحديد) والخطأ خبث ، فوجب نفيه ، ولأن أخلافهم ينقلون عن أسلافهم ، وأبناؤهم عن آبائهم ، فيخرج الخبر عن حيز الظن والتخمين إلى حيز اليقين ، ومن الأصحاب من قال : إجماعهم مطلقا حجة » .

وينبغى أن نلاحظ أن إجماع أهل المدينة يقبله الإمام مالك بلا توقف هو الإجماع القائم على النقل ، لأن هذا النقل متى كان مجمعاً عليه منهم كان كان متواتراً ، وأما عمل أهل المدينة القائم على الاجتهاد فإن الإمام يأخذ به ، ولكنه لا يبلغ به مرتبة إجماعهم القائم على النقل .

ولقد تعرض ابن خلدون لعمل أهل المدينة عند الإمام مالك ، فقال فى مقدمته المشهورة :

« وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحى إمام دار الهجرة ، رحمه الله تعالى ، واختص بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره ، وهو عمل أهل المدينة ، لأنه رأى أنهم فيما يتفقون عليه من فعل أو ترك ، متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم ، وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النبى ﷺ الآخذين ذلك عنه .

وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعية ، وظن كثير أن ذلك من مسائل الإجماع فأنكره ، لأن دليل الإجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم ، بل هو شامل للأمة .

واعلم أن الإجماع إنما هو الاتفاق على الأمر الديني عن اجتهاد ، ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى ، وإنما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل ، إلى أن ينتهى إلى الشارع صلوات الله وسلامه عليه ؛ وضرورة اقتدائهم تعين ذلك .

نعم : المسألة ذكرت فى باب الإجماع لأنه أليق الأبواب بها من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الإجماع ، إلا أن اتفاق أهل الإجماع عن نظر واجتهاد فى الأدلة ، واتفاق هؤلاء فى فعل أو ترك مستندين إلى مشاهدة من قبلهم ، ولو ذكرت المسألة فى باب فعل النبى ﷺ وتقريره ، أو مع الأدلة المختلف فيها مثل : مذهب الصحابى ، وشرع من قبلنا ، والاستصحاب لكان أليق » أ هـ .

* * *

وكان مالك يجعل « القياس » من بين مصادر فقهه ، والقياس هو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه ، والأخذ بالقياس توجيه الفطرة ، ويدفع إليه العقل ، لأن النصوص محدودة ، وأما الحوادث والوقائع فلا تتناهى ، فلابد من قياس أمر على شبيهه متى توافرت الشروط اللازمة لذلك .

وقد أخذ مالك بالقياس فى كثير من المسائل . كما فعل حين قاس حالة زوجة المفقود ، إذا حكم القاضى بموته ، فاعتدت عدة الوفاة ، ثم تزوجت غيره ، ثم ظهر الزوج الأول ، قاس هذه الحالة بحالة امرأة طلقها زوجها ، وأعلمها بالطلاق ، ثم راجعها دون أن يعلمها بالرجعة ، وتزوجت هذه المرأة بعد انتهاء عدتها ، والحكم فيها كما قال عمر الفاروق رضى الله عنه —

إنها للزوج الثانى ، سواء أدخل بها أم لم يدخل ، فقاس الإمام مالك زوجة المفقود عليها وقال إن المرأة للزوج الثانى ، سواء أدخل بها أم لم يدخل .

وكان الإمام مالك يقيس على الأحكام التى جاءت فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية المطهرة ، وكان يقيس على فتاوى الصحابة أيضاً .

* * *

وكان الإمام مالك يجعل « الاستحسان » من بين مصادر فقهه ، ويقول : « تسعة أعشار العلم الاستحسان » . وقد عرف الفقهاء الاستحسان بأنه أن يعدل الإنسان عن أن يحكم فى مسألة بمثل ما حكم به فى نظائرها ، إلى خلافه لوجه يقتضى العدول عن الأول .

وقد كثر الأخذ بالاستحسان فى المذهب المالكى ؛ ومن أمثلته مسألة « القرض » فالقرض فى الأصل نوع من الربا ، لأنه مبادلة الدرهم بالدرهم إلى أجل ، ولكنه أبيح استحسانا ، للرفق بالناس ورفع الحرج عنهم .

ومن الأمثلة للاستحسان إباحة الاطلاع على العورة عند التداوى . فالاطلاع على العورة فى الأصل أمر محرم ، ولكنهم أباحوه لدفع الضرر . ومن الأمثلة أيضاً عدم اشتراط العدالة فى الشهود ، إذا كان القاضى فى بلدة يندر فيها وجود الشهود العدول .

وكان الإمام مالك يأخذ بالاستحسان على أساس أنه استثناء من القاعدة أو ترخص منها . وإنما يكون ذلك إذا كان الأخذ بالقياس فى المسألة سيؤدى إلى مشقة أو حرج ، ولذلك لا يستحسن الإمام مالك الإسراف فى الأخذ بالاستحسان ، وهو يقصد بالاستحسان الذى يأخذ به : ترك مقتضى القياس فى مسألة جزئية ، لدفع الحرج أو تحقيق المصلحة ، لأن القرآن الكريم يقول :

(وما جعل عليكم فى الدين من حرج) والحديث يقول : « لا ضرر ولا ضرار » .

* * *

وكان الإمام مالك يجعل من «الاستصحاب» حجة ، وقد عرفه بعض الفقهاء بأنه استدامة إثبات ما كان ثابتاً ، واستدامة نفى ما كان منفياً ، أى بقاء الحكم الذى ورد فى الماضى نافذا فى الحاضر ، ما لم يرد حكم غيره ، ومثاله أنه إذا كان هناك شخص مفقود ، ولا تعلم حياته ولا موته ، فإنه يأخذ حكم الأحياء ، لأن الأصل فيه أنه حى ، فلا ننقله إلى حكم الأموات إلا إذا حكم القاضى بموته بالشروط المذكورة فى الفقه .

والإمام مالك يرى أن « المصالح المرسلة » أصل قائم بذاته فى الدين ، لأن تحقيق المصلحة للعباد هدف أساسى من أهداف الدين ، فكل أمر فيه مصلحة لا ضرر معها ، أو فيه مصلحة كبيرة يصحبها ضرر ضئيل فهو أمر مطلوب . ومالك يرى أن « المصلحة المرسلة » دليل قائم بذاته ، فحيثما وجدنا المصلحة أخذنا بها ، وصارت أمراً مشروعاً .

ومن أمثلة المصالح المرسلة جمع القرآن الكريم فى مصحف واحد ، مع أن ذلك لم يحدث فى عهد النبى ﷺ ، ومشاطرة عمر للولاة الذين يتهمهم فى أموالهم ، وإراقة عمر اللبن المغشوش ، وتوظيف مقادير من المال غير الزكاة على الأغنياء إذا خلا بيت المال ، أو كثرت حاجة الجند عما فيه .

وكان يشترط فى الأخذ بالمصالح أن يتواءم الأخذ بها مع مقاصد الشريعة . ولا تتعارض مع أصل من أصولها . أو دليل من أدلتها القطعية . وأن تكون المصلحة معقولة فى ذاتها . وأن تحقق رفعا لحرج عن الناس .

* * *

وكان الإمام مالك يجعل « سد الذرائع » أصلا من أصول فقهه ، والمراد بسد الذرائع هو قطع الطريق على الوسائل المؤدية إلى الشيء الحرام ، فما أفضى إلى حرام يكون حراماً بسبب ذلك ، ومثال ذلك النهى عن سب المشركين إذا كان ذلك سيؤدى إلى سبهم لله عز وجل ، ولذلك قال القرآن الكريم : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عدواً بغير علم) ، ومن هنا قال الشاطبي المالكي : « الشريعة مبنية على الاحتياط ، والأخذ بالحزم ، والتحرز عما عسى أن يكون طريقاً إلى مفسدة » .

وكان الإمام مالك يأخذ أيضاً « بالعادة والعرف » والعادة هى ما يتكرر وقوعه من الأفراد والجماعات ، والعرف هو الأمر الذى تتفق عليه الجماعة فى حياتها ، وإنما يكون اللجوء إلى العادة والعرف إذا لم يكن هناك نص قطعى فى الموضوع ، وبحيث لا يكون فى هذا اللجوء مفسدة أو مضرة .

ويبدو أن المذهب المالكى لم يكن يفصل بين العرف والعادة ، وذلك لأنهما متحدان متلاقيان فى المؤدى ، فإذا اعتادت الجماعة أمراً صار عرفاً لها ، ولذلك قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالى :

« العرف والعادة ما استقر فى النفوس من جهة العقول ، وتلقته الطباع السليمة بالقبول » ، وقال ابن عابدين : « العادة مأخوذة من المعاودة ، فهى بتكررها ومعاودتها مرة بعد أخرى صارت معروفة مستقرة فى النفوس والعقول ، متلقاة بالقبول من غير علاقة ولا قرينة ، حتى صارت حقيقة عرفية ، فالعرف والعادة بمعنى واحد من حيث الماصدق ، وإن اختلفا من حيث المفهوم » .

وهكذا نجد أن مصادر الفقه الإسلامى فى المذهب المالكى أكثر من غيرها فى المذاهب الأخرى ، وهى مصادر تتسم بالمرونة من جهة ، وتهدف

إلى تحقيق المصلحة من جهة أخرى ، وأنها تتعاون وتتكامل ، وإن كانت فى أصلها ومنبعها لا تخرج عن هدى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

• • •

هذا ولا تحسبن الإمام مالكاً قد انقطع عن طلب العلم والمعرفة بعد أن تلقى عن الشيوخ الكثيرين ، وبعد أن صار أستاذاً يتصدر مجلس التدريس ، فإنه بعد أن تتلمذ لمن تتلمذ لهم من الشيوخ ، واستوعب ما يطيق من علمهم ورأيهم ، واصل الدراسة بنفسه ولم ينقطع عنها ، وكان يلاقى الوافدين على المدينة من العلماء والفقهاء ، فيتحدث إليهم ، ويتبادل معهم العلم والفقه ، وهو يجالس علماء المدينة كلما لاحت له فرصة للمجالسة ، وهو يكاتب النائين من العلماء والفقهاء ، يحاورهم فى مختلف مسائل الدين والعلم ، وهو بعد هذا كله يواصل البحث والنظر فيما بينه وبين نفسه .

وبعبارة أخرى : كان للإمام مالك دراسات مستقلة غير تلقيه من شيوخه ، ونستطيع أن نسمى هذه الدراسات بالدراسات الشخصية أو الخاصة ، فهو كما ذكرنا يحرص على الالتقاء بكل من يستطيع الالتقاء به من العلماء ، ليباحثهم ويحاورهم ، وهو يبحث عن كل كتاب يبلغه خبره ليقتنيه أو يطالعه ، وهو يعقد مجالس لا يريد منها التدريس بقدر ما يريد منها استطلاع ما عند جلسائه فيها ، مما لا يكون عنده به علم أو معرفة ، وكان أغلب جلسائه فى هذه المجالس الخاصة هم فقهاء المدينة ، وكان يراسل العلماء والفقهاء ، ويباحثهم كتابة فى مختلف أمور الفقه والعلم .

تلاميذ الإمام مالك :

لقد رأينا أن الإمام تلقى علومه على شيوخ كثيرين ، وها نحن أولاء نرى له تلاميذ كثيرين ، ولقد كان أكثر الأئمة الذين تألقوا فى عصره تلاميذ له ،

وكان تلاميذه من أقطار شتى ، ومن الواضح أن إقامته فى المدينة — وهى مثوى الحجيج من كل فج بعد مكة المكرمة — يسرت أمامه تلاميذ عديدين يأخذون عنه ، ومنهم من يطول به المقام ، ومنهم من يقصر عنده زمن تلقيه ؛ وقد ساعد على كثرة تلاميذه أيضاً أنه كان معمراً ، حيث عاش نحو تسعين عاماً .

وقد روى عنه من شيوخه من التابعين : الزهرى ، وأيوب السختيانى ، وأبو الأسود ، وربيعة بن أبى عبد الرحمن ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وموسى بن عقبة ، وهشام بن عروة .

وروى عنه من غير التابعين : نافع بن أبى نعيم ، ومحمد بن عجلان ، وسالم بن أبى أمية ، وأبو النضر مولى عمر بن عبد الله ، وغيرهم .

وروى عنه من أقرانه : سفيان الثورى ، والليث بن سعد ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد ، وسفيان بن عينية ، وأبو حنيفة ، وأبو يوسف القاضى ، وشريك ، وابن لهيعة ، وإسماعيل بن أبى كثير ، وغيرهم .

ومن تلاميذه أيضاً : عبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم ، وأشهب بن عبد العزيز ، وأسد بن الفرات ، وعبد الملك بن الماجشون ، وعبد الله بن عبد الحكم .

وقد ذكر النووى أسماء كثيرين ممن سمعوا منه ، ثم قال : « وخلائق آخرون » .

وقال محمد بن الحسن الشيبانى تلميذ أبى حنيفة المشهور : « أقمت بباب مالك ثلاث سنين ، وسمعت نيفاً وسبعمائة حديث لفظا » .

محنة الإمام مالك :

عرفنا أن الإمام شهد جزءاً من عهد الأمويين ، وجزءاً من عهد العباسيين ، ولقد تعرض فى خلافة أبى جعفر المنصور للضرب والتعذيب والإهانة ، واختلف الرواة فى السبب الذى دعا إلى هذه المحنة ، فهناك من يقول إن السبب هو أن الإمام كان يحدث بالحديث النبوى الذى يقول : « ليس على مستكره طلاق » . وكان المنصور لا يريد التحديث بهذا الحديث . كيلا يتخذه أعداؤه مستنداً لتخلص الناس من بيعة المنصور ماداموا مكرهين عليها ، فنهى المنصور مالكاً عن التحديث بهذا الحديث فأبى ، فكان إباؤه سبباً لإيذائه .

وهناك من يورد سبباً قريباً من السبب السابق ، وهو أن بعض الناس استفتوا مالكاً فى حكم الخروج مع محمد بن أبى عبد الله الحسن ضد العباسيين ، مع وجود بيعة من هؤلاء لأبى جعفر المنصور .

فقال لهم مالك : إنما بايعتم مكرهين ، وليس على مكره يمين ، فسارعوا إلى مناصرة محمد ، وسعى بعض الساعين فقالوا للمنصور : إن مالكاً لا يرى بيعتكم هذه بشىء . وغضب المنصور من ذلك وأحضره وجرده ، وضربه بالسياط حتى انخلعت كتفه ، وذلك سنة سبع وأربعين ومائة .

وهناك من يقول إن سبب المحنة هو أن مالكاً كان يقول بحرمة زواج « المتعة » مع القول بأن عبد الله بن عباس قد أجازها . وابن عباس هو رأس أسرة الخلفاء العباسيين . فغضب العباسيون عليه وآذوه .

وهناك من يقول إن سببها هو أن مالكاً كان يقدم عثمان بن عفان رضى الله عنه . على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

وأصح هذه الروايات وأشهرها هي الرواية التي تقول إن مالكاً كان يحدث في المدينة بحديث : « ليس على مستكره طلاق » . وكان الوالي على المدينة حينئذ هو « جعفر » ابن عم الخليفة المنصور ، فسعى إليه الوشاة يقولون له : إن مالكاً يفتي بأنه لا يمين على مستكره ؛ وهذا معناه أن ما أبرمتموه من بيعة الناس بالاستكراه ينقضه مالك بفتواه .

وأراد جعفر أن يبادر بالبطش بمالك ، وليس بيده بينة إلا ما نقله السعاة ، فنهاه بعض ناصحيه عن التسرع ، وقال له عن مالك : « إنه أكرم الناس على الخليفة » . فدس إليه جعفر من يسألونه عن رأيه في الموضوع ، فأبدى رأيه بصراحة ، وشهد عليه من دسهم جعفر ، فأمر بإحضاره ، وضربه سبعين سوطا ، أرهقته وأضجعته .

وثار الناس في المدينة وهاجوا ، وبلغ بهم الغضب مبلغه لانتهاك حرمة الإمام مالك ، وبلغ الخبر مسمع المنصور فقلق منه ، وأعظمه إعظاماً شديداً ، وأنكره ، وأكد أنه لم يأمر به ولم يعلم عنه ، وأصدر قراراً بعزل ابن عمه « جعفر » من ولاية المدينة ، وأمر بإحضاره من المدينة إلى بغداد على قتب [أي برذعة صغيرة على قدر سنام الجمل] ولعله فعل ذلك إطفاء للفتنة ، وتسكيناً لثورة أهل المدينة .

وأرسل المنصور إلى الإمام يستقدمه إليه فاعتذر ، فكتب إليه بأن يقابله في موسم الحج المقبل ، والتقى الإمام بالخليفة في « منى » ، فلما دخل عليه مالك نزل المنصور عن مجلسه الذي يجلس عليه إلى البساط الموضوع دونه ، وكان قد لبس ثياباً قصيرة لا تشبه ثياب مثله ، وكأنه قد فعل ذلك تواضعا لدخول مالك عليه ، ولم يكن في القبة معه إلا حارس في يده سيف .

وحينما دنا مالك رحب به المنصور وقربه ، وقال له يستدنيه : ها هنا إلىّ ، فأراد مالك أن يجلس حيث انتهى ، فقال له المنصور ليستدنيه أيضاً : ها هنا . ولم يزل يدنيه منه حتى أجلسه وقد لصقت ركبتا مالك بركبتى المنصور .

وبدأ المنصور الكلام ، فقال يعتذر إلى مالك عما حدث له من ضرب وإيذاء : والله الذى لا إله إلا هو — يا أبا عبد الله — ما أمرت بالذى كان ، ولا علمته قبل أن يكون ، ولا رضيته إذ بلغنى .

وهنا حمد مالك ربه تعالى ، وصلى على النبى ﷺ ، ونزه المنصور عن الأمر بذلك .

وواصل الخليفة اعتذاره وتقديره للإمام فقال : يا أبا عبد الله ، لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ،وإنى إخالك أماناً لهم من عذاب الله وسطوته ، ولقد رفع الله بك عنهم وقعة عظيمة ، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن وأضعفهم عنها ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وقد أمرت أن يؤتى بجعفر عدو الله من المدينة على قتب ، وأمرت بضيق محبسه ، والمبالغة فى امتهانه ، ولابد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما ناله منك .

فرد مالك قائلا : عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه ، قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله ﷺ وقرابته منك . فقال المنصور : وأنت عفا الله عنك ووصلك .

ثم يصف الإمام ما كان عقب هذا فيقول عن المنصور : « ثم فاتحنى فيمن مضى من السلف والعلماء فوجدته أعلم الناس بالناس ، ثم فاتحنى فى العلم والفقه فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه ، وأعرفهم بما اختلفوا فيه ، حافظا لما روى ، واعياً لما سمع » .

ثم قال المنصور لمالك : يا أبا عبد الله ، ضع هذا العلم ودونه ، ودون منه كتباً ، وتجنب فيه شدائد عبد الله بن عمر ، ورخص عبد الله بن عباس ، وشواذ عبد الله بن مسعود ، واقصد إلى أوسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضي الله عنهم ، لنحمل الناس – إن شاء الله – على علمك وكتبك ، ونبثها فى الأمصار ، ونعهد إليهم ألا يخالفوها ، ولا يقضوا بسواها .

فقال مالك : أصلح الله الأمير ، إن أهل العراق لا يرضون علمنا ، ولا يرون فى علمهم رأينا .

فرد المنصور قائلا : يحملون عليه ، وتضرب عليه هاماتهم بالسيف ، وتقطع عليه ظهورهم بالسياط ، فتعجل بذلك وضعها ، فسيأتيك محمد ابنى المهدى العام القابل إن شاء الله إلى المدينة ليسمعها منك ، فيجدك وقد فرغت من ذلك إن شاء الله .

وكأن مالكاً قد هم بالحديث لولا أن ولداً صغيراً للمنصور طلع من قبة مجاورة ، وأقبل عليهما ، ولكن الصبى حينما رأى الإمام فزع ولم يتقدم ، فقال له المنصور : تقدم يا حبيبى ، إنما هو أبو عبد الله فقيه أهل الحجاز .

ثم التفت المنصور إلى مالك وقال له : أتدرى لم فزع الصبى ولم يتقدم ؟ قال مالك : لا . قال المنصور : والله استنكر قرب مجلسك منى ، إذ لم يربه أحداً غيرك قط ، فلذلك تقهقر .

ثم أمر المنصور لمالك بألف دينار ، ولابنه محمد بألف دينار ، وقام فودعه ، وأرسل إليه بكسوة ؛ وفى رواية أنه أمر لمالك بستة آلاف ، وفى رواية أنه أمر له بخمسة ، ولعل فى هاتين الروايتين لوناً من المبالغة ، وينبغى أن نتذكر أن المنصور كان بخيلا ، وكانوا يسمونه من بخله « الدوانيقى » .

ويروى أن « المهدى » قدم على مالك بعد ذلك ، وسأله عما صنع ، فقدم إليه ما دونه ، وهو كتابه « الموطأ » ، فأمر المهدى بنسخه ، وقرئ على مالك ، ولما تمت القراءة أمر لمالك بأربعة آلاف دينار ، ولابنه بألف دينار .

هذه هى قصة المحنة التى لحقت بالإمام مالك ، فكانت مصدر ابتلاء له فى أول الأمر ، ثم عادت عليه بالخير فى عاقبتها ، فقد زادته إجلالا ومحبة عند الناس ، وزادته مكانة وترضية عند الخليفة المنصور الذى كان يأمر بالمناداة على الناس فى موسم الحج : «لا يفتى الناس إلا مالك وابن أبى ذئب» .

وابن أبى ذئب هذا هو أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة المدنى ، من تابعى التابعين ، روى عنه جماعات من الأئمة الكبار تابعى التابعين ، وكان صدوقاً ثقة ورعاً ، يسمونه « فقيه المدينة » ، وقد ولد سنة ثمانين ، وتوفى بالكوفة سنة تسع وخمسين ومائة ، وكان يفتى بالمدينة .

ولما دخل الخليفة المهدى مسجد الرسول قام الناس كلهم له ، إلا ابن أبى ذئب ، فقال له المسيب بن زهير : قم ، هذا أمير المؤمنين . فأجاب : إنما يقوم الناس لرب العالمين . فقال المهدى للمسيب : دعه فلقد قامت كل شعرة فى رأس .

الإمام مالك والحكام :

كان مالك يدعو العلماء إلى الدخول على السلاطين لدعوتهم إلى الخير ، ونهيهم عن الشر ، وكان يقول : « إنما يدخل العالم على السلطان لذلك » . وقد دخل مالك على هارون الرشيد ووعظه ، وذكره بأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان ينفخ على النار فى عام المجاعة « عام الرمادة » ثم يقول له : وقد رضى الله منكم بدون هذا .

ولقد وعظ مالك الخليفة المهدى حينما طلب منه أن يوصيه فقال له :
« أوصيك بتقوى الله وحده ، والعطف على أهل بلد رسول الله ﷺ وجيرانه ، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « المدينة مهاجرى ، وبها قبرى ، وبها مبعثى ، وأهلها جيرانى ، وحقيق على أمتى حفظى فى جيرانى ، فمن حفظهم كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة » .

ووعظ أحد الولاة فقال له : افتقد أمور الرعية فإنك مسئول عنهم ، فإن عمر بن الخطاب قال : « والذى نفسى بيده لو هلك جمل بشاطئ الفرات ضياعاً ، لظننت أن الله يسألنى عنه يوم القيامة » .

وأرسل مالك إلى أحد الخلفاء يوصيه فقال : اعلم أن الله تعالى قد خصك من موعظتى إياك بما نصحتك به قديماً ، وأتيت لك فيه بما أرجو أن يكون الله تعالى جعله لك سعادة ، وأمراً جعل سبيلك به إلى الجنة ، فلتكن — رحمنا الله وإياك — فيما كتبته إليك ، مع القيام بأمر الله ، وما استرعاك الله من رعيته ، فإنك المسئول عنهم : صغيرهم وكبيرهم ، وقد قال النبى ﷺ : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » .

وروى فى بعض الحديث أنه يؤتى بالوالى ويده مغلولة إلى عنقه ، فلا يفك عنه إلا العدل ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول : « والله إن هلكت سخلة بشط الفرات ضياعاً لكنت أرى الله تعالى سائلا عنها عمر » .

وحج عمر عشر سنين ، وبلغنى أنه ما كان ينفق فى حجة إلا اثنى عشر ديناراً ، وكان ينزل فى ظل الشجرة ، ويحمل على عنقه الدرة ، ويدور فى السوق يسأل عن أحوال من حضرها ومن غاب عنها .

ولقد بلغنى أنه وقت أصيب حضر أصحاب النبي ﷺ ، فأثنوا عليه ، فقال : المغرور من غررتموه ، لو أن ما على وجه الأرض ذهب لافتديت به من هول المطلع .

فعمر رحمه الله تعالى كان مسدداً موفقاً ، مع ما قد شهد له النبي ﷺ بالجنة ، ثم هو مع هذا خائف لما تقلد من أمور المسلمين ، فكيف بمن قد علمت ؟

فعليك بما يقربك من الله ، وينجيك منه غداً ، واحذر يومك لا ينجيك فيه إلا عملك ، وليكن لك أسوة بمن قضى من سلفك ، وعليك بتقوى الله ، فقدمه حيث هممت . وتطلع فيما كتبت به إليك فى أوقاتك كلها ، وخذ نفسك بتعاهدها والأخذ به والتأدب عليه ، واسأل الله التوفيق والرشاد إن شاء الله تعالى .

ونلاحظ فى هذه العظة عدة أمور ، منها ميلها إلى الإيجاز والتركز ، وهذا تصرف حسن من الإمام ، لأن طويل الكلام ينسى بعضه بعضاً . وهو أيضاً يذكر بعمل السلف الصالح فى صدر الأمة ، ويتخذ عمر الفاروق مثلا وقدوة ويطالب الخليفة بأن يتم بهذا الخليفة الراشد المصلح ، وإذا كان لا يستطيع أن يلحقه ، فلا أقل من أن يسير قدر طاقته فى اتجاهه ، والأمة تقنع بهذا ، وإن لم يبلغ مبلغ عمر .

ومالك فى هذه العظة يعنى بإصلاح شئون الناس أكثر من عناية بالإصلاح الشخصى أو الذاتى للمنصوح ، فهو يدعو إلى خدمة الناس ومساعدة المحتاجين ، ويطالب بالاقتداء بعمر أيضاً فى هذا المجال ، فعمر كان ينفخ على النار لينضج الطعام للفقراء والمعوزين ، وهو يدعو إلى العناية بكل صغير وكبير فى شئون الرعية ، فإن الله تعالى سيحاسبه على كل شىء ، حتى ولو

كانت سخلة ، أى شاة صغيرة ، تضيع على شط الفرات ، كما قال عمر رضى الله عنه .

وهو يدعو إلى العطف على أهل بلد الرسول ﷺ ، لأنهم جيرانه ، وحق الجار فى الإسلام كبير ، فكيف بجيران الرسول الكريم ؟

وهو يدعو إلى اهتمام الحاكم بأمر المحكومين ، لأنه راع ، وكل راع مسئول عن رعيته ، وهو يدعو إلى العدل والاقتصاد فى النفقات ، حتى تبذل الأموال فى مصالح الأمة ومنافع المجتمع .

وهناك ظاهرة جديرة بالملاحظة نراها فى عظات الإمام مالك للخلفاء والولاة ، هى أنه لا يخلط الوصية بغيرها من الثناء على الحاكم ، أو الإطراء للخليفة ، فهو ينزه وصاياه عن كثرة المديح والتمجيد ، ولا عجب فقد كان ينهى عن إسماع الخلفاء مدائح فيهم أو ثناء عليهم ، ويحذر الممدوحين الاغترار بالمديح ؛ ولقد حدث أن كان الإمام عند الحاكم مرة ، وسمع أحد الحاضرين يثنى عليه ، فقال للحاكم :

«إياك أن يغرك هؤلاء بثنائهم عليك ؛ فإن من أثنى عليك ، وقال فيك من الخير ما ليس فيك ، أوشك أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك ، فاتق الله فى التزكية منك لنفسك ، ولا ترضى بها من أحد يقولها لك فى وجهك ، فإنك أنت أعرف بنفسك منهم ، فإنى بلغنى أن رجلا مدح عند النبى ﷺ فقال : قطعتم ظهره أو عنقه ، لو سمعها ما أفلح . وقال النبى ﷺ : حثوا التراب فى وجوه المداحين » .

ومع أن هذا الإمام العظيم كان يرى استحسان الدخول على الولاة لنصحهم وعظتهم ، ويرى عدم الخروج عليهم ولو انحرفوا ، لأن الانحراف المحدود خير من الفتنة الشعواء ، كان يصدع بكلمة الحق ، ولا يخادع فى

دينه ، ولقد نهاه هارون الرشيد عن التحديث بحديث نبوى معين ، فرفض إجابة أمره ، واستشهد بقول ربه : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون».

ولقد طلب منه هارون الرشيد أن يسعى إليه زائراً حتى يسمع الخليفة وأولاده كتاب « الموطأ » فكتب إليه مالك يقول : أعز الله أمير المؤمنين ، إن هذا العلم منكم خرج — كأنه يشير بذلك إلى أن هارون ينتسب إلى آل الرسول — فإن أنتم أعززتموه عزّ وإن أذللتموه ذل ، والعلم يؤتى ولا يأتى .

وانصاع الخليفة لتوجيه الإمام ، وقال لولديه : اخرجا إلى المسجد حتى تسمعا مع الناس . فقال مالك : بشريطة ألا يتخطيا رقاب الناس ، ويجلسا حيث ينتهى بهما المجلس ، فوافق على ذلك ، وحضرا على الشرط .

وحينما حج هارون طلب من مالك أن يحمل إليه كتاب « الموطأ » حتى يسمعه منه ، فرفض وطلب من الخليفة أن يسعى هو إلى العلم ، فوافق الرشيد وقال لمالك : « والله لا نسمع إلا فى بيتك » .

وقد يناسب هنا — وقد ذكرنا موقف الإمام من الحكام — أن نذكر أنه كان يبغض سب أى أحد من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، ولا يفاضل بينهم ، ويقدم أبا بكر وعمر وعثمان على هذا الترتيب ، ولا يخص بيتاً بالخلافة ، ويرى أن الاستخلاف فى الخلافة جائز ، بدليل أن أبا بكر استخلف من بعده عمر ، ولكن هذا الاستخلاف يحتاج إلى بيعة من المسلمين لتزكيته واعتماده ، وكان الإمام مالك يجيز خلافة المفضول — أى من يوجد أفضل منه — بشرط أن يعدل المفضول ويستقيم ، وكان يكره الفتن والخروج على الخليفة .

كتب الإمام مالك :

يذكر التاريخ أن الإمام مالكاً كتب أكثر من كتاب ، وهذه الكتب هي :

١ - كتاب الموطأ في الحديث والفقه .

٢ - كتاب في التفسير .

٣ - تفسير غريب القرآن الكريم .

٤ - كتاب السرور .

٥ - رسالة في الفتوى .

٦ - رسالة في النجوم .

٧ - رسالة في الأقضية .

٨ - رسالة في القدر والرد على القدرية .

٩ - كتاب المجالسات عن مالك (جمع فيه ابن وهب ما سمع من مالك في مجالسه) .

١٠ - رسالة في الوعظ إلى الخليفة هارون الرشيد .

وقد ذكر الإمام جلال الدين السيوطي هذه الكتب في كتابه « تزيين الممالك » ولكن هناك ظلالا من الشك في نسبة أكثر هذه الكتب إلى الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه .

ولكنه لا يوجد أي ظل للشك في أن كتاب « الموطأ » من تأليف الإمام مالك ، وهو أعظم ما كتب ، وأجل ما ترك وراءه من تراث علمي ، وقد حمله على تأليفه ما ظهر من أقوال لأهل الفرق والأهواء ، وما أصاب قوة الحفظ والرواية من ضعف ، وما ظهر من الحاجة إلى التقييد والتسجيل ، حتى لا يضيع العلم أو ينسى .

ويروى – كما سبق – أن الذى حمله على تأليف « الموطأ » هو الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور ، وطلب من الإمام أن يجعله سهلا ميسراً ، وسطاً معتدلا ، ومن هنا جاء اسمه « الموطأ » لأن الموطأ فى الأصل هو الطريق السهل المعبد ، فشبه مالك كتابه بهذا الطريق فى سهولته ويسره .

ولقد جمع مالك فى كتابه الأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين ، وظل يشتغل فيه أكثر من عشر سنوات ، ويروى أنه استمر يراجع فيه ويمحصه ويحققه حتى استغرق أربعين سنة ، ولذلك قال صفوان بن عمر :

« عرضنا على مالك الموطأ فى أربعين يوماً ، فقال : كتاب ألفته فى أربعين سنة أخذتموه فى أربعين يوماً ؟ قلّ ما تتفقهون فيه » .

وحرص الإمام مالك فى موطئه على أن يختار المجمع عليه ، وينقد الرجال نقداً دقيقاً ، فهو يقول مثلا :

« لا يؤخذ العلم من أربعة ، ويؤخذ من سواهم . لا يؤخذ من سفيه ، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعة ، ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس ، وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ . ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة ، إذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدث به » .

وكذلك يقول : « أدركت بهذه البلدة أقواماً لو استسقى بهم المطر لسقوا ، قد سمعوا العلم والحديث كثيراً . ما حدثت عن أحد منهم شيئاً . لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله . وهذا الشأن [أى رواية الحديث والفتوى] يحتاج إلى رجل معه تقى وورع وصيانة . وإتقان وعلم وفهم . فيعلم ما يخرج من رأسه . ويصل إليه . فأما رجل بلا إتقان ولا معرفة . فلا ينتفع به . ولا هو حجة . ولا يؤخذ عنه » .

وقد عرض هارون الرشيد على مالك أن يعلق كتابه « الموطأ » على الكعبة تنويهاً به ، وجمعاً للناس عليه ، فأبى مالك وقال : « يا أمير المؤمنين ، أما تعليق الموطأ فى الكعبة ، فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا فى الفروع وافترقوا فى البلدان ، وكل عند نفسه مصيب » .

وأكد مالك هذا حين أبان أن اختلاف الفقهاء رحمة ، فقال الرشيد : « يا أمير المؤمنين ، إن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة ، كل يتبع ما صح عنده ، وكل على هدى ، وكل يريد الله » .

ومن الخير أن نلتفت إلى أن كتاب « الموطأ » ليس كتاب حديث ، بالمعنى المألوف لكتب الأحاديث ، بل هو كتاب فقه ، فقد كان هم مالك فيه أن يبين إجماع أهل المدينة ، أو الفقه المدنى بتعبير آخر ، وهو فى كثير من المواطن يذكر فتاوى لأئمة ، وجمع فيه أدلة السنة المدنية ، وسرد مسائل الفقه على أساسها ، لأن عمل أهل المدينة له قيمة كبيرة عند الإمام مالك كما عرفنا .

ويعد مالك فى موطئه شارحاً للأحاديث من وجهة النظر العملية ، ولم يخل الموطأ من استخدام مالك للرأى عندما لا يجد الحديث ، ولعله من الأفضل أن نستمع إلى الإمام وهو يصور طريقته فى كتابه ، فيقول :

« أما أكثر ما فى الكتاب فرأى لعمرى ما هو برأى ، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المهتدى بهم الذين أخذت عنهم ، وهم الذين كانوا يتقون الله تعالى ، فكثر على فقلت رأيى ، إذ كان رأيهم رأى الصحابة الذين أدركوهم عليه ، وأدركتهم أنا على ذلك ، فهذا وراثة توارثوها قرناً عن قرون إلى زماننا ، وما كان رأياً فهو رأى جماعة ممن تقدم من الأئمة .

وما كان فيه الأمر المجتمع عليه فهو ما اجتمع عليه من قول أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه ، وما قلت : الأمر عندنا ، فهو عمل الناس به عندنا ، وجرت به الأحكام ، وعرفه العام والخاص ، وكذلك ما قلت فيه : ببلدنا ، وما قلت فيه : بعض أهلها ، فهو شيء استحسنته من قول العلماء .

وأما ما لم أسمعه منهم فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته ، حتى وقع ذلك موقع الحق أو قريباً منه ، حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم ، وإن لم أسمع ذلك بعينه ، فنسبت الرأى إلىّ بعد الاجتهاد مع السنة ، وما مضى عليه عمل أهل العلم المقتدى بهم ، والأمر المعمول به عندنا منذ لدن رسول الله ﷺ والأئمة الراشدين مع من لقيت ، فذلك رأيهم ما خرجت إلى غيره » .

ولقد قال الإمام الشافعى عن كتاب الموطأ : « ما فى الأرض كتاب من العلم أكثر صواباً من موطأ مالك » . وقد روى النووى ذلك القول ، ثم أضاف إليه قوله : « قال العلماء : إنما قال الشافعى هذا قبل صحيحى البخارى ومسلم ، وهما أصح من الموطأ باتفاق العلماء » .

ولقد عنى بالكلام على « الموطأ » وأحاديثه ورجاله ، والتأليف فى ذلك ، عدد كثير من المالكية وغيرهم ، حتى بلغوا تسعين رجلا . . .

مكانة الحديث عند الإمام :

إن المتتبع لسيرة إمام دار الهجرة : مالك بن أنس رضى الله عنه ، يستطيع أن يلحظ بوضوح أنه عنى أقوى عناية بحديث النبى ﷺ ، حتى صار فيه علماً يؤتم به ، وأصبح سنده فى رواية الأحاديث أصح الأسانيد عند علماء السنة ، وقرروا أنه ثقة عدل ضابط ، مدقق فى اختيار من روى عنهم ، ولم يستطع أحد أن يطعن على مالك بشىء من هذه الناحية ، بل قال سفيان :

« ما كان أشد انتقاد مالك للرجل » يعني رواة الحديث ، وقال ابن المديني : « لا أعلم مالكاً ترك إنساناً إلا من في حديثه شيء » . وقال الشافعي : « كان مالك إذا شك في شيء من الحديث تركه » .

ولم يكن بالأمر الهين أن يبلغ مالك هذه المنزلة ، بل قد تعب من أجلها وسهر ، واجتهد وصبر ، وحقق ودقق ، ويكفينا أنه قال : « كتبت بيدي مائة ألف حديث » وأنه قال : « إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله ﷺ عن هذه الأساطين — وأشار إلى أعمدة المسجد — فما أخذت عنهم شيئاً ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أميناً ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » .

وكان مالك يجل حديث النبي ﷺ غاية الإجلال ، فهؤلاء هم الناس يقبلون إليه في جموعهم ليستزيدوا من علمه فيسألهم عما يريدون ، فإذا كانوا يريدون فقه المسائل خرج إليهم وأفتاهم ، ولكنه إذا وجدهم يطلبون الحديث النبوي الشريف ، لا يخرج إليهم حتى يغتسل ويتطيب ، ويلبس ثياباً جديدة ويتعمم ، ثم يخرج وعليه خشوع ، إجلالا منه للحديث .

ومن تعظيمه لحديث رسول الله ﷺ أنه كان يعد رفع الصوت في درس الحديث أمراً مكروهاً يحرم على المسلم أن يفعله ، ويستدل على ذلك فيقول : « قال الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) فمن رفع صوته عند حديث النبي ﷺ ، فكأنما رفعه فوق صوت الرسول » ﷺ .

وكان الإمام مالك يهتدي بالسنة النبوية المطهرة ، ويعدها المصباح المنير أمام الإنسان ، ويرى أنه لا تجوز مخالفتها ولا الخروج عليها ، وكان في كثير من الأحيان يشير إلى قبر الرسول ﷺ ثم يقول : « كل أحد يؤخذ من قوله أو يترك إلا صاحب هذه الروضة » . ولذلك كان إذا ذكروا عنده أحداً من

أهل الأهواء والشكوك ، يتمثل بعبارة قالها خامس الراشدين عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، وهى : « سن رسول الله ﷺ والولاة من بعده [يعنى الخلفاء الراشدين] سنناً الأخذ بها اتباع الكتاب الله تعالى ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد بعد هؤلاء تبديلها ، ولا النظر فى شىء خالفها ، من اهتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً » .

وكان الإمام مالك إذا ردد هذه العبارة العمرية يهتز لها سروراً ، ونحن نشهد فى سيرة الإمام مالك الإعجاب الزائد بخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ، ولعل السر فى ذلك هو اهتداء عمر بالسنة ، وعودته بالحكم إلى هدى الخلافة الراشدة ، فلم يكن عجيباً أن يتحدث مالك عن عمر كثيراً ، ويروى سيرته للناس .

بل بلغ من إعجاب مالك بعمر بن عبد العزيز أن سائلا سأله عن حكم الله تعالى فى الخارجين على الخلفاء : هل يجوز قتالهم ؟ فأجاب مالك : إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم . فقال السائل : فإن لم يكونوا مثله ؟ فأجاب مالك : فدعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقم من كليهما . ويمكن أن نراجع ما يتعلق بتفصيل ذلك الجانب فى الجزء الثانى من كتاب « خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز » .

وحب مالك للسنة النبوية يتضمن من غير شك حبه لصاحبها صلوات الله وسلامه عليه ، ومن أجل حبه لرسول الله ﷺ أحب المدينة المنورة حباً شديداً ، وعاش عمره كله فيها ، ولم يتركها إلا للحج إلى مكة ، ولقد دعاه بعض الخلفاء كى يرحل إلى بغداد ، فيحيا فى ظل الخلافة وتحت ألوية النعيم ، فأبى وردد قول الرسول ﷺ : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

وبلغ به توقيره لمكانة الرسول ﷺ أنه كان يستحى أن يركب أى دابة فى المدينة ، ويقول : إنى لأستحى أن أركب دابة تطأ بحافرها أرضاً يضم ترابها جسد الرسول ﷺ .

تحاور الأئمة :

إن المحاورة التى تدور بين إمامين من أئمة الفقهاء تعطينا صورة من علمهما أولا ، وصورة من طريقتهما فى الحوار ثانياً ، وملامح من المذهب الفقهى لكل منهما ثالثاً ، ولقد حفظ لنا تاريخ الإسلام محاورة فقهية رائعة دارت بين الإمام مالك إمام دار الهجرة ، وبين الإمام الليث بن سعد إمام أهل مصر ، وهو الإمام البارع أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن المصرى ، من تابعى التابعين ، روى عن الكثير ، وروى عنه الكثير ، وأجمع العلماء — كما يذكر النووى — على جلالته وإمامته ، وعلو مرتبته فى الفقه والحديث ، وهو إمام أهل مصر فى زمانه .

وقال عنه الشافعى : « كان الليث بن سعد أفقه من مالك ، إلا أنه ضيعه أصحابه » . وقال بن حنبل فيه : « الليث كثير العلم صحيح الحديث ، ليس فى هؤلاء المصريين أثبت منه ، ما أصح حديثه » .

وقد ولد الليث سنة ثلاث وتسعين — أى فى السنة التى ولد فيها الإمام مالك — وكان ثقة كثير الحديث الصحيح ، واستقل بالفتوى فى زمانه ، وكان سرياً نبيلا سخياً ، يجيد النحو والعربية ، ويحفظ الحديث والشعر ، وكان حسن المذاكرة .

وكما قدم الليث المدينة أهدى إليه مالك من طرف المدينة ، فبعث إليه الليث ألف دينار ، وكان الليث غنياً واسع الثروة ، حيث بلغ دخله فى السنة ثمانين ألف دينار . ونفهم من هذا أن الليث ومالكاً كانا متعاصرين ، وكانت

بينهما مراسلات واشتهرت بينها رسالة فقهية بعث بها مالك إلى الليث ، ورد عليها الليث بأطول منها ، وقد عتب مالك على الليث لأنه خالف أهل المدينة فى أشياء ، مع أن الصحابة والتابعين سلكوا سبيل السنة ولم يبتدعوا ، وكأنه بهذا يرجو من الليث أن يلتزم طريقة السنة التى هى طريقة أهل المدينة .

وهذه هى رسالة مالك :

« من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد :

سلام عليكم ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فعصمنا الله وإياك بطاعته فى السر والعلانية ، وعافانا وإياكم من كل مكروه .

واعلم رحمك الله أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مختلفة مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا ، وببلدنا الذى نحن فيه ، وأنت – فى أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك ، وحاجة من قبلك إليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك – حقيق بأن تخاف على نفسك ، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه ، فإن الله تعالى يقول فى كتابه : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) .

وقال تعالى : (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب) . فإنما الناس تبع لأهل المدينة ، إليها كانت الهجرة ، وبها تنزل القرآن ، وأحل الحلال وحرم الحرام ، إذ رسول الله ﷺ بين أظهرهم ، يحضرون الوحى والتنزيل ، ويأمرهم فيطيعونه ، ويسن لهم فيتبعونه ، حتى توفاه الله ، واختار له ما عنده صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته .

ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ، من ولى الأمر من بعده بما نزل بهم ، فما علموا أنفذوه ، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه ، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا فى ذلك ، فى اجتهادهم وحداثة عهدهم ، وإن خالفهم مخالف ، أو قال أمراً غيره أقوى منه وأولى ، ترك قوله وعمل بغيره .

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل ، ويتبعون تلك السنن ، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً ومعمولا به لم أر لأحد خلافة ، للذى فى أيديهم من تلك الوراثة التى لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها .

ولو ذهب أهل الأمصار يقولون : هذا العمل ببلدنا ، وهذا الذى مضى عليه من مضى منا ، لم يكونوا من ذلك على ثقة ، ولم يكن لهم من ذلك الذى جاز لهم .

فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك فيه لنفسك ، واعلم أنى أرجو ألا يكون دعانى إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله وحده ، والنظر لك والضن بك ، فأنزل كتابى منزلته ، فإنك إن فعلت تعلم أنى لم آلك نصحاً .

وفقنى الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله فى كل أمر ، وعلى كل حال . والسلام عليك ورحمة الله » .

وكانت المسائل التى أشار إلى بعضها مالك فى رسالته ، وأثبت لليث فى رده وجود الاختلاف فيها هى :

الأولى : الجمع بين الصلاتين ، أى أداء صلاتين متعاقبتين فى وقت واحد ، وهو جمع تقديم وجمع تأخير ، ولا جدال فى أن الجمع بين الظهر والعصر فى « عرفة » جمع تقديم ، والجمع بين المغرب والعشاء فى المزدلفة جمع تأخير ، سنة ، ولكن الخلاف فى الجمع فى غير هذين الموضعين ، فالجمهور يجيزه إذا وجدت مسوغاته ، وأبو حنيفة يمنعه .

واختلفوا فى الجمع بسبب المطر فى الحضر ، فأجازه الشافعى فى صلاة الليل والنهار ، وأجازه مالك فى صلاة الليل وحدها [المغرب والعشاء] ومنعه الليث مطلقاً .

الثانية : القضاء بشاهد واحد ويمين صاحب الحق ، فذهب مالك والشافعى وأحمد وداود وأبو ثور وفقهاء المدينة السبعة إلى جواز ذلك فى الأموال ، ومنع أبو حنيفة والليث والثورى والأوزاعى وجمهور أهل العراق جواز ذلك فى شىء .

الثالثة : متى يحق للمرأة أن تطالب بمؤخر الصداق [المهر] ؟ فأصحاب الرسول ﷺ يقولون : إنه لا يحل أجل المؤخر إلا بالطلاق أو بالوفاة ، وهناك من يقول : إنه إن اشترطت المرأة تقديم المهر كله وجب التقديم ، وإن اشترط الزوج تأخيره كله كان له حق التأخير .

الرابعة : الإيلاء ، وهو أن يحلف الرجل ألا يقرب زوجته مدة أربعة أشهر أو أكثر أو يطلق ، وأشار القرآن الكريم إليه بقوله : (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم * وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم) . والفقهاء متفقون على أنه إن مضت المدة المذكورة دون أن يقربها يكون التفريق بينهما ، ولكن قال أبو حنيفة وأصحابه والثورى إن الطلاق يقع بانتهاء المدة ، وأما مالك والليث والشافعى وأحمد وأبو ثور وداود فقالوا : للزوج أن يفىء ويرجع إلى زوجته ، وله أن يطلق .

الخامسة : الزوجة إذا ملكها زوجها حق طلاقها وفوضه إليها ، فقال مالك وأبو حنيفة والشافعى والأوزاعى وجماعة : هى بالخيار ، إن شاءت اختارت زوجها فبقيت ، وإن اختارت الطلاق فى المجلس طلقت ، وقال ابن حزم : لا تملك شيئاً ، لأن ما جعله الشارع بيد الرجل لا يجوز أن نجعله بيد المرأة .

السادسة : مسألة الرجل الذى تزوج أمة لغيره ثم اشتراها . أو الحرة التى تزوجت عبداً ثم اشترته ، فإن الفقهاء متفقون على وقوع الفسخ فى الحالتين .

السابعة : الصلاة والخطبة فى الاستسقاء : أيهما تقدم على الأخرى ، فمالك والشافعى يريان أن التقديم أو التأخير جائز ، والليث وأبو داود يقولان بتقديم الخطبة على الصلاة .

الثامنة : متى يكون على الشريكين زكاة ؟ قال مالك وأبو حنيفة إنه لا يجب عليهما زكاة حتى يكون لكل واحد منهما نصاب بملكه ، أى يكون نصيبه وحده بالغاً القدر الذى تجب فيه الزكاة ؛ وقال الليث والشافعى إن المال المشترك حكمه حكم مال رجل واحد .

التاسعة : إذا حكم على رجل بالتفليس ، وكان قد اشترى عيناً لم يقبض البائع لها ثمناً كاملا ، بل قبض بعضه ، فقال مالك : إن شاء رد البائع ما قبض وأخذ السلعة ، وإن شاء حاصُّ الغرماء فيها ، وقال الليث وجماعة : إن قبض من الثمن شيئاً فهو أسوة بالغرماء .

العاشرة : سهم الفرس فى الغنيمة . قال أبو حنيفة يأخذ الفارس سهمين : سهماً لنفسه وسهماً لفرسه . وقال مالك والليث والأوزاعى وغيرهم : يأخذ الفارس ثلاثة أسهم ، سهماً لنفسه وسهمين لفرسه ، وقال أبو حنيفة : لا أجعل لبهيمة أكثر مما للانسان !

* * *

هذه هى المسائل التى أشارت إليها رسالة مالك ، وفصل الحديث عنها رد الليث عليه ، وقد ذكر الليث فى مطلع رده ، ما يفهمنا أنه كان قد أرسل

إلى مالك كتباً لينظر فيها ويعتمدها ، ولم نقف عليها ، إذ لم تذكر فى رسالة مالك ، وقد أظهر الليث فى رده ارتياحه لملاحظة مالك عليه ، ووافقه على رأيه فى مكانة أهل المدينة ، ولكنه أشار إلى أن الاجتهاد كان أيضاً سنة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، وذلك إذا لم يكن هناك نص ، وأشار إلى أن أصحاب النبى ﷺ قد اختلفوا فى عدة مسائل ، وكذلك التابعون ، ثم يعرض الليث بعد ذلك الأمور المختلف عليها بينه وبين مالك ، ويدافع عن رأيه فيها ، وقد توسع مالك فى رسالته فبلغت صفحات .

* * *

ومن نماذج محاورة الإمام مالك أن يحيى بن زيد النوفلى عاب على الإمام مالك أنه يتمتع بالطيبات التى أحلها الله تعالى ، والتى لا ينبغى للمسلم أن يحرمها على نفسه ما دام يجدها ويقدر عليها ، فكتب إلى الإمام يقول له :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على رسوله محمد فى الأولين والآخرين : من يحيى بن زيد بن عبد الملك ، إلى مالك بن أنس . أما بعد ، فقد بلغنى أنك تلبس الدقاق ، وتأكل الرقاق ، وتجلس على الوطىء ، وتجعل على بابك حاجباً ، وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضُربت إليك المطى ، وارتحل الناس ، واتخذوك إماماً ، ورضوا بقولك . فاتق الله يا مالك ، وعليك بالتواضع .

كتبت إليك بالنصيحة منى كتاباً ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى ، والسلام » .

فرد عليه الإمام مالك يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد ، سلام الله عليك ، أما بعد ، فقد وصل

إلى كتابك ، فوقع منى موقع النصيحة والشفقة والأدب ، أمتعك الله بالتقوى ، وجزاك بالنصيحة خيراً ، وأسأل الله تعالى التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فأما ما ذكرت لى أنى آكل الرقاق ، وألبس الدقاق ، وأحتجب ، وأجلس على الوطىء ، فنحن نفعل ذلك ، ونستغفر الله تعالى ، فقد قال الله تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) . وإنى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، ولا تدعنا من كتابك ، فلسنا ندعك من كتابنا ، والسلام » .

وقد علق الإمام الغزالى فى الجزء الأول من كتابه « إحياء علوم الدين » بطريقته الورعة الزاهدة على رد مالك فقال : « فانظر إلى إنصاف مالك إذا اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، وأفتى بأنه مباح ، وقد صدق فيهما جميعاً .

ومثل مالك فى منصبه إذا سمحت نفسه بالإنصاف والاعتراف فى مثل هذه النصيحة ، فتقوى أيضاً نفسه على الوقوف على حدود المباح ، حتى لا يحمله ذلك على المراءاة والمداهنة والتجاوز إلى المكروهات . .

وأما غيره فلا يقدر عليه ، فالتعريج على التنعم بالمباح خطر عظيم ، وهو بعيد من الخوف والخشية ، وخاصية علماء الله تعالى الخشية ، وخاصة الخشية التباعد من مظان الخطر » .

بيت الإمام وأسرته :

تزوج الإمام مالك عن طريق « التسرى » ، أى بأمة من الإماء ، ولم يتزوج بحرة ، وكان يحب زوجته أم ولده ، ويعتز بها ، وولد له منها ثلاثة أبناء هم : محمد ، وحماد ، ويحيى ، وبنت تسمى « فاطمة » ، ويقال لها : أم البنين ، وكانت تحفظ كتاب أبيها « الموطأ » ، وكانت إذا عقد أبوها مجلسه فى منزله ، تجلس خلف الباب ، تسمع قراءة من يقرأ على أبيها الموطأ ، فإذا أخطأ القارئ دقت فاطمة الباب ، فيأمر مالك من يقرأ بأن يعاود القراءة ويصحح الخطأ .

ومن العجيب أن ابنته نالت هذه المكانة العلمية ، وبقى أبناؤه دونها بمراحل ، وكان مالك يتعجب من هذا التفات ، ويقول : إنما الأدب أدب الله ؛ هذا ابنى ، وهذه ابنتى ! !

وفاة مالك :

مرض مالك اثنتين وعشرين يوماً ، ودخل عليه بكر بن سليمان الصواف مع جماعة ليلة وفاته ، فقالوا له : يا أبا عبد الله ، كيف نجدك ؟ فقال : ما أدرى كيف أقول لكم ، إلا أنكم ستعاينون غداً من عفو الله ما ليس فى حساب .

وبعد قليل تشهد وقال : لله الأمر من قبل ومن بعد .

ثم أسلم روحه إلى بارئها ، وكانت وفاته بالمدينة فى اليوم الرابع عشر من ربيع الأول ، سنة تسع وسبعين ومائة ، وهذا هو أصح الأقوال فى تحديد وفاته . ودفن فى مقبرة « البقيع » عليه رضوان الله .

انتشار المذهب المالكى :

يقول القاضى عياض : « غلب مذهب مالك على الحجاز ، والبصرة ، ومصر ، وما والاها من بلاد أفريقية والأندلس ، وصقلية ، والمغرب الأقصى ، إلى بلاد من أسلم من السودان إلى وقتنا هذا ، وظهر ببغداد ظهوراً كثيراً ، وضعف بها بعد أربعمائة سنة ، وضعف بالبصرة بعد خمسمائة سنة ، وغلب من بلاد خراسان على قزوين ، وأبهر ، وظهر بنيسابور ، وكان بها وبغيرها أئمة ومدرسون » .

وكان لا بد للمذهب المالكى أن يسود الحجاز ويشيع فيه ، فمالك قد عاش فى المدينة فى صميم الحجاز ، وسار على طريقه فقهائه ، وقد ظل المذهب مزدهراً هناك حيناً طويلا ، ثم أصابه وهن زال حين تولى ابن فرجون قضاء المدينة سنة ٧٩٣ هـ .

وكان أول من دخل بالمذهب المالكى إلى مصر عثمان بن الحكم وعبدالرحيم ابن خالد بن يزيد ، وظهر من المصريين علماء مبرزون فى المذهب ، وظل المذهب سائداً حتى انتقل الشافعى إلى مصر ، فتنافس المذهبان فى الانتشار ، وما زال للمذهب المالكى أنصار كثيرون فى مصر .

ودخل المذهب بلاد تونس ، ثم غالبه المذهب الحنفى مدة ، ثم عاد المذهب المالكى فتغلب هناك حتى اليوم ، وتغلب كذلك على بلاد الأندلس بعد قرنين من الهجرة ، وكان أول من أدخله هو زيادة بن عبد الرحمن بعد ذهابه إلى الحج والتقائه بالإمام مالك ، وازدهر المذهب حتى صار القضاء به

ودخل المذهب بلاد المغرب الأقصى ، وازدهر فى عهد دولة « بنى تاشفين » ، وما زال سائداً فيها حتى اليوم .

ولقد توسع المؤرخ العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون فى «مقدمته» فى الحديث عن انتشار المذهب المالكى ، ومن الخير أن نيسر هذا الحديث ، لنساير ذيوع هذا المذهب وانتشاره هنا وهناك .

يذكر ابن خلدون أن الإمام الشافعى حينما هاجر إلى مصر — وكان ذلك سنة مائتين للهجرة — وجد فيها من المالكية جماعة منهم عبد الله بن عبد الحكم ابن أعين الذى ولد سنة مائة وخمسين ، وتوفى سنة ستة عشرة ومائتين ، وقد سمع الموطأ على مالك ، ثم روى عن ابن وهب وابن القاسم ، وألف فى المذهب المالكى ؛ وكان فيها أشهب بن عبد العزيز القيسى العامرى ، وهو من كبار فقهاء المالكية ، وله كتاب فى الفقه المالكى يسمى « المدونة » ، وهو غير كتاب « المدونة » الذى ألفه عبد السلام بن سعيد سحنون التنوخى المتوفى سنة أربعين ومائتين .

وكان فيها عبد الرحمن بن القاسم ، وهو من كبار فقهاء المالكية ، وله أكبر فضل فى تدوين المذهب المالكى ونقله ، وقد توفى سنة إحدى وتسعين ومائة وكان فيها ابن المواز وغيرهم ، ثم الحارث بن مسكين وبنوه .

ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الشيعة الفاطميين الذين يسمون مع بقية الشيعة الإمامية بالرافضة ، وظهر فيها فقه الشيعة الذى يسميه ابن خلدون فقه أهل البيت ، أو فقه شيعة أهل البيت ، وكاد سواهم أن ينقرض ويذهب .

ثم رحل إليها القاضى عبد الوهاب المالكى من بغداد ، فى أواخر المائة الرابعة ، والحكم حينئذ بيد خلفاء العبيديين ، وهم المنسوبون إلى عبيد الله المهدى جد الفاطميين الذين كانت له دولة واسعة بالمغرب ومصر وغيرهما ، فأمروا بإكرام هذا القاضى وإظهار فضله ، لكى ينعوا بهذا على العباسيين

الذين لم يتمسكوا بمثل هذا الإمام ، بل طرحوه ، فراجت سوق المذهب المالكي بمصر نوعاً ما ، إلى أن زالت دولة العبيديين على يد صلاح الدين بن يوسف بن أيوب فعاد مذهب الشافعي إلى الرواج والازدهار .

وانتشر المذهب المالكي بين أهل المغرب والأندلس ، واختصوا به ، وإن كان يوجد في غيرهم ، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل ، لأن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز ، وهذا منتهى سفرهم حينئذ ، والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج إلى العراق ، ولم يكن العراق في طريقهم ، فاقتصروا على الأخذ من علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وإمامهم هو الإمام مالك رضي الله عنه ، وشيوخه من قبله ، وتلاميذه من بعده ، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس ، وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته .

وكذلك كانت البداوة غالبة على أهل المغرب والأندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق ، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل ، لتشابه الأوضاع الاجتماعية فيما يتعلق بالحضارة والبداوة بين أهل المغرب وأهل الحجاز .

ولما صار مذهب كل إمام علماً مخصوصاً عند أهل مذهبه ، ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس ، احتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق ، وتفريقها عند الاشتباه ، بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذهب إمامهم وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة ، واتباع مذهب إمامهم فيهما ما استطاعوا ، وهذه الملكة هي علم الفقه لذلك العهد .

ويقول ابن خلدون إن أهل المغرب كلهم مقلدون لمالك رحمه الله ، وقد كان تلاميذه افترقوا بمصر والعراق ، فكان بالعراق منهم القاضي إسماعيل وطبقته ، مثل خويز منداد أحمد بن عبد الله المالكي الأصولي البصري المتوفى سنة أربعمائة ، وابن اللبان أبو الحسن محمد بن عبد الله بن الحسن المتوفى فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، والقاضي أبو بكر الأبهري المنسوب إلى « أبهر » وهي بلدة فى نواحى أصفهان ، وهو محمد بن أحمد ابن الحسن المتوفى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، والقاضي أبو الحسن بن ابن القصار ، والقاضي عبد الوهاب المالكي ، ومن بعدهم .

وكان بمصر عبد الرحمن بن القاسم ، وأشهب بن عبد العزيز ، وعبد الله بن عبد الحكم ، والحارث بن مسكين ، وطبقتهم .

ورحل من الأندلس عبد الملك بن حبيب الأندلسي ، الذى أخذ عن كثير من أصحاب مالك ، ومنهم عبد الله بن عبد الحكم ، ثم عاد إلى الأندلس ، وهو صاحب كتاب « الواضحة » من أهم أصول الفقه المالكي . وقد أخذ كذلك عن عبد الرحمن بن قاسم وطبقته ، وبث المذهب المالكي فى الأندلس . وتوفى ابن حبيب سنة ثمان وثلاثين ومائتين .

وبعد أن دون ابن حبيب كتابه « الواضحة » فى المذهب المالكي ، دون محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي المتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين كتابه « العتبية » ، أو « المستخرجة » لأنه استخرج مسائل هذا الكتاب من كتاب « الواضحة » لابن حبيب ، والعتبي تلميذ لابن حبيب ، وهو من قرطبة ، وسمع كذلك من سحنون وغيره ، وكان كتاب « العتبية » محل ثقة الأندلسيين والأفريقيين وقتاًما ، حتى لقد قال فيها ابن حزم : « لها عند أهل العلم بأفريقية القدر العالى والطيران الحثيث » .

ورحل من أفريقية – أى من المغرب الأدنى ، والمقصود بذلك هو تونس وما حولها فى ذلك العهد – أسد بن الفرات بن سنان ، وأصله من خراسان ، وانتقل به أبوه إلى تونس وهو رضيع ، فنشأ فيها وتعلم الفقه بها ، ثم رحل إلى مالك فسمع منه كتابه « الموطأ » وغيره ، ثم رحل إلى العراق فأخذ عن أبى يوسف ومحمد صاحبى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه .

وكان ابن الفرات قد كتب عن أصحاب بنى حنيفة أولا ، ثم انتقل إلى مذهب مالك ، والتقى مع عبد الرحمن بن القاسم وسأله عن المسائل التى درسها ابن الفرات فى المذهب الحنفى ، فأجابه إجابات مختلفة جمعها ابن الفرات فى كتاب سماه « الأسدية » ، وكان هذا الكتاب هو الأساس الذى قام عليه كتاب « المدونة » لسحنون ، بعد أن رحل ابن الفرات بكتابه إلى القيروان ، وبعد أن أخذ سحنون عن ابن الفرات فى القيروان رحل إلى المشرق وأخذ عن ابن القاسم ، ثم رجع إلى المغرب وصار شيخ علمائه فى المذهب المالكى ، وانصرف الناس عن كتاب « الأسدية » إلى كتاب « المدونة » لسحنون ، وخاصة بعد أن كتب ابن القاسم إلى ابن الفرات ينصحه بأن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك ، مع أن ابن الفرات قد أخذ مسائل كتابه عن ابن القاسم ، وقد رجع ابن القاسم عن كثير منها عقب مناقشات لسحنون مع ابن القاسم .

وليس معنى هذا أن « المدونة » لسحنون كانت خالية من العيب فقد كان فيها اختلاط فى مسائل الأبواب ، وكانت تسمى « المدونة » و « المختلطة » ، ومع ذلك عكف أهل القيروان على هذه « المدونة » . وصارت تعد أهم أصل من أصول مذهب مالك ، بل هى الأصل الذى قام عليه الفقه المالكى المعروف للناس اليوم . وأقبل أهل الأندلس على كتاب « الواضحة » لابن حبيب ، وكتاب « العتبية » للعتبى .

ثم اختصر ابن أبي زيد « المدونة » فى كتابه « المختصر » ، ولخصها أيضاً أبو سعيد البرادعى — وهو من فقهاء القيروان فى كتابه « التهذيب » واعتمده مشايخ أهل أفريقية — أى المغرب الأدنى وهو تونس وما حولها حينئذ — وأخذوا به وتركوا ما سواه ، وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب « العتبية » للعتبى ، وهجروا كتاب « الواضحة » لابن حبيب وما سواها .

ولم يزل علماء المذهب المالكى يتعاهدون هذه الكتب الأمهات الأصول بالشرح والإيضاح والجمع ، فكتب أهل أفريقية على « المدونة » ما شاء الله أن يكتبوا ، مثل ابن يونس ، واللخمى ، وابن محرز التونسى ، وابن بشير وأمثالهم .

وكتب أهل الأندلس على كتاب «العتبية» ما شاء الله تعالى أن يكتبوا ، مثل أبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد المتوفى سنة عشرين وخمسمائة ، وهو صاحب كتاب « المقدمات المهمات » ، وله كتب كثيرة أخرى فى الفقه المالكى ، وهو من أشهر فقهائه ، وقد تولى القضاء فكان صاحب سيرة طيبة فيه .

وجمع ابن زيد جميع ما فى الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال فى كتاب النوادر ، فاشتمل على جميع أقوال المذهب ، وفرع الأمهات كلها فى هذا الكتاب ، ونقل ابن يونس معظمه فى كتابه على المدونة .

وزخرت بحار المذهب المالكى فى الأفقين إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان ، ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك ، إلى أن جاء كتاب أبى عمرو بن الحاجب ، الذى لخص فيه طرق أهل المذهب فى كل باب ، وعد أقوالهم فى كل مسألة ، فجاء كالبرنامج للمذهب .

وكانت الطريقة المالكية قد بقيت فى مصر من لدن الحارث بن مسكين ، وابن المبشر ، وابن الليث ، وابن رشيق ، وابن شاس ، وكانت فى الإسكندرية فى بنى عوف ، وبنى سند ، وابن عطاء الله .

ولا ندرى ممن أخذ هذه الطريقة عمرو بن الحاجب ، ولكنه جاء بعد انقراض دولة العبيديين وذهاب فقه الشيعة ، وظهور فقهاء السنة من الشافعية والمالكية ، ولما جاء كتابه إلى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب ، وخصوصاً أهل « بجاية » ، وكان كبير شيوخهم أبو على ناصر الدين الزواوى هو الذى جلبه إلى المغرب ، فإنه كان قد قرأ على أصحابه بمصر ، ونسخ مختصر ذلك ، فجاء به وانتشر بقطر « بجاية » بين تلاميذه ، وفيهم انتقل إلى سائر الأمصار المغربية ، وطلبة الفقه بالمغرب كانوا إلى عهد ابن خلدون يتداولون قراءته ويتدارسونه ، لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه ، وقد شرحه جماعة من شيوخهم ، كابن عبد السلام ، وابن رشد ، وابن هارون ، وكلهم من شيوخ تونس ، وسابق حلبتهم فى ذلك هو ابن عبد السلام .

وينبغى أن نلاحظ أن ابن خلدون قد أتى بتفاصيل كثيرة عن حالة المذهب المالكى ومؤلفاته وشيوخه ، والسر فى ذلك هو أن ابن خلدون من فقهاء المذهب المالكى ، وقد تولى منصب التدريس لفقه المالكية فى مصر حين إقامته بها ، وتولى أيضاً منصب قاضى قضاة المالكية فى مصر ، أى منصب شيخ الشيوخ فى هذا المذهب .

* * *

ولقد دخل المذهب المالكى جهات متعددة من بلاد الجزيرة العربية ، والخليج العربى ، وعمان ، وبعض الإمارات فى الجنوب مثل البحرين وأبو ظبى وغيرهما ، وليس بين أيدينا مصادر تفصل الحديث عن الطريقة التى انتقل بها هذا المذهب إلى جنوب الجزيرة العربية الشرقى .

ولكن يمكن أن نقول إن الإمام مالكاً أقام فى مدينة الرسول ﷺ ، وجلس للتدريس فيها ، وجعل درسه فى مسجد الرسول ﷺ ، قبل أن ينقله إلى منزله بسبب مرضه ، والمدينة المنورة مقصد المسلمين منذ نزل بها رسول الله ﷺ ، ومنذ ضمت جدثه الشريف ، فزوارها لا ينقطعون ، وهم يأتون من كل حدب وصوب ، وما من حاج إلا وهو يضيف إلى حجه زيارة لمدينة الرسول ﷺ ، وهذه الألوف المؤلفة تأتى من مشارق الأرض ومغاربها ؛ ولعل هذا كان من أقوى الأسباب على انتشار المذهب المالكى هنا وهناك .

وليس ببعيد أن تكون هناك طلائع من جنوب الجزيرة ومن خليجها العربى ومن أجزاء فى عمانها الفسيح ، أقبلوا حاجين ، أو معتمرين ، أو زائرين لمدينة الرسول ﷺ سمعوا من مالك ، وتأثروا به ، ونقلوا عنه ؛ وليس ببعيد أن يكون هناك أفراد من هؤلاء حدثوا قومهم حين رجعوا إليهم عن مذهب مالك ، فمالوا إليه واستحسنوه ، والمالكية يرون حديثاً نبوياً يقول : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فى طلب العلم ، فلا يجدون عالماً أفقه من عالم المدينة » . ويقولون إن المراد بهذا هو الإمام مالك بن أنس .

ولقد قال الحسن بن الربيع : كنت على باب مالك ، فنادى مناديه : ليدخل أهل الحجاز ، فما دخل إلا هم ، ثم نادى فى أهل الشام ، ثم فى أهل العراق ، فكنت آخر من دخل ، وفينا حماد بن أبى حنيفة .

ولقد انتشر المذهب المالكى فى البصرة ، والبصرة غير بعيدة عن منطقة الخليج وإماراته ، فانتقال المذهب من البصرة إلى هذه الإمارات غير عسير . بل إن الحجاز نفسه غير بعيد عن هذه المنطقة ، وإذا كان المذهب قد وجد من ينقله إلى شمال أفريقية والأندلس ، فمن اليسير أن نجد من ينقله إلى ما هو أقرب بكثير من شمال أفريقية ، وهو منطقة الخليج .

من كتب المذهب المالكى :

١ ــ مختصر خليل : لخليل ابن إسحاق بن موسى .

٢ ــ بداية المجتهد ونهاية المقتصد : لأبى الوليد أحمد بن محمد بن رشد المشهور بالحفيد .

٣ ــ منح القدير على مختصر خليل : لمحمد بن أحمد بن عرفة الدسوقى .

٤ ــ تحفة الحكام : لأبى بكر محمد الغرناطى .

٥ ــ الفروق : لأحمد بن إدريس القرافى .

٦ ــ تبصرة الحكام : لمحمد بن فرحون اليعمرى .

٧ ــ الزرقانى على الموطأ : لمحمد بن عبد الباقى الزرقانى .

٨ ــ أوضح المسالك ، للرهونى ، وهو حاشية على شرح الزرقانى لمختصر خليل .

٩ ــ حاشية كنون ، على شرح الزرقانى لمختصر خليل .

١٠ ــ مواهب الجليل فى شرح مختصر خليل : للحطاب المغربى .

١١ ــ الفواكه الدوانى : شرح النفراوى المالكى على رسالة عبد الله ابن أبى زيد القيروانى .

١٢ - شرح الدردير على كتاب أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك للشيخ الدردير .

١٣ - بلغة السالك لأقرب المسالك : حاشية للشيخ الصاوى على الشرح الصغير لأقرب المسالك .

١٤ - التاج والإكليل لمختصر الشيخ خليل : لمحمد الغرناطى .

١٥ - شرح منح الجليل على مختصر خليل : لمحمد عليش .

١٦ - فتاوى الشيخ عليش : لمحمد عليش .

١٧ - المسوى من أحاديث الموطأ : لولى الدين الدهلوى .

مراجعة عن إمام المذهب :

١ - الديباج المذهب : لبرهان الدين بن فرحون .

٢ - تزيين الممالك فى مناقب الإمام مالك : لجلال الدين السيوطى .

٣ - مناقب مالك : للزواوى .

٤ - مالك : للأستاذ أمين الخولى .

٥ - مالك : للأستاذ محمد أبو زهرة .

٦ - الأئمة الأربعة : للدكتور أحمد الشرباصى .

٧ - مقدمة الزرقانى لشرح كتاب الموطأ .

٨ - تهذيب الأسماء واللغات : للنووى .

٩ - البداية والنهاية : لابن كثير .

١٠ - حلية الأولياء : لأبى نعيم .

١١ - مقدمة ابن خلدون ، بتحقيق وتعليق الدكتور على وافى .

خاتمـة :

هذه دراسة عن المذهب المالكى ، وترجمة لحياة الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه وأرضاه ، ومتابعة لنشأة المذهب وأصوله ومصادره ، وأرجو أن يكون فيها ما يكفى حاجة التطلع إلى دراسة هذا المذهب الفقهى الإسلامى الجليل ، والحمد لله الذى بفضله تتم الصالحات .

أكتوبر وصيحة التكبير

أكتوبر وصيحة التكبير

السؤال :

ما قصة صيحة التكبير فى حرب أكتوبر ؟

الجواب :

تعود الفلاح المصرى – منذ عهد بعيد – أن ينظر إلى شهر أكتوبر على أنه شهر الرخاء وتحقيق الرجاء ، فقد كان المحصول الرئيسى فى زراعات مصر – منذ عهد بعيد – هو القطن ، وكان القطن يجنى ويباع فى شهر أكتوبر ، ولذلك كانوا يسمون هذا الشهر « شهر المحصول » أو « شهر الإيراد » . وفى كثير من الأحيان تتم حفلات الزواج ، أو عقود القران ، أو الشبكة أو الخطبة فى شهر أكتوبر ، ولذا كان الفلاح ينتظر شهر أكتوبر ليحقق كثيراً من أمانيه ورغباته التى يريدها ويرددها خلال العام .

وقد كان من صنع القدر أن تأتى معركة العبور والنصر فى شهر أكتوبر من سنة ١٩٧٣ م .

ومن جهة أخرى كانت هذه المعركة نفسها فى العاشر من رمضان العظيم سنة ١٣٩٣ هـ . ولرمضان مكانة أى مكانة فى نفوس أبناء الإسلام ، فهى منزلة لا تعدلها منزلة شهر آخر ، فهو شهر الخير والبر ، وهو موسم الإيمان والإحسان ، وهو شهر التقى والهدى ، ولذلك كان من صنع الله العجيب أن تبدأ ملحمة العبور والتحرير فى العاشر من رمضان من ذلك العام ، فكانت هذه المعركة نصراً وفخراً وذكراً ، وقد جمع الله لمعركة العاشر من رمضان ،

أو السادس من أكتوبر عدة أسباب أسهمت فى تهيئة الجو لنصر الله العلى الكبير الذى تم بحوله الصالحات وتكمل بعونه الأعمال .

كان هناك الغيظ العميق الدفين الذى خلفته مأساة سنة ١٩٦٧ . وكان هناك من قبل ذلك الثأر المسيطر على النفوس من أجل اغتصاب فلسطين ونكبتها سنة ١٩٤٨ . وكان هناك بعد ذلك ما هيأ الله تبارك وتعالى من جو التصافى والتلاقى والتآخى بين أبناء الأمة ، بجهود مبذولة من خيرة قادتها ورجالها . وكانت هناك الجهود الضخمة لإعادة بناء قواتنا المجاهدة ، وكان هناك تدرب أبنائنا المقاتلين على الأسلحة الجديدة المتطورة ، وكان هناك طول المرابطة على الثغور فى ساحات الميادين ، حتى مل البعض من طول الانتظار ، وتمنوا لقاء العدو مهما كانت النتيجة « ووقوع البلاء خير من انتظاره » كما يقول بعض أمثالنا ، وكان هناك الجانب الدينى الذى هبت نسماته فأيقظ النفوس وهز المشاعر بعد طول نسيان وإعراض ، وكان هناك الحديث المشبوب المستمر عن روح الفداء والوفاء ، والإلحاح الموصول من بعض علمائنا ودعاتنا على الترغيب فى الجهاد والشهادة ، وكان هناك أولا وأخيراً إرادة الله التى تقول للشىء كن فيكون .

وانطلق أبطال معركة أكتوبر عام ١٩٧٣ — رمضان عام ١٣٩٣ يهتفون لأول مرة — منذ عهد بعيد : الصيحة الجماعية المزلزلة : « الله أكبر » فأحسوا أن أسبابهم قد اتصلت بأسباب قيوم السموات والأرض ورحمن الدنيا والآخرة ، وأنهم قد ارتفعوا عن ترابية الأرض إلى روحانية السماء ، وأنهم قد بدءوا يعرفون أنفسهم ، ويؤكدون ذاتهم . والحق حقهم ، والأرض أرضهم ، والثأر ثأرهم ، والسلاح بين أيديهم ، والطريق مفتوح أمامهم ، وعدوهم معروف غير مجهول ، ووعد الله صادق معهم إن صدقوا عهدهم

معه ، فكأن صيحة التكبير مدد أى مدد ، وذخيرة دونها كل ذخيرة ، فرسخت أقدامهم ، وتضاعفت هممهم ، وسمت عزائمهم . وفى غمرة الإيمان، وحلاوة صيحة التكبير ، نسوا آلامهم ومتاعبهم ، وتخايل لهم النصر المجيد على مرأى قريب من رجائهم ، وأحسوا مع صيحة التكبير كأن جنوداً كثيرة لله غير منظورة ، يكادون يرونها رأى العين ، ويلمسونها لمس اليد ، ولله جنود السموات والأرض .

وشد من عزائمهم وقواهم أن تبددت طلائع ثمرات النصر سريعة غير بطيئة فزاد ذلك من إيمانهم بأنهم عادوا إلى الله ، فأقبل الله عليهم ، ولو أنهم زادوا فى السعى إليه لضاعف إقباله المنعم عليهم المعز لهم ، فأخذت أقدامهم تتنقل تباعاً على مسيرة الفلاح والظفر ، فزادوا فى صيحة التكبير ترديداً وتمجيداً .

* * *

وكلمة « الله أكبر » كحجر الزاوية فى بناء الإسلام ، فالله جل جلاله قد أمر رسوله ﷺ فى مطلع الدعوة بأن يسمع الناس الصيحة التكبير هذه ، فقال له فى سورة المدثر : (وربك فكبر) ثم قال له فى سورة الإسراء : (وكبره تكبيراً) ، والصلاة فى الإسلام فريضة يومية متكررة ، وهى يقبل الناس عليها بعد أن يسمعوا كلمات « الأذان » لها ، وهذا الأذان يبدأ بكلمة « الله أكبر » ويختم بكلمة « الله أكبر » ، وهذه الكلمة تكرر فى كل أذان ست مرات . ثم تكون هناك « الإقامة » ، وهى تبدأ بكلمة « الله أكبر » ، وتختم بكلمة « الله أكبر ، وتكرر الكلمة فى « الإقامة » ست مرات ، وحينما يؤدى المسلم الصلاة يفتتحها دائماً بكلمة « الله أكبر » وفى الحديث النبوى الشريف : « إذا قمت إلى الصلاة فكبر » وهذا التكبير ركن فى كل صلاة عند جمهور الأئمة سلفاً وخلفاً .

ثم تأتى بعد تكبيرة الإحرام فى أول الصلاة « تكبيرات الانتقال » التى يرددها المصلى خلال صلاته ، وقد جاء فى الحديث الشريف الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يكبر فى كل قيام وقعود ، وفى كل خفض ورفع ، إلا عند الرفع من الركوع .

وهناك تكبيرات صلاة العيدين ، ففى كل يوم من يومى العيدين يبدأ المسلمون منذ الصباح الباكر بصيحات التكبير يملأون بها جنبات أوديتهم وأقطارهم ، مرددين قولهم فيما يرددون : « الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا » . وقد روى الإمام مسلم فى صحيحه أن الرسول ﷺ سمع أحد الصحابة يردد هذه الكلمات فسأل الرسول ﷺ : من قائلها ؟

فقال الصحابى أنا يا رسول الله .

قال النبى ﷺ : عجبت لها ، فتحت لها أبواب السماء .

يقول عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : فما تركتهن منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك .

وهناك كلمة « الله أكبر » التى يرددها الحاج عند محاذاته للحجر الأسود وعند رؤيته الكعبة ، وعند رميه الجمرات ، وعند قيامه بالذبح وغير ذلك من أعمال وعبادات فى الإسلام .

وفى صحيح البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال :

كنا مع رسول الله ﷺ فى غزاة ، فجعلنا لا نصعد شرفاً [مكاناً مرتفعاً] ولا نعلو شرفاً ، ولا نهبط فى واد ، إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير .

وكلمة « الله أكبر » جرت العادة بين المسلمين باتخاذها شعاراً فى الجهاد والشعار هنا يراد به العلامة الرمزية التى يتعارفون بها عند بدء القتال وهى تشبه « كلمة السر » الشائعة الاستعمال بين أهل الجندية الآن . وقد عرف المجتمع الإسلامى بعض الشعارات بجوار صيحة « الله أكبر » .

فقد جاء فى الحديث أن النبى ﷺ علم أصحابه أنهم إذا جاءهم العدو ، واختلطوا به فى الظلام ، فليكن شعارهم : «حم لا ينصرون » . قالوا إن المعنى : إنهم لا ينصرون . أو : اللهم لا ينصرون .

وجاء فى السنة عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : غزونا مع أبى بكر زمن رسول الله ﷺ فكان شعارنا : أمت أمت . وفى بعض الروايات : يامنصور أمت . وهو نداء لكل مقاتل يراد به التفاؤل بالنصر بعد الأمر بإماتة المعتدين .

وجاء فى السيرة العطرة أن شعار المهاجرين كان : عبد الله . وشعار الأنصار كان : عبد الرحمن . ولكن العادة المشهورة المألوفة فى تاريخ الإسلام أن يكبر القائد ويبدأ ، فيكبر الجنود ويتابعون . ومن ذلك أن رسول الله ﷺ قال وهو يؤدب اليهود فى غزوة خيبر :«الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين » وفى كتاب « فدائيون فى تاريخ الإسلام » أن النعمان بن مقرن قائد جيش الإسلام فى معركة « نهاوند » قال لجنوده عند بدء القتال : « إننى سأهز اللواء أمامكم ثلاث مرات ، فإذا هززته الثالثة وكبرت فاحملوا ، ولا يلوين أحد على أحد وإن قتل النعمان » .

صيحة التكبير هى الشعار ، والقائد فى الطليعة ، ولا تردد فى المعركة أو بلبلة ولو سقط القائد شهيداً . نعم ، فالله أكبر .

والشهيد سليل المحاربين ضرار بن الأزور الأسدى يروى تاريخه — كما فى المرجع السابق — كان يقود من يقودهم فى المعارك بصيحة التكبير « الله أكبر » التى يرددها معه جميع جنوده فى صوت واحد ثم يسارعون إلى النضال .

وكذلك كان من عادة المثنى بن حارثة الشيبانى بطل حروب العراق مع فارس أن يبدأ الجهاد مع جنوده بالتكبير ، وكان يقول لهم : إنى مكبر ثلاثاً فتهيأوا ، ثم احملوا مع الرابعة .

وفى تاريخ الفقيه الشهيد أسد بن الفرات قائد الجيش الإسلامى فى فتح « صقلية » أنه كان يبدأ المعركة بصيحات التكبير لتذكر أصحابها حساً ونفساً بأن الله أكبر من كل عدو وأكبر من كل شىء .

• • •

وقد شرع الله تكرار هذا الهتاف الإلهى « الله أكبر » فى الأذان والصلاة وسواهما ليكون أشبه بدقات الساعة التى تتردد بين الفينة والفينة ، منبهة لعباد الله ، مذكرة بحقوق الله ، منادية بالرجوع إلى الله ، والاعتصام بقوته وحماه ، ليستيقظ الغافل ويهتدى الضال ، ويرتدع المسىء . ويزداد المحسن إحساناً وكلما سمع أبناء الإسلام هذا التكبير فى ذكر أو أذان قابلوه بمثله ، فيتعلمون الاستجابة للحق ، والمسارعة إلى الخير ، والتلاقى على الذكر ، والتعاون على البر والتقوى ، والمجاهدة للإثم والعدوان ، واستحضار أن الله أقوى من كل قوى وأكبر من كل كبير .

« الله أكبر » نداء السماء المنزل من حمى القدس ليتردد بين أهل الأرض ، مذكراً إياهم بجلال الله وعظمته ، وسلطانه وقدرته ، فتقشعر منه

جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، فترى المؤمنين يرددون كلمة « الله أكبر » في صدق وعز وكأن لصوتها هديراً كهدير البحر المتلاطم أو أشد وقعاً ، لأن معناها القوى البليغ قد أخذ يهدر فى قلوبهم فيتلاطم فى صدورهم فيكأن هذا من ذاك . . . وتتردد فى الآفاق كلمة « الله أكبر » فإذا هى نسمات السماء الظاهرة التى تحيي موات الأرض الهامدة ، وإذا هى فيض الملأ الأعلى الذى يغسل أدران الحياة وأقذار البشر ، فهى تدوى فى أذن السارق الناهب فترتجف يده ويهتز كيانه ، ويتذكر إن كان من أهل الذكرى أن هناك إلهاً أقوى منه وأكبر من حيلته واستخفائه ، ومن مكره وخديعته ، وأخذه أقوى من القانون والمحكمة والسجن والأشغال الشاقة المؤبدة ! وهى تدوى فى أذن من يهم بإثم أو معصية ، فيقشعر ويرتدع ، ويتذكر أن لله عيناً لا تنام ، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنه يعلم سرهم ونجواهم ، وهو معكم أينما كنتم ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ !

« الله أكبر » كلمة يرددها الغنى الكثير المال الواسع الثروة ، فيتذكر عندها أن الله أغنى الأغنياء ، وأنه مصدر النعم والآلاء وأنه هو الذى يعطى ويمنع ، ويخفض ويرفع ، فلا يزدهى الغنى غناه ، ولا يبطره ماله وثراؤه ، بل يتدبر قول ربه . (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا) ، ويرددها الفقير المحتاج المجهود ، فلا يذله الفقر ولا يهينه ، ولا يزلزله أو يبلبله ، بل يذكر أن الله العلى الكبير أقوى وأغنى ، وأنه القادر بكبريائه ونعمائه أن يقهر هذا الفقر اللعين ، فلا ينال شيئاً من دين المؤمن الفقير فى ماله :) وإن خفتم عيلة [أى فقراً] فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) ، (ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) ؟ !

«الله أكبر» يرددها الصحيح السليم المعافى القوى المفتول البدن ، فلا يغتر معها بصحته ، ولا ينخدع بقوته ، فإن الله أكبر الذى وهب الصحة هو الذى يستطيع أن يسلبها ويضع مكانها العلة والمرض ؛ والذى أعطى القوة قادر على أن يحيلها ضعفاً ؛ وليست صحة الأبدان أو قوة العضلات وحدها مفخرة لصاحبها ، فكم من حيوانات وبهائم توافرت لها قوى الأجسام ، ولم ترزق قوة العقل والجنان ، بل لعل أشد البهائم بأساً فى جسمها هى أقلها فى التعقل والتمييز ، والمهم هو قوة العقل وثبات القلب ، لا شدة الجسم ولا صلابة العضل : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » . . .

ويرددها الضعيف المريض السقيم فإذا هى بلسم ودواء ، وإذا هى تذكرة بأن الله الرحمن الرحيم هو أهل الرجاء ومعقد الأمل : (وإذا مرضت فهو يشفين) ،(وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ۞ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) .

« الله أكبر » يقولها الكبير المسيطر الذى يهم بطغيان أو بهتان ، فيعلم ويتذكر أن هناك من هو أقوى منه وأكبر وأعظم ، وهو الله الأكبر وأنه ذو البطن الشديد ، فيرهبه ويتواضع له ويتأدب أمامه ولا يبغى أو يطغى على أحد من عباده ، وإلا فالمنتقم جبار : (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام) والعامة تقول وهى صادقة فى قولها : الله أكبر على من طغى وتجبر ، وهذا فرعون قد طغى وبغى (فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) ؛ وهذا هو نداء الله لمن حاول أن يقاسمه كبرياءه : (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) ويردد المظلوم المهضوم المستضعف كلمة « الله

أكبر » فيتذكر أن هناك إلهاً عادلا منتصفاً لا يرضى الظلم بحال ، فيقوى ذلك المظلوم ، ويجاهد الضيم بكل ما استطاع ، مستعيناً بجاه الله القوى العزيز : (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) .

* * *

وإذا كانت صيحة « الله أكبر » تتكرر أكثر ما تتكرر فى الأذان للصلوات المفروضة عدة مرات كل يوم فها هو ذا كاتب الإسلام المرحوم مصطفى صادق الرافعى يصور ببيانه المعروف أثر صيحة « الله أكبر » التى يرددها المؤذن عند بداية كل أذان وعند نهايته ، ويترجم عن صنيعها العجيب الذى تصنعه فى النفوس المؤمنة الوضيئة فيقول عليه رحمة الله :

« الله أكبر . بين ساعات وساعات من اليوم ترسل الحياة فى هذه الكلمة نداءها تهتف : أيها المؤمن ! إن كنت أصبت فى الساعات التى مضت ، فاجتهد للساعات التى تتلو ؛ وإن كنت أخطأت فكفر وامح ساعة بساعة ؛ الزمن يمحو الزمن والعمل يغير العمل ، ودقيقة باقية فى العمر هى أمل كبير فى رحمة الله . بين ساعات وساعات ، يتناول المؤمن ميزان نفسه حين يسمع : الله أكبر ، ليعرف الصحة والمرض من نيته ، كما يضع الطبيب لمريضه بين ساعات وساعات ميزان الحرارة .

اليوم الواحد فى طبيعة هذه الأرض عمر طويل للشر ، تكاد كل دقيقة بشرها تكون يوماً مختوماً بليل أسود ؛ فيجب أن تقسم الإنسانية يومها بعدد قارات الدنيا الخمس ؛ لأن يوم الأرض صورة من الأرض ، وعند كل قسم : من الفجر ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء — تصيح الإنسانية المؤمنة منبهة نفسها : الله أكبر ، الله أكبر !

بين ساعات وساعات من اليوم يعرض كل مؤمن حسابه ، فيقوم بين يدى الله ويرفعه إليه وكيف يكون من لا يزال ينتظر طول عمره فيما بين ساعات وساعات – الله أكبر . . . ؟ بين الوقت والوقت من النهار والليل تدوى كلمة الروح : « الله أكبر » ! ويجيبها الناس : « الله أكبر » ليعتاد الجماهير كيف يقادون إلى الخير بسهولة ، وكيف يحققون فى الإنسانية معنى اجتماع أهل البيت الواحد ؛ فتكون الاستجابة إلى كل نداء اجتماعى مغروسة فى طبيعتهم بغير استكراه .

النفس أسمى من المادة الدنيئة ، وأقوى من الزمن المخرب ، ولا دين لمن لا تشمئز نفسه من الدناءة بأنفة طبيعية ، وتحمل هموم الحياة بقوة ثابتة . لا تضطربوا ، هذا هو النظام لا تنحرفوا ، هذا هو المنهج ؛ لا تتراجعوا ، هذا هو النداء ، لن يكبر عليكم شىء ما دامت كلمتكم : الله أكبر » .

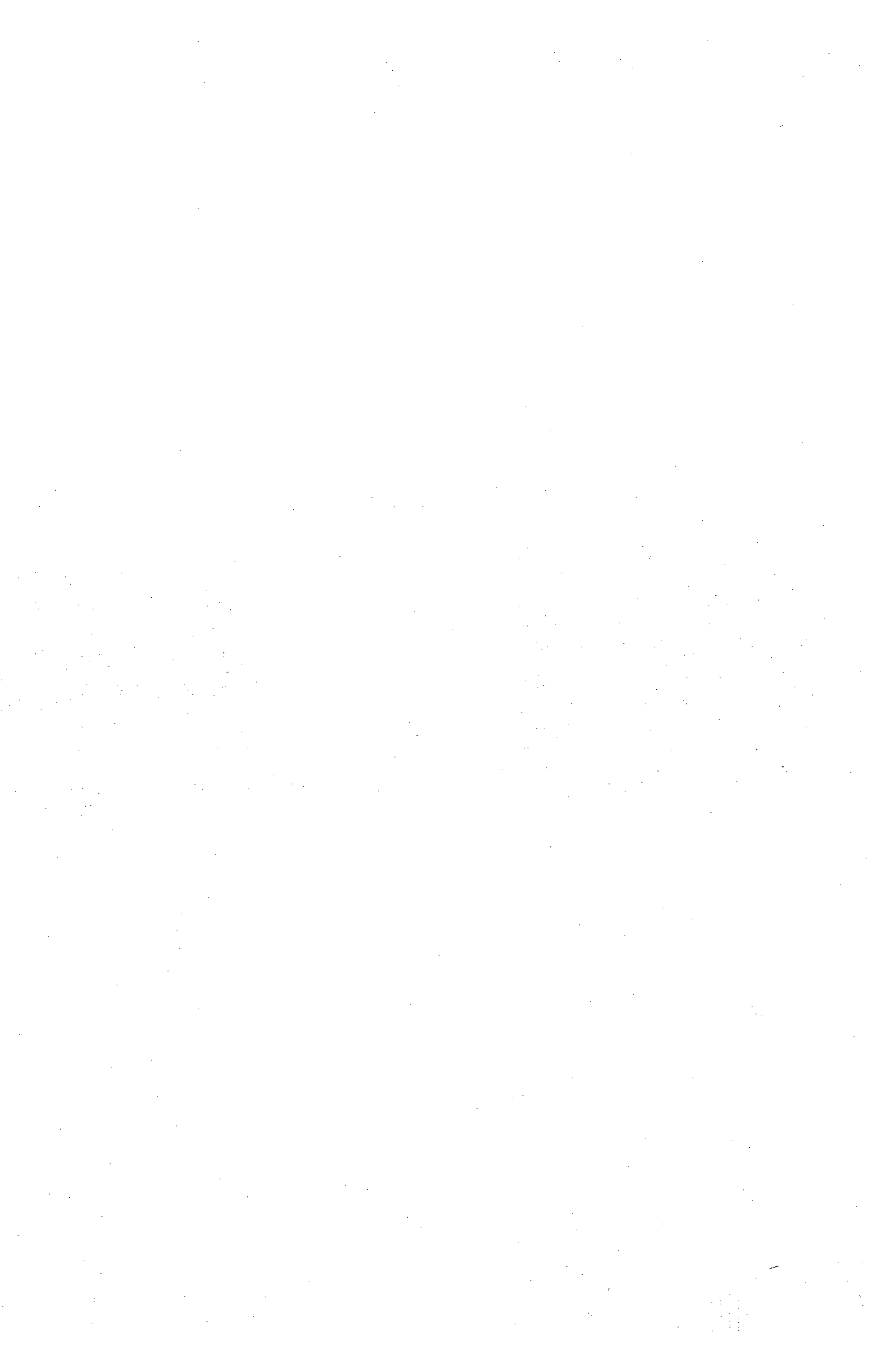
* * *

وهكذا انطلق الأبطال من أبنائنا فى معركة العبور والتحرير ، فى السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ م وقد أخذوا بتجربة جديدة ميمونة مع الله واهب القوى والقدر ، هى أن يتخذوا من اسمه الأعلى شعاراً ودثاراً ، فجعلوا صيحتهم التى يشعلون بها نار الجهاد فى نفوسهم هى « الله أكبر » ، فأقبل الله عليهم بذكره ونصره ، وعونه وتأييده ، وكانت التجربة مثمرة بمقدار ما أعطى هؤلاء الجنودَ لربهم من تكبيره وتمجيده ، والإقبال على ساحته وحماه ، فكيف تكون التجربة بثمراتها الواسعة وزهراتها اليانعة ، ونتائجها الرائعة ، لو أن هؤلاء الجنود واصلوا تجربة الرجوع إلى الله إلى ما شاء الله ، وواصلوا الاعتصام بحبله المتين فى دوام واستمرار ، وواصلوا الاستعانة بنصره المبين . إنهم حينئذ يكونون أهلا لتحقق وعد الله الصادق فيهم (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) .

وإذا كانت روح اليمن والرجاء قد دفعتنا عند ظهور النتائج الأولى للمعركة الميمونة إلى أن نسميها معركة العاشر من رمضان ، فأكبر يقيننا أنه لو صدق أبناء هذه المعركة وعدهم مع ربهم فى إصرار واستمرار ، وإحكام والتزام ، لكانت التسمية تطابقاً سليماً مع مسماها ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

إننا لا ننسى الأهمية القصوى للإعداد المادى والتدريب العسكرى ، والاستعداد بكل جديد ومتطور من الأسلحة ووسائل الدفاع والهجوم ولا ننسى أهمية الأسباب التى يجب أن يتذرع بها العقلاء إلى نصر الله عز وجل والله عز شأنه يقول فى سورة الأنفال : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) .

ولكننا فى الوقت نفسه نوقن اليقين كله ، أن المقاتلين إذا لم يكن فى صدورهم شعاع يضىء على الدوام بنور الإيمان ، وروح الثقة بالله ، وصدق الاعتماد عليه ، والاستعانة به ، فإن الوسائل المادية وحدها لا تكفى ، ولا تبلغ بأهلها الفوز الذى يرتجون وصدق العلى الكبير : (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .



العُدوَان الصّهيُوني



عدوان اليهود على الآثار الإسلامية فى فلسطين وسيناء

السؤال :

نريد أن نعرف جانباً من اعتداء اليهود على الآثار الإسلامية فى فلسطين وسيناء ؟

الجواب :

هكذا اليهود منذ قديم الزمن هم ومن سار على دربهم من أخلافهم وذرياتهم ، كانوا مثلا للعدوان والإفساد والضلال ، ولقد وصفهم القرآن المجيد منذ أكثر من أربعة عشر قرناً بأنهم الذين عموا وصموا ، الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، وقال فيهم فيما قال : (أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) .

ولقد تضخم العدوان الصهيونى الأثيم بعد احتلالهم أرض فلسطين عقب نكبة سنة ١٩٦٧ . وقد شمل هذا العدوان الآثار الإسلامية والمسيحية ، ولكننا فى هذا المجال سيقصر الحديث على عدوانهم بشأن الآثار الإسلامية فى فلسطين وسيناء ، فإنها فى هذا العدوان لم تقم ميزاناً لمشاعر أتباع المسيحية والإسلام فى شرق المعمورة وغربها ، ولم تكتف بأن تسلب منها ما فيها من كنوز وذخائر ، أو ما أذاقته رجالها — وهم رجال دين ودعوة — بل تمادت فى إثمها ، فعملت على تغيير معالم المناطق المقدسة التى تضم جنباتها هذه الآثار الدينية .

ولقد تركز هذا العدوان الأثيم فى مدينة القدس بالذات ، وهى معقد الأحاسيس والمشاعر الدينية عند المؤمنين بعد مكة بلد البيت الحرام ، وبعد المدينة المنورة مثوى الرسول ﷺ .

ومنذ الاحتلال الإسرائيلى الغاشم لفلسطين سنة ١٩٤٨ والسلطات الصهيونية المحتلة توغل فى انتهاك حرمات الأماكن الأثرية الإسلامية سواء فى المساجد أو المقابر أو المزارات، ثم تضاعف التبجح فى العدوان بعد نكبة عام ١٩٦٧ حيث أباحت السلطات الصهيونية دخول الشبان والشابات اليهوديات المتحللات المسجد الأقصى وهو ثالث المساجد المشرفة التى تشد إليها الرحال، وهو المسجد الذى يقول فيه رب العزة جل جلاله : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) .

وما كاد يمضى على نكبة الاحتلال شهران حتى اصطنعت بعض الصحف الصهيونية أخباراً تدعى الحاجة إلى تخلية اثنين وثمانين مترا من ساحة « حائط البراق » ، واتضح أن إسرائيل تقصد بهذه التخلية التوصل إلى هدم الأبنية الوقفية المحيطة بالحرم تمهيداً للاستيلاء عليه وإقامة هيكلهم المزعوم مكانه .

ثم أقبل العدوان الصهيونى الأكبر ، وهو إحراق المسجد الأقصى يوم الخميس الثامن من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩هـ – الموافق الحادى والعشرين من أغسطس سنة ١٩٦٩م . وكأن اليهود أرادوا أن ينتقموا من « تيتوس » الذى هدم معبدهم من قديم الزمن فى الحادى والعشرين من أغسطس سنة ٧٠م ، فوجهوا انتقامهم هذا إلى شخص المسلمين ، فهدموا مسجدهم الأقصى فى الحادى والعشرين من أغسطس أيضاً ، ولكن بعد ألف وتسعمائة سنة من إحراق « تيتوس » لمعبد اليهود .

أحرقوا المسجد الأقصى ، وأحرقوا فيه منبر صلاح الدين الأيوبى ، وأحرقوا محراب زكريا ، وأحرقوا القبة ، ودمروا بحريقهم الأثيم الجانب الشرقى من المسجد العظيم ، أحرقوا هذا الأثر الإسلامى الجليل زاعمين أنهم سيقيمون على أنقاضه هيكلهم المزعوم ، طاشت منهم الأحلام والفهوم .

ومن وقاحتهم أنهم بعد أن فعلوا فعلتهم التى فعلوا ، ولطخوا أيديهم المجرمة بما ارتكبوا ، حاولوا أن يلصقوا تهمة إحراق المسجد الأقصى بيهودى مخبول اسمه « مايكل روهان » ، مع أن الشواهد تنطق بأجلى بيان وأوضح ترجمان بأن إحراق المسجد الأقصى كان مبيتاً مدبراً ، وأنه قد اشترك فيه كثيرون ، ومن الأدلة على ذلك أنه وقع حينئذ حريقان لا حريق واحد ، فأما أحد الحريقين فقد كان فى منطقة المحراب ومنبر صلاح الدين ، وهو الحريق الذى أثر فى المنبر والقبة ، وأما الحريق الآخر فقد كان فى سقف الجناح الجنوبى الشرقى ومحراب زكريا .

والذى يعرف هندسة المسجد الأقصى عن مشاهدة ، يعرف بعد مكان الحريق فى السقف عن مكان الحريق الآخر ، وبذلك يتأكد أن الذى باشر عملية الإحراق لابد وأن يكون أكثر من شخص واحد ، وقد يضاف إلى ذلك أن السقف لا يمكن أن يصعد إنسان إليه حينئذ إلا بواسطة أخشاب لولبية موضوعة فى خارج بناء المسجد الأقصى ، وهذا يدل على ترتيب سابق محكم متفق عليه ، والمقصود منه هو القضاء على المسجد المبارك بتمامه ، وقد يؤكد هذه الملاحظة القوية أن سلطات الاحتلال الغاشمة تباطأت تباطؤاً منكراً فى واجب القيام بالإطفاء ، وكذلك قطعوا المياه عن منطقة الحرم القدسى فى هذه الساعات ، ولولا أن قيض الله للأقصى جموعاً من من رجال المسلمين ونسائهم وأطفالهم عملوا على إطفاء الحريق بكل وسيلة تيسرت لهم لقضت النيران الصهيونية على هذا الأثر الإسلامى العظيم .

ولم يتورع أحد المتبجحين من اليهود أن يفصح عن غرضهم الموهوم من وراء إحراق المسجد الأقصى ، وهو أن يعيدوا بناء الهيكل اليهودى الذى يصفونه بأنه « قدس الأقداس » وأن دعائمه موجودة تحت أساس المسجد

الأقصى ، فردد قوله : « إن المسجد الأقصى القائم على قدس الأقداس [الهيكل] إنما هو ملك لنا ، وقد كانوا يرددون ذلك الزعم على هينة من بدء احتلال فلسطين .

وعقب نكبة يونية سنة ١٩٦٧ توقح حاخام الجيش الإسرائيلى ، واقتحم بقوة العدد والاحتلال ساحة مسجد الصخرة المشرفة ، وأخذ يقوم بالصلاة على الطريقة اليهودية ، وكان بذلك يترجم عن أمنية الصهيونية التى صورتها دائرة المعارف اليهودية بقولها فى سنة ١٩٢٦ « إن اليهود يبغون أن يجمعوا أمرهم ، ويأخذوا القدس ، وأن يعيدوا العبادة إلى الهيكل ويقيموا ملكهم هناك » .

وقبة الصخرة الشريفة هى البناء الإسلامى المعمارى الرائع ، وقد بناها الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، واستغرق بناؤها سبع سنوات وها هو ذا القاضى مجير الدين الحنبلى المتوفى سنة ٩٢٧ هـ يقص علينا كيف بنيت قبة الصخرة هذه ، وذلك فى كتابه : « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » فيقول :

« إن عبد الملك بن مروان حين حضر إلى بيت المقدس وأمر ببناء القبة على الصخرة الشريفة بعث الكتب إلى جميع عماله وإلى سائر الأمصار ، أن عبد الملك قد أراد أن يبنى قبة على صخرة بيت المقدس تقى المسلمين من الحر والبرد ، وأن يبنى المسجد .

وكره أن يفعل ذلك دون رأى رعيته ، فلتكتب الرعية إليه برأيهم وما هم عليه ، فوردت الكتب عليه من سائر عمال الأمصار ترى رأى أمير المؤمنين موفقاً رشيداً ، وإن شاء الله يتم له ما نوى من بناء قبته وصخرته ومسجده ، ويجرى ذلك على يديه ويجعله تذكرة له ولمن مضى من سلفه .

فجمع الصناع لعمله وأرصد للعمارة مالا كثيراً يقال إنه خراج مصر سبع سنين ، ووضعه بالقبة الكائنة أمام الصخرة من جهة الشرق بعد أن أمر ببنائها ، وهى من جهة الزيتون ، وجعلها حاصلا ، شحنها بالأموال ووكل على صرف المال فى عمارة المسجد والقبة أبا المقدام رجاء بن حيوة الكندى ، وكان من العلماء الأعلام ومن جلساء عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وضم إليه رجلا يدعى يزيد بن سلام مولى عبد الملك بن مروان من أهل بيت المقدس وولديه .

ويقال إن عبد الملك وصف ما يختاره من عمارة القبة وتكوينها للصناع فصنعوا له وهو ببيت المقدس القبة الصغيرة التى هى شرقى قبة الصخرة التى يقال لها السلسلة ، فأعجبه تكوينها وأمر ببنائها كهيئتها وأمر رجاء ويزيد بالنفقة عليها والقيام بأمرها وأن يفرغا المال عليها إفراغاً دون أن ينفقاه إنفاقاً .

وأخذوا فى البناء والعمارة عند القبة من شرقى المسجد إلى غربيه حتى أكملوا العمل وفرغ البناء ، فكتب رجاء ويزيد إلى عبد الملك بدمشق أن قد أتم الله ما أمر به أمير المؤمنين من بناء قبة صخرة بيت المقدس والمسجد الأقصى ولم يبق لمتكلم فيه كلام ، وقد بقى مما أمر به أمير المؤمنين من النفقة عليه بعد أن فرغ البناء وأحكم ، مائة ألف دينار فيصرفها أمير المؤمنين فيما أحب .

فكتب إليهما أمير المؤمنين أن قد أمرت بها لكما جائزة لما وليتما من عمارة البيت الشريف المبارك ، فكتبا إليه أنحن أولى أن نزيده من حلى نسائنا فضلا عن أموالنا ، فاصرفها فى أحب الأشياء إليك ، فكتب إليهما بأن تسبك وتفرغ على القبة فسبكت وأفرغت عليها ، فما كان أحد يقدر أن يتأملها مما عليها من الذهب ، ثم بعد انتقال الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك انهدم شرقى

المسجد . ولم يكن في بيت المال حاصل ، فأمر بضرب السبائك وإنفاقها على ما انهدم منه ، وكان الفراغ من عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة الشريفة » .

وقبة الصخرة هذه كانت منذ تسعة قرون تقريباً هدفاً لهجمات الحروب الصليبية البربرية ، وفى سنة ١٠٩٩ م استولى الاستعماريون الدخلاء باسم هذه الحروب على قبة الصخرة : هذا المسجد الإسلامى العظيم ، وحولوه إلى كنيسة ، ولكن الله تعالى شاء أن يأتى صلاح الدين الأيوبى فيعيد القبة إلى أهلها ، ورجعت مسجداً كما كانت ، واليوم يعيد اليهود المأساة فيحتلون قبة الصخرة ويعبثون بها ، ويدخلون الشباب الصهيونيين المتحللين ومعهم الخليلات والغانيات فى حماها .

ولم يقف اليهود عند هذا الحد ، بل نهبوا مكتبة المسجد الأقصى التى كانت عامرة بالنفائس والذخائر المخطوطة والمطبوعة التى لا تقدر بمال لعتاقتها ونفاستها وجلال قيمتها . ثم استباحوا لأنفسهم مواصلة العدوان على المسجد الأقصى بالإقدام على الحفريات المتعددة من أوله وتحت أسسه حتى وصلت هذه الحفريات إلى عمق عشرات من الأمتار مما يهدد المسجد بالانهيار من وقت إلى آخر ، ولم تقتصر عمليات الحفر على الأخطار التى سببتها وشكلت بها خطراً جسيماً على كيان المسجد الأقصى ، بل هدم اليهود بسبب هذه الحفريات خمس مدارس إسلامية ، وبعض المساجد والأماكن الأثرية .

وهناك تقرير حول هذه العمليات الحفرية الخطيرة التى يقوم بها اليهود وقد بدأت هذه العمليات من أسفل سور الحرم من الناحيتين الجنوبية والغربية ، ثم امتدت فى اتجاه الناحيتين الشمالية والشرقية حتى وصلت منطقة حوش الشهابى ، بعد أن مرت بباب السلسلة وباب الأسباط .

ويستخدم اليهود فى عمليات الحفر مجموعة من الآلات الضخمة التى يؤدى تحريكها إلى اهتزازات عنيفة قوية يمكن أن تعرض الأبنية القديمة لخطر الانهيار . وبالفعل قد سببت هذه الحفريات أضراراً بليغة للقسم الجنوبى من المسجد ، حيث أصبح هذا القسم معلقاً فوق أرض مجوفة ، ولم يعد فى طاقة هذه الأرض أن تتحمل ثقل المبانى المقامة فوقها لمدة طويلة ، ومن المحتمل أن ينهار هذا القسم فى أى وقت وهذه أمنية خبيثة تتمناها إسرائيل لتضع أهل القدس أمام الأمر الواقع .

ويتعرض القسم الغربى من المسجد الأقصى لسيل الأمطار التى تهطل بغزارة فى منطقة القدس ، فى وقتى الخريف والشتاء ، وفى أوائل الربيع .

وليس ببعيد ولا غريب على فكر اليهود وخبثهم أن يفتعلوا أى سبب لوقف الآلات التى تسحب مياه هذه الأمطار من داخل الأنفاق ، فتحول هذه الأنفاق المجوفة فى موسم الأمطار إلى عجينة هشة مما يكون سبباً فى أن يغوص المسجد الأقصى برمته فى جوف هذه الأنفاق وبذلك يتحقق لهم ما يريدون وهو تدمير أهم أثر إسلامى فى فلسطين .

وهناك ما يقرب من ألف مسجد ومعهد إسلامى هدمتها إسرائيل خلال عشرين عاماً ابتداء من عام الاحتلال ١٩٤٨ م إلى عام ١٩٦٩ م . والله أعلم بما هدمه اليهود بعد ذلك . ومن المدارس الإسلامية التى هدمها اليهود المدارس التالية :

١ ــ المدرسة الميمونية التى بناها الأمير أبو ميمون خازن دار صلاح الدين الأيوبى عام ١٠٢١ م .

٢ ــ مدرسة الصلاحية التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٩٢ م .

٣ ــ مدرسة الأفضلية التى أنشئت سنة ١١٩٣ م .

٤ – مدرسة النحوية التى أنشأها الملك المعظم عيسى عام ١٢٠٧ م .

٥ – المدرسة الناصرية التى أنشئت سنة ١٢١٣ م .

٦ – المدرسة الدرية التى أنشئت سنة ١٢١٣ م .

٧ – المدرسة الدوادرية التى أنشئت سنة ١٢٩٥ م .

٨ – المدرسة السلامية التى أقيمت عام ١٣٠٠ م .

٩ – المدرسة الجالقية التى بنيت سنة ١٣٠٧ م .

١٠ – المدرسة الجاولية التى أنشئت سنة ١٣١٥ م .

١١ – المدرسة الكريمية التى بنيت عام ١٣١٩ م .

١٢ – المدرسة التنكيزية التى بنيت سنة ١٣٤٠ م .

١٣ – المدرسة الطازية التى أنشئت عام ١٣٦٢ م .

وغير هذه المدارس كثير .

ولقد حدثنا منذ سنوات وزير الأوقاف والشئون الدينية فى الأردن عن المقدسات التى تضمها جوانح فلسطين وتتعرض للعدوان الإسرائيلى وأغلبها كما أشرنا فى القدس وقد ذكر منها عدداً كبيراً من المساجد والزوايا والتكايا، ومقامات الأنبياء والصحابة الأولياء والشهداء والمجاهدين الأبرار ، ومنها المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة وسائر الساحات والأبنية التى يحيط بها سور الحرم القدس الشريف ، وهو ما تعنيه كلمة « المسجد الأقصى » وقد اتضح ذلك من فتوى أصدرها علماء الضفة الغربية فى الأردن فى شهر أغسطس سنة ١٩٦٧ م ، وقد تأيدت هذه الفتوى من مؤتمرين عقدهما مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة سنة ١٩٦٨ م ، ١٩٧٠ م .

ومن المقدسات الإسلامية أيضاً « البراق الشريف » الموجود فى الجدار الغربى من المسجد الأقصى ، ومسجد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى مدينة الخليل ، وضريح نبى الله داود عليه السلام فى القدس ، وكان بجانبه مسجد يؤدى فيه المسلمون صلواتهم وأدعيتهم إلى أن احتلته الصهيونية سنة ١٩٤٨ م ومنعت المسلمين من زيارته أو الصلاة فيه ، ومقام النبى موسى عليه السلام ، وعليه مسجد ، وحوله أبنية وأراض وقد أنشئ هذا المسجد من قبل الملك المسلم الظاهر بيبرس ، ووقف عليه أوقاف كثيرة ، ويقع هذا المسجد شرقى القدس على طريق الذاهب إلى أريحة .

وفى فلسطين أضرحة كثيرة أمثال قبر الصحابى شداد بن أوس ، والصحابى عبادة بن الصامت وهو أول قاض مسلم فى فلسطين ، وكلاهما مدفون فى مقبرة باب الرحمة ، بجانب السور الشرقى للمسجد الأقصى المبارك.

ومن القبور المعروفة فى فلسطين قبر الصحابى « ساشة » فى حى مشهور باسمه وهو ضمن مسجد معروف باسمه فى القدس ، وقد نسفه الصهيونيون فى أغسطس سنة ١٩٤٨ م .

ومما تفنن فيه اليهود من ألوان العدوان على الآثار الإسلامية أنهم أرغموا أصحاب الأوقاف الإسلامية على إصلاحها وتجديدها على حسب المخططات الإسرائيلية ، ويشترطون عليهم شروطاً مرهقة ، مما يجعل أصحاب هذه الأوقاف يضيقون بها ، ومن هنا يتخلون عنها فيستولى عليها اليهود لقمة سائغة لجشعهم الأشعبى .

• • •

وقد امتدت النيران اليهودية الأثيمة المجرمة من إحراق المسجد الأقصى فى القدس إلى إحراق « دير سانت كاترين » فى سيناء فوق جبل الطور ،

ولهذا الدير صلة وثيقة بالآثار الإسلامية ، أو إن شئت قلت إنه أثر مسيحى إسلامى ، حيث يوجد فى وسط هذا الدير مسجد إسلامى أقيم فى عهد الفاطميين ودير سانت كاترين أقدم دير فى العالم ، بناه الإمبراطور « جوست تنيان » سنة ٥٢٧ م ، وهو منسوب إلى القديسة كاترين ، وهى فتاة مصرية من الإسكندرية ، آمنت بالمسيحية ودعت إليها واستشهدت فى سبيلها ، ويطلق على المسجد المذكور اسم المسجد الفاطمى لأنه أنشئ فى العصر الفاطمى فى القرن السادس الهجرى وهناك من يقول إن أصل هذا المسجد يعود إلى عهد عمر رضى الله عنه ، وهذا المسجد داخل الدير على مساحة طولها ، عشرة أمتار ، وعرضها سبعة والمسجد بمئذنته يتوسط الدير ، وكان الرهبان المسيحيون يعنون به ويحافظون عليه ، وجاء اليهود فأحرقوه ، وبالمسجد أثران تاريخيان كما يقول بعض الباحثين – هما كرسى ومنبر من الخشب الصلب ، أما الكرسى فشكله هرمى وهناك نقش على جوانبه الأربعة ، ويوجد اسم بانى الجامع وماله من المآثر فى صحراء سيناء ، وهو الأمير منير الدولة وفارسها أبو على المنصور أنوشتكين الأمرى .

أما المنبر فقد كتب عليه إن الذى أمر بإنشائه هو أمير الحرمين سيف الإسلام كافل قضاة المسلمين : أبو القاسم شاهنشاه عضد الله به الدين وذلك فى شهر ربيع الأول سنة خمسمائة ، كما كتب على المنبر هذه العبارات : « لا إله إلا الله ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحي ويميت وهو على كل شيء قدير . . . نصر الله الإمام أبا على المنصور ، الآمر بأحكام الله ، خليفة المسلمين ، وأيده بنصر من عنده ، وغفر لوالديه . . . أمر بإقامة هذا المنبر سيف الإسلام ، وحامى حمى المسلمين ، أبو القاسم الأفضل شاهنشاه ، وتمت إقامته فى غرة ربيع الأول عام ٥٠٠ من هجرة سيد الأنام محمد رسول

الله ﷺ » . وكان المسلمون الذين يعملون فى الدير يؤدون صلواتهم داخل هذا المسجد ، على حين يؤدى المسيحيون والرهبان شعائرهم فى الكنيسة ، ويذكر المؤرخون من الآثار الجليلة عهد الأمان الذى يروون أن رسول الله محمداً ﷺ قد أعطاه لرهبان الدير فى السنة الثانية للهجرة .

وامتد اعتداء اليهود على الآثار الإسلامية إلى مقام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى مدينة الخليل حيث اعتدى اليهود فى سنة ١٩٦٨ م باستخدام المسجد الإسلامى فى المقام على ضريح إبراهيم الخليل معبداً لهم ، وكثرت الاحتجاجات على ذلك ، ولكن اليهود لم يبالوا بها ، بل مضوا فى غيهم يعمهون ، فأصدر الحاكم العسكرى اليهودى فى مدينة الخليل أمراً عسكرياً بتمكين اليهود من الصلاة فى الحرم الإبراهيمى ، ودخل الجنود لإقامة صلاتهم ، ومعهم المدافع الرشاشة ، وحولوا المسجد الإسلامى إلى معبد يهودى ، وقاموا بحفريات مجاورة للحرم بحجة الوصول إلى غار يضم عدداً من الأنبياء .

وقد توالت من اليهود مراحل تهويد الحرم الإبراهيمى ، فبدأت إسرائيل باحتلال الحرم ، ثم رفعوا العلم الإسرائيلى عليه ، ثم علقوا عليه النجمة السداسية الأضلاع وهدمت إسرائيل البيوت الإسلامية المحيطة بالحرم ، وأغلقت المسجد فى نهاية شهر سبتمبر سنة ١٩٦٩ م لمدة أربع وعشرين ساعة ، وسمحت لليهود بأداء صلاتهم فيه ، ثم أخذوا يروجون على ألسنة المتطرفين منهم بإقامة معبد يهودى بجوار الحرم .

ثم عينت إسرائيل مديراً يهودياً لمنارة « المكفيلا » وفيها قبور أنبياء ، وادعت ملكيتها ، وسمحت لليهود بالصلاة فى الحرم يومياً ، ثم أخذ اليهود

فى القيام بحفريات أجرى حول الحرم لتغيير المعالم ، ثم قرروا الاستيطان فى مدينة الخليل ، وأنشأوا مستعمرة فى الخليل بالفعل . . . .

وكما قال الشاعر : إن الرواية لم تتم فصولا .

وتفنن اليهود فى السطو على المكتبات الإسلامية الموجودة فى الضفة الغربية بما فيها من مخطوطات ووثائق ، وسرقوا أوراق البحر الميت ، وفيها آثار إسلامية نفيسة أطال الحديث عن نفاستها البصراء بالآثار والذخائر .

جَوانبُ إشتراكيّة في حَيَاةِ الرّسُول

جوانب اشتراكية فى حياة الرسول

السؤال :

ما أهم الجوانب الاشتراكية فى حياة الرسول ؟

الجواب :

على طريق الحق

لقد خلق الله تعالى الخلق ، وبسط لعباده الرزق ، ووهب الإنسان العقل والطاقة ، ويسر أمامه الحيلة والوسيلة ، وحرضه على السعى والحركة ، ووعده بالخير والبركة ، وأخبره بأن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ولا ريب أن السعى الدائب المثمر هو عماد الحياة الرشيدة ، والعيشة السعيدة ، والمجتمع الفاضل ، ولقد كان رسول الله ﷺ قدوة كريمة لأتباعه فى هذه الناحية ، لا بعد بعثته فقط ، بل وقبلها أيضاً ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو سبحانه الذى صنع نبيه على عينه ، وهداه منذ نشأته إلى فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق .

ما كاد الرسول ﷺ يبلغ سن الفتيان الناشئين حتى رأيناه يسهم بنصيبه فى العمل ، كيلا يكون كلا على غيره ، وحتى لا يصير عضواً معطلا فى مجتمعه ، فإذا هو يشارك عمه أبا طالب رحلاته التجارية ، يعاونه ويبذل معه جهده .

وإذا هو يحترف أيضاً فى يفاعته حرفة لها صعوبتها ، ولها مشقتها ، ولها كذلك دلالتها ، وهى رعى الغنم ، وقد قال رسول الله ﷺ : «ما بعث الله

نبياً إلا رعى الغنم » فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟ . قال : «وأنا ، رعيتها لأهل مكة بالقراريط » [أى بأجزاء من الدراهم والدنانير] .

وقد قال بعض المؤرخين : « وحكمة الله عز وجل فى ذلك أن الرجل إذا استرعى الغنم ، التى هى أضعف البهائم، سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفاً، فإذا ما انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق ، كان قد هذب أولا من الحدة الطبيعية والظلم الغريزى فيكون أعدل الأحوال »[1] .

وكما سعى النبى ﷺ سعياً شريفاً نظيفاً لكسب قوته عن طريق رعى الغنم، سعى أيضاً إلى الكسب المبارك عن طريق التجارة ، والتجارة دعامة من دعائم الحياة الاقتصادية التى تتحقق بها منافع كثيرة وخيرات وفيرة .

فتاجر الرسول ﷺ لخديجة زوجته .

يقول ابن إسحاق فى السيرة : « وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها ، وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجاراً ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل مما تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له : ميسرة .

فقبل رسول الله ﷺ منها ، وخرج فى مالها ذلك ،وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام »[2] . وقد نجح الرسول ﷺ فى تجارته نجاحاً كبيراً ، وحقق فى رحلته ربحاً غزيراً ، بفضل مهارته وأمانته ، وتوفيق الله له .

---

(١) ابن برهان الحلى ، فى كتاب السيرة الحلبية ، ج ١ ص ١٢١ .

(٢) كتاب الروض الأنف . ج ١ ص ١٢١ .

وكأن الرسول ﷺ قد أراد أن يلفتنا إلى أن العمل اليدوى والتجارة عمادان جليلان للحياة الاقتصادية العادلة ، وذلك حينما سئل : أى الكسب أطيب ؟ فقال : « عمل الرجل بيده ، وكل بيع مبرور » .

ولقد كانت نزعة الخير والبر أصيلة عميقة فى نفس الرسول ﷺ ، فهو لا يريد أن يعيش لنفسه ، ولا أن يستأثر لذاته باللذة والمتعة ، بينما يحتاج الآخرون إلى المعونة والنجدة .

بل هو يحس ذلك الإحساس الاجتماعى التعاونى النبيل ، فيذكر حقوق الناس عليه ، ويؤدى إليهم هذه الحقوق كاملة فاضلة ، وهو يتبرع ويتطوع ، فيسهم بنجدة الملهوف ، وإغاثة المضطر ، وإعانة المحتاج ، وتقوية الضعيف .

ومما يدل على ذلك أنه حينما ارتجف لشدة الوحى عاد إلى خديجة يحدثها بما رأى وما سمع ، فإذا هى ترسم أمامنا صورة لأخلاقه الفاضلة ، ونزعته الخيرة ، وعطفه العميم على الناس فتقول له فيما تقول : « أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم [الأقارب] ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل [أى تحمل العبء عن غيرك] . وتكسب المعدوم [أى الذى لا مال له] ، وتقرى الضيف [أى تكرمه] ، وتعين على نوائب الحق » أى أحداث الأيام ومصائب الدنيا .

ولقد أقبل رسول الله ﷺ بدعوته العادلة الفاضلة ليحارب طغيان النفوس ، واستبداد الأقوياء ، وإذلال الضعفاء ، وكنز الأغنياء ، وهضم الفقراء ، وليجعل أتباع محمد ﷺ ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وكالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وأخس المشركون الطغاة ، والكانزون البغاة ، بما فى دعوته من خطر عليهم وعلى سلطانهم وطغيانهم ، فأرادوا إغراءه بالجاه أو السلطان أو المال ، ليصرف نفسه عن إشاعة الحق والعدل بين الناس ، فأبى واستعصم .

ولقد جاءه عتبة بن ربيعة نائباً عن المشركين يقول له : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت ، من السلطة [أى الطيب] فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت بهم آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

فقال الرسول ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع .

فقال عتبة : يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفاً ، سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً من الجن طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .

وأجمل الرسول ﷺ الصمت حتى انتهى عتبة من عروضه لوقف الدعوة المصلحة المسعدة .

فلما سكت عتبة قال له النبى ﷺ : أوقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم .

فقال النبى ﷺ : فاسمع منى : (بسم الله الرحمن الرحيم ، حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً

ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون)[1] . ومضى النبي ﷺ يتلو آيات ربه البينات الزاجرات لمن طغى وبغى ، المبشرات لمن آمن واهتدى ، حتى بلغ قوله تعالى : (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود)[2] .

وكأنما أحس عتبة أن الصاعقة تكاد تأخذه ، فولى إلى قومه مدبراً ، ومضت دعوة الحق على صراط مستقيم ، يقودها إمامها محمد ﷺ ، ليهدى الناس إلى شريعة العدل ، شريعة الله ، التى تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر وتوطد دعائم العدالة الاجتماعية فى هذه الحياة .

* * *

المال بين الكسب والإنفاق

المال هو عصب الحياة المادية وسنادها ، فبه تنال الحقوق ، وتؤدى الواجبات ، وبه يستطيع الإنسان أن يبنى ويعمر ، وأن يزرع ويثمر ، وأن يصنع وينتج .

وكما يكون المال قوة مشيدة معمرة مصلحة ، إذا استقام أمره فى أخذه وإعطائه ، يصبح قوة مهلكة مدمرة ، إذا ساء أمره فى كسبه أو إنفاقه .

وعماد الحياة الاجتماعية الاشتراكية الرشيدة هو أن يلتزم أفراد الأمة الطرق السليمة القويمة المشروعة ديناً وقانوناً وعقلا وخلقاً فى كسب المال وحيازته ، فيأخذوه من حل لا من حرمة ، وينالوه بسعى وأمانة ، لا باختلاس أو خيانة .

---

(١) سورة فصلت : آيات ١ – ٤ .

(٢) سورة فصلت : آية ١٣ .

وبذلك يأمنون نقمة الجبار فى الدنيا ، وعذابه فى الآخرة ، لأن الرسول ﷺ يقول : « كل لحم نبت من سحت [أى من حرام] فالنار أولى به » .

ومن عماد هذه الحياة الفاضلة أيضاً أن يتعود الأفراد إنفاق هذا المال بعقل وبصيرة وعدل ، ينفقونه فى مصالح أنفسهم وأهليهم وقومهم وأوطانهم دون بخل أو شح ، لأن البخل بالمال عن مواطنه اللازمة رذيلة ينفر منها الدين ، ويأباها الخلق المتين . ودون إسراف أو تبذير ، لأن الإسراف جريمة يتوعد الله تعالى صاحبها بالعقاب والخسران ، فيقول : (ولا تبذر تبذيراً * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً)(1) .

ومن جوامع الكلم التى صور بها الرسول ﷺ أساسين هامين من أسس التعاليم الاقتصادية الإسلامية قوله : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » .

فهو فى هذا الحديث النبوى الوجيز البليغ لم يشكر المال بلا قيد ، بل قدره وعرف قيمته إذا كان صالحاً .

وإنما يكون صالحاً إذا كان كسبه مشروعاً من جهة ، وكان المال فى حد ذاته طيباً لا خبيثاً من جهة أخرى .

وهذا يتضمن التحريض على أن يكون مال الإنسان حلالا طيباً ، قد امتلكه بطريق سليم ، وناله على وجه طيب ، ولم يرتكب فى حيازته إثماً أو ظلماً أو هضما لحق من حقوق الآخرين بطريق مباشر أو غير مباشر .

ولم يقتصر الحديث النبوى الشريف على تحذير الإنسان من المال الخبيث الظنين ، أو على التحريض بجعل المال طيباً صالحاً خالصاً من السوء ، بل أشار

---

(1) سورة الإسراء : آيتا ٢٦ و ٢٧ .

الحديث إلى أمر آخر له قيمته وله أهميته ، وهو أن يكون هذا المال الصالح فى يد إنسان صالح يعرف قيمة المال ، ويقدر مكانته ، ويحسن التصرف فيه ، ويجيد الإنفاق له بعقل وعدل ، فى الوجوه المشروعة ، والواجبات المستحقة ، والمصارف الطيبة ، سواء أكانت هذه المصارف مطالب للأسرة والعائلة ، أو زكاة لازمة ، أو ضرائب واجبة ، أو مساهمة تقتضيها مصلحة الأمة التى ينتمى إليها الإنسان ، ويعتز بها ، ويقوى عن طريقها ، ويرتبط معها بذلك الرباط الوثيق الحكيم : « الفرد فى خدمة المجموع ، والمجموع فى خدمة الفرد » .

ولو رجعنا إلى كتاب الله المجيد ، وهو القرآن الكريم ، لوجدناه رائداً وقائداً وعنواناً لهذا الهدى النبوى العظيم ، فإن الذكر الحكيم يحدثنا بأن المال فى الحياة موضوع امتحان جليل خطير ، ومحل ابتلاء عميق واسع ، فيقول القرآن العزيز : (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم)[1] ، ويقول : (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم)[2] .

فمن أحسن أخذ المال بطرقه السليمة ، وأنفقه فى وجوهه الحكيمة ، فقد فاز فى الامتحان ونجا ، واستحق من خالقه الثواب الجزيل والنعيم المقيم .

ومن أساء أخذ المال حين امتلاكه ، أو أساء فى إنفاقه ، أو ظلم فيه غيره ، فقد باء بالفشل والخسار .

ولذلك يشير القرآن الكريم فى أكثر من موطن إلى أن أداء الواجب فى المال هو الطريق إلى إيجاد البركة فيه ، والمضاعفة له ، وإشاعة الخير به ،

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٨٦ .

(٢) سورة الأنفال : آية ٢٨ .

وأن الجمع الأثيم له عن طريق غير مشروع هو الماحق للبركة ، المبعد للخير عنه ، فيقول التنزيل المجيد : (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون)[1]. أى الذين يضاعف الله لهم الخير .

ويقول أيضاً : (فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى * وما يغنى عنه ماله إذا تردى)[2] .

ويقول بعض المفسرين لهذه الآيات إنها تفصيل لقول الله تعالى قبلها : (إن سعيكم لشتى)[3] . أى إن مسلككم فى الكسب والإنفاق مختلف ، فمن أعطى ما عليه من الحقوق الشخصية والقومية ، والمصالح الواجبة والمندوبة ، (واتقى) سوء عاقبة منعها وضرره فى الأمة ، (وصدق بالحسنى) وهى وعد الله تعالى الصادق بالثواب العظيم لمن أحسن (فسنيسره لليسرى) أى للطريقة الفضلى فى اليسر والسهولة والمنفعة له وللناس ، فيوفقه الله ، ويحبه الخلق ، ويعيش منتفعاً نافعاً ، سعيداً فى ذاته ، عاملا على سعادة سواه .

(وأما من بخل) بما عليه من الحقوق ، (واستغنى) بماله عن حب الناس والتعاون معهم ، ومشاركتهم فى السراء والضراء ، وأعرض عن نداء الله تعالى له بأن يكون طيباً فى كسبه، طيباً فى إنفاقه ، معاوناً لعباده ، (وكذب بالحسنى) وهى وعد الله الجميل بالثواب الجزيل للمحسنين ، (فسنيسره للعسرى) ، حيث ينتهى إلى أسوأ العواقب وأكثرها عسراً ، ولن يفيده ماله الأثيم شيئاً حين يصلى سعير جزائه وعقابه ، (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) ! .

* * *

(١) سورة الروم ، آية ٣٩ .
(٢) سورة الليل ، آيات ٦ - ١٢ . وتردى : أى هلك وسقط فى النار .
(٣) سورة الليل ، آية ٥ .

وهكذا يهدينا الإسلام العظيم ورسوله الكريم فى نور القرآن الحكيم إلى الصراط المستقيم ، الذى يعصم من الانحراف والزلل ، ويقوم فينا القول والعمل ، ويهدينا إلى سواء السبيل .

بين الدعوة والداعية

الصلة وثيقة بين الدعوة والداعية ، لأن الداعية هو المبلغ للدعوة ، الحامل لأمانتها ، الحريص على نجاحها ، وليس هناك أقوى فى الدلالة على ذلك من الإسلام العظيم ، فإن دعوة الله العادلة الفاضلة تتمثل أول ما تتمثل فى شخصية الرسول ﷺ ، بحيث لا نستطيع أن نفصل بين حياة الرسول ﷺ وبين الدعوة التى بشر بها ، وحمل لواءها بين العالمين .

وحسبنا أننا نجد تطبيق المبادئ الإسلامية فى حياة الرسول ﷺ نموذجاً واقعياً رائعاً ، يقتدى به ويحتذى ، وصدق القرآن الكريم حيث يقول : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر)[1] .

وحين وصف الرسول ﷺ فى هدايته وتبليغه وعمله وقوله بأنه « سراج منير » .

ولقد كانت مبادئ الاشتراكية الإسلامية العادلة الفاضلة تتمثل فى شخصية الرسول ﷺ وأعماله وتصرفاته، فنحن نراه أولا لا يسرف فى طعام أو شراب ، ولا يتزيد فى زينة أو ثياب ، بل يأكل ما تيسر وخف ، ويلبس ما يستر ويقى ، وينام على حصير يبدو أثره فى جسمه ، أو على فراش من جلد حشوه ليف .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٢١ . والأسوة : القدوة .

وهو لا يترفع عن العمل ، ولا يأبى أن يبذل طاقته وجهده فى أى ناحية من نواحى الحياة التى تحتاج إلى عمل أو مجهود . . لقد رعى الغنم ، وتاجر ، وشارك فى حفر الخندق ، وجاهد الباطل والكفران ، وحمل تبعات الرسالة .

ولقد كان يقضى يومه مناضلا فى سبيل دعوته وأمته ، فإذا عاد إلى بيته لم يكسل ولم يترفع ، بل يشارك أهله فى عمل البيت .

حتى لقد قالت السيدة عائشة حين سئلت عن شأن الرسول ﷺ فى بيته : « كان بشراً من البشر ، يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويعمل ما يعمل الرجل فى بيته ، فإذا حضرت الصلاة خرج » .

ويمضى الرسول الأعظم ﷺ فى إشاعة روح البذل — وهو من دعائم الاشتراكية — فيرى ذات يوم فى يدى ابنته سوارين ، فيعرض عنها ، وحينما يسأل عن سبب إعراضه يجيب قائلا : « إنى وجدت فى يديها سوارين من فضة » .

وكأنه يريد أن يقول الرسول ﷺ : وما بقاء هذين السوارين الفضيين فى يديها ، وهناك فى المسلمين من يذوق طعم الجهد والمشقة ، وفيهم من يحتاج إلى ثمن هذين السوارين ليقوت به نفسه وأهله ؟ . . .

وما يكاد الخبر يبلغ مسامع الزهراء فاطمة ، حتى تعجل بإرسال السوارين إلى أبيها ، فيعجل ببيعها ، ويجعل ثمنهما فى مصالح المحتاجين من المسلمين .

ويعلق المرحوم مصطفى صادق الرافعى على هذا الموقف الرائع فيقول مخاطباً الزهراء :

« يا بنت النبى العظيم ، وأنت أيضاً لا يرضى لك أبوك حلية بدرهمين ونصف ، وإن فى المسلمين فقراء لا يملكون مثلها ! . . .

أى رجل شعبي على الأرض كمحمد ﷺ فيه للأمة كلها غريزة الأب ، وفيه على كل أحواله اليقين الذى لا يتحول ، وفيه الطبيعة التامة التي يكون بها الحقيقي هو الحقيقي ؟

يا بنت النبي العظيم ، إن زينة بدرهمين ونصف لا تكون زينة فى رأى الحق إذا أمكن أن تكون صدقة بدرهمين ونصف ، إن فيها حينئذ معنى غير معناها ، فيها حق النفس غالباً على حق الجماعة ، وفيها الإيمان بالمنفعة حاكماً على الإيمان بالخير ، وفيها ما ليس بضرورى قد جار على ما هو الضرورى ، وفيها خطأ من الكمال ، إن صح فى حساب الحلال والحرام ، لم يصح فى حساب الثواب والرحمة .

تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم ، إن مذهبكم ما لم تحيه فضائل الإسلام وشرائعه – إن مذهبكم هذا لكالشجرة الذابلة تعلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيط ، كل يوم تحلون ، وكل يوم تربطون ، ولا ثمرة فى الطبيعة » .

* * *

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على أن يشيع فى أهله الروح الاشتراكية الإسلامية الرائعة ، فهو لا يريدهم أن يتميزوا عن غيرهم فى متاع الحياة وعرض الدنيا بل هو يريد أن يكون مع أهله أقل من سواهم فى هذا الباب حتى لا يظن ظان أن لبيت النبوة الطهور – وهو المثل الأعلى للمسلمين فى الطهارة والتدين – أدنى تطلع إلى استغلال منصب النبوة أو مقام الرسالة .

وهذه هى ابنته الزهراء فاطمة رضوان الله عليها تأتيه لتشكو إليه عناءها فى عمل البيت ، وحاجتها إلى من تخدمها وتؤازرها ، وكأن عينها تطلعت إلى الحصول على هذه المعاونة من بيت المال ، فأبى الرسول ﷺ وقال لها :

« لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع » . وأهل الصفة طائفة كانت لا تجد عملا ولا مالا ، فهى بحاجة ملحة إلى المساعدة والمؤازرة .

وكان محمد إمام المؤمنين الاشتراكيين ﷺ مثلا لا يجارى فى إشاعة الخير ، وإذاعة البر وبذل المعروف للدانى والقاصى ، فهو فى الإنفاق والجود كالريح المرسلة ، وهو يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وهو لا يحرص ولا يكنز ولا يشح ، بل يجود ويبذل ، ويؤثر على نفسه .

وهو يتوج هذه المكارم بأن يقرر قاعدة جليلة لها مغزاها ورمزها ، وهى أن كل ما يتركه خلفه لا يكون ملكاً ذاتياً له ، ولا يكون تركة لأفراد بأعينهم من أسرته ، بل هو ملك للمصلحة العامة ، ولكل من يحتاج إليه من أمته ، فيقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » .

وهكذا تجلت مبادئ الاشتراكية الإسلامية فى حياة الرسول ﷺ ، فكانت حياته هى التطبيق العملى الرائع للدين العادل الذى يقوم على التعاون فى الخير ، والتكافل فى البر ، والأخوة بين المؤمنين .

* * *

الإيثار قمة الاشتراكية

كلمة « الاشتراكية » فيها معنى المشاركة للغير فى الخير والبر ، وهى درجات ومراتب ، فقد ينزل الفرد على أمر الاشتراكية طاعة لإرادة قوية ، وقد يتطبع بها استجابة لتأثير مجتمعه ، وقد يأتيها على مستوى العدل والتساوى ، فكما يعطى يأخذ ، وكما يؤدى واجبه يطالب بحقه ، فهو يقول عن اقتناع وتشبع بروح الاعتدال والعدل : هذا لى وهذا لغيرى . وهو لا يفرط فيما له ، كما لا يختلس ما لسواه .

ولكن الاشتراكية الإسلامية الفريدة فيها درجة أعلى وأبقى ، هى درجة الإيثار التى تحلى بها الصفوة السابقون من أبناء الإسلام الذين تمثلوا فى «الأنصار»

والإيثار هو أن تقدم غيرك على شخصك ، وأن تعنى بشئون الآخرين قبل أن تعنى بشئون نفسك ، وأن تقدم سواك على ذاتك لأنه أكثر منك احتياجاً ، أو لأنك تريد أن تخصه بجانب من نبل أخلاقك وسمو صفاتك .

ولقد كان إمام المسلمين فى هذا الإيثار هو رسول الله ﷺ ، خاتم الأنبياء وصفوة الأولياء ، ولذلك يقول أبو على الدقاق عن خلق الإيثار : « إن هذا الخلق لا يكون بكماله إلا لرسول الله ﷺ ، فإن كان كل واحد فى يوم القيامة يقول : نفسى نفسى ، يقول هو صلى الله ﷺ : أمتى أمتى » .

ولقد كان رسول الله ﷺ مثلا عالياً للكرم بحق وصدق ، إذ كان ينفق بطيب نفس ما يعظم وقعه ونفعه ، وكان مثالا عالياً للسخاء ، إذ كان سهل الإنفاق كأن يده مبسوطة مطبوعة على الإعطاء ، فلو أراد لها مريد أن تجتمع لتمتنع لاحتاج إلى مجهود ومعاناة .

وكان مثلا عالياً للجود ، إذ كان يعطى بلا مسألة ، صيانة للسائل عن ذل السؤال ، متى عرف حاجته إلى المعونة والعطاء .

ولقد روى الشيخان البخارى ومسلم : « كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير ، وأجود ما كان فى شهر رمضان ، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة » .

كما روى البخارى فى فضائل الرسول ﷺ : « ما سئل النبى ﷺ شيئاً فقال : لا » ، فهو إما أن يعطى إذا كان يملك ما يعطيه ، وإما أن يعد بالمعاونة فى المستقبل إذا كان لا يملك فى حاضره شيئاً ، وحينما يأتيه ما يقضى

به أى حق من حقوق الكرم والجود والسخاء يسارع بالوفاء بالعهد، والقضاء للوعد، اهتداء بهدى الله تعالى الذى أدبه فأحسن تأديبه، وقال له : (وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً)[1] .

* * *

ولقد جاءته – كما يروى الترمذى – أموال قيمتها تسعون ألف درهم، فوضعوها أمامه على حصير، فقام إليها يقسمها، فما رد سائلا حتى فرغ منها.

وجاءه رجل فسأله معونة، فقال النبى ﷺ : « ما عندى شىء ولكن ابتع على [أى اشتر واجعل الثمن حوالة على] ، فإذا جاءنا شىء قضيناه » . فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه .

فكره النبى ﷺ ذلك .

فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله، أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا .

فتبسم النبى حين سمع ذلك، وظهر البشر فى وجهه، وقال : « بهذا أمرت » .

وبسبب هذا المثل الأعلى فى الإيثار، وبتأثير هذه القدوة السامية التى تقدم حق الغير على حق النفس، تعلم الأنصار دروساً فى الإيثار استحقوا بها كريم الذكر ورفعة الأقدار .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال للأنصار بشأن غنائم بنى النضير : « إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم، وقسمت

(١) سورة الإسراء، آية ٢٨ .

لكم من الغنيمة كما قسمت لهم ، وإن شئتم كانت لهم الغنيمة ، وكانت لكم دياركم وأموالكم » . فقالوا : بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ، ولا نشاركهم فى الغنيمة .

فأنزل الله تعالى فيهم قوله : (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[1]

ولقد كان رسول الله ﷺ يبشر بين أتباعه بدعوة البذل والإعطاء ، ليقتربوا مرحلة بعد مرحلة من قمة الإيثار العالية ، فهو يقول مثلا : « اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً » .

وهذا دعاء نبوى كريم ، يرجو فيه النبى ﷺ ربه تبارك وتعالى أن يكون عوناً للذى يسعى ويكسب وينفق ويعاون ، وأن يكون حرباً على من يشح ويبخل ويتقاعس عن أداء الواجبات . فلا يستحق إلا التلف والخسارة .

ويقول : « السخى قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار . والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، ولجاهل سخى أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل » .

وقال : « يقول العبد : مالى مالى ، وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأفنى [أى أرضى] وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » .

---

(١) سورة الحشر ، آية ٩

وهكذا مضى الرسول ﷺ بين قومه يجلى لهم الأسوة الحسنة فى خلق الإيثار ، فهو يسهر حيث ينام الناس ، ويجوع حين يشبع الناس ، ويتعب ليستريح الناس ، ولقد تعمر بيوتهم بمواقدها وأطعمتها ، وبيته يظل الشهر لا توقد فيه النار ، حتى صدق فيه قول القرآن الكريم : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)[1].

* * *

بين الرسول وزوجاته

من السهل على الإنسان أن يدعو إلى المبدأ العظيم بلسانه ، أو يعبر عنه ببيانه ، ثم لا يتقيد به فى أعماله وحياته ! وأما الأمر الذى يستحق التقدير والتمجيد ، فهو أن يتقيد الداعية بما يدعو إليه فى تصرفاته وحركاته .

وقد قرر القرآن الكريم أن الاقتصار على القول دون العمل أمر يستوجب الذم والقدح ، فقال الله تعالى لعباده : (يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ ٭ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)[2] .

ولقد دعا رسول الله ﷺ إلى التوسط فى الحياة ، والاعتدال فى العيش ، وحارب الإسراف والترف ، وحمل حملة شديدة على التبذير وسفه التنعم .

ولم يقتصر الرسول ﷺ على القول يردده ، أو المبدأ يبينه ، بل كان يؤيد دعوته بالتزام تعاليمها فى شئون حياته ، وكان يطبق على بيته أولا ما يطالب به أو ببعضه بيوت غيره من المسلمين .

* * *

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٢١ .

(٢) سورة الصف : آيتا ٢ ، ٣ . والمقت : البغض .

هذا رسول الله ﷺ يتزوج أكثر من زوجة ، بتوجيه من ربه ، ولدواع من ظروف رسالته ، ومقتضيات لنشر دعوته .

وننظر إلى بيت الرسول ﷺ فإذا هو كبيت أفقر رجل فى المسلمين ، فلا حرير ولا رياش ، ولا عيون جارية ، ولا سرر مرفوعة ، ولا أكواب موضوعة ، ولا مظاهر للغنى أو الترف أو رفاهية العيش ! ولقد تمر على البيت النبوى أيام دون أن توقد فيه نار ، أو يطهى طعام !

وروى البخارى ومسلم أن السيدة عائشة قالت : « ما شبع آل محمد يومين من خبز البر [القمح] ، ولقد كنا نمكث الشهر والشهرين لا يوقد فى بيتنا نار ، ما كان طعامنا إلا التمر والماء ، ولقد توفى رسول الله ﷺ وما فى بيتنا شيء يأكله ذو كبد ، إلا كسرة خبز من شعير على رف لى » .

وقالت أيضاً : « ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز ، حتى مضى لسبيله ، ولو شاء لأعطاه الله عز وجل ما لا يخطر على بال » . ولعله قد ألزم نفسه هذه الحالة المثالية من الزهد والتقشف لأنه القدوة العليا ، فيجب أن ينأى بنفسه عن كل مظنة وريبة .

ولم يكن تخفف الرسول ﷺ من متاع الحياة عن عجز أو ضعف فقد كان قادراً على أن يتمتع ، وكان قادراً أيضاً على أن يجمع ، ولكنه لا يريد لنفسه أن يكون جباراً فى الأرض ، بل يحرص على أن يكون لله عبداً ، يجوع يوماً فيسعى ، ويسأل ربه أن يكفيه ، ويشبع يوماً بعد سعيه ، فيشكر ربه ويحمده على توفيقه وفضله .

ولو تجمع المال الكثير فى يد محمد لما كنزه ولا شح به ، بل لأتى على آخره بذلا فى سبيل الله وحاجات الناس ، وهو القائل : « ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً ، تمضى على ثالثة عندى منه دينار ، إلا شيئاً أرصده لدين ،

إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا » . وأشار عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، إشارة إلى التوزيع فى الجهات المختلفة .

ثم قال : «إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا». وأشار عن يمينه وعن شماله وعن خلفه ، كناية عن التوزيع فى جهات كثيرة ، ثم قال : (وقليل ما هم) ! . . .

* * *

وكأنما تطلعت عيون نسائه إلى لين الحياة ونعيم العيش ، وكأنهن قد أفضين إليه بهذه الرغبة ، فأمره الله تبارك وتعالى أن يخير نساءه بين مفاقتهن له مع الذهاب إلى حيث توجد زينة الدنيا ولهوها ومتاعها ، وبين صبرهن على ضيق الحال وقلة المال وخشونة الحياة ، ولهن عند الله فى مقابل ذلك — الثواب الجزيل والأجر العظيم ، فاخترن الثانية على الأولى بتوفيق من الله عز وجل .

وفى ذلك جاء قوله تعالى : (يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن ، وأسرحكن سراحاً جميلا * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً)[1] .

روى البخارى أن رسول الله ﷺ بدأ بعائشة فقال لها : « إنى ذاكر لك أمراً ، فلا عليك ألا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك » ، ثم قرأ عليها الآيتين السابقتين .

فقالت عائشة : « فنى أى هذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة » .

---

(١) سورة الأحزاب : آيتا ٢٨ و ٢٩ .

ففرح النبي ﷺ بذلك وسر ، وعرض التخيير على بقية نسائه فاخترن ما اختارته عائشة رضوان الله عليها وعليهن .

وواصل القرآن الكريم تصوير التبعة الملقاة على عاتق أمهات المؤمنين ، باعتبارهن القدوة العليا لنساء الأمة كلها فأخبرهن أن من تنحرف منهن عن سواء السبيل بنشوز أو سوء خلق أو طغيان ، فإن عقابها يكون مضاعفاً ، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، كما أخبر أن التي تطيع الله تعالى ، وتلتزم التبعة ، وتصون مكانتها ، فإن الله يضاعف لها المثوبة ، ويرفع درجتها إلى أعلى عليين ، فقال : (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيراً * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين ، وأعتدنا لها رزقاً كريماً)[1] .

* * *

ثم استمر القرآن في تحصين نساء النبي بفضائل الأعمال ومكارم الأخلاق ومحامد الشيم ، فقال لهن : إنهن لا يشبهن أحداً من الناس إذا اتقين الله تعالى : ومن واجبهن ألا ينخدعن بقول لقائل ، أو كيد لخائن ، وألا يدعن منفذاً يطمع عن طريقه من قلبه إثم أو نية سوء .

وعليهن أن يخاطبن الناس بقول رزين حسن ، لا ميل فيه ولا عوج ، حتى يصرن قدوة للجميع في القول والعمل فقال : (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفاً)[2] .

---

(١) سورة الأحزب : آيتا ٣٠ و ٣١ .

(٢) سورة الأحزاب : آية ٣٢ .

ثم قال لهن : ليكن من شيمتكن الاستقرار والوقار فى بيوتكن ، وفى ذلك صيانة من جهة ، وتباعد عن مواطن التعرض للأذى أو الانحراف من جهة أخرى .

وعليكن أن تحذرن تبرج الجاهلية القديمة الساحقة التى يصحبها الإسراف والتبذير ، لأن المرأة حين تعكف على تبرج الجاهلية الأولى تبعثر المال ذات اليمين وذات الشمال على الثياب ومطالب التجمل وألوان التزين وأدوات التبرج .

وبعد أن حذرهن من معاطب الشرور ، أمرهن بالتزام وجوه الخير وأسباب الفلاح ، بأن يحافظن على الصلاة ، وهى خير مقوم للنفس ، وناه عن الفحشاء والمنكر ، ويحافظن على أداء الزكاة ، وهى حق الفقير المعلوم فى مال الغنى ، ويطعن الله ورسوله اللذين يأمران بالحق والعدل والتعاون والإصلاح .

• • •

العمل شعار النبى وقومه

العمل سمة ظاهرة بارزة من سمات الحياة الاشتراكية الصحيحة ، لأن الاشتراكية كفاية وإنتاج وعدالة ، والعمل ليس يدوياً فقط ، بل هو يشمل كل مجهود عضلى أو ذهنى .

وإن كانت الأعمال اليدوية أظهر من غيرها ، وأوسع نطاقاً ، وأكثر كمية ، فإنها ترتبط بالأعمال الذهنية بطريق مباشر أو غير مباشر ، ويتعاون المجهود اليدوى مع المجهود العقلى على تعمير الحياة وإسعاد الأحياء .

ولو رجعنا إلى سيرة الرسول ﷺ لوجدناه يعتبر العمل صفة أساسية للمسلم ، تراوحه وتغاديه ولذلك كان صحابته رضوان الله عليهم يخاطبونه ويحاورونه على هذا الأساس .

فهذا رجل يقول له : يا رسول الله ، أى الأعمال خير ؟

فيقول النبى ﷺ : « إيمان بالله ، وجهاد فى سبيله » .

فيقول الرجل : وأى الرقاب أفضل ؟ [أى فى العتق]

فيقول النبى : « أغلاها ثمناً ، وأنفسها عند أهلها . . »

فقال الرجل : أفرأيت إن لم أستطع العمل ؟

فقال النبى : « فتعين صانعاً ، أو تصنع لأخرق » [وهو الذى لا يحسن صنعة] .

فقال الرجل : أفرأيت إن ضعفت ؟

فقال النبى ﷺ : «تدع الناس من الشر ، فإنها صدقة تصدقها على نفسك !»

ولما كان العمل هو الصفة الأساسية المميزة للمسلم ، وجدنا الرسول ﷺ يرفع مكانة العمل ويزكيها حين يدعو أصحاب العمل من مخدومين أو رؤساء أو مديرين أن يشاركوا العمال أعمالهم إذا كلفوهم منها بما يصعب عليهم أداؤه ، أو يشق عليهم القيام به .

وقال النبى ﷺ لهؤلاء المسيطرين على العمل والعمال إن هؤلاء العمال إخوان لهم ، فمن ناحية القيمة الذاتية لا يفرق رسول الإسلام ﷺ بين عامل وصاحب عمل . ولا بين خادم ومخدوم ، ومن ناحية الاشتراك فى العمل من جهة العمال ومن جهة أصحاب الأعمال أشعر الرسول الجميع أن العمل شرف لا يتأبى على التحلى به كبير أو عظيم .

ولم يكتف الرسول ﷺ بالكلام يردده فى هذا المجال ، أو المبدأ يقرره ويدعو غيره إليه ، بل كان أول المطبقين لمبدئه .

ولقد كان ﷺ فى سفر مع مجموعة من أصحابه ، ولما جاء وقت الطعام أحضروا شاة ليجعلوها لهم طعاماً .

وقال أحد الصحابة : على ذبح الشاة .

وقال الثانى : وعلى سلخها .

وقال الثالث : وعلى طبخها .

فسارع النبي ﷺ قائلا : وعلىّ جمع الحطب .

فقال الصحابة : يا رسول الله ، نحن نكفيك العمل .

فأجابهم قائلا : علمت أنكم تكفوننى ، ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً على أصحابه !

وكان الرسول ﷺ يحرص على أن يكون عمله نظيفاً شريفاً مرضياً لله عز وجل .

ولذلك كان يدعو ربه كثيراً فيقول : اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء » . وإذا كان الرسول يقرر فى دعائه أنه يكره منكرات الأعمال ومآثمها ، حتى إنه يفزع إلى ربه ليستعيذ به منها ، فإنه فى الوقت نفسه ، يضرب القدوة لأتباع محمد ﷺ ، حتى يشتبهوا به فى اجتناب منكرات الأعمال ، والتزام مكارم الأفعال .

وكان الرسول ﷺ لا يرى للمتبطل المحتاج القادر على العمل حقاً فى السؤال ، بل عليه أن يعمل ويكسب ما دام قادراً .

فحينما جاءه شخص يسأله شيئاً من المال وهو قوى معافى ، قال له الرسول : أما فى بيتك شىء ؟

فقال الرجل : بلى . وذكر له بعض الأشياء الخفيفة ، فأمره بإحضارها ، وباعها الرسول ﷺ فيما يشبه «المزاد» ، وأعطى ثمنها لصاحبها ، وأمره أن يشترى ببعض الثمن طعاماً لأهله ، وببقية الثمن فأساً .

ثم قال له : اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوماً ففعل الرجل ، ثم جاء وقد كسب دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً ، وببعضها الآخر طعاماً ، فقال له النبى ﷺ : « هذا خير من أن تجىء المسألة[1] نكتة [أى نقطة سوداء] فى وجهك يوم القيامة » .

ولم يكن الرسول ﷺ يطالب بالعمل فريقاً من قومه دون فريق ، بل كان يطالب الجميع بهذا العمل ، وكان أقرباؤه وأهله فى طليعة الذين يطالبهم بهذا العمل ، ويأمرهم بألا يتكلموا على حسب أو نسب أو قرابة .

ولما جاءته ابنته فاطمة تسأله معونة تكفيها مئونة العمل أبى عليها ذلك ، ونصحها بأن تواصل عملها ، وكان يهتف بها وبأهله قائلا : « يا فاطمة بنت محمد ، اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا آل محمد ، اعملوا فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً » .

وإذا كان هذا هو هدى الرسول ﷺ فى التحريض على العمل والتكريم للعاملين ، فإن مظاهر التوفيق فى القول أن نسمع رئيس جمهورية يقول : « كلنا عمال ، من رئيس الجمهورية إلى الكناس فى الشارع » وأن نجد من يقول : « إن العمل الإنسانى الخلاق هو الوسيلة الوحيدة أمام المجتمع لكى

(١) المراد بالمسألة هنا السؤال . أى الشحاذة من الناس .

يحقق أهدافه ، العمل شرف ، والعمل حق ، والعمل واجب ، والعمل حياة ، إن العمل الإنسانى هو المفتاح الوحيد للتقدم ، إن طبيعة العصر لم تعد تقبل وسيلة للأمل غير العمل الإنسانى » .

وإنا لنأمل أن يكون لنا من هدى رسولنا فى تكريم العمل والعاملين خير نبراس وقائد يهدينا سواء السبيل .

* * *

الإسلام يحارب الجشع

الإنسانية الفاضلة مجموعة من الأخلاق الجميلة والخصال النبيلة ، التى تؤهل الإنسان العاقل الرشيد المؤمن لخلافة الله تعالى فى الأرض ، والعبودية لجلاله سبحانه ، مع سيادة هذا العالم بالحق والصدق ، والخير والبر . . .

وأول مميزات هذه الإنسانية أن يؤمن المرء بأنه عضو فى جسم كبير هو المجتمع الذى يحيا فيه ، يعطيه ويأخذ منه ، ويعينه ويستعين به ، ويعمل له ويستفيد منه ، ويستجيب إليه ويتفاعل معه ، حتى يكون الفرد فى خدمة المجموع ، ويكون المجموع فى خدمة الفرد ، وبهذا التضامن يسعد المجموع البشرى ، ويكسب رضوان الله العلى الكبير . . .

ومن هنا قال سيد الأنبياء محمد ﷺ : « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

وقال : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ؟ . .

وقال : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ! . .

* * *

ومن خصائص هذه الإنسانية الرشيدة المجيدة أنها تعصم نفسها أول ما تعصم من رذيلة الجشع ، وهو الحرص الشديد الذى يؤدى إلى الفزع والجزع[1] ، لأن هذا الجشع ينحط بمستوى الإنسان إلى درك الحيوان الذى يجعل همه فى القضم والهضم : (والذين كفروا يتمتعون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم)[2] .

ولأنه يجعل الحياة مسبعة[3] كل جشع فيها يريد أن يستحوذ على كل شىء ، وأن يحرم أخاه كل شىء ، ولأنه يجعل صاحبه — طيلة حياته — نهباً للقلق وعدم الاستقرار ، فهو دائماً يطلب ، وهو دائماً يرغب ، وهو دائماً يجمع ، وهو دائماً لا يشبع ، مع أن الغنى ليس بكثرة المال والمتاع ، ولكن الغنى الحقيقى هو غنى النفس ورضاها بما قسم لها الله تبارك وتعالى .

ومن هنا جاء فى الحديث النبوى : « القناعة كنز لا ينفد » . وجاء فيه أيضاً : « عز من قنع وذل من طمع »[4] ! .

وأوقح ألوان الجشع هو ما يظهر إبان فترات الضيق والشدة التى تتعرض لها كل أمة فى الوجود . إذ ليست الحياة دائمة نعيمة والراحة ، بل هى مزيج من السراء والضراء . والسعة والضيق .

فإذا ما تعرضت الأمة لابتلاء أو اختبار . كان من الواجب على أبنائها أن يكشفوا عن نبل عناصرهم ، وسمو هممهم ، وبعد عزائمهم ، وقوة صبرهم

---

(١) الجشع : هو الحرص الشديد ، انظر معجم مقاييس اللغة ج ١ ص ٤٥٨ . وهو الفزع والجزع ، انظر النهاية لابن الأثير ج ١ ص ١٦٤ .

(٢) سورة محمد ، آية ١٢ . والأنعام : البهائم .

(٣) المسبعة : الغابة التى تعيش فيها السباع .

(٤) انظر النهاية فى غريب الحديث ، ج ٣ ص . ٢٨ .

وشدة تماسكهم ، وصدق تعاونهم ، فيتركوا الكماليات ، ويكتفوا بالضروريات ويقفوا فى وجه الشدة صفاً واحداً ، ليستطيعوا دفعها ، ويخففوا وقعها .

وبذلك يتحقق لهم وصف المؤمنين : (الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون)[1] . . .

* * *

وما أكثر ألوان الجشع التى يوسوس بها الشيطان للإنسان فى أثناء البأساء أو الابتلاء ، ويتخذها منافذ خبيثة لمهاجمة إنسانيته وتحطيم دوافع الخير فى قلبه . . . فكنز المال دون أداء حقوقه ، ودون الانتفاع به ، نوع من الشح والجشع .

وربك عز وجل يتوعد الذين يجمعون الأموال ، ويرصون بعضها فوق بعض ، فيخبرهم بأنها ستكون وبالا عليهم ، ونكالا لهم ، وأنها ستكون حطب جهنم ، ووقود النار التى ستحمى عليهم فى الدار الآخرة ، فيقول :

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون)[2] .

والكنز فى الأصل هو المال المدفون تحت الأرض ، ثم أطلق على المال المخزون مما لم يؤد صاحبه زكاته والحقوق المستحقة فيه ، فإذا أدى الإنسان حقوق الله وحقوق العباد فى هذا المال لم يكن كنزاً ولو عظم أو كبر .

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٧٧ . والبأساء : الفقر ونحوه ، والضراء : السقم ونحوه . وحين البأس : وقت مجاهدة العدو .

(٢) سورة التوبة ، آيتا ٣٤ ، ٣٥ .

وفى الحديث : « كل مال أديت زكاته فليس بكنز » . وفى حديث آخر : « كل مال لا تؤدى زكاته فهو كنز » ! . .

واختزانك الزائد فى حاجتك من الطعام أو الثياب أو الوقود — وغيرك فى أشد الحاجة إلى مثله أو بعضه — نوع من الجشع ، ويزداد هذا النوع من الجشع سوءاً وخبثاً إذا احتكرت ما تختزنه ، لكى تتحكم فى سعره وبيعه ، مع أن الرسول ﷺ يقول : « لا يحتكر إلا خاطئ » أى خاطئ عن الحق بعيد عن الصواب .

ويقول : « يا ابن آدم ، إنك إن تبذل الفضل [أى الزائد عن حاجتك] خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف [أى اختصاصك بما يكفيك] ، وابدأ بمن تعول ، واليد العليا خير من اليد السفلى » .

ومحاولتك أن تختلس ما ليس لك ، وأن تأخذ أكثر من حقك المخصص لك ، وتهضم بذلك حق غيرك ، أو تتوسع فى التنعيم والتمتع — خلال الشدة التى يعانيها من حولك — نوع من الجشع .

والرسول ﷺ يقول لك : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب الناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك ، فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

ومزاحمتك سواك الضعيف حتى تسبقه ، وتعتدى على دوره ، فتنال قبله ما هو محتاج إلى نيله — مثلك أو أشد منك — نوع من الجشع .

والإسلام يقضى بأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، ودينك قد قام على العدل والإنصاف ، وربك هو القائل : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)[1] .

فكتاب الله تبارك وتعالى يأمر بالعدل والإحسان لأن الله أعدل الحاكمين ، والميزان هو ميزان الإنصاف ، والقانون الذى يضبط الأعمال وينظم الأحوال ، والقسط هو العدل والمساواة : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً)[2] .

ويوصيك الرسول ﷺ بمحاربة الطمع فيقول : « وإياك والطمع ، فإنه فقر حاضر » ! ! .

* * *

فاذكر أنه ما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط ، ولا تنس توجيه ربك : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين)[3] .
(فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا ، وأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[4] .

* * *

---

(١) سورة الحديد آية ٢٥ .

(٢) سورة النساء . آية ٥٨ .

(٣) سورة القصص ، آية ٧٧ .

(٤) سورة التغابن ، آية ١٦ .

واذكر أن الحرص ليس من خلق المسلم فى شيء ، فالحرص يؤدى إلى المعصية والإثم ، وحاتم الأصم الصوفى يقول : « أصل الطاعة ثلاثة أشياء : الخوف والرجاء والحب ، وأصل المعصية ثلاثة أشياء : الكبر والحرص والحسد » .

ويقول : « المنافق ما أخذ من الدنيا يأخذ بالحرص ، ويمنع بالشك ، وينفق بالرياء ، والمؤمن يأخذ بالخوف ، ويمسك بالسنة ، وينفق لله خالصاً فى الطاعة » .

ويقول : « اطلب نفسك فى أربعة أشياء : العمل الصالح بغير رياء ، والأخذ بغير طمع ، والعطاء بغير منة ، والإمساك بغير بخل » ! . . .

جنبنى الله وإياك مذمة الحرص والجشع ، وجملنا بمحمدة التعاون والإنصاف إنه أكرم مسئول ، وأفضل مأمول ! . . .

* * *

التأمين الاجتماعى فى الإسلام

المراد العام للتأمين الاجتماعى هو أن تراعى الظروف الخاصة التى تعرض لطوائف من الناس ، فتحول بينهم وبين التمتع بالمستوى اللائق بهم فى المجتمع المتكافل المتضامن ، وأن تعالج هذه الظروف بما يناسبها ، وبما يؤمن صاحبها من التأثر بها تأثراً يتعبه فى حياته ، أو يقلقه فى مجتمعه .

ولقد اتخذ المجتمع المعاصر عدة قوانين للتأمين الاجتماعى ضد الفقر والعجز والمرض والشيخوخة ، واعتبر هذه القوانين مفخرة من مفاخره الاجتماعية والاقتصادية .

ولو رجعنا إلى الإسلام العظيم لوجدناه قد سبق إلى مبادئ التأمين الاجتماعى فدعا إليها وحث عليها ، بل لقد وضع أساساً لألوان من التأمين الاجتماعى لم تألفها المجتمعات المعاصرة حتى الآن .

وينهض التأمين الاجتماعى فى الإسلام على قاعدة أن الأمة كلها كتلة واحدة ، وأنها بجميع أفرادها ورعاتها ورعاياها متكافلة متضامنة ، فالمؤمنون إخوة ، وهم أمة واحدة ، وواجبهم أن يعتصموا جميعاً بحبل الله القوى المتين ومثلهم ، كمثل البنيان يشد بعضه بعضاً ، أو كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، والحديث النبوى يقول : « الضعيف أمير الركب » ، ومفهوم هذا الحديث أنه يجب أن يحسب حساب الضعيف مهما كان ضعفه ، فلا نترك الأقوياء يعصفون به أو يسحقونه .

وكذلك من أصول الإسلام أن الدولة مسئولة عن أبنائها ، وراعية لجميع أفرادها ، فمن عجز منهم أو احتاج ، بلا تقصير منه أو ذنب صدر عنه ، كان على الدولة أن ترعاه ، وتتكفل به ، وتؤمن له حياته ، وهذا عمر بن الخطاب يقول مصوراً مسئوليته الشاملة عن كل تقصير : « لو عثرت دابة بشط الفرات لخشيت أن أسأل عنها يوم القيامة : لماذا لم أمهد لها الطريق » !

ويروى التاريخ أن خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بكى يوماً وهو خليفة ، فسألته زوجته عن سبب بكائه فقال : « إنى نظرت إلى نفسى فوجدتنى قد وليت أمر هذه الأمة : صغيرها وكبيرها ، وأسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الغريب الضائع ، والفقير المحتاج ، والأسير المفقود ، وأشباههم فى أقاصى البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أن الله تعالى سائلى عنهم ، وأن محمداً ﷺ حجيجى فيهم ، فخفت ألا يثبت لى عند الله عذر ، ولا يقوم لى مع رسول الله ﷺ حجة ، فخفت على نفسى » !

* * *

والإسلام قد عرف التأمين الاجتماعي للطفولة، فهذا رسول الله ﷺ يقول ما معناه : « أنا أولى بكل مسلم ومسلمة ، فمن ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ديناً أو أولاداً فقراء فليأتني » .

وكان الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفرض لكل مولود مائة درهم من بيت المال إذا فطمته أمه وانتهى رضاعه . وحدث أن عرف أن امرأة ترغم ابنها على الفطام قبل الأوان حتى يستحق هذا القدر من بيت المال فحزن عمر لذلك ، ونادى في الناس : « لا تعجلوا صبيانكم على الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام » .

ومما يتصل بهذا الموضوع : التأمين الاجتماعي ضد اليتم ، فالقرآن الكريم يقول محذراً من تضييع رعاية اليتامى : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً)[1] . والرسول ﷺ يقول : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » وأشار بأصبعه السبابة والوسطى .

* * *

وعرف الإسلام التأمين الاجتماعي ضد الفقر ، فشرع الزكاة ، وحض على البر ، وجعل ولي الأمر مسئولا عن تدبير القوت لمن افتقر ، أو العمل لمن تبطل .

والإمام علي يعبر عن وجوب العناية بالتأمين الاجتماعي للفقراء فيقول : « ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا الحرير ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ، ويقودني جشعي إلى

---

(١) سورة النساء ، آية ٩ .

تخير الأطعمة ، ولعل بالحجاز واليمامة من لا طمع له فى مثلها ، ولا عهد له بالشبع ، أو أبيت مبطاناً وحولى بطون غرثى [جائعة] وأكباد حرى » ؟

وعرف الإسلام التأمين الاجتماعى ضد العجز والشيخوخة ، وقد كتب سيف الله خالد بن الوليد منشوراً يقول فيه : « أيما شيخ عجز عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته إن كان ذمياً ، وطرحت زكاته إن كان مسلماً ، وأعيل من بيت المال هو وعياله » .

وعرف الإسلام التأمين الاجتماعى ضد كف البصر ، وفى تاريخ خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز شواهد كثيرة على عنايته بكفالة المكفوفين ، ورعاية شئونهم الاقتصادية ، وحسبنا من بينها أنه أمر بتعيين قائد لكل مكفوف .

* * *

وعرف الإسلام التأمين الاجتماعى لأسرة الجندى المجاهد فى الميدان ، فقال الرسول ﷺ : « أيكم خلف المجاهد فى أهله فله مثل أجره » .

وقال أيضاً : من جهز غازياً فى سبيل الله فله مثل أجره ، ومن خلف غازياً فى أهله بخير وأنفق على أهله فله مثل أجره » .

والدولة الإسلامية منذ عهد الخلفاء تعتبر نفسها مسئولة عن رعاية أسر الجنود ، حتى يعودوا من الجهاد ، ولذلك يقول عمر : « إذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم » .

وعرف الإسلام التأمين الاجتماعى للأرامل ، فقال الرسول ﷺ : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، وكالقائم الذى لا يفتر ، والصائم الذى لا يفطر » .

كما عرف الإسلام التأمين الاجتماعى لطلبة العلم الفقراء ، فقد كتب خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز إلى ولاته يقول لهم : « أجروا على طلبة العلم الرزق ، وفرغوهم للطلب » .

والإسلام لا يجعل التأمين الاجتماعى مقصوراً على المسلمين ، بل يشمل به كل فرد من الرعية ، ولو كان من أهل الكتاب ، وقد روى عن عمر ابن الخطاب أنه رأى رجلا مكفوف البصر يسأل الناس ، فقال له : ما ألجأك إلى هذا ؟

فقال الرجل : الجزية والحاجة والسن .

وعرف عمر أن الرجل من أهل الكتاب ، فعاونه بما يكفيه ، ثم قال لخازن المال : « انظر هذا وضرباءه فافرض لهم ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم نأكله لحماً ونرميه عظماً ؟ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب » . وطرح الجزية عنه وعن أمثاله .

وهكذا امتد التأمين الاجتماعى فى الإسلام فشمل الجميع .

* * *

محاربة التواكل

هناك فرق دقيق وعميق بين كلمتى « التوكل » و « التواكل » ، فالتوكل إيمان بالله عز وجل ، وثقة بوعده ونصره ، وإقبال عليه واستمداد منه واستعانة به ، وهذه صفة أصيلة من صفات المؤمن الموقن ، وأما التواكل فهو ترك السعى والعمل ، وتضييع الفرصة وإهمال الواجب ، ولذلك جاء فى

كتاب « مفردات القرآن » أنه يقال : واكل فلان إذا ضيع أمره متكلا على غيره ، وتواكل القوم إذا اتكل كل منهم على الآخر .

ولقد روى الإمام ابن الأثير ما يفيد أن الرسول ﷺ نهى عن التواكل حتى لا يتكل الشخص على غيره ، فلا يكون هناك سعى أو عمل ، وذكر أن العرب تطلق على البليد الجبان العاجز كلمة « الوكل » أى الذى يكل أمره إلى سواه .

ويوم يشيع التواكل بين الناس تكون الأمة قد أصيبت بآفة دونها الآفات ، إذ تضيع التبعات ، وتنبهم المسئوليات ، فهذا يلقى التبعة على ذاك ، وذاك يطرحها على ذلك . وكل منهم يريد أن يأخذ بدون عطاء ، أو يتمتع بدون تعب ، وكل منهم ينتظر أن تبلغه آماله ورغباته بلا سعى أو عمل ، ولذلك حارب الإسلام التواكل حرباً لا هوادة فيها ، وجاء القرآن الكريم حاثاً على العمل والسعى ، وتحمل التبعات وتقدير المسئوليات ، فقال : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى) . وقال : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور) . وقال : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) . وقال : (يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم) . وقال : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) .

ولقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يريد أن يترك ناقته بلا رباط ، وقال للرسول : يا رسول الله ، أعقلها وأتوكل ، أم أطلقها وأتوكل ؟ فقال له : أعقلها وتوكل . وهذا رمز من رسول الله ﷺ إلى أن الإنسان يلزمه أن يتخذ كل ما يمكنه من وسائل عملية وأسباب مادية للنجاح فيما يحاول ، ولبلوغ

ما يريد ، ثم يقرن هذا بالإيمان الصادق واليقين الجازم والثقة بتأييد الله جل جلاله .

وفى الحديث النبوى : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً » . وقد استدل العلماء بهذا الحديث على أن التوكل غير التواكل ، لأن التواكل ترك للعمل وتعلق بالأحلام والأمانى ، وأما التوكل فيكون مع السعى والعمل والحركة الدائبة ، لأن الحديث قد ذكر الطير التى تطير صباحاً وهى خالية البطون ، وتسعى طالبة الرزق هنا وهناك ، ثم ترجع إلى أعشاشها فى آخر النهار ، وقد املأت منها البطون بسعيها وجدها واجتهادها . ولم يقل الحديث : إن الطيور تبقى فى أعشاشها ، ويأتيها الرزق دون سعى أو عمل .

ولعمر الفاروق رضى الله عنه كلمة بليغة فى التنديد بالتواكل ، والتحريض على العمل مع التوكل ، يقول فيها : « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : «اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

وقد روى عبد الله ابن الإمام العظيم أحمد بن حنبل قال : قلت لأبى : هؤلاء المتوكلون يقولون : نقعد وأرزاقنا على الله . فقال الإمام : هذا قول ردىء خبيث ، يقول الله عز وجل : (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) .

وقال أيضاً : سألت أبى عن قوم يقولون : نتكل على الله ، ولا نكتسب . فقال : ينبغى للناس كلهم أن يتوكلوا على الله ، ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب ، هذا قول إنسان أحمق !

وروى عن ولده صالح أنه سأله عن التوكل ، فقال : التوكل حسن ، ولكن ينبغى للرجل ألا يكون عيالا على الناس ، ينبغى أن يعمل حتى يغنى أهله وعياله ، ولا يترك العمل .

وقال صالح أيضاً : سئل أبى وأنا أشاهد عن قوم لا يعملون ويقولون نحن متوكلون . فقال : هؤلاء مبتدعة ، هؤلاء قوم سوء ، يريدون تعطيل الدنيا !

ولقد كان السلف الصالح قوماً مؤمنين حق الإيمان ، متوكلين على ربهم حق التوكل ، ومع ذلك لم يتواكلوا ولم يتغافلوا ، ولم يتثاقلوا عن واجباتهم فى الحياة ، بل عملوا وناضلوا ، واشتغلوا وكسبوا . ولقد كان أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة تجاراً ، حتى إن أبا بكر لما تولى الخلافة أصبح غادياً إلى السوق ، يحمل أثواباً يتاجر فيها ، فلقيه عمر وأبو عبيدة ، فقالا له : أين تريد ؟ قال : السوق . قالا : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالى ؟ ثم فرض المسلمون له ما يكفيه وأولاده حتى يفرغ وقته وجهده لأعمال المسلمين .

ومن الأقوال المأثورة عن العرب قولهم : « توكل على الله ولا تتكل على غيره » أى آمن بالله تعالى ، وثق بنصره ما دمت متبعاً لهديه ، منفذاً لحكمة ، آخذاً بالأسباب التى شرعها لك وهيأها أمامك ، ثم انطلق فى طريقك ، ولا تجعل نفسك عالة على سواك ، فالله ولى العاملين .

إن الإسلام حين وضع شرعة الحساب ، ورتب عليها الثواب والعقاب ، أراد أن يدفع بالناس إلى مجالات السعى والعمل ، وأن يبعدهم عن مزالق التواكل والفشل ، ولذلك ذكرهم برقابته وإحصائه ، ودقة محاسبته وجزائه : (إن ربك هو أعلم بمن ضل سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى * ولله ما فى السموات وما فى الأرض ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) !

الرائد الأول

لو رجعنا إلى سنة الرسول ﷺ لوجدنا فيها فيضاً كريماً من الأحاديث الشريفة التى نلمح فيها روح الاشتراكية الإسلامية العادلة ، ومنها هذه الأحاديث :

١ - « من كان عنده فضل ظهر [وسيلة ركوب] فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » .

قال راوى الحديث : « فذكر أصنافاً من المال ، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل » .

٢ - « يا معشر المهاجرين والأنصار ، إن من إخوانكم من ليس له مال ولا عشيرة ، فليضم أحدكم إليه الرجلين والثلاثة » .

قال راوى الحديث - وهو جابر بن عبد الله :

« فضممت إلى اثنين أو ثلاثة ، ومالى إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملى » .

والمراد بالعقبة هنا النوبة فى الركوب . أى صار يقاسم هؤلاء الركوب على جملة ، وهم ذاهبون إلى الغزو ، فلا يأخذ معهم أكثر من نوبته فى الركوب ، كأنهم قد صاروا شركاء مالكين متساوين فى الجمل .

٣ - جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال له : اكسنى يا رسول الله . فأعرض عنه النبى ﷺ - إذ لم يجد عنده شيئاً - فعاد الرجل يقول : اكسنى يا رسول الله .

---

(١) انظر كتاب « الاشتراكية والدين » للمؤلف .

فقال له الرسول ﷺ : أما لك جار له فضل ثوبين ؟

قال الرجل : بلى ، غير واحد .

فقال النبي ﷺ : « فلا يجمع الله بينك وبينه فى الجنة » .

٤ – « تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين : فأما إبل الشياطين فقد رأيتها ، يخرج أحدكم بنجيبات معه قد أسمنها ، فلا يعلو بعيراً منها [لاستغنائه عنها] ويمر بأخيه قد انقطع (أى لا يجد ما يركبه) فلا يحمله » . أى لا يمكنه من ركوب واحدة من هذه النياق الكثيرة الفارغة .

٥ – « إن المسلمين شركاء فى ثلاثة : فى الماء والنار والكلأ » . وفى رواية : « إن الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار » . وفى رواية : والملح .

٦ – « إن لله تعالى عند أقوام نعماً أقرها عندهم ما كانوا فى حوائج الناس ، ما لم يملوهم ، فإذا ملوهم نقلها إلى غيرهم » .

وفى رواية : « إن لله أقواماً اختصهم بالنعم لمنافع العباد ، يقرهم فيها ما بذلوها ، فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم » .

وجاء عن عبد الله بن عباس قوله : « ما من عبد أنعم عليه الله نعمة فأسبغها عليه ، ثم جعل حوائج الناس إليهم ، فتبرم ، إلا عرض تلك النعمة للزوال » .

٧ – « إذا كان أغنياؤكم بخلاءكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظاهرها » .

٨ – « ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم » .

٩ ـ « أيما أهل عرصة [أى حى أو محلة] أصبح فيهم جائع فقد برئت منهم ذمة الله » .

١٠ ـ « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن تركه يجوع ويعرى ، وهو قادر على إطعامه وكسوته ، فقد أسلمه » .

١١ ـ « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع ، بخامس » .

١٢ ـ « ابغونى فى ضعفائكم ، فإنما تنصرون بضعفائكم » .

١٣ ـ « إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا إلا بما يصنع يصنع أغنياؤهم ، ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً » .

١٤ ـ « المسلمون إخوة ، تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد عليهم أقصاهم ، ومشدهم على ضعيفهم ، ومتسريهم [الخارج فى السرية للجهاد] على قاعدهم » .

١٥ ـ « إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا فى غزو [أى نقص تموينهم] أو قل طعام عيالهم ، جمعوا ما لديهم من طعام فى ثوب واحد ، فاقتسموه فيما بينهم بالسوية ، فهم منى وأنا منهم » .

فهرس

الصفحة

الصفحة

